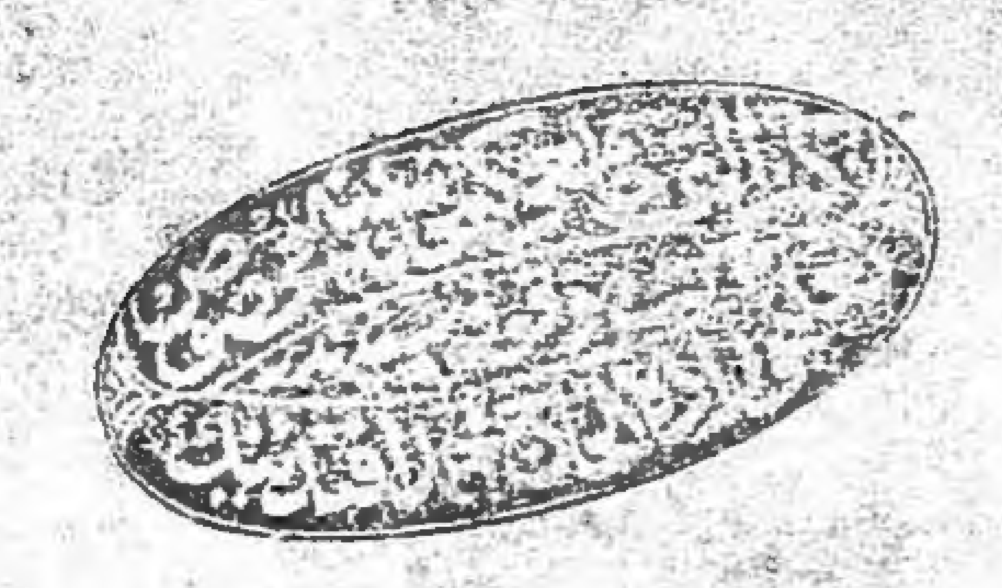


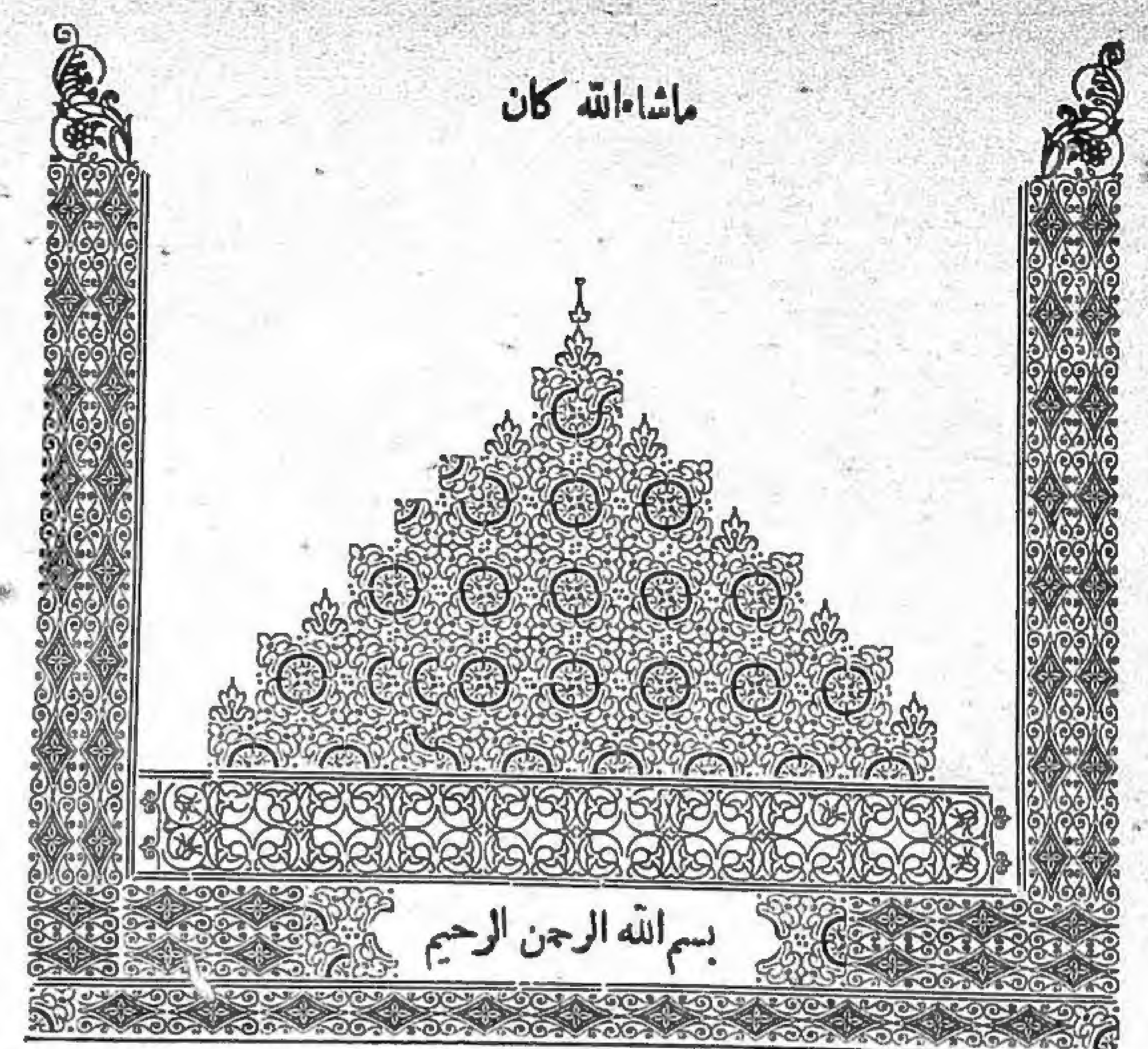
الجزء الثالث من كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

تأليف الفاضل المحقق والاستاذ المدقق قدوة العلماء وصفوة الازكياء وحيد عصره وفريد دهره الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي نفعنا الله به وبعلومه آمين



﴿طبعة أولى﴾

﴿بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٢ هجرية﴾



وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الثالث في ايطاليا

فصل في سفري اليها وما رأيته بها لما تكاثر بي المرض العصبي في صائفة سنة ١٢٩٢ ودامت معالجته على نحو ما مر ذكره في الباب الاول من المقصد وأشارت على الاطباء بالسفر الى أوربا عزمت على ذلك في شوال سنة ١٢٩٢ الموافق الى أواخر نوفمبر الافرنجي واستأذنت الحكومة فكتبت لي على عادة المسافرين بطاقة الجواز بالاذن في السفر من مرسى حلق الوادي وهي بطاقة عليها اشارة الحكومة وتكتب تارة بالفرانساوي وتارة بالعربي وذلك على حسب المكان المسافر اليه فان كان بلدة افرنجية كتبت بالفرانساوي وان كانت اسلامية كتبت بالعربي وهذه العادة بتذاكر الجواز معمول بها في أكثر الممالك وبعض الممالك يتركونها فلا يحتاج الداخل ولا الخارج لاذن وركبت من المرسى المذكورة في التاسع عشر من شوال سنة ١٢٩٢ وكان معي خادمان أحدهما يتكلم باللسان الطلياني والفرانساوي والالماني والعربي وصاحبني في هاته الجهة العالم النحرير المتبحر في علمي المعقول والمنقول الشيخ سالم أبو حاجب أحد أفاضل مدرسي

جامع

جامع الزيتونة حيث كان له مأمورية في ايطاليا مع وزير الاستشارة أمير الامراء حسين في خصومة تتعلق باحد اتباع الحكومة التونسية المسمى بنسيم شمامة الذي كان مكلفا بقبض أموال الحكومة وشراء المهمات اليها وخرج من القطر بدون تحرير الحساب معه كما مر في ترجمة الوزير مصطفى خزندار وذلك في حدود سنة ١٢٨٩ وبقي يتردد بين فرانسا وايطاليا الى ان مات في بلدة ليفرنو من ايطاليا وطلبت الحكومة من ورثته تحرير الحساب وكاد أن يقع صلح بينهما ثم نوزع الورثة كما مر ذكر ذلك في ترجمة الوزير المذكور ولذا التزم الحكومة أن عينت أحد وزرائها وهو أمير الامراء حسين ومعه العالم الشيخ سالم لطلب الحساب وتوقيف التركة فذهبا الى هنالك وباشرا النازلة وطالت المدة فرجع الشيخ المشار اليه الى تونس لبعض مصالح ثم عاد الى مأموريته وكان من المنة الالهية التصاحب معه فركبنا باخرة البريد الطلياني المسماة بفوريا ونزلنا في الطبقة الاولى وكان كراء الواحد فيها من تونس الى نابلي مائة وعشرين فرنكا وأما في الطبقة الثانية فثمانون فرنكا وأما في الثالثة فعشرون فرنكا لان الاولى والثانية كلاهما يعطى الاكل والفرش بخلاف الثالثة فانها للحمل فقط مع الاختلاف في المكان والفرش والاكل فكل بحسبه فأقلعنا من المرسى يوم الاربعاء بعد الزوال بخمس ساعات وكان في البحر شيء من الاضطراب فحصل لي شيء من الدوار واشتد الامر لما جاوزنا رأس غار الملح فاضطجعت في فراشي وأوفق الحالات للانسان هي الاضطجاع وهذا الدوار البحري من أشد الامراض لمن يصاب به وبعض من الناس لا يعتريه شيء منه وان لم يكن متعودا وقد كنت قبل الركوب استعملت باشارة الطبيب ثلاثة حقنات في الجلد من العلاج المسكن لكي لا يزيد على ألم البحر الالم العصبي ومن فضل الله لم يعترضني ذلك الالم مدة الطريق وبقيت الحال كذلك الى ان وصلنا الى جزيرة سردانيا اقرب مرسى كالاري فدخلت الباخرة في جون محاط بالجبال عن بعد فسكن البحر ونشطت وهو من غرائب مرض البحر اذ شدته تقضى ان الانسان يبقى معه التعب وهو بخلاف ذلك لانه اذا انقطع الاضطراب يحصل النشاط الا قليلا ولما نشطت صعدت الى سطح الباخرة فرأيت الجبال محيطة بنا وهي جبال أكثرها صلد لا غابات بها ومنظرها اليس بحسن وأغلبها خال عن العمران لان التمدن لم ينبسط في تلك الجزيرة ولم نزل سائرين في ذلك الجون نحو ثلاث ساعات وكانت الباخرة تسير عشرة أميال في الساعة الى ان أرسينا في مرسى كالاري التي هي تابعة لايطاليا وكان ذلك صبيحة يوم الخميس قبيل الزوال فاذا

بالمرسى مبنية بالرصيف لأمن السفن بحيث تستطيع أعظم سفينة أن تلتصق بالرصيف
الامن من اضطراب البحر والالاصقة بالبر ينزل سلمها على ذات البر وفى المرسى كثير من
السفن والبواخر لان موقعها متوسط فيأتيها البريد من جهات ويفرق على بواخر كل
تذهب الى جهة من الممالك المشرقية والمغربية ثم يحمل من الجزيرة فى السفن الملح
والغلال والاثمار الى كثير من الجهات ثم نزلنا من الباخرة فى زورق كراؤه فرنك واحد
والزوارق كثيرة محيط بالبواخر وأصحابها سيئو الاخلاق مع المسافرين يغرونهم بالركوب
قبل المساومة فى الاجر فاذا نزل طلبوا منه أضعاف القيمة وربما سرقوا ما وجدوه معه ان
أمكنهم وذلك ديدنهم فى كل المراسى لكننا ساومنا قبل الركوب ودخلنا البلد فاذا هى
بلد غير متمصرة وأغلب طرقها ضيق وأبنيتها على النحو الاوروباوى الآتى بيانه ولا
تزيد طبقات دورها على أربعة وهى بلدة متصاعدة فى الجبل وطرقها جميعا مبلطة
فالذى تمر فيه العجلات يكون مرصوفا وغيره محجر بحجارة غيره سواء ولذلك كان منظرها
والمشى بها متعبا وترى الحبال ممتدة بين شبابيك الديار من احدى الجهات الى ما
يقابلها لنشر الثياب المغسولة عليها وفرش الديار مثل الفرش الاوروباوية وبأعلى
البلد بستان عمومى متنزه للعامة وتأتيه الموسيقى العسكرية لبسط العامة عشية
الاحد والاعياد وفيه ماء نابع حلو وبه أشجار صغيرة مهيآت للبيع فى أوقاتها وفى البلد
منازل للمسافرين منها الحسن ومنها ما هو دونه وبها حوانيت وبطحا آت غير متسعة جدا
وبها قهاوى ويباع بحوانيتها جميع ما يوجد غالبا من الضروريات والحاجيات
والتحسينيات وفيها مستشفى ومدارس للتعليم فى مبادى الفنون وبها مطابع أيضا وفيها
صحف يومية نحو الاربعة وهواء البلد ردىء تكثر فيها الحميات فى الصيف لمجاورتها
السبخة وهاته السبخة يستخدم فيها أصحاب الجرائم الثقيلة المحكوم عليهم من محاكم
ايطاليا وفيها معمل كبير من البنساء لذلك مجلوب له الماء فى قناة من البناء مجتازة
قرب شاطئ البحر ظاهرة للناظر وبسبب تلك السبخة فسد هواء كالارى حتى يقال ان
عدد أهلها كل عام فى نقصان وقد شرع فى مد طريق حديدية من هاته البلدة التى
موقعها فى الجنوب الغربى من الجزيرة التى هى مستطيلة من الجنوب الى الشمال
وينتهى الطريق فى الشمالى الشرقى من الجزيرة غير انه لم يتم الى الآن ولا زال العمل
فيه ثم أهل البلد على قسمين (الاول) الاعيان والوافدون وكلاهم لباسهم مثل لباس
الاوروباويين (والثانى) بقية الاهالى ومثلهم بقية سكان البوادى والقرى فى الجزيرة

يلبسون جلود الغنم بصوفها فالصوف مما يلى البدن والجلد من أعلى وهيئة اللبس هى
صدرية ومنتان وسراويل نحو السراويل التونسية لكن يجعلون على الساق ألبسة
مربوطة والنعال خشنة ذات مسامير كبيرة وعلى رؤوسهم عرارق من الصوف أو قلانس من
الصوف المنسوج طوال مدلاة على أكتافهم والنسوة يلبسن قريبا من نسوة أوروبا
لكن على شكل غير نضر وفى أرجل أغلبهن قباقب من خشب ولغتهم طليانية والغالب
هو عدم التمدن والاكل رخيص هنالك فالقهوة الثلاثة منا طلب صاحبها منا ستة صولدى
والفرنك به عشرون صولدى كل صولدى خمسة سانتيم ثم ركبنا باخرة أخرى وهى
التى توصلنا الى نابلى بعد ان أحسنا الى خدمة الطبقة التى كنا فيها وذلك من اللوازم
فى البواخر وكذلك الاحسان لخادمى المطاعم والقهاوى ومقدار الاحسان نحو خمسة
فى المائة مما يدفعه الدافع فان كان أقل نوزع فى ذلك وان زاد شكر ونقلنا رحالنا الى
الثانية فاقلعت قرب الغروب وتوجهنا الى نابلى فلم تزل الباخرة سائرة والبحر ساكن
الى أن خرجنا من الجون والتفت الباخرة متوجهة الى الشرق وأرخى الظلام سدوله
فنمنا فى مضاجعنا الى الصباح فاستفقنا بكرة وحيث كان البحر فى سكون كان يستطيع
الانسان أداء جميع ضرورياته والوضوء والصلاة على أكمل حال وبعد شروق الشمس
أول ما اكتشفنا قرب نابلى جزيرة اسكا وبها جبل مرتفع وهى تحتوى على قرى كثيرة
ولها منظر جميل من بعد لارتفاع مبانيها وتزويقها من خارج ثم ظهر بركان نابلى
وهو جبل مرتفع متصاعد من قمته دخان ثم وصلنا الى مرسى نابلى والبلد فى سفح الجبل
وهى أكبر مدن ايطاليا وكانت تخت الملك النابلطان وسكانها نحو أربعمائة ألف نسمة
وهى محيطة بجون فى البحر على شكل هلال والمرسى فى الوسط وهى مرسى صناعية
أكبر من مرسى كالارى غير أن السفن فى وقت وصولنا اليها أقل من الاولى فتعرض لنا
عند ارساء الباخرة أحد المعارف فى زورق لانه بلغه خبر قدومنا بسلك الاشارة من كالارى
فاصطحبنا جميعا ومررنا بوسط الكمرك ونظر المكلفون به رحالنا فلم يجدوا به شيأ يؤدى
الكمرك سوى شئ من النشوق وماء الزهر فاخذوا ما عليهما من الضريبة ثم ركبنا
بكروستين من الكراريس الموجودة فى بطحاء الكمرك مهيآت لمن يريد الركوب
وهى كراريس نظيفة أغلبها يركب راكبين فقط من النوع الذى يفتح سقفه الى خلف
ومثلها موجود فى أغلب الجهات الكثيرة العمران من البلاد وتجرها الخيل وأما عجلات
حمل الاثقال فتجرها الخيل والبغال والبقر وهكذا فى غيرها من البلدان غير ان البقر

لا تستعمل فى الجر فى أعالى ايطاليا وفرانسا ثم نزلنا باحد منازل المسافرين بعد أن ردنا فيه
بيوتا على نحو ما يليق بنا وهو منزل كبير ذو خمس طبقات له شبابيك تفتح على نهج واسع
يسمى طريق البوسطة وله شبابيك على بطحاء واسعة بها فوارتان للماء العذب المجلوب
من الجبل الموزع على البلد وعلى ديارها وسائر سكانها وكان الكراء لاربعتنا فى اليوم
للسكنى والأكل خمسة وعشرين فرنكا سواء أكلنا أم لا وما زاد على ذلك مما يطلبه
الانسان يؤتى به اليه لكنه يحسب عليه بثمنه كالورق للكتابة والشمع وغير ذلك بحيث
انه كلما يطلبه يجده وانما ينبغى للانسان أن يساوم مدير المنزل قبل الاتيان بالشئ
المطلوب والا فانه يحمل عليه باسعار باهظة وأما الاشياء الضرورية فهى داخلة فى
اجرة السكنى والاكل وهى ان يجد الانسان بيتا ذا فراش للنوم بغطائه ولوازمه وكراسى
مكسوة بالحرير مزخرفة وعليها مرآة وساعة وسائر الضروريات ومصباح وشمعة
ومائدة لوضع الكتب وآلات الكتابة ومناديل للتنشيف من الماء عند الغسل وهكذا
سائر الضروريات الا الأبريق للاستراح فينبغى حمله الى جميع جهات أوربا اذ لا يوجد
عندهم وليسوا يعتادون عليه وهو من العادات اللازمة للسيرة الاسلامية والنظافة كما
انهم فى أوربا لا يغسلون أيديهم بعد الاكل أما قبله فمن آدابهم أن يغسل الانسان يديه
ووجهه فى بيته ويأتى بيت الطعام بثياب نظيفة غير ان من أراد غسل فمه وأصابعه بعد
الاكل فله أن يطلب من الخادم فى بيت الطعام أن يأتيه بما يغسل به فيأتيه بصحن فيه
قدح من الزجاج أو الخزف وفيه كاس به ماء حار قليلا مخلوط بشئ من روائح الطيب
فيتمضمض به ويمج الماء فى القدح ويدخل أصابعه فى الكاس ويمسح بها شفتيه ثم يتمسح
فى منديل ثم ان بيت السكنى مفروش بالزرابى وعلى أبوابه أردية رفيعة وهو فى غاية
النظافة وله خادم لتنظيف البيت وتهيئة الفرش وعند الاستيقاظ يدعو الساكن الخادم
فيأتيه بالقهوة وما يتفق عليه من الاكل صباحا ثم ينظف الخادم البيت ويغير المناديل
واردية الفراش ان كان بها أدنى وسخ وعند الظهر أو قبله بساعة يضرب جرس للتهيئ
للاكل ثم بعد خمسة عشرة دقيقة يضرب الجرس مرة اخرى لحضور الساكنين من
بيوتهم الى بيت الطعام وهو بيت متسع فيه مائدة كبيرة أو أزيد يجلس عليها
الحاضرون فوق كراسى ويفرق عليهم الاكل سواء والاغلب أن يكون أربعة أنواع أو
خمسة من اللحوم والطيور والسمك ثم نوع من الجبن ثم فاكهة ثم ينصرفون ومن أراد
الاكل فى بيته فله ذلك غير أنه يحسب عليه بزيادة فى الثمن أو يعطى أقل من ألوان

المائدة

المائدة العامة وكذلك وقت العشاء وهو فى الاغلب بعد الفطور بسبع ساعات ولما كان
المسافر يريد التفرج فالاولى أن لا يكترى المنزل الا للسكنى وأما الاكل فيجعل له سوم
خاص لكل أكلة ان حضر أكل والا فلا يحسب عليه شئ لكى لا يلزمه الحضور والاكل
فى محل واحد أو انه يخسر ثمنين للاكل باعطاء ثمن الاكل فى منزل السكنى ثم فى المكان
الذى يأكل به واذا خرج المسافر يقفل بيته ويعطى مفتاحه لصاحب الباب لكى
يكون رحله فى أمن اذ يعترى السرقة فى البيوت أحيانا سيما فى نابلى ولا يطالب صاحب
المنزل بما يسرق الا اذا كانت الاشياء المسروقة ضرورية وضعها فى البيت كالصندوق
وأما المال والمصوغ وشبهه فلا ولذلك ينبغى لمن له شئ من ذلك ان يحمله معه أو يضعه
فى أحد البنوك لان وضعه عند صاحب المنزل مخطر وان أخذ منه حجة فى ذلك اذ يحتمل
افلاسه فتذهب الامانة سدى ولذلك يكون الاوفق للمسافر أن يحمل معه من المال
العين شيأ قليلا وبقية ماله يصرفه بتذاكر بانكات معتبرة كبنك فرانسا أو انكلترة
ويحملها معه اينما ذهب لخفتها ويستريح ومهما أراد عين المال يصرف تذكرة من
تلك التذاكر عند أى صراف أراد بل ربما ربح فيها اذ خصوص تذاكر البنك
الفرانساوى والانكليزى يرغب فيها أزيد من المال العين ولذلك يؤخذ عليها نصف
فى المائة زيادة عن قيمتها بخلاف تذاكر بنوك ايطاليا أو غيرها فانها لا تصرف فى غيرها
لكنها وفى ذات مملكتها تعطى الصرف أقل من قيمتها فمثلا التذكرة المسمى بها مائة فرنك
من بنك ايطاليا اذا أردت أن تدفع المال وتأخذها فانك تعطى مائة فرنك عينا وتأخذ
مائة وثلاثة عشر ورقا وهاته الاوراق هى التى بها الرواج فى ايطاليا بحيث انها هى المعنية
عند الاطلاق وفى ايطاليا عدة بنوك لها تذاكر من ذلك النوع فاما تذاكر بنك الدولة
فانها تروج فى جميع ايطاليا سواء وأما تذاكر بنوك صيارفة أخر فلا تروج الا فى خصوص
البلدان التى فيها البنك فمثلا تذاكر بنك نابلى لا تصرف فى رومة أو غيرها من مدن
ايطاليا فضلا عن غيرها فينبغى لمن سافر أن ينتبه لهذا وقد أقمنا بنابلى ثمانية أيام
وتفرجنا على أغلب جهاتها وغرائبها وأشهر طرقها الحسنة البهيجة هو طريق توليدو وهو
متسع عامر يمينا وشمالا بالقصور الشاهقة وبأسفلها الحوانيت للبضائع والتحف الانيقة
ويقرب منه فى المنظر طريق البوسطه وطريق الدومو ثم طريق جديد يسمى فوريدو
وهو أوسع من غيره وأنزه وعلى حافتيه الاشجار لكن القصور التى حوله لم يكمل انتظامها
اذ ذاك وهو فى الجهة العليا من البلاد وبها عدة بطحاآت أشهرها وأكبرها التى أمام قصر

الملك ويحيط بها قهاوى ومحلات للاكل ومن المبانى الشهيرة التى رأيتها فيها قصر الملك
الذى فى البلاد وهو قرب شاطئ البحر وأمامه من جهة البحر حصون وأسفله من تلك
الجهة مسكن للعسكر وعلى سطحه بستان متسع ذو أشجار ونوابع مياه تطل عليه شبابيك
القصر والقصر ذو أربعة طبقات والمعد منها لسكن الملك هى الطبقة الثانية وهو قصر
ضخم متقن البناء والتحسين والتزويق يشتمل على كنيسة وعلى ملهى خصوصى
للعائلة الملكية ويشتمل أيضا على جميع الاثاث والادوات المحتاج اليها فى السكنى من
فرش وأوانى طعام على أنواع حتى من الفضة بحيث انه منتظم كأن الملك ساكن فيه
والحال أنه لا يأتيه الا أحيانا فى بعض أوقات التنزه أو تفقد المملكة لان مقر الحكومة
مدينة رومة لكن لما كانت نابلى سابقا قاعدة مملكة النابلطان وكانت ملوكها
مستبدين أشادوا ماشاءوا فى قصورهم وبقى التحفظ عليها على ما كانت عليه ولها
خدمة ومكلفون حتى ان الملك اذا قدم الى هنالك لا يستحق لجلب شئ معه سوى ملبوسه
ويمكن له عقد الولائم الحافلة هنالك كأحسن ما تصنعه الملوك وهكذا فى كل بلد كانت
قاعدة الملك فى ايطاليا وبلصق هذا القصر الملهى الكبير المسمى بصان كارلو وله منفذ
من القصر الملوكى وهو من أكبر ملاهى أوروبا وأتقنها ضخامة وتزويقا ويحمل من
المتفرجين نحو ألف وخمسمائة متفرج وهو ذو ست طبقات فمنها أربع طبقات كل
واحدة تشتمل على احدى وثلاثين بيتا ومنها طبقتان كل واحدة تشتمل على ثمانية
وعشرين بيتا وكل بيت تجلس به أربعة أنفس عدا بيت الملك التى فى صدر
الطبقة الثانية مواجهة للملعب هذا عدا المحل العمومى فى الوسط الذى به مقاعد
عددها ستمائة وثلاثون مقعدا وهذا الملهى لم يفتح اذ ذاك منذ سنتين اقتصادا من
الحكومة لانه يلزمها فى كل ليلة لفتحه ان تعين على مصاريفه بألف وخمسمائة فرنك
لان دخل المتفرجين لا يكفى مصاريفه ومما شاهدته أيضا قصر الملك الذى خارج
البلد فى رأس الجبل ويسمى كابودى منتانى وهو قصر أصغر من السابق يحيط به بستان
أنيق ولم يكن بالقصر فرش سوى بعض بيوته بها فرش عتيقة جدا لملوكهم الاقدمين
موضوعة هنالك للتفرج عليها وبقية البيوت بها آثار قديمة من السلاح وأدواته
حتى كان منها بيت مملوء بصور أجساد آدميين متدرعين بأنواع شتى من الدروع على حسب
اختلاف الزمان ومنها صور فرسان بخيلهم مدرعين ومنها صور بعض ملوكهم
والدروع كانت حقيقية مستعملة حقيقة فى الحروب وبعضها به آثار الضرب والطعن

حتى

حتى بالرصاص من المكاحل وبقية بيوت القصر خاوية والجميع بناؤه أنيق ثمين
وشاهدت أيضا أكبر كنائسها وهى كنيسة صان جينارو وهى ضخمة ذات أعمدة من
المرمر ومن غريب ما فيها صورة صنم من رخام أبيض عليه ثوب كأنه صفيق بحيث
يبدو ما تحته والحال انه نحت من ذلك الرخام ✽ وشاهدت أيضا أكبر مارستان لهم وهو
ذو بيوت كبيرة كل واحدة بها نحو المائة فراش كل منها بعيد عن الآخر قدر فراشين
وكل فراش لمريض واحد عرضه نحو المتر وطوله نحو المترين وربع وهو على سرير من
خشب يحتوى على فراش وعليه ازار ووسادة وغطاء من القطن والمريض لابس لقميص
وعلى رأسه قلنسوة من نوع القميص والكل من منسوج الكتان الابيض وكل بيت
يحتوى على نوع واحد من نوع المرض أو متقارب النوع ولكل بيت خدمة بالاجرة
يوفون للمرضى بجميع لوازمهم واعطاء الدواء فى أوقاته حسب اشارة الطبيب وزيادة على
ذلك كثيرا ما تأتى نسوة من الاعيان وغيرهم لخدمة المرضى والرأفة بهم حنانا منهم ورغبة
فى عمل الخير وللمارستان عدة أطباء منهم من هو ذو وظيفة وله أجرة عليها ومنهم من
يداوى مجانا اما رغبة فى الخير أو لاتمام تعلمه لفن الطب حتى يأخذ الشهادة ممن له الاجازة
على قوانين لهم فى ذلك وللمارستان أيضا بيت أدوية ومواعين الجراحة والدواء وفيه
قسم للرجال وآخر للنساء المرضى وهكذا كل مارستان غير ان بعضها يداوى مجانا
وبعضها له أماكن لمن يريد التطبب من ذوى اليسار فيعطى مقدارا معينا يوميا
والمستشفى يقوم بجميع ما يلزمه ويختارون التداوى فى المستشفيات لانها أتقن من
مساكنهم سيما فى التحفظ على ما يتعلق بالدواء واداء الخدمة حقها مع مباشرة مشاهير
الاطباء الذين يلزم لاتيانهم لمساكن المرضى مصاريف وافرة ومحلات هؤلاء المستأجرين
فى المستشفيات أنق وأنظف وأبهى من المحلات العامة ويمكن لكل مريض أن يبقى فى
بيت خاص به صغير موافق فى الهواء بحيث ان جميع حركات المستشفيات وأوضاعها على
مقتضى الحكمة الطبية ثم ان مصاريف المستشفيات على أنواع فمنها ما تقوم به الدولة ومنها
ما يقوم به المجلس البلدى ومنها ما يقوم به لجنات من الاهالى وهذا فى كل جهات أوروبا
سواء ويقبلون الصدقة ممن يريدها ولو من السواح وشاهدت فيها أيضا الدار التى بها
الآثار العتيقة ✽ ومنها الاشياء التى استخرجت من بلدة بونباى التى يأتى خبرها وهاته
الآثار لو أراد الكاتب استيعابها لالزم لها مجلد ضخم اذ هى مشتملة على أنواع وأشكال
شتى من أقطار مختلفة فمما جلب من مصر المومى وهى ذات انسان ميت مصبرة على

ما كانت عليه منذ عدة آلاف من السنين لم يتغير منها شئ سوى ان اللون أسود وجوفه مثقوب لاخراج جميع احشائه وبقية حاله على ما كان عليه وفي هاته الدار نحو اربعة أجسام من ذلك النوع منها النساء ومنها الرجال وذواتهم لا تختلف عن ذوات البشر الموجود الآن لكن ليس فيهم ذو جسامة ولعل ذلك بسبب ان الميت المصبر انما يكون عزيز قومه ومثل هؤلاء لا يموتون غالبا الا بالامراض والامراض تنحف الاجسام فلذلك كانت أجسام المومياءات نحافا والافان التصبير يحفظ الجسم على ما هو عليه ثم ان ذلك النوع من التصبير قد جهل ومع كثرة البحث عنه من حكماء الاعصار المتأخرة لم يطلع عليه فهو من العلوم التي فاز بها المتقدمون ودثرت ومن غرائب ما في هاته الدار أيضا قطع من ثياب منسوج من مادة حجرية وهذا المعدن يسمى اميانتو وهو الآن معروف وموجود لكن كيفية تمديده حتى يصير مغزولا وينسج منه مجهولة الآن وقد كان في الاعصر السالفة معلوما ومن فوائد تلك الثياب انها لا تحترق واذا توسخت فغسلها بالنار وهي ثياب لينة تنطوي غير انها ثخينة ومن غرائبها أيضا ما وجد من آثار بونباي وهي أشياء كثيرة من المأكولات وغيرها فرأيت فيها التمر والقمح والزيتون وغير ذلك مما مضى عليه ألفا سنة أو أزيد لم يتغير منه شئ سوى اسوداد في اللون وقالوا ان طعمه أيضا لم يتغير وسمعت انهم زرعوا حبوبا مما وجدوه كالقمح ونبت وأثمر مثل الجديد مما يدل على أن النوع واحد لم يتغير حاله مع طول الزمن وكل هاته الحبوب موضوعة على ترتيب حسن الى غير ذلك من الآثار القديمة الموضوعة المنضمة في أماكن محفوظة نظيفة وعليها قيمون وتفتح يوميا لمن يريد التفرج بأجر زهيد وتسمى هاته الدار موزاي ناسيونال ومما شاهدته في نابلي دار الفنون المسماة أنيفرسيتا دي نابلي وهي يعلم بها فنون الطب والاحكام والسياسة والتجارة والكيمياء والصيدلة والبناء والفلك والجبر والمقابلة والهندسة والابعاد وجر الاثقال ولكل فن قسم ومدرسون وبها محل لاجسام الحيوانات فيه أغلب ما يعرف منها من الانسان الى الذباب من الحشرات حتى الحيوانات البحرية لكنها كلها ميتة مجعولة بوا أي منزوعة اللحم وغيره مع التحفظ على هيئة الجلد ويحشا جلدها بمواد نباتية ويرسم على هيئة أصل الحيوان حيا وتجعل عيناه من زجاج فيراه الناظر كانه حي وفيها من تلك الانواع ما لا يكاد يحصى ويوجد كتاب مطبوع في البلد مشتمل على تلك الحيوانات مع تراجمها وأغرب ما رأيته من حيواناتها ولم أره في غيرها عصفور في حجم النحلة ملون الريش وذيله ذو ريشتين فقط طويلتين كل منهما

في طول ما يقرب من الشبر لها الوان جميلة وكذلك رأيت فيها تنين البحر أعظم حجما من الفيل لكنه أقصر منه لان جملة هيئته تقرب من هيئة السلحفاة ورأسه أضخم من رأس الفيل وعيناه واسعتان جدا وفمه مفتوح وجلده منكمش وبجملته له منظر بشع منفر ويوجد في هذا المحل جسم الانسان على جميع اطواره منذ يتكون مضغة الى ان يصير شيخا فانيا ثم يوجد تشريح اعضائه منفردة سواء كانت ظاهرية أو باطنية ذكورية أو أنوثية وجملة جسمه من الجاميع الاصلية كل منها منفرد عن الآخر فتجد جسما ليس فيه الا العظم فقط على نحو خلقته ثم آخر به العظم والعروق فقط وهكذا غير ان بعض هاته الاجسام هو حقيقي وبعضها صوري من الشمع لكنه متقن التصوير واللون حتى كانه هو الاصل لان اللحم بدون جلد لم يمكن لهم تصبيره في الهواء وكذلك توجد أجسام المولودين على خلاف المعتاد كيكون وجهه في بطنه وآخر ذو ثلاثة رؤس الى غير ذلك وكلها مصبرة في زجاجات كبيرة مملوءة بمياه روحية لكي تقي الجسم من التعفن وفي هذا المحل يتعلم فن التشريح الذي هو جزء من الطب وفي هذا المحل أيضا خزنة كتب عظيمة بها مائة وثلاثون ألف مجلد كلها طبع الا النادر بخط اليد وبها كتب عربية كثيرة فمما رأيته فيها مصحف كريم مطبوع بالطبع الحجري ثم كتاب يسمى الكمال المسيحي للراهب الفونس رودريكو بن موضوعه تعاليم ديانتهم وهو في مجلدين ضخمين ثم مجلد آخر يشتمل على توراتهم وانجيلهم مكتوب بلغات ستة وبخطوطها واللغات هي العربية والعبرانية واليونانية واللاتينية وجمارتيانو والسريانية بنوعيها ويوجد بهاته الخزنة الكتبية كورتان محيط دائرة كل منهما نحو ثلاثة ميترو احداهما صورة الفلك وأخرى صورة الارض مرسوم بهما خريطات متقنة مكتوب عليهما بالخط العربي الثلثي الجميل قيل انهما من مصانع علماء الاندلس وبقرب نابلي على مسير نحو عشرين دقيقة في الرتل بلدة بنباي وهاته البلدة كانت منذ الفين سنة مصرا متمصرة وكان أهلها مولعون بالانكباب على الشهوات وقساوة القلب حتى ان من ألعابهم في الملاهي والمراسح أن يخرجوا الحيوانات المفترسة ويلقون اليها بالناس الذين يريدون عقابهم فتخطفهم الحيوانات وتمزق أجسامهم شر تمزيق والمتفرجون محدقون في البيوت المرتفعة المحصنة من وصول تلك الحيوانات اليهم وهم يضحكون فرحين ولم يكن ذلك مقصورا على رجالهم بل حتى النساء اللاتي هن أرق طباعا كن يتهورن وينبسطن من مثل تلك المناظر وتمادى تمرد أهل تلك البلد على جورهم وقهرهم فأرسل

الله عليهم جيران جبل الفزوفيو الذى هو بركانى وهو بقربهم على نحو ثلاثة أميال
فزلزلت بهم الارض وهم على حين غفلة زلزالا شديدا وهرعوا للفرار الى الفضاء خارج
البلد فأدركهم سيل العرم من النار التى قذفها الجبل فاحمر الافق بعد ان أظلم واحلولك
وطاف عليهم طائف من بحر النار فأهلكها وكل من فيها فى بضع دقائق وتراكمت عليها
المادة السيالة النارية حتى صار مكان البلد وما حولها جبلا وامتد الى البحر وسبحان
الملك القهار وتمادى عليها ذلك الحال وتنوسى أمرها الآن الواقعة وقعت عليها قبل
التاريخ المسيحى بقليل وصار سطح أرضها بطول الزمان صالحا للزرع والنبات ففى عشرة
الثمانين والمائتين وألف هجرية كان أحد الزراعين هنالك يحرث فنشب محراثه فى
عروة احدى الاوانى التى كانت فى البلاد فبحث عليها فتراءى له ما ظنه كنزا وتبين انه كنز
رفيع وهو البلد الغابرة فعينت دولة ايطاليا مقدارا من المال سنويا وكلفت مهندسين
بالكشف عن تلك البلاد مع التحفظ على هيئة بنائها وجميع ما يوجد بها ولا زال العمل
مستمرا الى الآن وانما كان السير بطيئا فى العمل لان المادة النارية تحجرت وصارت
صلبة مع الاحتراس من افساد الموجود وتعسر الفرق أولا بين ما كان من البناء وبين
ما التصق به من تلك المادة فأخرجوا من البلاد كلما وجد بها اذ ما كشف عليه وجد
كأنه على حالة أصله فأرباب الصناعات والمحلات على الهيئة التى أدركهم عليها الغرق
والحرق والردم معا وكل الاجسام التى وجدت بقيت على حالها عند مس الهواء لها سوى
الاجسام الحيوانية فانها عند مس الهواء لها تضمحل فجعل العاملون حيلة لابقاء صور
الاجسام بان جعلوا كلما تفطنوا بمس آلة الحفر لجسم حيوانى أتوا بالجص وحلوه فى الماء
ورفعوا ذلك آلة الحفر عن المحل الذى لمسته وأبقوا الهواء مماسا للجرم الحيوانى من ثقب
آلة الحفر فينتفش الجسم فى الهواء ويبقى محله فى المادة النارية خاويا فيصب فيه الجص
وعند جفافه وانعقاده تكسر المادة النارية عنه وتخرج صورة الجسم على ما كان عليه
ورأيت فى بعضها بقية من فقرات الظهر وعظام الاصابع لم تبل ومما يدل على جرأة أولئك
الاقوام فى ذلك العصر وتجبرهم ان وجدت بعض جثثهم على حالة الوقاع حتى كان منها
جثة رجل وامرأة متداخلى الارجل لكن الرجل لما أدركه الموت انزعج على قفاه وهو
ناعظ وبقيت المرأة على حالتها متكئة على وجهها ومقعية على ركبتيها فانظر الى ذلك
التجبر مع سابقية الزلزال ولم يؤثر فى شهوتهم حتى أدركهم الهلاك على شهوتهم وأما أبنية
تلك البلدة فالظاهر ان أغلبها انهدم بالزلزال وما بقى منها قائما منه المتصدع والمنشق

ومنها

ومنها القائم على أصله وهيئة بنائهم يجعلون الحائط ضيقا نحو ذراع فما دون والسقوف
من بناء على هيئة قباب نحو نصف كورة أو أقل تكور وينظمون تقابل الابواب فاذا
دخلت بابا الى دار من الطريق تجد سقيفة مربعة ثم بابا الى وسط الدار وفيه أربعة أبواب
الى كل بيت واحدى البيوت وراءها جنينة وبركة ماء واسرة النوم من بناء كالدكاكين
وجهة الوسادة بناء مرتفع يسيرا على سطح السرير ولا تختلف دور الاغنياء عن غيرهم الا
بالكبر والصغر ولكل بيت طواقى الى وسط الدار وكل الطواقى والابواب متقابلة
والحمام الذى رأيته فى البلاد هو على نحو الحمامات المعروفة الآن فى البلاد الاسلامية
وفيه تصاوير على الجدران بالالوان مثل الحمامات بتونس والمغرب ورأيت محل الحكومة
وتحته السجن وعند مجلس الحاكم عند رجليه طاقة يطل منها على المسجونين أسفله
والسجن مظلم لا يتخلله الهواء ولا الضوء الا من تلك الطاقة ورأيت الملهى فاذا هو على نحو
الملاهى الاوروباوية غير ان مربع اللعب هو وسط الدائرة وهو أسفل مكان المتفرجين
والطرق كلها مبلطة بالحجارة الصلبة المنحوتة ومنقسمة على ثلاثة انحاء فوسط الطريق
منخفض عن جانبيه لمرور العجلات ومفروض لها على جانبيه سكة لمرور ذات العجلة فيها
وعن اليمين والشمال محل مرور الماشين وجميع عرض الطريق نحو ثلاثة ميتر وفى محل
مرور العجلات يقسم وسط الطريق بحجارة منحوتة مرتفعة على سطح الطريق بحيث تراها
ناتئة على طول الطريق وجميع الطرق مستقيمة لا اعوجاج فيها وتتلاقى على زوايا حادة
غير ان كل طريق لما كانت لا تمر فيها الا عجلة واحدة حسبما هو مفروض للعجلات فيلزم
بالضرورة ان تكون كل طريق لا تمر فيها العجلة الا لجهة واحدة كى لا تتلاقى
وفى محل الادارة لكشف تلك البلاد محل لوضع الاشياء المستخرجة ثم تنقل من هنالك الى
نابلى وتوضع فى محل الآثار القديمة كما مر والمادة النارية المتصلبة يصنع منها تحف كثيرة
فى نابلى وفيها سوق نافقة وجميع الاماكن المعدة للتفرج اما أن يدخلها الانسان
بأجر قليل أو تكون له تذكرة الدخول من الدولة والحصول عليها سهل بواسطة أحد
الاعيان أو نواب الدول وقد أعطانا تذاكر الدخول قنسل الترك وقد اجتمعت فى نابلى
بأكبر حكمائها وهما توماسى وكنتانى وكان الثانى يعظم الاول جدا لكبر سنه حيث
أنه بلغ نحو الثمانين ولمشيخته عليه وكانت أجرة كل منهما فى كل زيارة ستون فرنكا
وبقيت فى نابلى ثمانية أيام وكان المسافر فيها يقدر أن يقيم كل يوم متوسط المعيشة
بأربعة فرنك يوميا للأكل ويقدر أن يأكل فى المحلات السافلة بنصف فرنك ما يأكله

في العجلات العالية بعشرة فرنك في الاكاة الواحدة وقد دعاني هناك أحد أعيان البلدة
للسامرة في داره حيث كان حبيبا الى مصاحبنا من أهل البلد فرأيت كيفية مسامرتهم
ورقصهم وفي آخر يوم من اقامتي بها أعلمت بان الابرة المسماة بالبوصلة اضطربت
علامة على الزلزال ثم ركبنا الرتل بقصد بلد رومة وكان ذلك صباحا ولما وصلنا الى قرية
كزرتا التي هي قرب نابلي مسير نحو ساعتين في الرتل نزلنا هناك وتغدينا في احدى منازل
المسافرين وأما صناديق حوائجنا فانها ذهبت مع ذلك الرتل الى رومة وتنتظرنا في
الكمرك في محطة الرتل الى ان نقدم الى هناك ثم ذهبنا الى قصر الملك في بستانه المسمى
بقصر كازرتا فاذا هو أعظم وأتقن قصر رأيته من جهة التأنق في مواد بنائه المتخذة
من الاشياء الخلقية كالمرمر والرخام والحجارة الضخمة المنحوتة وان كان غيره أشد تأنقا
من جهة صناعات النقش والتذهيب والتزويق وهو مربع الشكل كل جهة منه في
طول مائتين ميترو وأمام الباب بطحاء عظيمة على جانبيها اماكن للعساكر فاذا دخلت
من الباب تجد القصر منقسما الى أربعة أقسام وكل قسم في زاوية يشتمل على بطحاء
وله مطالع الى القصر والمطلع الكبير المعد للوقت الرسمي يشتمل على مائة واحدى عشرة
درجة من المرمر المورد اللون كل واحدة في قطعة واحدة الا قليلا منها في قطعتين طول
كل درجة ثلاثون قدما وعرضها قدمان وارتفاعها ستة أصابع ومبدأ الدرج منفرد
فاذا انتهت الى نصفها رجعت الى قسمين يمنا وشمالا فينتهيان الى ايوان عظيم مرفوع
سقفه على ستة عشرة اسطوانة من المرمر المزرزر كل في قطعة واحدة ارتفاع الواحدة نحو
عشرة أذرع ومحيطها لا يستطيع الانسان الكامل الاحاطة به بذراعيه ومنه يدخل الى
البيوت الضخام المختلفة أنواع السقوف وكسوة الحيطان والارض بانواع من المرمر أو
الطلي أو الموزايكو أي القطع الصغيرة من المرمر كل قطعة نحو الانملة من لون مرصفة على
أشكال بديعة أو من المنسوجات الصوفية أو الحريرية من المصانع الشهيرة في العالم
ويحتوي القصر على كنيسة وهو ذو ثلاث طبقات وقد تم منه بالبناء والادوات داخلا
وخارجا ثلثه والثلثان لم يتم منهما الا بناء الحيطان والسقوف وبقيا ناقصي الادوات
وليس في القصر شيء من الفرش ويحيط به بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها وفي
منتهاه جبل تنحدر منه عين ماء عظيمة مجعولة على نحو شلالة لانحدارها دوي واذا
قابله الداخل من باب البستان جهة القصر يظهر له من بعد كأنه منارة متصاعدة في الجو من
الزجاج الابيض ثم ينشأ من ذلك الماء نهر وبحيرات بها كثير من الطيور المائية وأنواع
السمك

السمك ويحتوي البستان على مماشي وغياض متفقة ذات أنوار وأزهار كما يحتوي على
آجام وغابات وحيوانات للصيد ثم ركبنا قرب الغروب من هناك الرتل وسرنا نحو احدى
عشرة ساعة وليس هناك من العمران مثل ما يأتي خبره بل أكثر الاراضي معطلة والجبال
لا منظر جميل بها وانما توجد القرى وما حولها معمورا نسبيا وكانت القرى تبعد عن
بعضها في أكثر الاحوال سير نصف ساعة في الرتل فوصلنا بلد رومة التي هي تخت
المملكة بعد نصف الليل وفتشوا في الكمرك رحلنا أيضا مع انا قادمون من احدى بلدانهم
وذلك لان لكل بلد اداء على ما يدخل اليها لمصالحها الخاصة زيادة على ما تأخذه الدولة
من الكمرك العمومي ونزلنا في احدى منازل المسافرين وأخذنا اليه صناديقنا التي
وجدناها في الكمرك غير انا وجدناها سرق منها برنس ووقع الخلاف بين مستخدمي
المحطات فيمن سرقه فجماعة رومة يتهمون جماعة نابلي وهم يتهمون الآخرين والحاصل
ان البرنس ضاع وسببه هو خروج طرف منه عن غطاء الصندوق فامكن للسارق جذبه
ثم أقمنا برومة ستة أيام واجتمعت بأشهر أطبائها وهو الحكيم باشلي الذي هو أحد
أعضاء مجلس النواب واجمال صفة هاته البلدة انها بلدة وسيعة سكانها نحو ثلاثمائة
ألف نسمة ولهم حضارة على أهالي نابلي وطرقها كلها مبلطة نظيفة أما الطرق
الخارجة عن البلد فهي وان كانت صناعية غير انها سابها الطين بكثرة وان لم يعطل
العجلات وأحسن ما يقصد بالتفرج عليه في رومة هو كنيستها الكبرى المسماة بصان باولو
التي هي أشهر مباني العالم في ارتفاع قبتها وضخامة بنائها وهي مستطيلة الشكل
ذات قباب كثيرة ووسطاها هي أعلاها وحيطانها مكسوة بقطع من المرمر منه الخلقي
ومنه الصناعي كل قطعة في طول نحو عشرة أذرع وعرض نحو خمسة أذرع وبعض الحيطان
مكسو بقطع من الموزايكو متقنة التصوير والقباب كلها مكسوة بذلك أيضا والقباب
مرفوعة على اسطوانات من المرمر الخلقي وبعضها صناعي وليست مستوية السمك
وبعضها في قطعتين أو ثلاثة ومحيط كل واحدة من الخلقية أربعة عشر شبرا وقواعد
القباب مبنية بناء ضخما جدا بحيث ان هاته الكنيسة قد أفردت بتأليف خاص من
احد حذاقهم لما اشتملت عليه من اتقان البناء وضخامته وبلصقها قصر البابا
ويسمى الفاتيكان وهو أكبر القصور الملكية يحتوي على اثني عشر الف بيت وبه
خزانة كتب رفيعة هي احسن خزائن ايطاليا وبها كتب كثيرة بالخط منها العتيق ومنها
نسخة من الانجيل باللغة الحميرية العربية مكتوبة قبل البعثة بنحو مائتين سنة وفيها

نص الآية القرآنية حكاية لقول عيسى عليه السلام وهى قوله تعالى ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد وقد اطلع على تلك النسخة أحد الانكليزيين فى هذا القصر وروبت ذلك عن ثقة روى عنه وذلك القصر فيه من غرائب المصنوعات والذخائر الثمينة شئ كثير حيث كانت تجبى الى البابا جميع النصارى الكاثوليك وملوكهم من ممالكهم تقربا اليه الملكه الروحانى زيادة عن الملك الجسمانى الذى كان له فى مملكة رومة وقد زال ذلك باتحاد ايطاليا وآخر بابا كان جامعا بين الملكين هو بيو التاسع وهو الموجود حين مررنا على رومة لكنه منذ افتك منه الملك الحسى بقى منعكفا فى قصره وله التصرف فى الديانة فقط على سائر الكاثوليك فى جميع الممالك سواء وأبقت له دولة ايطاليا جميع ما فى قصره وما فى الكنيسة من الذخائر واستولت على كل ما عدا ذلك وبعد أن تفرجنا فى الكنيسة الكبرى سألناه هل يمكن التفرج فى قصر البابا فاجبنا بان ذلك اليوم لا يتيسر بل نعود بعد أيام وكان ذلك بعد استئذان البابا ومن غد اجتمعنا بالمطران درعونى الذى هو من نصارى الشام وله دير فى أعالى رومة ومعه كثير من نصارى الشام المتقسسين وهو ذو اخلاق لطيفة فصيح بالعربية وكذلك من حوله وسبب الاجتماع به انه ساكن حذو كنيسة متقنة الشكل والبناء مما يقصد بالتفرج عليه فحصلت المعرفة معه من هنالك وكان مما ذكر لنا ان البابا يريد الاجتماع بنا عند الدخول الى قصره وانه كلفه بالحضور ليكون ترجمانا عنه فاعتذرنا اليه بأننا على سفر ولا تيسر التأخير لذلك فلم ندخل القصر ولا اجتمعنا بصاحبه إذ لا ملجئ الى تعظيمه مع ان الداخل عليه يلزمه تعظيمه كتعظيم الملوك بل ملوكهم يؤدون اليه مزيد التعظيم كأنه هو ملكهم ولا داعى لذلك الأمر دينى وديانتنا الاسلامية تمنع التعظيم الذى يكون مسببا عن ذلك واعلم انه منذ استولت دولة الصاردو على جميع ممالك ايطاليا واجرت الحرية حتى فى الديانات فالداخل للكنائس لا يلزمه تعظيم شعائرها كما كان من قبل بل لا يفعل شيأ يخالف ديانته فكانه يتفرج فى قصر من القصور كما انه ليس له أن يفعل شيأ من الاهانات وحيث ان المسلم يدخل اليهم بامان فليس له التعرض لاذايتهم كما انه ليس له خيانتهم ثم ان أمام كل من قصر البابا والكنيسة الكبرى بطحاء عظيمة وسيعة جدا وبها عدة فوارات وانهار وفوانيس وهكذا كل بلاد تشعل بالفوانيس ليلا ويشق بلد رومة نهر يحمل القوارب واذا طمى ربما أضر بالمجاورين وهو آت من جهة الشمال ذاهب جهة الجنوب وخارج البلدة الآن الكنيسة القديمة وهى الآن خراب وانما

يوجد

يوجد منها أساسها والطلال من جدرانها وقد علت الارض عليها كثيرا فكشف عنها وبقيت عبرة للناظرين وهى أوسع من الكنيسة الموجودة الآن الكبرى كما يوجد بقربها ما هى قديم مثلها فى الخراب على نحو ما سبق فى صفة ما هى بونباى وقيل انه دار الندوة اذذاك وهو كبير جدا وفى رومة أيضا منزه عمومى فى الجبل ذو مماشى وحدائق وفورات فى أعلى الجبل وهو نزه أما غير ما ذكر فليس فى رومة معامل أو أماكن تقصد للتفرج سوى ما هو خارجها من آثار بنا آت الرومان فى القديم وفيها ملاهى كثيرة متقنة اللعب لشهرة الطليانيين بذلك على غيرهم ودور الاهالى غالبا ليست بتقنة النظافة وأسعارها فى السكنى والمأكل وغيرهما غالية بالنسبة لبقية ايطاليا وهواء رومة وخم بسبب أن المرج التى قربها يركد فيها الماء لانخفاضها عما يحول بينها وبين البحر وكان الكنائس بها كثيرة ولكل جرس فاذا دق جرس الكنيسة الكبرى دقت الاجراس من جميع الجهات وصار لها دوى يقلق الساكن ويقرب من ذلك نابلى أيضا ثم انا قدمنا الى مجلس النواب الذى كان اذذاك مفتوحا وهو يشتمل على خمسمائة عضو فاذا هم أناس يتدبرون فى أمرهم ويتشاورون فيه بغاية الاطلاق وصادفنا فى حضورنا البحث فى نازلة مالية وهى أن وزير المال عرض على المجلس أن دخل الدولة غير واف بمصاريفها ولتعديل ذلك تلزم الزيادة فى الدخل وقد رأت الدولة ان الانسب فى الزيادة هو زيادة الضريبة على السلاح فوقع نزاع فى أصل الزيادة وكان أشد المضادين نواب جزيرة سيسيليا الى أن قال أحدهم انك أيها الوزير لا تفكر الا فى الزيادة فى الدخل بوضع الضرائب على السكان الذين أفقرتهم لكى تأخذ أنت المرتبات الوافرة من دمائنا وكذا نا اذا لم نقل بصرفك الاموال فى شهواتك ومخفياتك فنهره رئيس المجلس وألزمه الادب فى الكلام فعاد الى كلامه وقال نعم يأخذون خفية ويحملوننا ما لا نطيق فى اغراضهم وشهواتهم فاسكته الرئيس وأطال عليه اللوم والنكير بعبارات شديدة حتى وسمه بالوحشية وأنه يضطر الى اسكاته أو اخراجه من المجلس ان لم يلتزم آداب البحث فضج حزب المتعرض وقالوا ليس لكم منعنا من الدفاع عن حقوقنا وما أتينا الى هنا الا لحفظ حقوق الامة من التلاعب بها فاجابهم الرئيس بان الحقوق يتوصل اليها مع سلوك الادب فانقادوا اليه وطال النزاع فى النازلة وأبقيت للمفاوضة يوما آخر وكان مكاتب والصحف جالسين يحصون جميع ما يقال وما يقع حتى كتبوا انفس حضورنا لانا كنا بلباسنا التونسى وذلك أوجب التفات الانظار الينا فى أى مكان قصدناه حتى ان بعض البلدان

التي ليس لاهلها تهذيب تام كان يزدحم علينا في الطريق العوام الى أن يوقفونا
بازدحامهم وأكثر ذلك في أهالي نابلي الى أن التزمت فيها أن لا اخرج في الطريق
الا راكبا في عجلة وذلك لعدم تعودهم على رؤية مثل لباسنا وصفة هيئة مجلس النواب
هو بيت كبير جدا يميل الى الطول أكثر من التربيع وسقفه قبة مرتفعة شاهقة مزوق في
جدرانه وسقفه وأرضه وفي وسط صدره عرضا سدة ارتفاعها نحو متر وعلى الارض
وفوقها كرسي وامامه مائدة ويصعد الى ذلك المحل بدرج يمينا وشمالا وهذا محل جلوس
الرئيس وحوله كتبة وكراسيهم وموائدهم على الارض وبقربهم في وسط البيت كراسي
الوزراء وفي وسط البيت كراسي أربعة كتاب مخصوصين بمعرفة كتابة سريعة يتناوبون
اثنين بعد اثنين في كتابة كل ما يلفظ به متكلم في المجلس وبقرب الرئيس منبر مرتفع قليلا
يصعده خطباؤهم على التناوب بعد الاذن لهم من الرئيس يتكلمون في مصالحهم ثم
كراسي منصوبة صفوفا صفا وراء صف على نحو دائرة مستطيلة ينتهي طرفاها حول
الرئيس فالصف الاول كراسيه على الارض والصف الذي وراءه كراسيه على سدة من
خشب أعلى من الذي امامه بدرجة من خشب ثم الذي وراءه أعلى منه وهكذا الى نهاية
الصفوف والدرج التي يصعد منها الى الكراسي مقسمة لتلك الدائرة وكل قسم من
الكراسي امامه مائدة مستطيلة وفيها لكل كرسي محبر ودواة وأقلام لما يحتاجه صاحب
الكرسي وكل كرسي عليه عدد مخصوص مرسوم عليه بلون مخالف للون الكرسي وفي
أعلى البيت محيطة به من جهاته الا الجهة التي بها الرئيس رواقات يجلس بها المتفرجون
ولصاحب الملك بيت بازاء محل المتفرجين يأتيه اذا أراد كما له كرسي في المجلس واما وظيفة
المجلس فسيأتي الكلام عليها ثم رحلنا من رومة وقصدنا ليفورنو راكبين الرتل فاذا
بقرب رومة آجام راكدة فيها المياه وفيها من البقر شئ كثير يسرح هنالك للاهالي
بدون حراس مخصوصين لكل أحد بل على المكان قيمون يؤتى اليهم بالبقر ويستودع
هنالك الى وقت احتياج أصحابه ومنه ما لا مالك له فيتناسل هنالك وتبيع منه الدولة
لمن أراد الشراء ومررنا في سيرنا على مرسى بيشي تافيكيا التي هي أقرب مرسى طليانية الى
رومة قاعدة المملكة وفي آمالهم أن يفتحوا خليجا من تلك الجهات من البحر
ليصل الى حدود بلد رومة لان الارض هنالك منخفضة وبه يصلح الهواء من تعفن
المروج التي يركد فيها الماء واستمر الرتل سائرا بقرب الشاطئ الى ان وصلنا الى ليفورنو
في الساعة الثالثة قبل نصف الليل بعد مسير احدى عشرة ساعة وقد توقف الرتل في
المسير

المسير عندما وصلنا الى جسر على أحد الانهر حيث ان فيضان النهر هدم الجسر فنزلنا من
الرتل وعبرنا النهر مشاة على أخشاب ضيقة والحال أن النهر عريض والوقت ليل والمطر
نازل ثم ركبنا رتلا آخر مهيأ في الناحية الاخرى من النهر الى أن وصلنا الى ليفورنو فاذا
هي بلدة واسعة الطرق نظيفتها متقنة التحصيب والتبليط بحجارة منحوتة مستوية وبها
قليل من البطحاآت الوسيعة أشهرها ما تسمى بياص دي كافورو كافور هذا وزير
ايطاليا الذي جدد في وحدتها الاخيرة فرسم تمثاله بتلك البطحاء وسميت به وكذلك
البطحاء الكبيرة ويخترقها خندق به ماء البحر وعليه جسور وهذا الخندق كاد ان
يكون مخترقا لجميع جهات البلد وذلك لفائدتين الاولى هي ان البلد أرضها سبخة ندية
فذلك الخندق تنجذب اليه المياه مما حوله ويحصل جفاف الارض وما أخرج من ترابه
الكثير علت به أرض البلاد والثاني أن البلد كانت من أهم مراسي التجارة لاعفائها من
الاداء ترغيبا في عمرانها فتكثر فيها السلع وتحمل في القوارب وتسير في تلك الخنادق من
السفن الى المخازن اذ ماء البحر بالخندق عميق وبخارجها على الشاطئ منتزه عمومي ممتد
نحو ميلين به حدائق الاشجار والانوار ومغاطس من البناء أو الخشب على البحر وقهاوي
وملاهي تنتابها الناس زمن الصيف من أهالي البلد وغيرهم والطريق للمارة وسيع
جدا وعلى حده قصور شاهقة ذات منظر جميل امامها الطريق ودونها الحدائق ومن
ورائها القهاوي والملاعب والمغاطس ومن ورائها البحر وهي في الصيف ليلا ونهارا
منتزه مريح ويسمى ذلك المكان البساجاتا وبرت ماري وفي البلد خزنة للماء مسقوفة
ببناء ضخم شديدة النظافة حتى يرى الرائي في قعر الماء مع عمقه كتابة على الحجر بينة
والماء في غاية الصفاء مع اتساع الخزنة ومحل استقرار الماء منقسم على عدة أقسام
فيدخل الماء المجلوب من عين غزيرة الى أحد الاقسام الى أن يمتلئ ثم يخرج منه من
أسفل الى قسم آخر ثم منه من أعلى الى قسم آخر وهكذا بحيث ان كل قسم يكون مملوا
ولا يخرج منه الا بقدر ما دخل فيه لتصفية الماء وترويقه حتى لا يخرج الى عموم البلد الا
بعد انتهاء ترويقه وهاته البلدة موقعها على البحر وهو غربيها وهي من المراسي الشهيرة
للتجارة والحرب وقد بني بها ميناء مأمنا للسفن ذات حوضين قيل أنفق عليها مائة وعشرون
مليونا فرنكا وبها مرفى للسفن ولانشائها ولما وصلنا الى البلد وجدنا الوزير حسين الذي
قصدنا البلد لاجله غائبا في فرنسا فنزلنا بدار سكناه حيث كان تابعه هنالك ثم ودعت
صديقي الشيخ سالم أبو حاجب حيث كانت مأموريته هنالك وركبت بكرى ليلة وصولنا

قاصدا الوزير المذكور في بلد فيرينسا وأبقيت غالب رحلي وأحد تابعي هنالك لاحتمال العود فسرنا في الرتل ثلاث ساعات وكان حول ليفورنو بعض غياض ليست حسنة جدا ومررنا على بلد بيزة مناخ علم الطب سابقا فاذا هي من مدن ايطاليا الشهيرة ويخترقها نهر وحوله منارة وقد انفردت هاته البلدة بشيئين أولهما أغرب شئ من مباني العالم وهو الصومعة الوحيدة المائلة فان هاته الصومعة يراها الناظر مائلة ميلا كليا الى جهة الجنوب حتى يخالها انها ساقطة لامحالة وهي ليست بمرتفعة جدا وبناؤها من حجارة منقوشة ومرمر ودرجها كل في قطعة واحدة من المرمر وهي في وسط بطحاء قرب كنيسة وأسفل قاعدتها مائل أيضا غائر في الارض من جهة الميلان ومرتفع من مقابله وقد اختلف النقل في سبب ميلانها فقيل انها بنيت كذلك وهو من مهارة صناعها ومعرفتهم بفن الاثقال وقيل انها بعدما بنيت انخفضت بها الارض من احدى جهاتها فمالت وعلى كل فسبب عدم سقوطها هو عدم خروج قطر محيطها بالميلان عن مركز قطبها والحاصل انها من عجائب المناظر وقيل ان ميلان أعلاها عن مساواة أسفلها أربع ميترات ومثلها في الميلان صومعة أخرى خارج البلد جهة الشرق لكنها ليست في اتقان الاولى ولا في ارتفاعها وقد بني حولها بناء ملاصق لها لتوقع سقوطها وبقي أثر الميلان ظاهرا وثاني الشيئين الغريبين الكنيسة وهي ليست بكبيرة ولكنها كثيرة التانق والرونق سيما من ظاهرها وزيادة غرابتها في الصدى الذي يحصل فيها من الاصوات اذ يدوم فيها الصدى ويعتلي على وجه خارق للمعتاد والسبب فيه شكل البناء وطلي الحيطان وبعد أن جاوزنا بيزة بدلت الارض غير الارض التي عهدنا منظرها في بلادنا وما مررنا عليه من كيفية العمران واتصاله واتقانه ولا يوفي الوصف والقلم بتصويره وتقريبه وبالجملة فليس ان كل قطعة من العمران لم نعهدها بل عهدنا مثلها ولنا قطع تضاهي أفراد تلك القطع سواء كانت في البساتين أو في القصور والتي بها أو في اثارة الارض وتعميرها لكن الذي لم يعهد لنا هو اتصال ذلك العمران وامتداده وتماثله الى ما لا يحيط به البصر مع تحسين جهات الاتصال العامة فانها تحدث من ذلك هيئة اجتماعية لها اعتبار زائد فوق اعتبار قطيعات منفردة وان بلغت من الاتقان ما بلغت ثم وصلنا الى فيرينسا فاذا موقف الرتل بها جميل انيق واذا البلد وسيعة لكن طرقها القديمة ضيقة وأما الجديدة فواسعة شديدة النظافة وتهذيب أخلاق السكان والحضارة ويخترقها نهر على جانبيه رصيف منحوت وفي مجرى الماء

عرضا

عرضاء وارض مبنية لحصر الماء كي يكون عمقه حذاء محدودا وانشأ من ذلك خرير عظيم له دوي وعلى جانب النهر منتزه عمومي ممتد أزيد من ميل وبه فوارات وحدائق وأنوار وفي نهاية المنتزه عند ملتقى النهر المذكور بجدول صغير بطحاء بها قبة من رخام صغيرة بلا حيطان مرفوعة على اسطوانات جيدة رخامية عالية على الارض وبوسطها صورة مجسمة من الرخام لاحد أمراء الهند الشبان وملونة بلونه ولون ثيابه الرسمي وكان ذلك الامير سائحا في أوروبا بعد زيارته لمالكة الانكليز متداويا فلما حل بفيرينسا مات وكان مجوسيا فأرسلت عائلته مكلفا انكليزيا بالرسم صورته في ذلك المحل الذي أحرقت جثته فيه على عادة الجنس ودفن رماده تحتها وكان من عاداتهم ان مكان الاحراق يكون في ملتقى نهرين فلذلك فعل به ذلك هنالك وجعل على ذلك المحل قيم ووقف وكان ذلك في عشرة التسعين والمائتين وألف وفي حدود البلدة من الجنوب منتزه آخر في جبل مرتفع نزه جدا ذو بساتين وقصور وطرق وسيعة سهلة الصعود بالكراريس وفي منتهى ارتفاعه بطحاء وسيعة ذات مصاطب ومنازه وبقربها كنيسة قديمة مرصفة الحيطان من خارج بالرخام الابيض والاسود تقصد بالتفرج وجملة ذلك الجبل منتزه ولما صعدت الى هنالك أحسست ببرد شديد لارتفاعه وابرد الزمن ومن أحسن ما بالبلد قصر القلريه الذي به بيت أغلب حيطانه من البلور وهو قصر ضخم وبه من التصاوير المرسومة في الخرق المنسوجة مع الذهب وفي الورق شئ كثير وكذلك المجسدة من الحجر والنحاس وقال بعضهم أن مجموعها مليون من التصاوير كلها في غاية الاتقان تعتني لها المصورون من الآفاق لتقليدها ومما بها من التصاوير صور الملوك من جميع الآفاق في اعصار مختلفة ومنها صورة محمد باشا الاول والي تونس ويتصل هذا القصر بقصر سكنى الملك عند استقراره الحكومة هنالك وهو قصر كبير ليس بغريب أصله لاحد السكان فاشترى منه لاستقرار الملك وهو لا زال مشتملا على جميع المرافق مثل ما تقدم في قصر نابلي ومن غرائب البلد ارتفاع قبة كنيسة بها مبنية من ظاهرها بالرخام الابيض والاسود على أتقن صناعة وبها من الاسطوانات الجيدة اللاصقة بذلك الرخام ومن النقش الغريب فيه ما جعلها من أتقن البناآت وارتفاع القبة مائة وسبعة عشر ميترو وبازائها صومعة جيدة ارتفاعها سبعة وسبعون ميترو وهي في البناء على نحو الكنيسة وبالجهة الغربية منها صومعة أخرى أعلى منها ومن القبة أيضا وبالبلدة عدة ملاهي حسنة وقد اشتد البرد في هاته البلدة بالنسبة لما اعتدناه وقد أقمت بها ضيفا

* عند صديقي الوزير حسين التونسي وترجمة هذا الوزير باختصار هو رجل من
الجراكسة أتى الى تونس وسنه دون العشرة فربي في سراية الوالي حسين باشا وأدخل
الى مكتب المهندسين العسكرية فحصل مشاركة جيدة في النحو والادب والفقه
ومهارة في الفنون العسكرية واجادة للغة الفرانساوية ثم وظف في عساكر الخيالة
بمعية أمير لوائها اذذاك خير الدين باشا وسافر معه الى فرانسا في خصام محمود بن عياد في
ولاية أحمد باشا ثم ولي رياسة المجلس البلدي بحاضرة تونس وأحدث في الحاضرة
اصلاحات عديدة في ولاية محمد باشا ثم عند ولاية الصادق باشا ولي رئاسة مجلس
الجنايات ومستشارية الوزارة الكبرى وعضوية المجلس الخاص والمجلس الاكبر ثم
استعفى من الجميع عند ايقاف القوانين ورحل الى أوروبا وساح سياحات وسيعة اذ كان
قد لا عرف أكثر ممالك أوربا كالمانيا والدنمرك والسويد وهلاندا والبلجيك وايطاليا
وفرانسا وانكلترة والجزائر والاستانة في سفارته منفردا أو مع خير الدين باشا سفيرا عن
الوالي المذكور وعند استعفائه المذكور رحل الى المغرب واسبانيا والنمسا والروسيا
وأمريكا ومصر والحجاز ثم استدعته الحكومة عند ولاية خير الدين وزيرا مباشرا
هو وغيره ممن ابتعدوا عنها فولي مستشارا في القسم الثاني من الوزارة ثم سافر الى ايطاليا
لخصام ورثة نسيم في حساب مورثهم مع الحكومة التونسية كما تقدم وأقام بليفورنو
حيث مات المورث ولا زال في الخصام الى الآن ثم لقب بوزير الاستشارة ومستشار
المعارف وهو ذو أخلاق كريمة وصفات عظيمة ومعارف وسيعة وفصاحة مرعية له عدة
رسائل في كثير من المسائل وكانت اقامتي عنده في فيرينسا في احدى منازل المسافرين
الضخمة قريبا من النهر واجتمعت بأشهر حكماء البلد المسمى شيف وبعد ان استقرأ
تقرير المرض واستخبر الجسم أشار الى مضمون كلامه ان المرض ليس بمخوف كما انه
من الامراض المزمنة وانه يدافع بترتيب المعيشة في الاكل والمسكن وارتياح الفكر
والبدن والابتعاد من هواء البحر وحسن سكنى الجبال وان كثرة الادوية مضر قليل
الجدوى ولقد صدق ثم طلبت تلغرافيا بقية رحلي وتابعي وسافرت قاصدا باريس مارا *
على تورين للاستراحة بها فركبنا الرتل صباحا ومررنا في الوهاد نحو الساعة على
ذلك المنظر البديع ثم تصاعدنا في الجبال وكان للرتل حينئذ مزجيتان ومهما ازددنا
تقدما في الارتفاع الا وازداد المنظر بهجة ورونقا الى أن انتهينا في الصعود فكان
منظرا ترتاح له النفوس ويجلي عن القلوب كل بؤس فياله من جمال ويالله من

بدائع

بدائع صنع بتكوينه وبخلقه باجمال الرجال فالقرى البهجة منتثرة على مد الابصار
والاشجار تمد أغصانها لتناول الدراري من الافلاك تخالها بقايا قد انتثرت
منها من الثمار اذ قد استعوضت عن خضرتها الزبرجدية بالثلوج الياقوتية
والارض والجبال قد بسط عليها بساط الفضة الزلال مع الاتقان في تنضيد الاشجار
واثارة الارض بالحرث وتدفق المياه من ينابيع العيون وسيول أمياه الثلوج المذابة
المنحدرة في جداول ثم نهيرات ثم أنهر متبحرة ولا يسير الرتل نصف ساعة الا ويقف على قرية
نضرة وتارة يمر حذو رواشن القصور وأخرى حول سطوح الديار وطورا ترى البلدان
تحتك في أسفل سافلين وهكذا مناظر بديعة مختلفة تتوالى كل لحظة ثلاث ساعات في
الجبال وعلى الاجمال أن السفر في جبال أوروبا المتمدنة ذات العمران ليس له من لذة
عندي توازيه سيما مع الركوب في الرتل في الطبقة الاولى في مخدع منفرد للشخص
وأصحابه وعلى الخصوص اذا كان معه صديق يساجله في سائر المقاصد فان ذلك من نعم
الدنيا الكبرى ومن هناك حجبت عنا الشمس بكثرة الابخرة المتصاعدة من الجبال
والثلوج ثم نزلنا الى الوهاد بعد ان جزنا في الجبال الصعود ونزولا خمسة وأربعين نفقا منها
ما يسير فيه الرتل عشرة دقائق ومنها ما يسير فيه دقيقتين وكل نفق مظلم ويشتد ظلامه ويخف
حسب طوله وبعد ان سرنا في الوهاد نحو ساعة وتركنا نزول الثلج وصلنا الى بلد بولونيا *
وهي بلدة ضخمة لكن أبنيتها وطرقها ليست بجميلة سيما القديم منها وأغلبها على ذلك
الضرب وانعم بها منتزهات نزهة وأغلب الطرق يحفها يمينا وشمالا الاروقات لشدة حرها صيفا
وشدة بردها وكثرة ثلجها شتاء فتتقي المارة بتلك الاروقات وفيها موقف للرتل عظيم
جدا لانها مناخ للتجارة لتوسطها بين بقية ممالك ايطاليا وسفيسرة وفرانسا والنمسا
والمانيا فترد اليها الارتال من الجميع ونزلنا في الموقف وتغدينا في محل الاكل هناك
وكان وقوف الرتل نصف ساعة ثم سرنا الى تورين في ذلك المنظر البهيج المنبسط على الوهاد
لكثرة اتقان الزراعة واثارة الارض وتعميرها وكثرة الابنية في الاراضي الزراعية كل
ذي أرض له فيها بناء مع تحسين شكله وتزيين ظاهره ومع ذلك منظر الجمال في الجبال
ابهج وعندما أراد الليل أن يسدل حجابه تبدى وجه الغزالة محمرا من برقع السحاب على وجه
الافق فياله من منظر بديع يشهد للباري تعالى بحسن الصنيع وما ودعنا نور الشمس
الا بعدما استخلف ضياء البدر المنير اذ كان ذلك أواسط شهر ذي القعدة فتفضض الافق
والنواحي ببريق البدر وكان جمال الليل مزهرا في تلك المناظر الجميلة مستمرا الى أن

وصلنا الى موقف الرتل بتورين بعد نصف الليل فاذا بذلك الموقف أبهى وأبهج وأضخم
من جميع ما رأيناه سابقا واستمر سير الرتل من مبادي متعلقات الموقف الى ان استغرقنه
أزيد من عشرة دقائق فكنت ترى فيه المزجيات والمركبات منبثة فى جميع الجهات
ماشية لاركابها والرتل وارد وصادر من كل أوب ومحل نزول الركاب هو ساحة عظيمة
مرفوع سقفها على أعمدة من الحديد المستطيلة من قضبان من الحديد مرصف فيها
الزجاج والفوانيس موقودة بالغاز تضيء كالنهار فاسترحنا فى بيت الجلوس الى ان نزل
رحلنا فى الكمرك وفعلوا فى تفتيشه ما فعل فى البلدان السابقة ثم ركبنا احد الكراريس
الكبيرة المعدة لنقل الركاب الى منازل المسافرين لان كل منزل كبير له كراريس كبيرة
تسع الواحدة ثمانية من الركاب فما فوق تحملهم من المواقف الى المنزل والعكس
وذهبنا الى المنزل فلم نجده لائقا فانتقلت الى منزل آخر حسن وأقمت بهاته البلدة
يومين وهي مصر عظيمة ذات اتقان فى الابنية والمساكن والطرق ومن خصائصها
أن طرقها تكاد أن تكون كلها متقابلة تتقاطع على التربيع بزوايا مستوية كما أن من
سماتها ان طرقها تكاد أن تكون كلها محفوفة برواقات يمينا وشمالا القائمة
سقوفها على أعمدة من البناء أو الحجارة المنحوتة ولا يمشي الراجل الا تحتها وفوقها أبنية
القصور والمساكن واليها تفتح أبواب الحوانيت والديار وغيرها وأواسط الطرق
للركاب أو العابر من جهة الى أخرى وأعظم بطاحها البطحاء التي امام قصر الملك وهي
متسعة جدا فى صدرها القصر الملكي وعلى جانبيها مساكن للعساكر والجهة الرابعة
قبالة القصر فى وسطها طريق كبير وعن يمينه وشماله ديار ومنزل المسافرين
الذي نزلنا فيه وفى وسط البطحاء فوارات وأول ما رأيت الترموي فى هاته البلدة وهو
مركبة ذات عجلات صغيرة من حديد تجري فى صفيحات من الحديد غائرة فى الارض ممتدة
مع الطريق الى نهايته مايريدون ايصال السير اليه ويجرها اثنان من الخيل ولهم فى
كيفية ادارتها عند الوصول الى نهاية الطريق كي ترجع الى المكان الذي ابتدأت منه
كيفيات فاحديها ان فى محل الادارة يكون وقوفها على دائرة من الحديد ذات قطب
تدور عليه بسهولة فبادارة الدائرة تدور المركبة وثانيتها ان المركبة يكون مقدمها
ومؤخرها سواء فعند بلوغ النهاية من الطريق تحل الخيل الجارة من تلك الجهة ثم
تربط من الجهة التي كانت مؤخرا وتسير المركبة راجعة الى المكان الذي ابتدأت منه
وثالثها أن تكون الصفائح التي تجري فيها العجلات فى نهاية الطريق مرسومة على نحو

دائرة متسعة فتدور بها الخيل الى أن تعود الى الطريق الذي جاءت منه وكل كيفية من
هاته فى طريق خاصة وبلد خاص وسبب استعمال هذا الطرقه ولتسهيل جر المركبة على
كبرها اذ يركب بها نحو العشرين نسمة فى داخلها وعلى سطحها نحو نصفهم ولا يجرها
سوى فرسين وهي وسيلة كبرى لترخيص أجرة الركوب وسهولة الانتقال فيقف فى
مراكز معلومة كما تقف لكل من يطلب الوقوف للركوب أو النزول ويؤدي الاجرة
زهيدة نحو ثلاثين سانتيم أي ثلاثين من تجزئة الفرنك الى مائة هذا اذا كان المكان
بعيدا وأما اذا كان قريبا فبنصف ذلك المقدار والقرب والبعد على حسب اتساع البلد
وامتداد ذلك الطريق لكن القريب على كل حال لا يقصر عن الميل وهاته البلدة بها نهر
عظيم ومنظره خارج البلد بهيج وبقربه فى احدى تلك الجهات منزه عمومي كبير نزه وجبل
به أماكن للاكل والقهاوي وقصر الملك حسن جدا وكبير متسع موثق فى تزويقه
بالذهب والالوان وبه جميع فرشه وحوائجه وقد كانت هاته البلدة هي قاعدة مملكة
الساردو الذي استولى على جميع ايطاليا واتحدت أخيرا تحت ملكها وبها خزنة للكتب
عظيمة جدا وعند ما دخلتها علمت كبير الفرق بين أهالي هاته البلاد وأهالي نابلي فان
الثانية لما دخلت خزنة كتبها لم أجد الا أفرادا لا يتجاوزون جمع القلة وهاته لما دخلت
الى خزنة كتبها وجدتها مفعمة بعينات من الرجال وقليل من النساء كل منهم منكب على
المطالعة فى كتاب ولا تجد حسا الواحد الا همسا لكي لا يشوشوا على بعضهم فمن مطالع
ومن مقابل ومن ناسخ ومن مفكر والكتاب بين يديه فعلمت ان أهالي هاته البلدة
معارفهم أوسع وسوقها لديهم أروج وذات الخزنة كتبها أكثر مما رأيته سابقا وبها
مصاحف كريمة ذات خطوط أعجمية أنيقة مذهبة ومونقة للغاية القصوى ولها
صناديق وجهها وسقفها من الزجاج مقفولة لحفظها ولا يحلها الا القيم عند التأكد
ففتحها لي وتشرفت بها ثم رحلنا من هاته البلدة قاصدين باريس فى مرحلة واحدة ولما
كانت المرحلة بعيدة آثرت كراء مخدع فى الرتل ذي فرش ومستراح ولزم لذلك اعلام
مدير الرتل من قبل وقت الركوب لكي يحضره على الصفة التي نريدها ولكي يعلم موقف
الرتل فى حدود فرانسا باحضاره مثله فى رتلهم حيث ان الركاب ينتقلون هنالك من الرتل
الطلياني الى الرتل الفرانساوي فركبنا فى الساعة الثامنة بعد الظهر ليلا فى مركبة ذات
مخدع له ثلاث مساطب فرشها حريرية وكل مسطبة تنفتح فتستطيل الى أن تصير فراشا له
وسادة وقد اخترتها بحيث يكون الراكب فيها مواجها الى جهة السير لان عكسه يورث لي

دوارا وفى وسط المخدع باب يدخل منه الى محل ذى مستراح فى أحد جهتيه ومقابله محل ذو أنبوب للماء ينفتح و ينغلق يجرى منه الماء وذو اناء ينزل منه الماء المغسول به وبه مرآة بحيث يستطيع الانسان التوضى هنالك واصلاح لبس ثيابه وفى المخدع أيضا مرآة ومائدة تنفتح من جهة الحائط الموالى لمحل المرافق حتى ان الانسان يقضى هنالك جميع حاجاته بغاية الراحة واغار فمنا معنا مناديل الوضوء وبيت ابرة لمعرفة القبلة فى صندوق صغير من الجلد فيه بعض الثياب ومناديل الانف واذا حان وقت الصلاة نصلى بلا تعب سوى ان الاتباع ينزوون الى جهة غير القبلة ولمثل هذا الاطلاق يتحرى الانسان فى الركوب مع الرفقاء لكى لا يكون عليه حرج فيما يريد كما انه اذا حان وقت الاكل و وقف الرتل فى احدى المواقف على البلدان تنزل الى محل الاكل فتجد فيه ألوان الطعام والفواكه فنشترى مانريد ونحمله الى مخدعنا لكى نأكل بالاستراحة اذ الاكل فى المواقف يلزم أن يكون عاجلا خوف سفر الرتل والرتل ولان كان يقف بعد كل نحو نصف ساعة أو ساعة على البلدان غيران وقوفه لا يطول الا بقدر ما ينزل الركاب القاصدين تلك البلدة و يركب منها غيرهم أو أخذ المرجية الماء أو الفحم أو ابدالها بغيرها اذا تمت ساعات نوبتها بحيث ان الحصة أطولها عشر دقائق (أما) فى وقتى العشاء والفطور فيقف الرتل نصف ساعة أو أزيد بقليل ويعلم الركاب جميع ذلك من المنادى الذى ينادى عند وقوف الرتل رافعا صوته بقوله بلد كذا و يسمى البلد الذى وقف عليه وكذا دقائق أى يقف كذا دقائق و يفتح الابواب للمركبات فينزل من يريد النزول ولو لقضاء ضرورة و يرجعون على عجل واستمر بنا السير الى أن وصلنا الجبال المثنى الشاهقة وطفق الرتل يجرى بين صعود ونفوذ فى انفاق واحدا بعد آخر الى أن جاز فى نفق استمر فى الجرى فيه خمسة وعشرين دقيقة غير أنه دون السير المعتاد وهو أطول نفق فى أوروبا وصناعته من عجائب صناعة الهندسة اذ هذا الجبل واقع فى الحد بين فرانسا و ايطاليا فناحيته الشرقية الجنوبية الى ايطاليا والشمالية الغربية الى فرانسا ولما أرادوا وصل الطرق الحديديه اتفقوا على خرق الجبل فجعلت عملة كل من الجنسين تشتغل من جهتهم وبعد الاشتغال بضع سنين اتصل العاملون بعضهم ببعض على خط مستقيم والحال ان طوله تسعة أميال تقريبا وتنور فيه فوانيس ليلا ونهارا ويقيم به حراس لتفقد الطريق ولهم مساكن مغدوية وأماكن وسيعة لوضع الضروريات التى يحتاج اليها اصلاح الطريق ومراكز السلك التلكهربا والرتل لا يدخل الا اذا رأى علامة الحارس بالاذن بالدخول وبينما

كنا

كنا سائرين فيه واذا برتل آخر مقبلا من فرانسا ذاهب الى ايطاليا فمرا منعكسين متحاذيين مع اشتداد دوى العجلات والصدى والظلمة وسرعة السير فكان منظرا هائلا واشتد البرد هنالك اشتدادا خارقا للعادة حتى أن بخار النفس كان يجمد على شاربى وزجاج طواقى المخدع كان يجمد عليه بخارنا الى أن يمنع الضوء وينكسر بالتكسير قطعا كالجليد وأيقظتنى شدة البرد من النوم مع التردى بالثياب الثخينة الصوفية وأحدها مستبطن بجلد الفراء العالى وفى المخدع قنوات من النحاس ملآنة بالماء الحار جدا ملفوفة فى خرق من الصوف وعندما وصلنا الى بلد مودان أول موقف الرتل من جهة فرانسا نزلنا للانتقال للرتل الفرنساوى وابتدأ الامر فيما شاهدته بفرانسا فلنعد الآن لبقية الكلام على ايطاليا فانى عدت اليها ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م وزدت معرفة بالبلدان التى سنذكرها وهى ابرندزى التى هى أكبر المراسى جهة شرقى ايطاليا ولها من حسن وحصون و بقية البلد ليست الاقرية محتوية على لوازم أهلها وأقمت بها ليلة ثم توجهت الى بارى وهى مرسى أيضا دون الاولى ولكنها أكبر منها بلادا وأحسن حضارة سيما الابنية الجديدة التى لها اتقان فى انتظام الطرق وسعتها وأقمت بها ليلة ثم توجهت الى بولونيا وقد مر ذكرها وجميع مامررنا عليه كان فى غاية العمران والانتظام فى الزراعة وكثرة الشجر من الزيتون المعمر بجميع تلك الارض مع بعض غلال أخرى شتى وجميعها يسقى بالنواعير من الآبار بادارة الدواب حميرا وخيلا وبغالا وكذلك القرى كانت كثيرة منتشرة وحيث كان مرورنا وقت الحصاد صيفا كنا نرى جميع الجهات مشتغلا أهلها فبعضهم يحصد الزرع حتى الذى تحت أشجار الزيتون وآخرون يتبعونهم بسقى الارض وفى أثرهم آخرون يثيرون بالحرث ماجف من الارض وهكذا بحيث لا تبقى الارض مدة بوارا ويزرعون فى بعض الجهات اذ ذاك بقولا بحيث يصح أن يقال ان الجهة الشرقية من ايطاليا أعمر من الغربية وبعد اقامتى ليلة فى بولونيا توجهت الى قرية منتكاتينى التى بها مياه معدنيه عليها حمامات تهرع اليها الاهالى صيفا لنفع المياه وفيها شئ من التحسين غير أنها شديدة الحر لاكتنافها بالجبال المعمورة بالقرى والاشجار ذات الغلال الصيفية والحاصل ان الجهات البعيدة عن البحر صيفا فى أوربا هى مساوية أو أشد حرا من شمال أفريقية ويشتد تعب الراكب فى الرتل من الحر لانه ان فتح الطواقى اسود لونه وربما أوذيت عيناه من الدخان والغبار بسرعة الرتل وان أغلقها حميت عليه نار الظى

وحالة البلدان فى الحر كما مر ولذلك لم تطل الاقامة هنالك وتوجهت الى ليفورنو التى هى
على البحر كما سبق وبقيت بها حتى توجهت منها السفينة ثم عدت اليها مارا على مدينة
ميلانو التى أعد فيها اذ ذاك معرض عام لمصنوعات ايطاليا ومخلوقاتها فاذا هى
أى ميلانو أجل بلاد ايطاليا وأكثر حضرية وانفردت بالسوق المسمى الغلارية الذى
هو فى غاية الجمال والبهجة ومن غرائبه انه توقد قبته الوسطى بزجيجة تمر على طريق
حديدية اسرعة الايقاد للبخار الغازى وهى مزجية صغيرة نحو ذراع طولا وأما المعرض
فهو انموذج من معرض باريس الآتى ذكره وانما هذا أصغر بكثير وخاص
بمتعلقات ايطاليا وشاهدت فيه تجربة جرار تل بالقوة الكهربائية السارية فى قضبان
طريق الحديد لكن التجربة افادت انهم لم يبلغوا المراد لحصول الوقوف احيانا عن غير
اختيار لكن بلغنى فيما بعد انه تم أمره فى المانيا وصار مشتغلا به

فصل

(فى تعريف ايطاليا)

(اعلم) ان ايطاليا قسم من أوربا الجنوبية وهى شبه جزيرة فى البحر الابيض تتصل
من جهتها الشمالية بالقارة فيحدها شمالا اسفيسره وفى الشمال الشرقى النمسا وفى
الشمال الغربى فرانسا وفى الغرب والجنوب البحر الابيض وفى الشرق بحر البنادقة
وهى على شكل مستطيل من الشمال الى الجنوب يميل الى الشرق على هيئة تشبه
جزمة ذات عقب ومهماز وقبالة منتهى أصابع القدم جزيرة صقلية المسماة الآن
بسيسيليا يفصل بينهما خليج ضيق يعرف بخليج مسينا وتبتدئ من الشمال من عرض
ستة وأربعين درجة وأربعين دقيقة وتمتد الى الجنوب الى عرض سبعة وثلاثين درجة
وخمسين دقيقة من العرض الشمالى وتبتدئ جهة الطول من باريس من الدرجة الثالثة
وخمس وأربعين دقيقة الى ستة عشرة درجة وخمس دقائق فنهاية طولها نحو الف ميل
وذلك من جبل مون بلانه الى رأس سبارتيفنتو وأما عرضها فيختلف جدا فمن جهة
الشمال نحو ثلاثمائة وستين ميلا ومن جهة الجنوب نحو مائة وخمسين ميلا وفى
بعض الجهات الوسطى نحو أربعين ميلا فقط ولها عدة جزائر أشهرها وأكبرها جزيرة
صقلية وجزيرة سردانيا ولها قرب تونس جزيرة بنتلريا فهى ذات شطوط وسيعة جدا
وبها كانت دولتها دولة بحرية وأما جبالها ففيها عدة سلاسل فمنها اجبال الپا وجبال البنين
وجبل

وجبل كورنو وهو أعلاها وارتفاعه على سطح البحر ٩٥٢٠ قدما وجبل فيليو وفيها
عدة جبال بلكانية منها ما انعدم وصار عوضا عن فوهة النار بحيرات مثل بحيرة رسيمين
وبرسيانو وبلسنا كلها فى الجبال وأما الباقى منها بلكانا فهو جبل الفوزوفيو وقرب نابلى
الذى ارتفاعه ١٢٠٠ ميترو وجبل اتنا فى سيسيليا وارتفاعه ٣٣١٣ ميترو
والثلج دائم عليه وجبل الترنبل فى جزائر ليبرى ويظن ان بين هاته الثلاثة منفذا تحت
الارض وبقرب نابلى عدة جبال تقذف بخارا كبريتيا وتسمى سلفتارو وبقرب ليفورنو
جبل يقذف بخارا مائيا ويسمى سوفيونى وأما انهارها فهى كثيرة لكنها لا تعظم جدا
لقربها من البحر واعظمها نهر بو الفاصل بينها وبين النمسا ونهر تيبر الذى يجرى الى رومة
ونهر آرنو المار على فيرينسا و بيزة وأديج جهة ولاية الترولو التابعة الى النمسا وغيرها
وكلها لا تحمل السفن الا القوارب الصغيرة سوى الاول فانه يحمل القوارب الكبيرة وان
كان السير فيه صعبا لوجود جزائر رملية به نعم ان نهر اديج يحمل السفن من بلد تيرنتو
الى البحر وبها أيضا ترع صغيرة أشهرها الترعة التى بين بيزة وليفورنو تحمل القوارب
الصغار وكذلك الترعة الموصلة بين نهرى التيفر وارنو وبها أى ايطاليا عدة بحيرات
منها المسماة لاغوماجورى أى الكبرى وكومو وغاردا وليكو ولوغانو وايزيو وأما
هواؤها فهو جيد فى كل الجهات الا فى الجهات الوسطى حيث توجد مستنقعات المياه
المسماة بونتين فانها يحدث منها امراض عامة فى الصيف لاهالى البلاد ومنها رومية
كما تقدم وتوجد تلك المستنقعات أيضا قرب فينسيا وقرب نهر بو وفى ولاية كلابريا الجنوبية
ولازالوا مجتهدين فى ازالة تلك العوارض فان بلد ليفورنو كانت من أشد الاماكن
وخامة لذلك السبب وكان أهلها قليلين جدا فاجتهدوا فى تنشيف المياه ورغبوا فى
عمرانها حتى أعفوا الساكن بها عن كثير من الضرائب وصارت الآن لا بأس بها وانها
كثيرة العمران يتقدمها الناس صيفا من كثير الجهات العليا من شمال ايطاليا فانها متنزه
جيد وكذلك جهات نابلى وجزيرة صقلية والهواء فيها على الاجمال مائل الى الحر المعتدل
والصيف فى جنوبها طويل واذا هبت ريح السموم فعلت بها من المضرة بالجفاف ما تفعله
بتونس وأما شتاؤها فهو الى البرد اميل وأما نباتها فينبت بها الحبوب من القمح والشعير
والذرة فى جهاتها كلها والبطاطس ونبات التكرورى الذى يصنع منه الحبال
والكتان والقطن والفوة والعنب وتنفرد الجهة الجنوبية بالبرتقان والموز والنخيل
والهندى أى التين الشوكى والتبغ وقصب السكر وان كان النخل لا يثمر التمر وتنفرد

الجهة الشمالية بالارز والزعفران والقطن والحبة الحلواء والجوز كما يعم بها الزيتون والتفاح والكمثرى والاجاص والتوت والتين واللوز والفزدق وعروق رب السوس وبها عدة آجام وغابات غيرانها في الجهة الجنوبية مهملة وغير منتظمة واشجارها متفرقة وانواع هاته الاشجار هي الصفصاف والدردار وغيره مما تقدم ذكره في غابات تونس (وأما حيواناتها) ففيها الخيل لكنها قليلة واحسنها في فينسيا وما حولها ومنها نوع قصير جدا وحشي يوجد في جزائر سردانيا ومنها البغال وأكثرها في الجهات الجنوبيه وكذلك الحمير ومنها البقر والمعز والضأن بقلة والجاموس والخنزير ودود الحرير والنحل والسمك بأنواع شتى في الانهر والابحر ومن الحيوانات الوحشية الضبع والثعلب والذئب والخنزير البري وبقر الوحش والدب (وأما الطيور) ففيها أغلب ما في القطر التونسي وتزيد بالغيران بانواعه وأكثره أبلق اللون بين السود والبياض وهو أكثر ما رأيناه في البراري وهو ثقيل الطيران وحجمه أكبر من الحجل وأصغر من الدجاج وفيه أنواع حضرية كبيرة ولها الوان جميلة مفضضة ومذهبة كما توجد به الحشرات التي توجد في الاقاليم الحارة سيما في الجهة الجنوبية غير انها ليست بشديدة الخبث بالنسبة لحشرات أفريقيا ومن غريب حيواناتهم نوع من الكلاب يربى عند قسيسين في جبل صان برنانو في الجهة الشمالية الدائم فيه الثلج ومن خصائص هاته الكلاب انه اذا اشتد البرد وحدثت زوابع فالقسيسون يسرحون كلابهم وفي عنق كل واحد اناء صغير معلق مملوء بشيء من الارواح المسكرة الحادة وله انبوب ينفتح فتذهب تلك الكلاب وترود الجهات لعلها تجد انسانا على شفا الهلاك من البرد فتقرب منه وتمكنه مما برقبتها لكي يسخن به فان استطاع بعد ذلك الذهاب معها دلته على محل أصحابها وان رأته لم يتبعها ذهبت لاصحابها واعلمتهم بهيئة خاصة حتى يتبعونها ويخلصون الانسان من شدة البرد فتتفرق الكلاب على ذلك النحو وتكون سببا للنجاة من تطفر به وهؤلاء القسيسون لا يبيعون من اناث هذا النوع ليكون خاصا بهم (وأما معادنها) فليس فيها معادن كثيرة ولا غنية سوى شيء من الفحم الحجري في التوسكانه وقرب مسينة من سيسليا ونوع من الطين يشعل بعد التجفيف مثل الفحم الحجري وفيها زيت البترول أي النفط وفيها الحديد بكثرة في عدة جهات منها الماردية وسردانيا وسيسليا وكلابريا وجزيرة الباو وفيها النحاس في جبل لماردية وفي فينيسيا والباو وتوسكانا وفيها الرصاص أيضا في عدة جهات والزاوق والزنك ومعدن انتمونيو ومعدن منقنيز والكبريت

وأعظمه

وأعظمه في سيسليا قرب المدينة التي سيتا وهو الذي تشتغل منه جميع أوربا وفيها من معادن الحجارة كثير وغني فمنه الرخام الابيض الشفاف الذي تصنع منه التحف والمرمر الاحمر والرخام الاسود والبرسلانه والطين الملون والمرمر الرفيع والرخام الابيض المعتاد وفيها سباخ عديدة للملح ومعادن للجبة ومعدن التنكار الذي يشغله الصاغة وفيها مياه معدنيه كثيرة أهمها في ولاية البيمنت وولاية فينيسيا وولاية التوسكانا وفي نابلي وأشهر الجميع منتيكاتيني في التوسكانه (وأما مدن) هاته المملكة فقاعدتها رومة التي أخطت سنة ٧٥٣ قبل التاريخ المسيحي وموقعها كأنها متوسطة بين الجنوب والشمال في المملكة وتقرب الى الشاطئ الغربي وقد تقدمت صفتها وقد انقسمت هاته المملكة الآن باعتبار الادارة الى اثنتي عشرة ولاية كبرى لكل منها عدة أوطان فينقسم جميعها الى تسعة وستين وطنا كل وطن له مركز من المدن ويعرف باسمه فاما الولايات الكبرى فنذكرها باسمائها ونذكر عدد أقسامها فقط بدون ذكر لاسماء البلدان الاوطان الثانوية لطول الكلام وقلة الجدوى فالاولى من الولايات البيمنت وقاعدتها تورينو وسكانها ٢١٥٠٠٠ وبها اربعة أوطان وثانيها لماردية وقاعدتها ميلانو وسكانها ٢٦٣٠٠٠ ولها ستة أوطان وثالثها فينيسيا وقاعدتها مدينة فينيسيا التي أغلب طرقها خلجان بحرية يمرون فيها بالقوارب وسكانها ١٣٠٠٠٠ ولها تسعة أوطان ورابعها ليغوريا وقاعدتها جنوة وسكانها ١٣٠٠٠٠ ولها وطنان وخامسها أميليا وقاعدتها بولونيا وسكانها ١١٦٠٠٠ ولها تسعة أوطان وسادسها توسكانا وقاعدتها فيرينسا وسكانها ١٧٦٠٠٠ ولها سبعة أوطان وما تقدم كله جهة الشمال ثم في الوسط وسابعها ماركي وقاعدتها انكونة وسكانها ٤٦٠٠٠ ولها أربعة أوطان وثامنها الومبريا وتختها بروزه وسكانها ٥٠٠٠٠ ولها وطن واحد وتاسعها لاتسيو وقاعدتها رومة قاعدة الجميع وسكانها ٢٤٥٠٠٠ ولها وطن واحد ثم في الجنوب عاشرها نابلي وقاعدتها نابلي وسكانها ٤٠٠٠٠٠ ولها خمسة عشر وطنا وحادي عشرها سيسليا وقاعدتها بالرمو وسكانها ٢٢٠٠٠٠ ولها سبعة أوطان وثاني عشرها سردانيا وتختها كالاري وسكانها ٣٣٠٠٠ ولها وطنان (وأما مراسي) هاته المملكة فهي كثيرة فمنها جنوة في الشاطئ الغربي الشمالي ثم ما يأتي بليها جنوبا على الترتيب الآتي وهي اسبسيا ثم ليفورنو ثم شيفي تافيكيا ثم نابلي ثم كستلاماري التي هي أعظم الكل لاشتمالها على معمل كبير للسفن ولو

المدرعة ثم مسينا وهى فى الجنوب وهى حربية تجارية ثم تارنتو وفى شاطئها الشرقى على بحر اليونان ثم مرسى ابرنديزى ثم انكونة ثم فينيسيا وهما على بحر البنادقة فهاته هى المرامى الكبيرة وهناك غيرها كثير (وأما الاهالى) فعددهم على ما تحرر ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م تسعة وعشرون مليونا وهم فى الاصل من أبناء الاصليين وهم من الامم الذين ارتحلوا الى هناك من المشرق والشمال فى أوقات مختلفة ولكن صاروا بالاسرة جنسا واحدا يضاهم نفرة قليلة تحسان تامى الخلقة أهل جد فى الشغل وأهل الشمال منهم تقدمت فيهم الحضارة أكثر من أهل الجنوب اذ أهل الجنوب والوسط لا زال فيهم أناس على سذاجة تقرب من التوحش وكلهم على الديانة النصرانية على المذهب الكاتوليكى الا خمسة وثلاثين ألفا فهم على مذهب البروتستنت وثلاثة وعشرون الفا من اليهود ومن الاهالى ستون الفا من جنس الارناووط

فصل

(فى اجمال تاريخ ايطاليا)

مطلب

(فى تاريخها القديم)

(اعلم) ان أول ما تسمت ايطاليا بهذا الاسم حسبما وجد بتواريخ الرومان الاقدمين فى أواسط الالف الثانية قبل التاريخ المسيحى نسبة الى ملكها أحد العائلة التى أتت من المورة واسمه ايطاليوس وقد كانت من قبل ذلك تسمى ساتورينا وكانت مسكونة بأمم أصليين اسمهم أبوريجان ثم وفدت عليهم أمم فى أزمان مختلفة من اليونان وأهل الشمال وغيرهم وابتدأ فيهم ملك الرومان العظيم من المائة الثامنة قبل الميلاد وكان منشؤه فى مملكة رومية التى هى قطعة من ايطاليا وامتد شيأ فشيأ وتكاملت أوصاف الفخر فى الرومان تدريجا فى المائة الثانية والثالثة قبل الميلاد ثم اتحد تاريخ ايطاليا بتاريخ الرومان الى أن تسلط الرومان على غالب المعمور المعروف اذ ذاك تحت تسلط الدولة الجمهورية الرومانية ثم أبطلت الجمهورية وأحدثت الامبراطورية التى يلقب صاحبها بالقيصر قبل الميلاد بثلاثين سنة ودامت سلطنة عظيمة مع التقلبات والحروب الى أن انقسمت فى سنة ٣٩٥ مسيحية الى سلطنة غربية وهى الاصلية وسلطنة شرقية مقرها

فى سوريه وآسيا الصغرى وما والاها وأصحاب هاته هم المذكورون فى سورة الروم وهم المعنيون بذلك اللقب أى الروم والسلطنة الغربية التى مقرها ايطاليا تخربت وتسلط عليها أمم متعاقبون ثم دخلت تحت سلطنة المشرق ثم افتكها منهم أمة لومبارد لكن بقى للشرقيين الجهات الجنوبية وكانت تسمى السلطنة اليونانية أو الاغريقية أو الرومانية ثم انخرمت أيضا وتأسس تسلط البابا فى رومية من ١٠٤ هـ سنة ٧٢٢ م لكنها ما سلمت حتى ودعت فاستولى الفرانسيس على قسم من ايطاليا وقوم اللمباردى استولوا على قسم والسلطنة اليونانية على قسم وبقى البابا تحت ولاية الامبراطور شالمان ملك فرانسا وغيرها ثم استقلت ايطاليا وكان لها تاج خاص ووقعت انقلابات وانقسامات الى أن جدد ملك البابا ٤٦٦ هـ سنة ١٠٧٣ م وتم ذلك فى ٥٢٦ هـ سنة ١١٣١ م حيث تأسست مملكة الصقليتين واضمحلت بقية السلطنة اليونانية وغيرها وصار ملكها اجير الاول تابعا للبابا ثم ثارت الثورات فى عدة جهات وانقسمت ايطاليا أقساما بعضها جمهورى وبعضها ملكى وتعاقبوا على رومية مقر سلطنة البابا ونفوه منها وحدث فى الجنوب مملكة صقلية التى كان المسلمون استولوا على جانب كبير منها بعبورهم البحر من تونس واستولى فتح قسم منها القاضى الامام أسد بن الفرات فقد كان جامعا بين علوم السياسة والحرب والشرع وتوفى هناك رحمه الله ثم بعد مدة تغلب النصارى عليها كما أن الجهة الجنوبية أيضا نشأ بها مملكة نابلى ثم رجع البابوات الى ايطاليا من نفيهم الى فرانسا سبعين سنة ولم ينجع الاهالى فى ابعاد الاجانب من الاستيلاء عليهم مع الجهد فيه وتعاظمت حروب فرانسا واسبانيا على الاستيلاء على ايطاليا الى ان تم الامر الى اسبانيا ٩١١ هـ سنة ١٥٠٥ م ولم يخرج عليها الا البندقية ثم تقهقرت اسبانيا هناك تدريجا ثم تغير الحال فى حروب نابليون الاول امبراطور الفرانسيس أوائل القرن الحالى هجرى وأولى الامبراطور على ايطاليا أخاه ثم صهره ولم يبق خارجا عنها الا صقلية تحت حكم أحد عائلة البربون وكذلك سردانيا تحت حكم أحد عائلة ساقويا ثم عند سقوط الامبراطور المذكور ١٢٣٠ هـ سنة ١٨١٤ م انقسمت ايطاليا الى سبع ممالك كل منها مستقل وهى مملكة رومية تحت حكم البابا الروحى والملكى ومملكة سردانيا تحت حكم عائلة ساقويا ويتبع الجزيرة قسم من القارة الشمالية الغربية ومملكة اللمبارديه تحت ولاية امبراطور النمسا ومملكة بارمة تحت ولاية نسل امرأة نابليون الاول ومملكة مودينا تحت ولاية دولة من عائلة امبراطور

النمسا ومملكة توسكانا تحت ولاية دوك من تلك العائلة أيضا ومملكة نابلى ويتبعها صقلية تحت ولاية أحد عائلة البربون

مطلب

﴿فى تاريخها الجديد﴾

اعلم ان دولة الساردو احدى الممالك المذكورة قد أسست القوانين والحرية الشخصية ومشاركة الامة فى السياسة الملكية من عهد شارل البرت المتولى ١٢٤٧ هـ سنة ١٨٣١ م وكان من همه استقلال ايطاليا واتحادها تحت علم الحرية لكنه لم يصادف رجالا ذوى همم تعين على المقصود الى أن تنازل عن الملك لولده فكتور امانويل ١٢٦٦ هـ سنة ١٨٤٩ م وكانت دولته لها التقدم من جهة القوة المعنوية لانها ذات قوانين وحرية عادلة وان كانت مملكة نابلى أعظم قوة صورية وأما بقية الاقسام فما كان منها تحت النمسا احسا او معنى فالاهالى نافرون منه وان كان بعضهم له الحرية والقوانين كما أن ما كان تحت البابا كان يجرى فيه الظلم بحسب الشهوات فدام الحال على ذلك الى ١٢٦٩ هـ سنة ١٨٥٢ م حيث وقعت الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا وتعاضدت فرانسا وانكلترة على اعانة الدولة العثمانية وكان ملك دولة الساردو المذكور ملكا عاقلا واستوزر وزيرا ذا دهاء وفطنة وهو كافور وكان يأتمنه ويثق اذا الى نصائحه كما ان الاهالى لهم اعتماد على صدقه ووفائه بحقوق الوطن وكان فيه من الاهلية ما أعانه على اتحاد ايطاليا بتدبيره وسعيه كما سيتلى عليك فقد عمل الجهد واتفق مع فرانسا على اعانة الدولة العثمانية فى الحرب المذكورة وأرسل عساكره البالغة اثنى عشرة ألف اوسفنه مع قوات الدولة الكبيرة وكان ذلك أول خطوة لايطاليا فى الدخول فى زمرة الدول العظام فى الاعصر الاخيرة ثم بعد وقوع الصلح وقع الاتفاق بين دولة الساردو ودولة فرانسا على اخراج ما بيد النمسا من ايطاليا وضمه الى دولة الساردو على أن تعطى هاته الى فرانسا وطنى ساقوى ونيس اللذان هما فى حدود فرانسا جهة ايطاليا حول الشامانى بدعوى أن أصلهما من جنس الفرانسيس وأسس نابليون الثالث ملك فرانسا من ذلك الوقت قاعدة اتحاد الجنسية أى ان كل جنس من البشر له حق الوحدة فى انشائه دولة مستقلة اذا كانت فيه أهلية لذلك وساعده على هذا المقصد كون مملكة فرانسا كلها جنسها متحد فرانساوى فلا يخشى على -

مملكته

مملكته من تلك القاعدة كما ان مستعمراتها يدعى ان ليس لاهلها أهلية لدعوى الوحدة وعند حصولها لهم لا يمنعهم من ذلك وعند اشهاره لهاته القاعدة وارادته الاعانة على انفاذها فى العالم كان عقلاء الفرانسيس معارضين له فيها ومن أشهر المضادين له تيرس ذو الشهرة بالتدبير والسياسة وكان يصرخ فى مجالس الندوة ان هاتيك القاعدة تؤل بالوبال على فرانسا الامن حيث الخوف من تفرق أهلها لانهم من جنس واحد ولكن من جهة تقوى جيرانها كايطاليا والمانيا فان الجار اذا كان ضعيفا لجاره القوى يكون آمنا منه بل يكون له النفوذ فيه بخلاف الجار القوى فانه يأبى الضيم ويقع معه التشاحن المؤدى الى الحرب التى تجهل عاقبتها فضلا عما تستلزمه من الخسائر المحققة فى الدماء والاموال غير أن صراخه لم يثمر شيأ لان دولة فرانسا فى مدة امبراطورية نابليون الثالث ولان كانت قانونية شورية ظاهرا فانها فى الباطن استبدادية فى السياسة العامة وكما ير يده الامبراطور يتم غرضه فيه ولذلك أعلنت دولة فرانسا بطلب النمسا أن تسلم فى الولايات الطليانية لدولة الساردو وأعلنت الحرب لذلك وتعاضدت فرانسا والساردو على حرب النمسا وحدها وقد كانت أنشئت جمعية أهلية طليانية تسمى جمعية وحدة ايطاليا تحت رياسة رجل منهم شهير بالشجاعة وحب الوطن وهو كاريبالدى وتعسكر تحته كثير من المتطوعين الطليانيين من جميع جهات ايطاليا وأعانوا الساردو والفرانسيس واستعرت الحرب وكان ملوك الدول الثلاث فى معسكراتهم وان كان قسم وحدة ايطاليا كله تحت رياسة امبراطور الفرانسيس وانخذلت النمسا ووقع الصلح المسمى بصلح زوريك نسبة للبلدة التى امضيت فيها الشروط وبمقتضاها سلم امبراطور النمسا فى مملكة لمبارديه الى امبراطور الفرانسيس وهو احالها الى ملك سردانيا كما سلم له هذا فى ولايتى نيس وساقوى باوذلك ١٢٧٦ هـ سنة ١٨٥٩ م وبينما كانت الحرب مستعرة فى ميادين لمبارديه واذا ببقية ايطاليا ثارت من جميع الجهات منادية بالوحدة تحت راية كاريبالدى الى ملك الساردو فاما الممالك الشمالية فعقدوا مجامع فى عدة مدن للتدبير فى أمرهم واستقر أمرهم على الاتحاد ورضيت به الامة فانخلع ملوكهم طوعا وسلمت ممالكهم الى ملك الساردو (وأما) الجهة الوسطى وهى مملكة رومية فخرج منها ولايتان اتحدتا مع بقية ايطاليا وبقيت مدينة رومة وما تبعها للبابا لان الفرانسيس أبى على الساردو اذاية البابا حيث ان الرهبان لهم نفوذ على العائلات العالية فى فرانسا والامبراطور يتقى جانبهم فالزم الساردو الحيادة عن البابا وأرسل الفرانسيس الى رومة لحماية البابا من

ثورة رعاياه قسما من العساكر الفرنساوية واسطولا على مرسى شيفى تاقيكيا (وأما الجهة
الجنوبية فثار أهلها أيضا ونادوا بالوحدة تحت راية كاريبالدى ثم وردت لهم عساكر
السارد و واشتدت الحرب مع ملك نابلى الى أن قهر وفر هاربا وتمت وحدة ايطاليا بذلك
١٢٧٧ ه سنة ١٨٦٠ م وقبل فيكتور امانويل الثانى الملقب بملك ايطاليا غير انه بقى
خارجا عنها بقية مملكة رومية و ولاية فينيسيا التى تحت النمسا الان امبراطور الفرانسيس
فى الحرب المار ذكرها استشعر بان الروسيا تريد الاعلان بالحرب ضده اذا طالت المدة فعجل
بايقاع شروط الصلح مغتنما بهجة النصر بما أمكن و بذلك وحماية الباب لم تتم منة
الفرانسيس على ايطاليا ثم ابتدئت على قاعدة الوحدة الجنسية المار ذكرها دعوى المانيا
التى كانت اذ ذاك تحت رياسة النمسا الحق فى الاستيلاء على ولايتى الهولستين
والشولسويغ اللتين هما من جنس الالمان و ولايتهما كانت بالوراثة راجعة الى
ملك الدانيمرك وأجرى فيهما قوانين مملكة الدانيمرك فادعت المانيا بلزوم اخراجهما
ولحوقهما بالمانيا وأعلنت بسبب ذلك الحرب بين دولة النمسا صاحبة الرياسة ومعها دولة
البروسيا التى هى أكبر دول المانيا و بين دولة الدانيمرك الصغيرة واستغاثت هاته بكبار
دول أوربا وكانت دولة انكلترة مع مصاهرة عائلتى الملك بينها و بين الدنيمرك مسلمة
بالحق للدنيمرك ومتيقنة بان حرب المانيا معها مضر بالآخرة بالموازنة الاروباوية
حتى قال اللورد بالمستون كبير وزراء انكلترة اذ ذاك ان هاته شرارة ألقيت فى أوربا
لا تلبث أن تشتعل منها نارا غير انه أحجم عن العمل لان فرانسا كانت مخالفة له ومضية
لقاعدة الوحدة فاشتبكت الحرب بين المانيا والدنيمرك وغلبت هاته فى أقرب وقت
وأخذت الولايتين منها غير انه اشتد النزاع فيما بعد بين النمسا و بروسيا وذلك أن المانيا
كما تقدم فى المقدمة منقسمة الى عدة ممالك وقد كانت الرياسة عليها متداولة بين دولتين
النمسا والبروسيا بحسب السطوة والاقتدار واستقرت مدة الرياسة بيد النمسا غير أن
الدولة البروسيانية حانقة من ذلك ولم تساعفها الاحوال للغرض وقد كان ولى عليها
ملك عاقل ذو خبرة وتبصر بالعواقب وهو افريدارك الكبير فاعطى الحرية للاهالى
من نفسه ومن ذلك الوقت أخذت بروسيا فى التقدم واتساع المعارف وكان من قوانينها
ان الاهالى كلهم تجب عليهم الخدمة العسكرية حتى انهم فى وقت الحرب يكونون كلهم
عساكر وبذلك صارت دولة حربية قوية أيضا غير انها مع ذلك لم تساعفها الظروف الحالية
لانفاذ مقصدها فى الاستيلاء على الرياسة الالمانية الى أن تولى الملك غليوم الملك الحالى

فاستوزر

فاستوزر رجلا ذا تبحر فى السياسة وجد فى العمل وهو الامير بزمرك وكان الملك عاملا
بافكاره حتى حصلت له ضدية من بطانة الملك وأهل بيته بل ومن مجلس نواب الامة
أيضا عند مارسم بوجوب الزيادة فى القوة العسكرية اذ علم انها الوسيلة لاتمام الامل
مع حسن اجراء السياسة فى الداخل والخارج لكن الملك لم يقبل فيه قول قائل لسيره
لافكاره ومقاصده حتى انه لما خالفه مجلس النواب أمر بحله وانتداب الامة الى
انتخاب غيره تحفظا على سياسة وزيره وبقى الوزير فى خطته وعمل بما رسمه ثم وقعت
الواقعة المشار اليها مع الدانيمرك و كانت دولة البروسيا أوعزت الى فرانسا استحسان
قاعدة الامبراطور نابليون الثالث فى وحدة الجنسية واطمعتها بفوائد لتساعدها
ولو معنى فقط على ابعاد النمسا من بقية المانيا كما أن بزمرك أوعز الى بقية ممالك
المانيا للتنفير من رياسة النمسا عليهم لانها ليست من جنسهم خاصة بل هى
مركبة من أعضاء متعددة وليس الالمان فيها الا جزأ من الاجزاء ودام اغراء
صدورهم الى أن أثر فيهم أشد التأثير ثم حصلت المنازعة بين النمسا والبروسيا على
الاستيلاء على الولايتين المأخوذتين من الدانيمرك وفى اثناء النزاع أغرت البروسيا دولة
ايطاليا بالمعاضدة معها لاخراج بقية ايطاليا من تحت النمسا فاعلنت الحرب بين البروسيا
ومعها ايطاليا و بين النمسا فكانت النمسا غالبة لايطاليا لكنها مغلوبة غلبا قطيعا
لبروسيا وذلك لان البروسيا كانت اخترعت نوعا من المكاحل مما يحشى من أسفله
و يثور بارودة باندفاع ابرة من أسفل المكحلة و يسمى هذا النوع المكحلة ذات الابرة
وكان أبعد مرمى وأسرع انطلاقا من النوع القديم بكثير فكانت عساكر النمسا يصيبهم
رميه وهم متوالى كالمطر الدافق من غير أن يصيب رميهم عدوهم ولو بواحدة وكان
صف العساكر يخر ميتا دفعة من قبل أن يتمكن من رمى عدوه الى أن ضجت عساكر النمسا
ولم يكن لهم من وجه للتخليص الا عقد الصلح بما طلبته البروسيا ومن العجب أن ذلك
السلاح كانت عساكر البروسيا مقلدة ومحاربة به للدانيمرك عند تعاضدهم مع النمسا
ولم يلتفت اليه أحد اذ ذاك ولا تهيأت النمسا لمقابلته فوقع الصلح ١٢٨٣ ه سنة
١٨٦٦ م على أن البروسيا تتولى تلك الولايتين وتدخل فيها أيضا مملكة الهانوفر
والهاس ودوكاتوناسو و بلد فرنكفورت الحرة وان تخرج النمسا عن رياسة العصبة
الجرمانية بالمرة وتبقى ممالك جرمانيا الشمالى منها داخل تحت رياسة البروسيا مستقل
بادارته والجنوبى منها له معاضدة مع البروسيا لكن ليس داخلا تحت رياستها تماما الى

أن وقعت الحرب مع فرانسا كما سيأتى فى محله كما تضمنت شروط الصلح أيضا تنازل
النمسا عن ولاية فينيسيا الى امبراطور الفرانسيس وهو سلمها للطليان وذلك لانه هو الذى
تداخل بالصلح عندما رأى قطاعة تقهقر النمسا ثم لما انهزمت فرانسا فى حربها مع المانيا
١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م واضطرت الى اخراج جيشها من رومة تم اتحاد ايطاليا بجعل
مدينة رومة تخت المملكة فدخلتها جيوش الملك فيكتورامانويل والثائرون بعد محاربة
ضعيفة من عساكر البابا وبقى البابا حاكما روحيا على الكاتوليك واتحد الحكم السياسى
لمملكة ايطاليا ولم يبق خارجا عنها سوى صان مرينو التى أهلها نحو سبعة آلاف نسمة
فانها مستقلة بنفسها وكذلك صان بيترو وهى كنيسة رومية الكبرى والفاتيكان وهو
محل استقرار البابا وبقيت قطعة أخرى على شاطئ البنادقة العليا الحاوية لمرسى ترست
تحت يد النمسا وفى نفوس الطليانيين الدعوى باستحقاقها ثم ان المزية فى ذلك الاتحاد
ولئن كانت الى الملك فيكتورامانويل لاجرائه للقوانين فى مملكته حتى أحبه سائر ايطاليا
وفاز بالشهرة بذلك وزيره كافور لمهارته وحزمه فى ادارة السياسة العامة وجلب المساعدة
من الخارج وتقديم الاهم فالاهم لكن للامة الطليانية أيضا الحظ الاوفر من ذلك الفخر
حيث هيأت نفسها واستعدت لانفاذ ذلك المراد بفتح بصائرها وتمييزها السقيم من المستقيم
ومعرفتها بما يؤول لخيرها حتى كانت تعقد لذلك الجمعيات السرية فى أقطار المملكة
وتتواصل المخابرات بينهم فى الاستعداد وغرس حب الوطن والنفرة من الضيم ومن تلك
الجمعيات الجمعية المسماة بالفرمسيون التى نهاية سعيها نشر الحرية من غير اذاية لاحد على
شروط عندهم وتحملت تلك الجمعيات مصاعب كبيرة فى عدة جهات ومع ذلك لم يفتر
عزمهم وآثروا النفع العام على حظوظهم الشخصية الى أن وجدوا يد المساعدة من دولة
الساردو والمستعدة لمساعدتهم فنادوا بها من جميع أطراف المملكة وكان كارى بالدى
مظهر وجود تلك الجمعيات التى كانت تنفق على متطوعيه كانفاق دولة على عساكرها وذلك
الزعيم لما تم مقصد ايطاليا رامت الدولة مكافأته بترقيته فى الرتب العالية فاحتسب عمله
لفخر بلاده وأبى قبول شئ ما مع احتياجه ومن أهم مساعدات البحث وجود قاعدة
نابليون الثالث المار ذكرها ويقال انها مؤسسة منه قصدا لانه يدعى بانه كان من أعضاء
الفرمسيون وانه لما كان منفيا بايطاليا وعد جماعته بالمساعدة اذا تولى ملك فرانسا
واعانته لها اعتبار عظيم لانها كسرت سورة النمسا ذات الشأن فلولم تقع مساعدة فرانسا
لكانت النمسا أول مخضد لشوكة الاتحاد ولو أنها ترى الحرب لاجل ذلك مع غيرها

(كنابلى مثلا) لانها تعلم ان المآل بالمضرة لها حسبما قيل أقسم بحكم فتنة فرانسا الا تفكر فى
ذلك لان احياء الامة بعد الاندثار وتغلب الدول العظيمة عليها لا يمكن بدون مساعدة
دولة ذات شأن واقتدار كما بينه الاستقراء ومن غرائب ما سمعته من جهة علوم الحدثان
هو أن نابليون الثالث زار ايطاليا اثر تمام اعانته لها وفى مسامرة الوليمة التى أعدت
له من ملك ايطاليا كانت امرأة عجوز من الاعيان حاضرة فاختلت بالامبراطور مع بعض
الاعيان المقربين اليه وقالت له هل وجدت ما قلته لك صدقا فقال نعم فقالت لكن
ما أدرى كيف الحال فى الباقى فنفطها وفض المجلس فسألها أحد الحاضرين عن معنى
كلامها فقالت انها تعلم نوعا من الحدثان وانها كانت أخبرت نابليون مدة هروبه بايطاليا
قبل ولايته على فرانسا بجميع ما يقع له ومنه أنه يخلع بعد حرب وقد بان وقتها ولذا قطع
الكلام وقد رويت هاته الحكاية عن ثقة قبل حرب فرانسا وبروسيا ١٢٨٧ هـ سنة
١٨٧٠ م فلم يطل الزمن حتى كان الامر كما ذكرت والله أعلم بكيفية علمها وما ذكر فان
بعض أنواع ذلك الفن لا يتوقف على صلاح ولا على دين بل كالغناء هو صناعة وفى مقدمة
ابن خلدون كفاية لبيان ذلك (وأما أسماء ملوك ايطاليا) فان لها الآن ملكان فقط
(الاول) فيكتورامانويل الثانى ابنه امبيرتو (وذلك) لقرب العهد بالاتحاد نعم ان الملك
الاول كان ملكا على الساردو وهو من عائلة ساقويا التى لها رسوخ فى الملك والامارة
من قديم

مطلب

﴿فى الادارة الداخلية﴾

(أعلم) ان الادارة عندهم منقسمة الى كليتين (الاولى) هى ما يتعلق بالادارة العامة
(والثانية) ما يتعلق باجراء الاحكام الشخصية (فكل) منهما ادارة مستقلة عن الاخرى
ولا دخل لها فيها وكل من الادارتين راجعة الى رئيس الدولة وهو الملك فدولة ايطاليا
دولة ملكية وللملك ادارة السياسة العامة داخلية وخارجية ورياسة القوات الحربية
برية كانت أو بحرية وعقد المعاهدات والحرب والصلح ورياسة الاحكام الشخصية
وتنفيذها لكنه لا يتصرف فى كل ذلك الا على مقتضى قانون مرتب معلوم وملخص
كليانه ان الملك يتصرف فى جميع ما تقدم بواسطة الوزراء وهو ينتخب الوزير الاول
أى صاحب رياسة الوزراء ويكلفه بأن ينتخب هو بقية الوزراء ممن توفرت فيهم شروط

الاهلية وبعد اختيارهم يعرضهم على الملك وهو يوظفهم في وزاراتهم وهي وزارة
الداخلية والخارجية والمال والاحكام والتجارة والمعارف والنافعة والديانة والحرب
والبحر وقد يتقلد رئيس الوزراء احدى تلك الوزارات مع الرياسة وقد يجمع بين
صغارها كالتجارة والنافعة والمعارف وكل وزير له حدود في ادارته يكون هو المسؤل عنها
(وهناك) مسائل تجتمع فيها المسؤلية على الجميع وما يستقر عليه رأى الوزراء منفردين
أو مجتمعين يمضيه الملك وان لم يره يعرضه على المجالس الآتي بيانها فان وافقوا الوزراء
امضى الملك وان خالفوهم وأصر الوزراء على رأيهم لزمهم الاستعفاء وينتخب الملك غيرهم
كما انه اذا وافق الملك الوزراء وخالفهم المجلس فللملك الخيار ان شاء انتخب وزراء آخرين
وان شاء حل المجلس واذن العامة بانتخاب غيره ومن حقوق الوزراء الحضور في مجلس
النواب والاعيان للمناضلة عن أعمالهم ثم وراء أعمال الوزراء مجلسان (أحدهما) يسمى
مجلس الاعيان ووظيفة أعضائه عمرية وينتخبهم الملك من عموم أهل المملكة لاعيان
وأعيان الموظفين وجميع أعضاء العائلة الملكية اذا بلغ الرجل منهم احدى وعشرين
سنة ولكن ليس له رأى وصوت يقبل الا اذا بلغ خمسا وعشرين سنة ولذلك لم يكن
عدد أعضاء المجلس محصورا وكان مقتضى قواعدهم أن يكون من أعضائه كبراء
الديانة لكنه لما كان البابا مضادا لملك اطاليا حيث نزع منه السلطة المملكية
كان جميع رؤساء الديانة مضادين للحكومة الطليانية ويرونها عاصية فلا يتداخلون
في أمرها بل لهم سعي في ابطالها واعادة سلطة البابا لكن العقلاء منهم الذين يؤثرون
نفع الامة عموما على حظ نفوسهم يعملون ما ذكر ظاهرا فقط قياما بوظائفهم الدينية
وأما باطنهم فهو مع الدولة (ووظيفة) هذا المجلس هو الرأى في الاحتساب على أعمال
سائر الموظفين وفصل النوازل التي يقع فيها الخصام بين الموظفين مما يرجع الى الوظيف
واستحسان أو استقباح ما يرد من مجلس النواب بحيث لا يمضى شئ من ترتيبه الا بعد
مصادقة مجلس الاعيان عليه وهو الحاكم في الجنايات السياسية (والمجلس الثاني)
هو مجلس النواب وأعضاؤه تنتخبهم الاهالي من عموم المملكة فكل قسم من المملكة
ينتخب عددا على قدر عدد سكانه بأن يكون على كل خمسة وثلاثين ألف نسمة عضو واحد
بشروط في الذين ينتخبون وأن يكون كل منهم ذكرا طليانيا بالغا من العمر خمسا وعشرين
سنة وأن يكون غير محجور عليه وأن يعرف القراءة والكتابة وأن يكون مؤديا للدولة
أربعين فرنكا في السنة من أي طريق كان من أنواع الاداء ويستثنى من هذا أقسام لهم

امتياز

امتياز بالعلم والتجارة فلهم الانتخاب مطلقا كما يشترط فيمن ينتخب لان يكون عضوا أن
يكون طليانيا وأن يعرف بالرشد وأن يبلغ ثلاثين سنة وأن لا يكون متوظفا له مرتب من
الدولة نعم يغتفر في الشرط الاخير اذا لم يبلغ عدد أهله في المجلس قدر الخمس ووظيفة هذا
المجلس هي المحافظة على القوانين الموجودة وتغيير ما يرى تغييره وتحرير ميزان الدخل
والخرج وترتيب كيفية توزيع دخل الدولة على الاهالي والاحتساب على جميع أعمال
الدولة ويوجد مجلس آخر يسمى مجلس الشورى ينتخب أعضاءه الملك من أعيان
الموظفين ووظيفة هذا المجلس هي اعطاء الرأى فيما يعرضه عليه الوزراء من المسائل
وتهذيب القوانين لتعرض على من له قبولها من المجالس ثم ان تنفيذ جميع الاعمال
مناط بالوزراء وهم المسؤلون عما يقع من الخلل بمباشرتهم أو بواسطة من يعينونه
للمباشرة في الوظائف ومسؤليتهم لمجلس النواب ولمجلس الاعيان فهذا هو ترتيب تصرفات
الدولة (وأما) الادارة في الولايات فقد تقدم ان المملكة منقسمة الى اثنتي عشرة ولاية
كبرى وكل منها لها أقسام حتى صار مجموعها تسعة وستين ولاية ثم الولايات في ذاتها لها
(أقسام) صغرى وهاته تحتها أقسام أصغر منها فلكل ولاية وال معين من الدولة وله
مجلس يسميه الملك ومدة وظيفتهم ليست محدودة وأموريتهم هي تنفيذ أوامر الدولة
وتنفيذ ما يستقر عليه رأى مجلس الولاية الآتي ذكره ولهم التدبر فيما يصلح بولايتهم
وامضائه بعد موافقة المجلس المذكور عليه وفي كل ولاية أيضا مجلس أعضاؤه تنتخبهم
الاهالي لمدة خمس سنين ويبدل خمسهم كل عام وعددهم على حسب عدد سكان الولاية
لكنهم لا يتجاوزون الستين نفسا فيما اذا كان عدد السكان أزيد من ستمائة ألف
وينقصون ان كان عدد السكان أقل ومدة اجتماعه مرة في السنة تدوم على قدر الحاجة
وأموريتهم هي تعيين المقادير اللازمة لمصاريف مصالح الايالة كتمهيد الطرقات وبناء
الجسور والمكاتب والمستشفيات وتحسين البلدان وغير ذلك وأول ما يعتبر في مقدار الدخل
المقدار الذي يحصل من الاوقاف المعينة لمصالح الولاية ثم ما يزيد عليه من المصاريف
يوزع على الاهالي على نسبة ما يدفعونه لمداخيل الدولة ومن وظائفه أيضا تعيين حدود
الولايات وتغييرها فيما بينها على حسب ما تقتضيه المصلحة (ويوجد) في كل ولاية
(أيضا) مجلس مركب من الاعضاء المنتخبين من تلك الولاية لمجلس النواب العام
وأموريتهم مستمرة ما داموا أعضاء لمجلس النواب وادارتهم هي قبض وصرف المبالغ
المعينة من المجلس السابق بواسطة الوالي ومجلسه ولهم الاطلاع على سائر أعمال المجالس

والمصالح المدارة فى ولايتهم ثم ان كل وطن تحت الولاية فيه نائب عن الوالى مأمور به
الاحتساب على أعمال المجالس البلدية الآتى ذكرها وايقاف ما يراه من أعمالهم
مخالفا للقوانين وانهاؤه الى الوالى ثم فى كل جهة وبلد مأمور من الدولة وله أعوان مكلف
بحفظ راحة السكان وحراستهم من الجنايات والمشاجرات وهم المعروفون بالضابطية كما
(يوجد) فى الاوطان أقسام من العساكر ومكلف بكيفية أخذ العساكر من الاهالى على
مقتضى القانون (وكذلك) يوجد فى كل بلد قرية أو مدينة مجلس بلدى لا تتجاوز أعضاؤه
الستين نفسا فى البلدان الكبيرة وينقصون فى غيرها على حسب كبرها تنتخبهم أهالى
البلد لمدة خمس سنين كما تقدم فى غيرهم وشروط انتخابهم كشروط مجلس النواب بنقصان
فى شرط مقدار الاداء للحكومة ومأموريتهم ما يتعلق بمصالح بلادهم والاحتساب على
الضابطية ومدة اجتماعهم مرتان فى السنة أو عند الاقتضاء ثم ينتخبون منهم لجنة لا تزيد
أعضاؤها على ستة ولا ينقصون عن أربعة بحسب عدد سكان البلد تحت رياسة شيخ
البلد لاجراء المصالح المتفق عليها فى بقية السنة ومن حقوق صاحب الملك أن يغلق
جميع المجالس المتقدم ذكرها اذا رأى ما يوجب ذلك بشرط أن ينتخب غيرهم هو فيما
يرجع الى انتخابه ويدعو الامة الى انتخاب من يرجع الى انتخابها فى مدة لا تتجاوز
الثلاثة أشهر وفى مدة التعطيل يكلف الملك من يجرى المصالح التى ترجع الى المجلس
المعطل وتكون عليه مسؤولية ما يجريه ولا يعزل صاحب وظيفة الا عن ذنب أو نقل لغيرها
فهذا كله فى القسم الاول من الادارة وهو الادارة السياسية (وأما) القسم الثانى
وهو الادارة الحكمية فان فى كل بلد مجلسا يحكم فى الحقوق الشخصية ثم فى كل قاعدة
من قواعد الاوطان مجلس لتحقيق الاحكام الصادرة من مجالس أحكام البلدان الراجعة
لتلك القاعدة عندما يطلب الخصم تحقيق الحكم (ويستثنى) من ذلك النوازل الصغيرة
ثم وراء ذلك مجلس آخر لتعقب أحكام مجالس التحقيق اذا طلب الخصم ذلك أيضا فى
نوازل معينة ثم فى كل بلد مجلس للجنايات الخفيفة ومجلس للصلح يدعو الخصوم اليه
وأحكام هاته المجالس يستندون فيها الى قوانين مرتبة عندهم عقلية مستخرجة من
عدة قوانين قديمة للرومان واليونان وغيرهم موصلة الحقوق الى مستحقيها على ما يرونه
وزاجرة عن الجنايات ومراع فيها حالة البلاد وأخلاق الاهالى وعوائدهم واصطلاحهم
ومجلس النواب يغير من قوانين الحكم ما تدعو المصلحة لتغييره بحسب تغير الزمان
والعرف وقوانين الحكم معلن بها يتوصل اليها كل أحد ليعرف ما له وما عليه واذا تغير

عندهم حكم مسئلة لا يجرى العمل به الا بعد مدة لكى يكون الناس عالمين به وأحكام
مجالس الحكم وسماعهم للدعوى والجواب يكون علنا ولكل من أراد الحضور فى
تلك المجالس أن يدخل اليها ويجلس فى مكان معد لذلك ليسمع ويرى لكنه ليس له
التداخل فى الشئ من أعمال المجلس نعم اذا رأى شيئا مخالفا للقوانين فانه يرفعه لمن له النظر
فى حفظ القوانين أو يكتبه فى الصحف الخبرية ويعلن به وليس فى قوانينهم العقاب بالجلد
وانما يعاقبون بالقصاص فى النفس وفى غيرها بالغرم المالى والسجن على حسب الجناية
فى درجة عذاب السجن ومدته وأحكام المجالس تنشر فى الصحيفة الخبرية المعدة لذلك
لكى يعلم الحكم من أراده من العموم ووظيفة أعضاء مجالس الاحكام عمرية لا يعزل صاحبها
عزل عقاب ولا تأخير ليكون فى اجراء الاحكام آمنا الا اذا ثبت عليه ذنب بمقتضى القانون
فانه يعزل ويعاقب نعم يترقى العضو من مجلس الى غيره ومن بلد الى غيرها وذلك يدور بر
الاحكام على قانون لهم فى ذلك ولعموم الاهالى والواردين أيضا الحضور فى مجلس النواب
ومجلس الاعيان لسماع مفاوضاتهم ولاصحاب الصحف الخبرية مكاتبون يحضرون فى تلك
المجالس لينشروا جميع المفاوضات وكذلك فيها بيت معد للملك اذا أراد الحضور الغير
الرسمى وفيها بيت معد لمن أراد الحضور من أعيان الاهالى والسفراء والوافدين تعطى
لهم أوراق الاذن بالدخول اليها من الوزارة كما أن العامة انما يدخلون بورقة الاذن
من الرئيس والحصول عليها سهل وانما يلزم الاذن لكى لا يزدحم الحاضرون فى مكان
الاجتماع بان يكون عددهم أكثر مما يسعه المحل ولان فى المجالس جلسات سرية
يضر افشاء خبرها فلا يسمح عندها بحضور غير الاعضاء بل ربما اعترى ذلك فى وسط
الجلسة الجهرية فيؤذن للحاضرين بالانصراف

مطلب

قد تلخص مما تقدم ان دولة ايطاليا هى دولة ملكية قانونية شوروية وللاهالى الحرية
الشخصية والسياسية فاما كونها ملكية فلان الرياسة والتصرف العام هو بيد ملك
وراثى أعنى أن الملك ينتقل من الاب الى ابنه الاكبر فى عائلة مخصوصة ومنه الى
ابنه الاكبر وهكذا وبقية العائلة الملكية تستخدم فى الوظائف كسائر أعيان الاهالى على
حسب التأهل (وأما) كونها قانونية فلان التصرفات العامة والاحكام الخاصة كلها
منضبطة بقواعد عقلية مدونة معروفة (وأما) كونها شوروية فلان تطبيق تلك

القوانين على الحوادث منوطا بآراء متعددة وورائها أنظار أخر متعددة بحيث لا يمضى شئ الا بما يستقر عليه غالب آراء أهل الحل والعقد (وأما) كون الحرية الشخصية للأهالى فلان كلا منهم له الاطلاق فى التصرف فى نفسه وكسبه داخلا فى دائرة حدود القوانين لا يخشى من مجاوزتها عليه وهى كافلة له بالامن فى دينه ونفسه وماله وعرضه (وأما) كون الاهالى لهم الحرية السياسية فلان كلا منهم اذا توفرت فيه الشروط المؤهلة من صفاته الذاتية فله التداخل فى تدابير المصالح الكلية العائدة لوطنه ولكل منهم نشر أفكاره على العموم بواسطة المجامع أو الكتب والصحف الخبرية على شرط عدم الخروج عن حدود القوانين المراقب لها فى جمهور بنى جنسه

مطلب

(فى السياسة الخارجية لايطاليا)

(اعلم) أن دولة ايطاليا الآن هى سادسة الدول الاوروباوية الكبار وهى المانيا وفرانسا وانكلترة والنمسا والروسيا وايطاليا فهاته الدول بما لهم من القوة واتساع نطاق التمدن صار لهم المداخلات فى كل ما يمس حقوقهم من سياسات العالم وشدة مراقبة بعضهم لبعض لا تترك احدهم أن يتداخل فى شئ يمكن منه لمس حقوق الآخرين ولو فى الوجاهة والنفوذ ولكنهم عموما يتجنبون المداخلات فى أحوال الدول ذات الانتظام لا لمجرد مراعاة الانتظام بل لان الانتظام يشيد حصونا على أبواب المداخلات باستناد أصحابها الى أصولهم وآراء العموم مع جريان سيرتهم على استقامة من القيام بواجباتهم فى أنفسهم والوفاء بحقوق المعاهدات الاجنبية ومع ذلك فالقوة فى الدول الكبيرة تغرى بالتداخل فى أحوال الضعيف كيفما كان الحال لكن الغيرة والتحاسد بين الكبار يوجب ردع بعضهم بعضا فاذا كان المصوب اليه سهام التداخل مستقيما فى نفسه وجد بقية الدول الكبار مستند الردع الجانى منهم على الضعيف اذ اختلاف منافعهم ومباينة مقاصدهم موجبة للاختلاف وعدم الاتحاد على الاضرار بالضعيف حيث ان الاضرار به لا يمكن أن يوفى بأغراض جميعهم فلا يسمح احدهم برجحان كفة غيره على كفة نفسه ولذلك يجد الضعيف راحة من اختلافهم الذى كانت أعماله باستقامته سببا فيه (أما) اذا كان فى نفسه غير مستقيم تورث سيرته الكوارث التى تقلق جميع الدول الكبيرة فيقتحمون تحمل ضياع بعض أغراضهم ليسدوا باب القشاحن من قبيل ارتكاب أخف

الضررين

الضررين وذلك لا ينشأ الا فى الجهات التى تشترك فيها منافع الجميع (أما الجهات) التى تخص بعضا منهم فان المشاحنة انما تقع بين من له تشارك فيها فقط ولذلك كان لدولة ايطاليا مراقبة لاحوال شطوط البحر الابيض وكل الدول المجاورة لها ولم يكن يعنيها ما يقع فى غربى أوروبا ولا ما يحصل فى الصين والهند وأمثال ذلك نعم ليست درجة غربى أوروبا عندها كدرجة الصين والحاصل ان تداخلها هى أو غيرها على حسب منافعها السياسية والتجارية ولذلك كانت لها معاهدات مع الدول التى لها معها علقة فى السياسة أو التجارة وهاته الدول هى جميع دول أوروبا والدول التى على شطوط البحور من آسيا وغالب جهات أفريقيا ولها سفراء نواب عنها فى تخوت تلك الممالك وهم على طبقات فى المقام فلها سفراء من الدرجة العليا فى الدول العظيمة التى لها معها خلطة سياسية معتبرة ولها سفراء من الدرجة الثانية فى غيرها من الدول المستقلة التى لها معها معاهدات ولها قناصل وهى رتبة أقل من السفير فى الحكومات الغير المستقلة أو التى هى صغيرة وتارة تكلف بمصالحها نواب لمجرد الشرف بالرتبة من غير مرتب أو تكلف نواب بعض الدول الاخرى كل ذلك فى الممالك التى تقل خلطتها معها ولكل سفير أو مكلف نواب وأعوان ومحل ادارة يسمى بالسفارة كأنه وزارة تنفق عليها الاموال فى المرتبات وغيرها وكل دولة فيها سفير من ايطاليا يلزم أن يكون لها هى أيضا سفير فيها على قدر مصالح تلك الدولة وهى قاعدة مطردة فى سائر الدول بالنسبة لسيرتهم فى الخارجية ومن سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م دخلت ايطاليا فى عقد المعاهدات العامة بين الدول الكبيرة وان كانت اذ ذاك دخلت بصفة دولة سردانيا حيث انعقد الصلح بين الدولة العلية والروسيا وعقدت له شروط معاهدة باريس التى اجتمع لها نواب الدول الكبار الست الاوروباوية ونواب الدولة العلية ووقع الجميع على المعاهدة وكان منهم نواب سردانيا لدخول دولتهم فى الحرب كما سبقت الاشارة اليه

فصل

(فى بعض عوائد أهالى ايطاليا وبعض صفاتهم)

اعلم ان سكان ايطاليا من أبناء أجناس من الامم الذين وفدوا عليها قديما واتحدوا الجميع بصفة الطليانيين منذ قديم وديانتهم عموما مسيحية على المذهب الكاتوليكى وهو مذهب الدولة وكثير ممن تفننوا فى العلوم الرياضية قادتهم الطبيعيات فصاروا لا يعتقدون شيأ من

الديانات ظنا منهم انها جميعا مردودة بالعقل مثل ما يرون من عقائد ديانة النصارى واليهود لكن عقلاؤهم يقرون بالخالق جل وعلا ولو اطلعوا حقيقة على حقائق الديانة الاسلامية لما وسعهم من الانصاف الا اتباعها لمطابقتها للعقل وسطوع برهانها والمسؤل عن عدم ابلاغ الشريعة اليهم على حقيقتها هم من أناط الله بهم ذلك على ما سيأتي ايضاحه في الخاتمة ان شاء الله تعالى وسكان ايطاليا هم بيض أقوياء منهم أكثر اهاليها مهذبون

(وأما القرى) والبوادى فهم على الخشونة والاعتقاد التقليدى البحت للقسوس وهم أصحاب جد في العمل والاشغال وأصحاب الاعمال البدنية يبكرون الى أشغالهم (وأما) ذوو الترف والاحكام فانهم يطلبون السهر ويفيقون من نومهم مؤخرا ولا يتعهدون الاشغال الا قبل الزوال بساعة أو ساعتين أو عند الزوال وكثيرا ما يدعو الاحباء بعضهم بعضا للسمر والرقص في منازلهم وتارة يستدعونهم للعشاء مع ذلك وتارة يقتصرون على تقدم فواكه وحلويات وخمور وليس من عاداتهم الحياء مثل ما هو عندنا فترى البنت تخاطب زوجها وتفاكهه أمام والديها بل وتفعل مثل ذلك مع خطيبها وترقص مع الرجال أمامهم هذا في البنات فكيف بالبنين وعندهم ان الغناء ليس بعيب من النساء فترى أكبر الاعيان يحتفل في داره بدعوة عامة وتصير بنته أو زوجته أو احدى النسوة الاعيان المدعوات تغنى في ذلك الملأ وترقص مع الرجال على اشكال شتى من معانقة ومخاصرة وغيرها ولا تأثم من ذلك بل يرونه اكراما بحيث أن المسلم الغيور يكاد يتفطر مما يرى

(وأما الرجال) الاعيان فالرقص عندهم مع النساء ولو في المواكب غير معيب لكن الغناء منهم معيب والنسوة يخرجن مكشوفات الوجوه ويتعاطين من الاشغال مثل الرجال الا الاشغال الشاقة والتعاليم للعلوم العالية ويصاحبن الاجانب عن قرابتهن مثل الرجال ويقول رجالهم ان الذي حمل المسلمين على حجب النساء ما في طباعهم من الخيانة وشدة الحجب توجب شدة الشوق وحيث انا على خلاف ذلك فالامن على نسائنا محقق والتي لا يحميها عرضها لا يحميها حائط دارها هذا مدار كلامهم وهو خطأ فاحش اذ موجب الحجب أمر طبيعي في سائر البشر بل في سائر الحيوانات ومن المعلوم ان لكل شئ سببا فرؤية الذات والوجه مكشوفا ثم المكالمة ثم المداعبة ثم الرقص في حالة شرب الخمر والطرب ثم المخاصرة كلها أسباب تدعو الى الاتفاق طبعا الى ما وراءها بلا شك واثبات ذلك بالوجود أقوى دليل حتى صار من عوائدهم ان البكارة هي التي لم تتزوج صاحبتها من غير نظر الى حقيقتها الاصلية والزيادة على هذا في الاستدلال خارج عن موضوعنا

ومنصفهم

ومنصفهم يقر بذلك لا محالة وقد غلط من ادعى ان ديانتنا تبيح النظر لوجه المرأة وهو جهل بعدم التفرقة بين كون وجه المرأة ليس بعورة وكذا كفاها وقدماها حتى يجوز لغير محرمها النظر الى تلك الاعضاء وكذلك النسوة أمثالها وبين كون الوجه يجب ستره عن الرجال الاجانب مطلقا لخوف الفتنة بنص الكتاب في قوله تعالى وليضربن بخمرهن على جيوبهن الآية وذلك هو الحق المستقيم والمشاهدة أقوى دليل فكل بلاد حافظت على ذلك قلت فيها الفاحشة حتى كادت أن لا تقع وكل بلاد تساهلت في خروج النساء مكشوفات الوجوه بالبراقع الصفيقة وغض النظر عن مكالمة النسوة للرجال والمزاحمة في الاسواق والمجامع فشت فيها الفاحشة واتخذ رجالها عبيرا مسامرتهم التكلم بوقائعهم مع النساء سواء كانت بلدة اسلامية أو افرنجية وقلب الحقائق واخفاء الجهر وعكس الطبائع ليس في الوسع ولا يحاوله ذو انسانية

وأهالي ايطاليا يستعملون الموسيقى ذات آلات النفخ وذات الاوتار وهم برعاء فيها والحانهم هي ألحان الاوروباويين وهي ألحان مخالفة للالحان المعروفة عند المشرقيين والعرب وأهالي أفريقية الشمالية حتى ان هاته الالحان لا يحصل منها ما يحصل من السماع لهؤلاء وبالتعود تصير مؤثرة في النفس ولها تعاليم مخصوصة معتنى بها ولا يدقونها الا على تطبيق لما هو مرسوم في أوراق خاصة على اشكال يتبعها صوت النغمات بحيث ان كل صاحب آلة تكون أمامه تلك الاوراق ينظر فيها ويدق على نحوها ولا يدقون من محفوظاتهم الا قليلا وأهل البادية وبعض القرى لهم آلات من مزامير بالجلود ينفخونها بلا أوراق وفي كل بلدة مراسح للعب والتلهي على حسب كبر البلدة تفتح ليلا للسهر وتشكل فيها ألعاب على صور تاريخية مرئية أو للغناء والسماع ولهم تقدم وشهرة في ذلك على سائر أهالي أوروبا والاهالي عموما ذوو رجولية في التمسك بالآلات الحربية حتى لا تكاد تجد من لا يحمل السلاح الصغير الخفيف مخفيا ويركبون الخيل رجالا ونساء غير أن المرأة تركب السرج بلا فتح لرجليها بل انها تثني رجلها اليمنى على مقدمة السرج ورجلها اليسرى تضعها في الركاب وعادة الاهالي في السلام عند الملاقاة هي المصافحة مع هز اليد ويقول احدهما للآخر يوم حسن أو ليل حسن واذا قدم مسافر على حبيبه أو قريبه قبله في فمه ولو الولد مع والده أو امرأة مع قريبها لكن النسوة يرين ان الحبيبات متى اجتمعن قبلن بعضهن في الافواه والرجال لا بد في سلامهم من كشف رؤس بعضهم لبعض والرفيع بالنسبة للوضيع يضع يده على قلنسوته كأنه يريد رفعها فقط واذا دخل وارد على آخر في بيته لا يجلس

الا وهما مكشوفا الرأس وهى عادة جارية فى جلوسهم فى بيوتهم مكشوفى الرؤس الا من كان به أذى من رأسه ومن عاداتهم أن لا يعدوا المشى لتلقى القادم لكنهم يعدون التشييع ومن الآداب أن يحدث أحدهم كلاما لصاحبه عند الفراق فيتمه فى حالة الوداع ويتصافحون أيضا عند ذلك

❊ مطلب

❊(فى التجارة)❊

الطليانيون لهم مهارة فى التجارة كغيرهم من أهالى أوربا فرادى ومجتمعين والذى وسع تجارتهم هو عقد الشركات فأموال الواحد لا تكفى لمزيد الاتساع فى التجارة ولذلك يعقدون شركات ذات أسهام عديدة ويقيضون للمباشرة بعضا منهم ممن يأتمنونه وتكون لشركاتهم فروع فى الاقطار التى يواصلون معهم التجارة ويعلمون كيفية التجارة والبضاعة وأسعارها وكيفية ايصالها بواسطة الصحف الخبرية وبأوراق وكتب يودعونها مجانا ويرسلون الرسل لاكتشاف تجارات البلدان والاقطار وان بعدت ويثمرون بها تجارتهم ودولتهم تحميهم فى أنفسهم وأموالهم أينما حلوا ولا تقتصر تجارتهم على نتائج بلادهم ثم اذا لم توف أموال الافراد أو الشركات بالمقصود من التجارة تراهم يقترضون من ديار الصيارفة وهؤلاء الصيارفة هم ذوو الاموال اما ان تكون لواحد أو لعائلة أو للعموم ❊ بان يكون كل من له شئ من المال ولا يريد التعب فى ترويجه والربح منه بتجر أو غيره فانه يدفع ماله لاحدى ديار الصرافين المسماة عندهم بالبنوك ويأخذ منها حجة فى مقدار ما دفع وتاريخه ويأخذ على ذلك ربا فى كل سنة وهو لا يتجاوز [illegible] أو ستة على المائة فى السنة ومهما أراد رأس ماله فانه يحاسب على مقدار ما بقى عند الصراف ويأخذ ربحه ورأس ماله حالا وكذلك اذا أراد أخذ البعض من رأس المال فله ذلك وكذلك اذا أراد ارجاع ما أخذ أو أكثر أو أقل فله أن يدفع متى أراد ويأخذ متى أراد ويحاسب متى أراد فسهل بذلك ادارة أموال العاجزين مع أرباحهم ثم ان البنك الذى يأخذ الارباح على النحو المذكور يدفعه لمن يريد الاستقراض بزيادة فى مقدار الربا على ما يعطى هو وهاته الزيادة محدودة لا تتجاوز العشرة على المائة فى السنة وكل من مقدار المدفوع والمأخوذ مختلف بحسب البنوك والبلدان لكنه على كل حال لا يتجاوز الحدود المذكورة لمنعه بالقوانين حتى ان من تجاوزها يعد سارقا ثم اعطاء البنوك المال للمستقرضين انما يكون برهن أو لمن له اعتبار

يأتمنه

يأتمنه به صاحب البنك ❊ ثم ان بعض أصحاب البنوك تجيزهم الدولة على قانون معلوم بان يخرجوا أوراقا تتداولها الناس عوضا عن النقدين بشرط أن لا تتجاوز الضعف مثلا من مقدار رأس المال وبعض تلك البنوك مخصوص بالفلاحة وبعضها مطلق وبما تقدم تجد التجارة رائجة بين أيدى السكان بأكثر من أضعاف كسبهم وأهم الوسائط التى يزيدها الحوالات المالية وهى ان التاجر يشترى شيئا أو يأخذ مالا من أحد ويعطيه حوالة بقبض ما يطلب منه على أحد التجار أو البنوك على أن يقبضه على تسعين يوما وهو الاكثر وربما وتارة يكون أقل أجلا وتارة يكون أكثر وعند بلوغ تلك الحوالة للمحال عليه يوقع عليها بالقبول ليدفع فى الاجل وقبل حلول الاجل يرسل المحيل المال اما مما باعه أو مما قبضه من حوالة أخرى بحيث ان المحال عليه يدفع المال فى أجله من غير أن يخرج من ماله شيئا مع ربحه لجزء من المال لانه يلزم الاتفاق من قبل بين المحيل والمحال عليه فى قبول الاحالة وفى مقدار ما يربحه ولا يتجاوز النصف فى المائة وتارة يكون بلا ربح بامارة لمصادقة أو معاوضة عملها بينهما كما ان المحال عليه يربح بقبضه ماله نسيئة أيضا جزأ يسيرا والمحيل يربح لانه يتجر بمال ليس له فيه رأس مال ولكن مع ذلك كثيرا ما يعترى الافلاس تجارهم وبنوكهم لان من أحكامهم انه اذا حان الاجل ولم يدفع المؤجل ما عليه فى الحال يفلس ولذلك كانت أكثر البنوك بايطاليا التى لها أوراق مالية لا تصرف ❊ الا بنقص بالصرف بالعين لاحتمال الافلاس ولا تتداول خارج المملكة بل ولا خارج بلدانها الا بنك الدولة فانه رائج فى جميع مملكته فقط وفى كل مدينة محل ضخم للمناداة على المتاجر العالية يسمى بورسى يفتح بضع ساعات عند الزوال اذا دخله الانسان يجده محتبكا بالخلق والضجيج بأصوات السماسرة ينادرن على أوراق ديون الدول وأوراق الشركات التجارية الكبيرة ذات الحصص كطرق الحديد وخليج السويس وأشباهها وكثير من التجار يفلسون فى تلك المتاجرة لان بعضهم لا يشترى ولا يبيع الا يدا بيد وهؤلاء لا يعتريهم الافلاس الا نادرا لانه اذا انحطت أسعار ما اشترى لا يطالبه أحد بشئ وانما يصبر على خسران نفسه الى أن ترتفع الاسعار وبعضهم يكون ليس له رأس مال لما يشتريه وما يشتريه أيضا ليس بحاضر بل هو مؤجل لرأس الشهر ويعتمد على أن ما يشتريه اليوم يرتفع سعره غدا أو بعد أسبوع فيبيعه ويأخذ الربح ويحيل المشترى على البائع فيما اشترى ويخرج من البين بالربح فكثيرا ما يربحون بذلك أموالا جسيمة وكثيرا ما يفلسون فى أموال جسيمة بأن ينحط السعر عما اشترى به ويحل الاجل فيلزمه دفع الثمن

وأخذ المبيع أو دفع مقدار الخسران فقط فيستغرق كسبه فى كرة واحدة أو عن كرات
وهذا النوع لا يحكم به الحاكم عندهم لانه يراه من المقامرة لكنه لا يمنع منه فالمفلس
يفلس نفسه بغير حكم لكى لا يسقط اعتباره رجاء ان يربح مرة أخرى بمعاملة التجار اليه فما
تقدم كله من أسباب الثروة واتساعها وسيأتى فى الخاتمة ان شاء الله تعالى ما يجوز منها
شرعا عمله وما هو ممنوع ومن أعظم أسباب الثروة واتساع التجارة تسهيل الطرق لنقل
البضائع بأجرة يسيرة وزمن قليل وكانت الطرق الحديدية أنفع وسيلة لذلك حسبما تقدم
فى الكلام على تونس ولكن الطرق الحديدية وحدها غير كافية لانها انما تمر على
الاماكن الاكثر عمرانا فيلزم لها طرق فرعية صناعية لجلب البضاعة بسهولة لمراكز
الطرق الحديدية ولذلك كانت سائر الجهات فى ايطاليا لها طرق صناعية ومن أنفع
وسائل التجارة والعمران انتظام البريد وهو أن الدولة تجعل أماكن فى سائر البلدان
لوضع المكاتيب فى محل منها ويؤدى صاحب المكتوب أجرة على حمله أجرة زهيدة بالمرة بان
يشترى بطاقة من الورق عليها علامة مخصوصة وظاهرها عليه صمغ فيبل الصمغ ويلصق
البطاقة على المكتوب بحسب ثقل المكتوب فى زيادة الاجرة ويكتب عنوان المكتوب
باسم المرسل اليه وبلده وحارته وعدد منزله فتحمل المكاتيب من كل بلد فى الرتل ولها
مركبة خاصة بها مرافع ذات أقسام ومستخدمون فعندما تأتى المكاتيب الى المركبة فى وعاء
يسير الرتل ويشتغل المستخدمون فى توزيع المكاتيب على أسماء البلدان ويميزون كلا
على حدة ومهما وصل الرتل الى بلد أقبلت أتباع البريد عن محل الى تلك المركبة ودفعوا
لها ما عندهم وأخذوا منها ما يخص تلك البلدة ثم يسير الرتل وهكذا وكل بلدة أخذت
المكاتيب من الرتل يؤتى بها لمحل البريد وتعطى لموزعين يوزعونها على أصحابها حسبما هو
معنون عليها واذا وجدوا مكتوبا غير خالص الاجرة يوصلونه للمرسل اليه فان دفع أجرة حمله
وهى اذ ذاك مضاعفة سلم اليه المكتوب والا رجع الى محل البريد وحفظ فيه مدة ثلاثة
أشهر فان جاء صاحبه باحثا عنه أدى أجرته وأخذه والا فتح فانه وجد به اسم مرسله ومحله
أرجع اليه وأخذ منه الاجرة مضاعفا والا أحرق وهكذا فيما اذا لم يوجد المرسل اليه بالمرة
وكان خالص الاجرة فانه يرجع من غير اجرة واذا كان المكتوب ذا أهمية فلصاحبه تضمينه
أى يجعل صاحب البريد ضامنا لايصاله بان يجعل عليه خواتم بالشمع جمة أو علامة أخرى
ويأخذ من صاحب البريد حجة فى ايصاله الى صاحبه ويؤدى عليه اجرا ضعفين على
المعتاد واذ ذاك لا يسلم البريد الى صاحبه الا بأخذ حجة منه فى الوصول اليه فاذا فرض

ضياعه

ضياعه من صاحب البريد فانه يؤدى للمرسل ستين أو خمسين فرنكا وهكذا سائر الاوراق
المكتوبة على الصورة المتقدمة غير ان الصحف الخبرية أجرة ايصالها زهيدة بالمرة وكذلك
الكتب وقد جربوا انه مهما رخصوا فى الاجرة الا ازداد الدخل للبريد وما تقدم فى
كيفية الحمل للبريد فى الاماكن المتصلة فى البر أما اذا كانت الاماكن يتوصل لها بحرا
فان الدولة تتفق مع احدى الشركات التى لها بوابير سيارة للتجارة على ان تحمل البريد
باجرة سنوية على مقدار ما يتفقون عليه من السنين على ان تقلع البوابير فى أوقات معينة
وتصل الى أماكنها فى أوقات معينة من غير تقديم ولا تأخير واذا تأخرت الباخرة عن
ميعادها فلابد أن تبين بحجة السبب الاضطرارى الذى حملها على التأخير والا فتخسر
شركتها أموالا بليغة ضمانا عن التأخير وكذلك الرتل اذا كان لغير الدولة أعنى فى
الاتفاق معه على حمل البريد أما فى تعيين الاوقات وانضباطها فالكل سواء برا أو بحرا
ولذلك تجد السفر مع البريد فى غاية الانضباط لانه لا يتخلف عن مواعيده فالمسافر معه
يكون مرتاح البال عالما بيوم سفره وساعته وكذلك ساعة وصوله الا أن يعرض عارض
سماوى ثم ان السفر فى بوابير البريد هو أحسن من غيرها من البوابير التجارية لان تلك
أتقن نظافة وأقل ازدحاما وأرفق خدمة بالركاب حتى اذا كان البحر راكدا كان
السفر نزهة ولكن قلما يصفو الحال بسبب اضطراب البحر أما السفر فى الرتل فهو على
نحو ما تقدم من الانضباط سواء كان حاملا للبريد أم لا ولكل رتل رقاع مكتوب بها
الاعلام بوقت سفره من كل بلد ووقت وصوله وكم يقف بها من الدقائق ويحفظون
على تلك الاوقات للغاية وعندما يصل بلدة ترى خدمته يصيحون باسمها وعدد الدقائق
التى يقف بها اعلاما للمسافرين ووقوفه لا يتجاوز نصف ساعة فى وقتى الاكل وأما غيرهما
فأكثر وقوفه عشر دقائق الى الدقيقتين وبلدان الوقوف للاكل يجد بها فى المواقف
بيوتا ضخمة بها ماء وأنواع الاكل والمأكولات المطبوخة والفواكه كلها مهيئة فمنهم من
يأكل هنالك ومنهم من يشترى ويحمل أكله معه والاثمان فى تلك الاماكن أغلى من
غيرها كما ان البلدان الاخرى يوجد فى محطاتها الاكل لكنه دون ذلك وفى كل محطة
يجد المستراحات فالركوب فى الرتل منتزه على كل حال سيما مع ما أحدث فيه من المخادع
المنفردة حتى يستطيع الانسان أن ينام ويقضى جميع ضروريات بغاية الراحة وفى أيام
البرد تسخن المخادع بأوانى نحاسية مملوءة ماء حارا ويزيد أجرة هاته المخادع على الاعتيادية
نحو عشرة فى المائة وقد أحدث نوع من المركبات ذو مقاصير للانفراد وبيت للاجتماع

فيكون الانسان كأنه فى دار مع جيران وهو مسافر ولايزيد الاجر فى هاته المركبات على
المركبات من الطبقة العليا الا نحو الثلث ومن وسائط رواج التجارة ورود الاخبار
بالاسلاك الكهربائية فأصحاب الشركات يخبرون أصحابهم كل حين بما يروج عندهم
فى الاقطار المختلفة ومايكسد من البضائع فيكونون على بصيرة منه وأعظم مايكون ذلك فى
متاجر محلات البورصى فترى الاخبار تتساقط عليها كالمطر وبذلك ترفع أسعار أوراق
الديون وغيرها أو تحط وأعظم مايؤثر فى ذلك الاخبار السياسية سيما الواردة من
قواعد الممالك السبع الكبيرة وهى الاستانة وباريس ولوندره وبرلين وفينيا
وروما وصان بطرس بورغ اذ هاته الدول هى التى عليها مدار السياسة العامة وقد
اتخذ التجار الاخبار السياسية ملعبة للارباح حتى صاروا يختلقون أحيانا أراجيف
سياسية تارة بالتصريح وتارة بالتلويح وتتلقفها عنهم صحف الاخبار فينشأ عنها
أرباح أو خسائر مبنية على أوهام ولذلك يرى بعضهم ان سهولة قرب الاخبار ونقل
البضائع مضر بارباح التجارة وان الارباح انحطت عما كانت عليه فى القديم
وهو صواب بالنظر لهيئة التجارة القديمة لكن فى نفس الامر قد ازدادت كمية التجارة
وذلك ان التاجر ذا البضاعة من الصوف مثلا كانت لاتأتيه سفينة شراعية بها ألف
قنطار من الصوف والمكاتيب المعلمة بالاسعار الا بعد عدة أشهر فيبنى عليها عمل تجارته
ويشتهر خبرها ولا يبيع تلك الالف قنطار الا بعد عدة أشهر فربح فيها فى السنة عشرين
فى المائة ان ساعده البخت والآن صار يأتيه فى كل أسبوع نحو ذلك القدر مثلا وتأتيه
الاخبار كما تأتى غيره فيبيع صوفه بربح عشرة فى المائة فقط فى شهر ثم الشهر الذى
بعده كذلك وهكذا فعوضا عن كونه كان يدير رأس ماله مرة فى السنة ويربح فيه
عشرين فى المائة صار يديره اثنتى عشرة مرة يربح فيها أزيد من الضعف فبالنظر الى كمية
الربح كل مرة تجد الارباح القديمة أوفر لكن فى الحقيقة الناتج فى السنة من الارباح
الحالية أكثر ولايظن ان ماقلناه مبالغة بدعوى ان كمية المحتاج اليه من الصوف مثلا
فى القطر المجلوبة اليه لم تزدد فيما يأتى زائد الايضاح وبيان فساد ذلك ان الادارات
والحركات كلها مرتبط بعضها ببعض فمكاينات المواصلة سهلت آلات النسج بالمعامل
البخارية والبلاد التى كانت تنسج ألف قنطار صوفا فى الشهر بآلات اليد صارت تنسج
اضعاف اضعافها بآلات البخار وتلك المنسوجات تنفق مهما ازدادت بانحطاط
أسعارها فيكثر راغبها فمن لم يكن قديما قادرا على لبس الملف وهو الجوخ لغلوه صار
الآن

الآن يتوصل اليه لرخصه برخص ثمن الصوف بما نقص من أجرة جلبها وقلة ربح
تجارها وبرخص آلات النسج وبقناعة البائع بالربح اليسير وهكذا وكذلك كثرت
سكان الممالك المتمدنة وكثر المتمدنون وكثر اتساع التجارة وايصال البضائع الى الاقطار
الشاسعة التى لم تكن تصل اليها من قبل فارتبطت الاشياء بعضها ببعض واتسعت
التجارة وازدادت الارباح على نحو ماذكرناه وأضف الى ذلك ان المنسوجات بالمعامل
ليست متينة مثل عمل الايدى فصار أغلبها يبلى ويتمزق بسرعة بالنسبة للمنسوجات
المصنوعة باليد ثم ان تجارة ايطاليا أغلبها بيد أهاليها وفيهم كثير من الاجانب وقد كانت
سابقا تجارتها أغنى مما رجعت اليه ثم انحطت بتقدم الممالك المجاورة لها وتأخرها عند
انقسامها وظلم ولاتها لكنها الآن تراجعت للغنى وأغلب مايخرج منها الحرير الغير
المصنوع والدقيق وانواع العجين المصنوع والحبوب والحيوانات المأكولة والجلود
وزيت الزيتون والكبريت وهى كما سبق لها انفراد به وقد خرج منه فى عام واحد
مئتان اثنان ألف وخمسون ألفا وثلاثة أى قنطار ٠٠٠ر٠٠٠ر٥ وكذلك يخرج
منها المرمر والرخام الابيض والكتان والحشيشة المعروفة بالكركوري والمنسوجات
الحريرية والاعطار والتبن المصنوع منه كراسى وغيرها والجير مثل الجير المعروف بجير
سيسيليا الذى هو لبن خفيف وبعض المعادن المشار اليها فى التعريف بايطاليا وقيمة
تجارتها فى سنة واحدة وهى سنة ١٨٧٦ مليارادان وستمائة ألف فرنك والميليارد
ألف مليون وهاته التجارة مع جميع الممالك المعروفة لكن أكثرها مع انكلترا وفرانسا ثم
بقية الممالك ويخص من ذلك الزيت وحده ثلاثمائة وخمسون مليونا

مطلب

﴿فى الصنائع الفلاحية فى ايطاليا﴾

(اعلم) ان هاته الصناعة لها ترق كبير لحسن الموقع واعتدال الهواء ومع ذلك لم تبلغ الى درجة
النهاية نعم هى فى الجهة الشمالية مناكبة لما جاورها من فرانسا وغيرها فلاهلها اعتناء
واتقان للزراعة وتربية الاشجار وتنميتها حتى ترى الارض كأنها حديقة منمقة ولاتجد
أرضا خالية من الاشجار ولو الاراضى الزراعية بحيث تجدها مقسمة بصفوف من
الاشجار وبينها براحات للمزروعات فصاحب الارض ينتفع بغلال الاشجار والحطب
والزرع معا وترى الارض مقسمة بتقاسيم لها منظر بهج ونفع عظيم هذا زيادة عما

يحصل من الاشجار من السبب فى المطر وذلك لان الله بحكمته البالغة جعل عروق الاشجار تمتص الماء من عوامق الارض ثم تنفثه بخارا من أغصانها وأوراقها وينشأ من البخار السحاب واذا كانت الاشجار مرتفعة جذبت ذلك السحاب لبطئ السير حتى يمطر عليها ويحصل بسبب ذلك كثرة المياه فى الارض فيكثر خصبها وقد بانت سببية ذلك بالتجربة والله الخالق الحكيم ثم ان صناعة الفلاحة لا يأخذونها بمجرد التقليد فى العمليات بل انها علم مخصوص يدرس ويصور بالمشاهدة وله مدارس مخصوصة ويعتمد كثيرا من الكيمياويات وحول المدارس أراضى للبيان بالعيان والتجربة والعمل وأراضى الرعى مخصوصة ومن حسن التربية وحراسة الحكم لا يتجاسر أحد بالرعى ولا غيره فى أرض ليست له اما بالملك أو بالكراء حتى انه ليس لبساتينهم طوابى تمنع الداخل ولا تقع عندهم سرقة الغلال الا نادرا وأما بقية الصنائع فلهم كفاية فى كل الصنائع الضرورية والتحسينية لكنهم ليس لهم معامل كثيرة التى هى من أعظم أسباب الثروة والترقى وان كانوا الآن مجتهدين فى ترقياتها الى بلوغها المثل درجة الامم البالغة للنهاية فى المعارف والتمدن والحاصلون عليه الآن هو ان لهم معامل للسلاح بانواعه ومعامل لانشاء السفن والبوابير المدرعة ومعامل للتحليلات الكيمياوية وللاعطار وللشمع المتخذ من الشحم للدباغة للجلود ولصناعة الورق وغزل القطن ونسج الجوخ والشاشية وأنواع المنسوجات الحريرية ومنه النوع الفاخر المسمى بالامبر أو القطيفة ومعامل للطرز كما انه يصنع بالايدى أيضا ولهم معامل للزجاج والفخار والعقيق والزهور الصناعية وآلات المرايا المكبرة وآلات الموسيقى وخصوص أوتار بلد نابلى لها صيت كبير فى جميع الجهات وفى نابلى وميلانو معامل متقنة للكراريس أى عجلات الركوب كما ان فى ايطاليا اتقان لصناعة الاحذية وسائر الانعلة وخياطة الملبوسات وهم فائقون فى صناعة نحت المرمر ونقشه وكذلك صناعة المرجان والصياغة والكهربان والمادة المتجمدة النارية المنقذفة من أفواه البراكين والموزايكو اى القطع المرمر التى الواحدة منها قدر الظفر ترصف على أشكال بديعة ويلصق بعضها ببعض بنوع من الطين والجير وقد شاهدت فى معرض ميلانو ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م من تقدم ايطاليا فى سائر الصنائع ما صيرها قادرة على الاستغناء بنفسها فى سائر الحاجات والتحسينات فضلا عن الضروريات حتى ان ملكها لما دخل المعرض مع رجال الامة تعجب مما احتوت عليه المملكة مما لم يكن يخطر بباله ومن جملة ما احتوى عليه هذا المعرض

المعرض تشخيص سائر أصناف الطليانيين بصور على ألوانهم وهيئة لبسهم فرأيت أكثر من ثلاثين صنفا كل منهم له سحنة وشارة خاصة وأعظم ترقيهم فى مصنوعات الجلد والطين والعجلات ولهم مشاركة فى سائر المصنوعات

مطلب

﴿فى المعارف﴾

المعارف الدينية المسيحية لها سوق رائجة من القسوس ولهم صوامع ومدارس لكنهم قد منعوا نوع القسوس الجزوويت من التجمع فى المدارس لانهم يخلطون التعاليم الدينية بالتعاليم السياسية ويتخذون المدارس كالقشل للتعسكر فمنعوا من ذلك لخوف الدولة من تشويش سياستها المخالفة مشرب الجزوويت لمشرب الدولة فى أصول السياسة (وأما العلوم) الرياضية فقد أخذوا فى التقدم فيها وعلى الاجمال فاهالى الشمال متقدمون على غيرهم فى سائر الفنون والتجارة والفلاحة وعلومهم الاصول ثلاثة (أحدها) علم جر الاثقال (وثانيها) علم الكيمياء أى تحليل الاجزاء وتركيبها (وثالثها) علم الطبيعيات ولكل منها فروع كثيرة ومن فروع الثانى والثالث علم الطب الذى كانت اشتهرت به بلد بيزة قديما والآن لم يبق لها ذلك الاعتبار وعلى العموم ففى ايطاليا الآن مدارس ومكاتب على ثلاث طبقات والمكاتب العليا فيها الى الآن لم تناسب كتب مكاتب فرانسا والمانيا وفى ايطاليا من أسباب تيسير المعارف كل اللوازم سيما المطابع والصحف الخبرية وخزائن الكتب ففيها ٤٩٣ خزينة كتب تحتوى على ٢٨١ و ٣٤٩ ر ٤ مجلدا من الكتب المطبوعة و ٠٧٠ ر ٣٣٠ من كتب الخط وفى خصوص مكتبة قصر الفاتيكان ٠٠٠ ر ٣٠ كتاب وهى أحسن المكاتب من جهة حسن كتب الخط

مطلب

﴿فى هيئة المساكن والطرقات﴾

(اعلم) ان ايطاليا تكاد ان لا تجد بين بلدتين فيها طريقا غير صناعية بل كلها متصلة بعضها ببعض بالطرق المحصبة المتقنة الصناعية غير ان الطرق فى البرية لا تنظف واعمالها قيمون لاصلاح ما يفسد منها كان يكون على كل ثلاثة أميال قيم له مركز يأوى اليه وفيه من آلات الاصلاح الخفيف ما فيه كفاية ويكون هو طول يومه متفقد الما فى

عهدته ومهما وجد مكانا متغيرا بادر لاصلاحه وهكذا فاذا طال الامر على الطريق
واحتاج للتجديد باشره بذلك المكلف من المجالس البلدية وعلى أولئك القوم عين متفقدون
فى كل الاوقات كما ان سائر أطراف المملكة متصل بعضها ببعض بالطرق الحديدية
وكذلك تتصل بسائر الممالك المجاورة لها بالطرق الحديدية وتلك الممالك متصلة بغيرها
بذلك أيضا فكانت أوروبا كلها كانها بلد واحد فى سهولة الانتقال والسرعة من مملكة
الى أخرى ومن بلد الى آخر ومع ذلك فلم تزل ايطاليا مجتهدة فى زيادة الفروع للطرق
الحديدية (أما الطرق) فى دواخل البلدان فزيادة على كونها صناعية لها خدمة
ينظفونها مرات فى اليوم ولا تجد فى البلد مزبلة لان خدمة التنظيف يرفعون الازبال
الملقاة من الدور فى آخر الليل ومن طرح الاوساخ من داره فى غير الاوقات المعينة
عوقب على ذلك بالعقوبة المالية بحيث تجد سائر الطرق نظيفة وفى الليل منورة بالبخار
الغازى والفوانيس نظيفة وغاية ما هنالك هو الفرق بين البلدان فى شدة النظافة
والتنوير واتساع الطرقات فقط (أما الاصل) فهو موجود فى الكل ولو فى القرى
والطرقات أغلبها يمر فيها عجلتان ومنها ما هو أوسع وفى البلدان القديمة لم تزل طرق ضيقة
لا يمر فيها الا الماشى وأما هيئة المساكن فان المدن لا تكاد تجد فيها الديار ذات طبقتين
فقط بل تزيد الى السبعة والثمانية ويكون ظاهرها على الطرقات ملتصقا بعضه ببعض
قريب المشاكلة فى الصورة مع التحسين الظاهرى والتنظيف وطول الطرق واتساعها
وجعل البطحاآت فيها والاشجار على أوسعها فكانت مدنهم بذلك ذات منظر بهيج حتى
ان الحكم يوجب على المالك ان يحسن ظاهر بيته على حسب ما يشير به المهندسون من
المجلس البلدى وأما داخل الديار على الاجمال فاذا دخل الانسان من الباب يجد سقيفة
ثم درجا متصلا بعضها ببعض متصاعدة اما على شكل دائرة أو مربعة الى أن تنتهى لاعلى
طبقة ومهما وصلت الدرج الى طبقة تجد فيها فسحة ذات أبواب بقدر ما فى الطبقة من
المساكن فاذا دخلت مسكنا تجد ايوانا مسقفا وبه أبواب للبيوت وباب الى ممر به
بيوت ومطبخ ومستراح وتارة يكون فى احدى البيوت الاخرى مستراح آخر وجميع
الحيوط مطلية والسقوف اما خشب أو بناء مطلية مدهونة وكل البيوت لها طواقى
كبار ويعتنون بمقابلة الابواب والطواقى والابواب وعواضدها من خشب متقن الصنعة
وسائر الاماكن مبلطة اما بالجليز أى نوع من الآجر المطلى المتقن أو المرمر وكذلك الدرج
ومن اقتصادهم ان كل بلد تقتصر على ما عندها من مواد البنيان ولا تأخذ من بلاد
أخرى

أخرى شيئا الا ما لا يمكن الاستغناء عنه بما فيها ولو كان الشئ من بلد فى نفس المملكة ثم
البيوت التى بكل دار أكثرها مائل الى شكل التربيع واحدها بيت للجلوس وآخر
للاكل وهما أكبر البيوت ثم آخر للنوم وكل منها به من الفرش ما يناسب موضوعه
وفرشها مختصرة متقنة مرونقة من كراسى كبار وصغار وساعات ومرايا وزرابى وأسرة
يعتنون بنظافتها ويعتنون باتساع الدرج وراحتها وكل مسكن لعائلة فتجد الدار
الواحدة يسكنها عدة عائلات كل عائلة منفردة فى احدى المساكن على قدر كبرها
وطبقاتها وأما دور الاعيان والاغنياء المنفردين بديارهم فهى على ذلك النحو أيضا لكنها
كلها تكون ذات مسكن واحد وطبقاتها لا تزيد على الثلاث أو الاربع وكثير من
أغنيائهم يسكنون فى الديار المشتركة من النوع الاول لكنهم يختارونها وسيعة وكل
مسكن يكون بابه مغلقا وعند الباب الخارجى للدار بيت يسكنه بواب بالاجرة من جميع
أصحاب المساكن للحراسة وكل البلدان لها خنادق تحت الطرق لجريان القذورات
فيها أو لها دهاليز والجميع مغطى ولا يفتح للاصلاح أو التنظيف الا ليلا وسطوح الديار
فى جميع الجهات الشمالية مسنمة لئلا يتثاقل عليها الثلج وأما الجهات الجنوبية ففيها بعض
من السطوح مبسوطة

مطلب

(فى اللبس)

الرجال يلبسون قميصا وسراويل وصدرية تسمى جيلى وسترة أى جبة مفتوحة الطوق
الى أسفل قصيرة الى نحو نصف الفخذ ذات يدين ضيقتين وسراويل أخرى طوال الى أسفل
القدم ضيقة الرجلين والمقعدة جدا كأنها ملاصقة بالعضو وفى بعض المواكب يلبسون
سترة مقطوعة الذيول من امام وفى الشتاء يلبسون على جميع ذلك جبة أوسع من الاولى
وأطول وتارة تكون مبطنة بانواع من الفراء وبعضهم يزيد لبس قمصان ضيقة من
الصوف وفى أرجلهم الجوارب من قطن أو صوف وأحذية كالخف الضيق ولهم فيها
أنواع كلها ذات أقدام مرتفعة وعلى رؤسهم قلانس من قطعة واحدة على أشكال منها ما هو
من الجوخ ومنها ما هو سعف أو تبن ولما كانت ألبستهم ضيقة فلا يجلسون الا على
الكراسى وما شاكلها ولذلك كانت فرش بيوتهم كلها ملائمة لذلك ثم لهم جبائب
وسيعة ذات ألوان يلبسونها فى الاوقات التى لا يخرجون فيها ولا يأتيهم فيها أحد وكل

ألبستهم غير القمصان والجوارب لونها أسود أو ما قارب به وأغلبها من الصوف ولا يلبسون
الحرير الا نادرا في بعض الثياب ويلبسون في كفوفهم قفازا اما اسود أو ما قاربه وكذلك
في رقابهم يلبسون روابط ولقمصانهم رقبات بيض يطلونها بالنشا وكذلك أطراف
أكمامها الضيقة وصدورها ويحفظون على نظافتها ويرسلون شعر رؤسهم لكنه
لا يتجاوز شحمة الاذنين ويفرقونه وأما لحاهم وشواربهم فهي لعبة بايديهم تارة
يحلقون الكل وتارة البعض دون البعض وتارة يبقون الكل فتجد الوجوه على اشكال
شتى ولكن من يحلق تراه يحلق يوميا الان ابقاء أثر الشعر عندهم من الوسخ وأما لبس
النسوة فقميص وسراويل وسيعة من كتان وصدرية مضبوطة على الصدر لها عيدان
من شعر سمك البالين لتصغر البطن والخصر وترفع النهود وتعلي الردف وفوقها جبة طويلة
الى الارض ضيقة النصف الاعلى ولها أكمام ضيقة الى الرسغ ووسيعة الاسفل من الخصر
الى الارض ذات تكاميش ويتنوعن في هيئتها وقد يطلن ذيلها من ورائها حتى يصير يجر
على الارض نحو ذراعين أو أزيد من ورائها ويلبسن جوارب في أرجلهن وأحذية ذات
أعقاب عالية وصرن يجعلن العقب قرب نصف القدم ليتراءى للناظر ان قدمها صغير مع
انه لا يرى لطول ذيولهن واضراره بهن كما يذكره الاطباء من انه يؤذي الرحم لنزول ثقل
البدن على وسط القدم أي الاخمص وتارة يزدن فوق اللباس أردية أو معاطف عند الخروج
في الطريق ويسدلن على وجوههن خمارا شفافا صفيقا لمجرد التزين ويطوين
شعورهن الحقيقية أو التقليدية بهيئات حسنة على أنفوخهن ويلبسن قلانس ظرافا
ذات أزهار صناعية وغيرها ويلبسن القفازين أيضا ويلبسن من الحلى اقراطا وسوارا
وخواتيم وقلائد وما سلك من أنواع المجوهرات على حسب الرفاهية وأكثر ألوان
لباسهن مائل الى السواد ثم الابيض ثم غيره (وأما) اللباس الرسمي لاصحاب الوظائف من
الرجال فهو على الشكل الذي تقدم غير ان السترة تكون مطرزة بقصب الذهب أو
الفضة على صدرها وعنقها ويديها وظهرها على حسب الرتب وكذلك يكون للسراويل
شرطان من القصب وعلى القلانس علامات أيضا من القصب ويلبسون مع ذلك
النياشين أي علامات الفخر ولبس العساكر نظيف جدا متقن من ذلك الشكل غير ان
سترتهم مقفولة الصدر وتبلغ في الطول الى الخصر فقط الا ضباطهم فهي طويلة كغيرهم
مقفولة الصدر

مطلب

﴿في الاكل﴾

هيئة الاكل عندهم هي موائد مرتفعة يجلس حولها على كراسي وتغطى برداء أبيض
وكل آكل يجعل أمامه صحن فارغ ويأتي الخادم بأناء الطعام فيأخذ منه الآكل في صحنه
مقدار ما يريد ومن اصطلاحاتهم ان تجد حذاء الصحن بطاقة بشكل لطيف مكتوب بها
ألوان الطعام الحاضر لتلك الاكلة حتى تأخذ منها ما تشتهيه وهاته العادة هي من
المستحبات عندنا كما نص عليها في آداب الضيافة وقررها الغزالي في الاحياء لكن
لا بخصوص الكتابة وانما هي بأي اعلام للضيف بانواع الطعام ثم كل صحن حوله ملعقة
وشوكة وسكين وبعد الفراغ من كل لون يبدل الصحن والسكين والملعقة بغيرها
نظيفة وكذلك يوجد حذو الصحن كيسان على قدر أنواع المشروبات التي تكون لتلك
المائدة من أنواع الخمر وفي وسط المائدة أواني بالزهور بحيث انها في غاية المنظر الحسن
والنظافة ويحفظ الآكلون على النظافة والعادة أن لا يزيدون غالبا على خمسة ألوان
الا في الضيافات والمواكب ثم بعدها يؤتى بنوع من الحلويات ثم بجبن ثم بفاكهة من
احدى غلال الوقت وطعامهم له أنواع شتى أحسنها أنواع المشوي وأغلب أنواع الطعام
مائل الى التجريد عن كثرة الاخلاط والابزرة حتى يضعون على الموائد أواني لطيفة بالملح
والفلفل الاسود والخل والزيت لما لعله يطلب منه الآكل اذا وجد الطعام غير لائق به
في الملح كما انه يجعل على المائدة أواني ظريفة بالخردل المسحوق المخلوط بالخل وقنينات
بالماء وآخر بالخمر المعتاد عندهم للاكل ثم في أثناء الطعام يؤتى بأنواع أخر من الخمر
أرفع من المعتاد وفي آخر الطعام يؤتى بنوع منه يسمى شمبانيا اذا صب في الكاس غلى
وارتفع واذ ذاك يخطب خطباؤهم في مقاصد تلائم حالة الاجتماع اما قائما أو جالسا ثم
في آخر كلامه يقف ويشير بعضهم الى بعض بالكؤس كناية عن التوادد ويشربونها
ولكن هذا لا يقع في منازل المسافرين في الموائد العامة الاجتماع عن غير قصد وانما
يقع في الضيافات والمحافل وتارة يصرخ الحاضرون بيعيش كذا ما فلان أو مقصد
سياسي ومن لا يريد الشرب من الخمر لا يعيبون عليه ذلك بل يعرض له صاحب المحل
تعويضا خفيفا بقدح نوع الخمر فان امتنع فلا تثريب عليه ويوجد فيهم افراد لا يشربون
كما ان غالب متبصريهم يعلم ان الخمر حرام عند المسلمين والنسوة في الديار هن المتكلفات

بأحوال الاكل والطباخون يكونون من الرجال ومن النساء ولهم كتب مؤلفة فى تركيب الاكل والطبخ

مطلب

﴿فى المواكب﴾

أما المواكب الرسمية فان الملك له بيت كبير فى القصر الرسمى وبصدره عرش على نحو ما تقدم فى عرش والى تونس ويزيد بان يكون على يسار محل جلوس الملك كرسى لزوجه وقبل حضور الملك يحضر المأذونون بالحضور على رسوم الرسمية ويقفون يمينا وشمالا على حسب رتبهم ولما يحفل الموكب يخرج عليهم الملك لابسا لباسه الرسمى الذى هو على نحو ما تقدمت صفته غير ان بعض الملوك يزيد على ذلك بلبس رداء طويل الاذيال واسع جدا ليس له أكمام وانما يوضع على ظهره وكتفيه ويغلق حول العنق بأزرار ثمينة ويرفع أطراف ذيوله من ورائه بعض أبناء الكبراء من العائلة الملكية أو من أقاربهم الى أن يجلس الملك على عرشه وكذلك يكون له تاج مجوهر يضعه على رأسه مع اللباس الرسمى المقصب ويخرج فى المواكب من حجرته ومعه زوجه وأهل بيته ويصعد على كرسيه ويكشف رأسه مسلما بالايماء الى ميمنتهم ثم الى ميسرتهم ثم يخاطبهم بخطبة مناسبة لمقتضى الحال موميا الاحوال السياسة الراهنة وتلك الخطبة تكون قد هيئت من قبل بتدبير الوزراء وتارة يلقيها الملك بنفسه وتارة يلقيها رئيس كتبته ويكون الحاضرون كلهم مكشوفى الرؤس فيحيونه بالدعاء له بطول العمر وينفض الموكب وهاته المواكب هى فى رأس السنة وهو شهر يناير الاعجمى وفى عيد ولادة الملك وكذلك يوم فتح مجالس النواب والاعيان من كل سنة ويكون ذلك فى محل المجالس وكذلك تنعقد مواكب أخرى على حسب الحوادث (وأما) المواكب الاهلية فهى رأس العام ولا يحتفلون لغيره من الاعياد وانما يكثرون استدعاء بعضهم الى بعض للمسامرة ليلا فيما بين المعارف زيادة على الاجتماعات فى أماكن العموم كالملاهى والمنتزهات وبسبب ذلك يقع التعارف بين الرجال والنساء المريدين للتزوج فتكثر المخالطة بينهم فى حالات مختلفة فاذا حسن عند كل طبع الآخر وسيرته خطب أب الزوج أبا الزوجة فى بنته لابنه فاذا حسن لديه أيضا أجابه واذ ذاك فى الغالب يجمعون خواص أحباب كل من الفريقين فى بيت الزوجة لوليمة من طعام من الحلويات والخمور وان لم تكن الدار لائقة للاجتماع تجعل الوليمة

الوليمة فى احدى منازل المسافرين فيوصى صاحب الوليمة صاحب المنزل على ما يريد ويعين له الوقت وعدد الاشخاص ويتوافقون على الثمن وعند قدوم المدعوين يجدون المحل على أحسن انتظام وكذلك يصنعون فى الولائم فى الديار اذا كان صاحب لدار ليس له عدة الضيافة مع ان داره قابلة فان صاحب منزل المسافرين يأتيه بكل ما يكفى من أوان وأطعمة وخدمة وغيرها وليس على صاحب الدار الا دفع الثمن مع الراحة وحسن الانتظام فى سائر أنواع الولائم ثم اذا حان زمن العرس يحضر أبو الزوجة ويدفع للزوج مهر ابنته من مال عين أو أملاك ويكتب ذلك على الزوج ويكون أمانة فى يده ثم بعد ذلك يتوجهون الى الكنيسة فيجدون المدعوين هناك ويحضر القسيس ويبارك على كل من الزوجين ويأخذ خاتما من ذهب من أصبع الزوج ويدخله فى أصبع الزوجة ويرش عليهما ماء وتكون العروس اذ ذاك لابسة لاحسن لباسها فى لون البياض ومتحلية بما لها من الحلى ثم يحلق الزوج يده اليمنى على صدره وتدخل الزوجة يدها اليسرى فى ذراعه وينصرفون ويقف آباؤهم معهم فى محل عند باب الكنيسة لقبول الهناء من المدعوين ثم يسافر العروسان حالا الى أى بلد أرادوا مدة ما على حسب الرفاهية والجدة وذلك لامرين أولهما عدم الحياء من معارفهم بالاستراحة من الاشتغال بحركاتهم وسكناتهم وثانيهما انقضى مدة فى الانكباب على لذاتهما من غير تعب بأدنى كلفة مع الاقتصاد فى المصاريف للوليمة لاجل المعارف وينفقون ما ينفقون فى لذاتهما هذا فى الاغنياء (أما الفقراء) فيستعوضون عن السفر بالخروج لاحدى المنتزهات ثم ان الزوجة لا تكسو فى العرس الا نفسها والزوج هو الذى يكسو بيته وبعد ذلك يكون مصروف الزوجة فى أكلها ولباسها وسكناها على زوجها وذلك المال الذى أعطته مهرا للزوج باق على ذمتها وانما يصرفون دخله على كل منهما ومن ولائمهم أيضا وليمة بلوغ البنت فيلبسونها لباسا كله أبيض وبرقعا أبيض صفيقا وتذهب الى الكنيسة ثم تعود لدار أبيها ويصنع لذلك وليمة (واعلم) ان ما ذكرناه من الذهاب الى الكنائس ليس أمرا حتميا بل هو عادى لمجرد التعود عليه عندما كانوا يجرون الاحكام الديانية فى الاحوال المدنية وموكب المأتم عندهم لا يجهرون فيه بالبكاء وبعد قدوم القسيس لحضور موت الميت يبقى مدة من الايام لتحقق الموت حيث انهم وجدوا بعض الذوات يظهر عليها الموت وهى فى الحقيقة لم تمت مع تعسر الاطلاع ولو من حذاق الحكماء ويكون هذا بالخصوص فى موت الفجئة وانما لو كان هذا لا مانع فى ديانتنا منه اذا استحباب

التهبيل بالدفن انما هو عند تحقق الموت بيقين (اما قبله) فيحرم لانه يصير قتلا وقد شوهد ذلك فى كثير ممن نبشت قبورهم بعد زمان فيجدونهم فى حالة غير التى يوضع عليها الميت ويجدون الاكفان ممزقة وخيوط القبر بها آثار الخدش فيجب التنبه لمثل ذلك وقد قالوا ان ذلك النوع يحصل بكثرة فى الامراض المستوبية وقد سمعت بذلك فى بلادى مرات متعددة منها فى سنة ١٢٨٤ حيث استوبى مرض الحمى الخبيثة فكانت عدة جنائز ذاهبين بها فاطالم المارة على حركات فى الميت وأوقفوا الجنازة ووجدوه حيا وتارة ينادى هو من نفسه متفجعا من الحالة التى هو فيها ثم ان أهل ايطاليا بعد تحقق الموت يكفنون الميت فى لباسه النظيف ويجعلونه فى صندوق من خشب ملفوف فى رداء اسود عليه شرطان من قصب الفضة وتحمل الجنازة فى كروسة معدة لذلك ويركب مشيعوا الجنازة فى كراريس معدة للحزن كلها اسود وأغنياؤهم يربطون فى كروستهم خيلا اسودا أيضا وعدتها سوداء و يذهبون بالميت الى المقبرة فيدفن فى قبر عميق ويحكم سد التراب والبناء عليه ويجعلون على القبور هيا كل من الرخام ويتأنقون فيها (وأما) الفقراء فتجعل جنائزهم فى سراديب مع بعضها وقد اتخذ بعضهم ما تنوى فى هاته الجهات ولم يبق الا عند بعض الهنود وهو احراق الميت فانهم يجعلونه فى فرن من حديد محكم السد لكيلا تخرج الرائحة ويصب عليه زيت النفط ويحرق ثم يأخذ رماده ويخزن فى اناء فى مكان عزيز فى دار أهله و بعض الاغنياء العزيز على أهله تصبر جثته بعد اخراج امعائه ويلبس ثيابه الفاخرة ويجعل واقفا فى جهة من البيت فى خزنة وجهها زجاج

مطلب

❁(فى اللغة)❁

لغة عموم الاهالى تسمى طليانية وهى فرع من اللاتينية وما يكتب فيها ينطق به على حسب الحركات المرسومة وهى لغة واسعة مساعدة فى النثر والنظم على بحور عندهم معلومة ولذلك تجد أشعارهم بها جيدة المعانى على حسب اصطلاحاتهم فمنها ما يستحسن عند أهل العربية ومنها ما يخالف الاسلوب البلاغى وتلك اللغة وان كانت هى اللغة العامة والرسمية فى الكتابة والعلوم وغيرها لكن توجد فى أطراف ايطاليا لغات شتى حتى لا يكاد بعضهم يفهم بعضا بالتخاطب اما اذا رجعوا الى الكتابة فيرجع الكل الى لغة واصطلاح واحد

مطلب

مطلب

❁(فى القوة المالية والحربية)❁

فرنك

العدد	البيان
٠١٩٤٢٥و٥٨٣و٩٦٥	دخل الدولة سنة ١٨٨١
٠١٩٤٢٥و٥٨٣و٩٦٠	خرجها
٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر١٠	دينها
٠٠٠ر٠٠٠ر٦٠٠ر٢٠	قوة التجارة فى المملكة بين الداخل والخارج من السلع

عساكر

العدد	البيان
٣٩٥ر٩٠١	تحت السلاح
٤٣٣ر٨٧٦	رديف
٨٢٩ر٨٤٧	
٠١٠ر٥٠٠	بحرية
٨٠	سفن حربية مدرعة وخشبا منها مدرعة تسمى الدوبلو هى أكبر مدرعة فى البحر
٦٥٥	مدافع
٥و٠٩٨	امتداد سكك الحديد أميالا سنة ١٨٨١

الباب الرابع

❁(فى مملكة فرانسا وما رأيته فيها)❁

الفصل الاول

❁(فى سفرى اليها)❁

قد تقدم أنا وصلنا الى بلد مودان التى ينتقل فيها المسافر الى الرتل الفرانساوى وكان وصولنا اليها الساعة واحدة ونصف بعد نصف الليل فوجدنا المحطة منورة والخدمة متدرعين باللباس الثخين للتدثر من الثلج والبرد وبأرجلهم أحذية من الخشب فلما أردنا

الركوب فى الرتل الفرانساوى وجدنا المخدع الذى أوصينا عليه بتلك الاشارة حاضرا فى الرتل وسألنا المكلفون عن ورقة الجواز فلما أخبرناهم أنا من تونس وأردنا احضار الورقة ورأوا الباسنا رحبوا وقالوا لا يلزم اخراج الورقة ولا فتح الصناديق لنظر ما بها فركبنا حالا فى غاية الراحة وقفل الرتل سابحا على الارض بسرعة أزيد من الرتل الطليانى غير أن المخدع كان أقل انتظاما من المخدع السابق فأردنا النوم بقية الليل لكن شدة البرد منعت من استراحة النوم ولم يزل الرتل سابحا ولما بدا الفجر ظهر منظر الارض والحاصل انه على نوع متشابه مع أعالى ايطاليا غير أن الفرق الذى يرى هو كثرة البلدان والقرى بأرض فرانسا على ايطاليا وكثرة الديار المنفردة فى الحقول والاراضى بايطاليا على فرانسا ثم وصلنا الى باريس فى الساعة السادسة قبل نصف الليل فكانت مدة السير من تورين الى باريس احدى وعشرين ساعة وكانت باريس تظهر من بعد فى الليل كأنها سماء زينت بالكواكب واستمر الرتل سائرا من مبدأ علائق المحطة الى أن وقف نحو خمس عشرة دقيقة فاذا هى محطة أضخم وأوسع من جميع ما رأيناه فنزلنا ودخلنا الى الكمرك ولما ناظرنا المكلفون قالوا الازوم لتفتيش رحالكم وأنتم مصدقون هل عندكم من سلعة تؤدى الكمرك فقلنا ليس الا نشوق وماء زهر وورد فقالوا هو بمقدار حاجتكم أم للتجارة قلنا بقدر حاجتنا فاذنوا بسراح الرحل بدون تفتيش ولا أداء فركبنا كروسة كبيرة لمنزل المسافرين المسمى أوتيل دى كابوسين الذى هو من المنازل الحسنة الواقعة بأعز طرق باريس وأكثر التونسيين نزولا به فاستمر السير خببا من الخيل نحوا من ساعة من المحطة الى المنزل وكانت الطرق كلها منيرة بالفوانيس نورا زائدا على غيرها وهى طويلة وسيعة أزيد من غيرها بحيث ينتهى النظر فى طول الطريق فأقمنا بذلك المنزل تلك الليلة وتعشينا وفى الصباح أفطرنا فطورا خفيفا وطلبت الحساب حيث لم أساوم قبل النزول فاذا أجرة البيوت ليلة وثمن العشاء والفطور الصباحى للثلاثة أنفس نيف وسبعون فرنكا فخرجنا من هنالك وتلاقينا مع المعارف واكترو الى منزلا خاصا ذا أربع بيوت بجميع لوازم فرشها وخدامها بثلاثمائة فرنك فى الشهر غير أن الاكل خارج عن ذلك بل يأتون به من احدى أماكن الاكل القريبة هنالك وهى كثيرة اذ كان المنزل على النهج العظيم فى باريس المسمى بلغاردى كابوسين وهو من الاماكن الشهيرة بالعمران فى باريس ثم ان كثرة قرقعة العجلات التى تفوق عن الرعد فى ذلك الطريق ليلا ونهارا كدرت لى الاستقرار هنالك حيث انها لا يخف دويها الا بعد

نصف

نصف الليل بساعة وما بقى النهار الا وتعود لما كانت عليه فانتقلت الى منزل آخر أوسع من الاول ويحتوى على مطبخ وبيت جلوس وبيت أكل وثلاثة بيوت للنوم بجميع لوازم ذلك كله مع تغيير الفرش والمناديل بالنظيفة والكراء قدره ثلاثمائة فرنك فى الشهر وأحضرت طباخا بأربعين فرنكا فى الشهر وخادما بعشرين فرنكا وكان المصروف اليومى على لوازم الاكل نحو العشرين فرنكا فى اليوم مع الاقتدار على قبول بعض من الضيوف والارتياح من الاحتراس فى الاكل وكان هذا المحل أيضا باحدى الاماكن الشهيرة النزهة المسمى بشانزى لزى لكنه لما كان طريقه شديد الاتساع ومحل مرور العجلات فيه يبعد عن حيطان الديار نحو العشرين مترو وكان تحصيب الطريق بالحصا المسواة بالرمل بخلاف الاول لانه مبلط بالحجارة الصلبة التى فى قطع الشبر فكانت أذية الدوى مفقودة فى الثانى مع حصول المنظر الجميل واجتمعت فى باريس بأشهر أطبائها فى المرض العصبى اذ لكل نوع من الامراض عندهم مشاهير مخصوصون به والحكيم الشهير فى هذا المرض عندهم هو الحكيم شاركو وأحضرته الى فى بعض الايام اثنين من مشاهير أطبائهم وكانت أجرة زيارة الواحد فى المرة الواحدة ستين فرنكا واذا زار الحكيم فى داره يعطى أربعين فرنكا ومما يدل على شهرة هذا الحكيم وغناء بعلمه انه دعى يوما لمريض فى بلد برلين قاعدة مملكة المانيا فذهب عشية الجمعة ورجع عشية الاحد فى الرتل وأعطى خمسة عشر ألف فرنكا لاجل تلك الزيارة وعلى ذلك فقس وهو انما يقبل المرضى فى يومين فقط من الاسبوع وبقية الايام يقرئ فيها درسا عاليا فى الطب العصبى وله مستشفى خاص بالامراض العصبية تحت نظارته يحتوى على نحو ثمانية آلاف مريض ذكر لى يوما الطبيب فيفر والذى هو بمعية الحكيم المشار اليه ومباشر للعلاج بالكهرباء ان ذلك اليوم كان فى المستشفى مرضى أخذوا الاكل سبعة آلاف وثمانمائة ونيف عدا من لم يستطع الاكل ومن كان ممنوعا منه وذكر ان المستشفى محسوب على الاطباق الزجاجية الموضوعة فى أبواب الطواقى فاذا هى ثمانون ألف طبق وذلك الحكيم مع سعة معارفه هو بشوش مؤانس حتى صار ودودا لى وله ولزوجه ولوع كبير بالثياب والمفروشات والاوانى وغيرها الصينية والمشرقية والعتيقة من صنائع أوربا حتى كانت بيوت داره مكسوة بأشياء بديعة ذات قيمة عالية جدا تتجاوز مئات آلاف فرنك ومن مصائب الجهل بالالسن ما حصل لى يوما وهو أن الطبيب أخبرنى بان المسكن الذى تعودت عليه بالاحتقان تحت الجلد مما يتأنس به البدن فلا يبقى مؤثرا ولذلك يريد أن يعمل

وجها فى ذلك وان الاولى بى ان أنقص من مقدار الاستعمال منه بان أصنع ربع الحقنة فقط هكذا أفهمنى المترجم ثم أتى بالعلاج المسكن من الصيدلانى فتحيرعلى الالم بين العشائين كما هو عادة طروه فى الاغلب فعلت المقدار مثل ما قال الطبيب فلم يسكن وظننت ان الدواء هو المعتاد فزدت نصف حقنة فلم ألبث قدر ثلاث دقائق الا وايقنت بالموت ووجدت ألم الم أعهده ولا أقدر على التعبير عنه وانما أقول أظلم الجو فى نظرى وأحسست بنفسى ساقطا فى جب لا قعر له وغاية ما أدركت ان طلبت المصحف الكريم وضممته على صدرى واستشعرت انى أتلو آية لقد جاءكم سمعا ولسانى لا يكاد يجمع الحروف ولم أدر ما وراء ذلك فلم يبتدئ شعورى بالوجود الا بعد نصف الليل بثلاث ساعات فرأيت أتباعى ومعارفى حولى يبكون وجميع ما أراه أحمر ثم رجع الاغماء ثم الاستيقاظ ولا زال الامر يتدرج فى الخفة الى الصباح وأنا فى غاية الضعف وسألت الطبيب عن السبب فأخبرنى أن العلاج قد غيره بمسكن آخر يسمى الاتر و بينا مضاد لمسكن المرفينا وأقوى منها بأضعاف كثيرة وانه كان شدد الوصاية فى التحذير منه للترجمان اذ ذاك المقدار الذى عملته يكفى لقتل عدة أشخاص وان من لطف الله أن كان فى مزاجى من المرفينا مقدار وافر من استعمالها سابقا حتى كانت مضادة لذلك السم القتال ولله الحمد على لطفه وعفوه وما ذاك الا من جهل اللسان واضرار المترجين وقد أقمت بباريس فى هاته السفرة نحو شهر ثم عدت اليها سنة ١٢٩٥ وأقمت بها شهرين ثم عدت سنة ١٢٩٦ وأقمت بها شهرا وها أنا أفرد لصفتها فصلا خاصا

الفصل الثانى

﴿فى باريس وصفاتها﴾

باريس وما أدراك ما باريس هى نزهة الدنيا وبستان العالم الارضى وأعجوبة الزمان ولعمرى انها أحق باسم مملكة من اسم مصر وهى انموذج لغرائب مصنوعات البشر وحق للفرنساويين التفاخر بها ومباهاة الامم بمحاسنها وجمالها وغناها ومعارفها ومصانعها فمهما فكرت فى احدى هاته الاوقات ان القوم قد انحصرت أعمالهم فيها ثم اذا التفت للاخرى تقول مثل ذلك وهكذا وكانها افاقت على غيرها باجتماع الكل فيها فصدق عليها المثل كل الصيد فى جوف الفرا ولو اراد الكاتب الاستقصاء فى كل طرف مما احتوت عليه لضاقت عنه المجلدات واضطر الى الاكتفاء بالاشارات وبالجملة

فالواقف

فالواقف عليها يزداد يقينا فى العلم بقدرة الخالق وان أحوال الآخرة فوق عقولنا كما أخبر به الصادق الامين عليه الصلاة والسلام من وصف الجنان وان فيها ما لا يخطر على قلب بشر فاذا كانت هاته مصر لم يكن يخطر بالفكر تشخص صورتها الا بعد رؤيتها مع انها من مواد معهوداتنا فكيف بعالم لا نعهد مادته ولا نتصور طبيعته وربك يخلق ما يشاء ويختار وهو على كل شئ قدير فاجمال وصف هاته المصر المتمصرة انها بلد فى سهل بها ربى قليلة الارتفاع يخترقها نهر السين الذى يحمل القوارب والبواخر الصغيرة وعليه فى البلد عشرون جسرا مختلفة الاشكال منها ما هو من قوس واحد من حديد ومنها ما هو من بناء وتمر تحته البواخر ومنها واحدة فى طرف البلد جهة قريبة تبنى عليه جسر آخر مرتفع جدا على حنايا يمر عليها الرتل فى طريق الحديد فترى البواخر جارية فى النهر وعلى الجسر المشاة والفرسان والعجلات ومن فوقهم الرتل كانه سابح فى الهواء وكل جسر مقسوم على ثلاثة طرق فاليمينى والشمالى للمشاة والوسط للركاب والعجلات وفى وسط النهر جزيرة كثيرة بها مبانى وديار ويخرج من هذا النهر ترعة تذهب جهة الشمال الغربى من المملكة الى أن تتصل بنهر المارن وهى فى أغلب البلد مغطاة بالبناء المنعقد وعليها الابنية ويحيط بالبلد سور منخفض شديد العرض عليه حصون فى جميع انحائه وخارجه خندق عريض جدا عميق يملأ بالماء من النهر عند الحاجة وللسور أبواب أنيقة من الحديد ومحيط دائرة السور أربعة وثلاثون ألف متر وثم تقسم المصر الى عشرين قسما كل قسم منفرد بادارته كانه بلد مستقل ثم يتحد الجميع فى الادارة العامة فى المجلس البلدى الذى هو احق باسم دولة اذ دخله مليون ٢٦١ منها من ايراد الغاز ١٨٠ مليون ومصاريفه نحو ذلك منها ٩٩ مليون لفائدة الدين و ٢٢ مليون الى المكاتب والنافعه و ١٦ للمحتاجين وما بقى لمصالح المدينة كله يصرف فى مصالح البلد وتحسينها وعلى المجلس من الديون أزيد من ألف مليون صرفت فى التحسين اذ انه لم يزل يشترى حارات ويهدمها ويفتح فيها طرقا وبطحا آت وما فضل يبيعه أو يبنى فيه مساكن وحوانيت على حسب ما يقتضيه المكان وقد شاهدت فى سفرتى الثانية لهاته المصر أن المجلس البلدى فتح طريقا مستقيما متسعا من بطحاء الاوبرة الكبيرة الى بطحاء بالى اروايال وباع ما فضل من الارض فبلغ ثمن الميتر الواحد من الارض على التربيع أربعة آلاف وخمسمائة فرنك وبلغ سعر الميتر وحول النهج الموصل الى ابوادى بولونيا الى ثلاثة آلاف فرنك وهكذا ثم ان طرق البلاد عددها أزيد من ثلاثة آلاف طريق وهى

تنقسم الى ثلاثة أقسام (الاول) يسمى آفنو وهو ما كان وسيعا جدا وحوله أشجار يمينا وشمالا ووراءها قصور (والثانى) يسمى بلفار وهو ما كان أضيق من الاول ويزيد عليه بان يكون تحت القصور حوانيت بهيجة (والثالث) يسمى رو وهو بقية الطرقات ومن محاسن طرقها أنه يوجد فيها غالبا سيما الطرق العامة محلات للبول مستورة بشكل ظريف على هيئة قباب فى وسط الطريق والماء بها جار كما توجد محلات الخلاء فى غاية النظافة وهى أيضا كثيرة وذلك من واجبات البلدان الكبيرة لبعد الماشى عن محله وذلك أمر ضرورى وأجل الطرق منظرا هو البلفار الذى يشق البلاد تقريبا من الجنوب الى الشمال وينتهى فى جهة الشمال الى البطحاء المسماة بلاس لاكنكورد فتتصل بها حديقة الشانزى لزى وتنتهى الى البطحاء التى بوسطها قوس النصر المسمى ارك دى ترنيونف ويتفرع منها اثناعشر نهجا وقد كنت فى سفرتى الثانية سنة ١٢٩٥ نزلت بأحد هاته النهوج المسمى قديما افنو الامبراتريس والآن افنو بوادى بولونيا وكان الوقت صيفا فركبت احدى الليالى مع أحد أصدقائى من منزلى فى كروسة يجرها فرسان وتوجهنا الى جهة البلفار وكان ركوبنا فى الساعة الثامنة بعد الزوال فسرنا نحو ساعة ونصفا ولم نصل لمنتهى البلفار من جهة الجنوب ثم رجعنا وقد قضينا السهر فى الطريق ذهابا وايابا مع المنظر الجميل والبهجة بنور المصابيح وكثرة ازدحام الماشين والعواجل وبالجملة فهذا البلفار هو مما انفردت به باريس على غيرها من المدن الشهيرة وهو فى الليل أبهى منه فى النهار لكثرة ما ينور به الطريق والحوانيت مع حسن وضعها وتزويق ظاهرها وتنميق ما يوضع بها من البضائع وجمال ذاتها وتنضيد ترصيفها وهذا البلفار له عدة أسماء باعتبار جهات منه وقد كان انشاء أصل هذا البلفار سنة ١٥٣٦ وكلما قرب الى المنتهى جهة الجنوب قلت نضارته بالنسبة لنفسه فى الجهات الاخرى والبلاد وان كانت تشمل بلفارات أخر كبلفار هسمان وغيره لكن ولا كالبلفار السابق والذى زاد باريس بهجة ضخامة أبنيتها وارتفاعها وتناسقها وتشابهها فى الظاهر ثم فى باريس أماكن أخر أنيقة فمنها بالى اروايال جوار قصر ملكى سمى به وهو عبارة عن مربعين يتصل أحدهما بالآخر محيط بهما حوانيت تحت سرادقات وفوقها قصور ومطاعم وحمامات ومنازل وفى وسط أحد المربعين حديقة نضرة بوسطها حوض وفوارات وحولها قهاوى ومقاعد والحوانيت تشمل جميع ما يحتاج اليه فترى حانوتا منضدة بترصيف اليواقيت والجواهر وبازائها حانوت أخرى منضدة باللحوم والخضراوات

وتلاصقها

وتلاصقها قهوة ذات متكئات وهكذا ولا يمل نظرك من تلك المناظر البهيجة ومع تباين أنواع المبيعات تجدها فى غاية التناسب لما لها من الرونق والنظافة وتجد المبيعات هنا فى غاية الغلاء ومع ذلك فلا تبور سلعهم لان مترفى الاهالى يشترون الشئ لبائعه ومحل بيعه فباقة الزهر مثلا تشترى من هنا أو من البلفار بخمسمائة فرنك يهديها المترف لعزيزته باسم صانع ربطها مع انها تشمل زهرة من أمريكا وأخرى من الجابون وورقة من أواسط أفريقيا وهلم جرا وقد رأيت حانوتا تبيع الزهور فى البلفار كراؤها خمسة عشر ألف فرنك فى السنة وباع صاحبها باقة فى رأس السنة بخمسمائة فرنك وهكذا حوانيت بالى اروايال وكان أكثر بياعى اليواقيت مركزهم هو هذا المحل فلذلك كان له زيادة فى حسن المنظر اذ كل اللآلئ واليواقيت ترى مرصفة وراء أطباق الزجاج مكشوفة لكل ناظر وقد كان انشاء هذا المحل سنة ١٦٢٩ ومنها حديقة شانزلزى وهى غيضة فى طول ميل تقريبا وفى منتهاها قرب البطحاء تصير كأنها بستان أنيق ذو مماشى وقهاوى ومقاعد وملاهى منها ما يسمى كافى شانتان فان الانسان يقدر أن يتعشى فيها منفردا بأطيب ما يشتهى والموسيقى تعزف واللاعبون فى الملهى يشعوذون ويغنون بالمضحكات وكذلك بها كافى ليباشاد على نحو ذلك وفى أعلى الشانزى لزى بطحاء وسيعة تتصل بها اثناعشر طريقا وبوسطها قوس النصر المسمى ارك دى ترنيونف الذى بناه نابليون الاول ورسم على حيطانه صورة جميع حروبه التى انتصر فيها وهو بناء ضخم جدا شاهق للغاية ذو أربعة أقواس متقابلة متصلة ببعضها يصعد الى أعلاه بدرج داخل احدى زواياه وعدد درجه مائتان واحدى وسبعون درجة ومنها جردان مابيل الذى يفتح ليلا وتخال أوراق أشجاره وزهوره بما يبدعون من الانوار حتى يكون فى أرضه وغصونه ما يبلغ عدة آلاف من المصابيح الملونة الزيت كألوان الزهور غير أن من له عرض يتحاشا الدخول اليه لكثرة من يدخله من المومسات ويصرن يرقصن هنالك ويعبثن مع الرجال فقد سمعت من أخبار صحيفة الديبا الانكار على الحكم فى اطلاق تلك العاهرات حتى عبثوا بالصينيين الذين قدموا المعرض باريس سنة ١٢٩٥ عندما دخلوا اليلا لذلك البستان للتفرج وسبب كثرتهن هنالك اعفاؤهن من الاداء على الدخول بخلاف الرجال فكل من دخل دفع خمس فرنكات مع حضور آلات الطرب وكثرة المشروبات والحلويات فى مقاعد ذلك البستان المنشأ سنة ١٦٧٠ ومنها بلاس لاكنكورد المتصلة بغيضة الشانزى لزى السابقة الذكر وبوسطها حوضان كبيران بفوارات محيطها فوانيس وبين الحوضين العمود المسمى بالمسلة

الذى جلب من مصر وعليه كتابة بلسان المصريين القديم وحروفهم التى هى أشكال حيوانات ونصب هنالك سنة ١٨٣٠ وطوله اثنان وسبعون قدما فى قطعة واحدة من حجر دون القاعدة المنفصلة التى ركز عليها وعرضه من أسفل سبعة أقدام وكلف جلبه مصاريف عدة ملايين حتى أنشأت له سفينة خاصة وقد نورت هذه البطحاء بالنور الكهربائى الذى هو كنور القمر لونا وطول هاته البطحاء ميترو ٢٤٨ وعرضها ميترو ١٦٩ وتتصل بالنهر وبالبلفار ومنها حديقة التولرى المتصلة بالبطحاء المذكورة أيضا ذات المقاعد والمساطب وهى امام قصر الملك ومنها بلاس فندوم التى بها عمود نابليون الاول صنع هذا العمود من ألف ومائتى مدفع من النحاس غنمها الامبراطور المذكور فى حروبه ورسم عليه صور المعامع التى انتصر فيها المذكور ووسط العمود به مائة وستة وسبعون درجة يصعد بها الى أعلاه وفى قمته تمثال نابليون وقد أسقطه الكمون أى جماعة الاشتراكيين الذين يريدون أن تكون الناس كلهم شركاء فى جميع الموجودات وذلك فى ثورة سنة ١٨٧٠ فأعادته الجمهورية الى مكانه فى يوم مشهود وكنت حاضرا سنة ١٢٩٢ ومنها افنودى لوبرة الواصل بين بطحاء الملهى العجيب المسمى بلوبره وبين بالى ار وايال وقد نورت بطحاآته وحافاته بالكهربا ومنها الباساج أى الاسواق المسقفة بالزجاج التى لا يمر فيها الا الماشى وهى ذات حوانيت يمينا وشمالا من أبدع الاشكال والتنميق ومنها غيضة أبوادى بولونيا أى غابة بولونيا من أبدع الآجام والغابات المشتبكة بالتصنع وفيها بحيرة صناعية وجبال وأنهار وجسور كلها صناعية وبها مماش للعواجل وأخرى للفرسان وأخرى للمشاة ومقاعد وشلالات تنحدر منها المياه وآجام ورياض وقهاوى ومطاعم بأحسن تنظيم وفى البحيرة طيور مائية وجزر وقوارب يركبها الناس الى الجزر والناس ينتابون هاته الغيضة التى هى خارج باريس فى الجهة الغربية الشمالية ليلا ونهارا وهى ممشى أهل الترف سيما أيام الاحاد والاعياد وقد شهدت يوم عرض الجيش ويوم السباق الاكبر سنة ١٢٩٥ ان طرق المصر الموصلة لهاته الغيضة قد غصت بالعجلات على كثرة وسعها فان طريق الشانزى لزى عرضه أزيد من عشر كراريس متحاذيات ومع ذلك لم تستطع العواجل ان تتحرك فيه وكذلك طرق هاته الغيضة حيث ان الميدان وراءها وهو سهل رحيب نحو ميلين فى مثلهما وفى جهته الغربية ثلاثة أواوين منفصلة عن بعضها ومتلاصقة مستقبلة برواشنها ومقاعدها جهة الميدان وأوسطها به بيت لصاحب الملك وجميعها هيئة جهة استقباله

هى

هى ان بعضه أعلى من بعض متدرجا ويدخل اليه من ظهره وامام كل منها فسحة بها كراسى ويفصل بينها وبين الميدان درابزين ولا يدخل الى ثلاث الاواوين الا من كان بيده تذكرة الاستدعاء من الدولة وقد حضر موكب السباق سنة ١٢٩٥ من خصوص المدعوين ما يزيد عن الخمسة والثلاثين ألفا (أما) مجموع المحيطين بالميدان بين راكب وراجل فهو ينوف عن نصف مليون من الخلائق وحول الغيضة أيضا ميادين أخر لغير السباق الكبير وبها محل للرماية وهاته الغيضة دمرتها عساكر المانيا وعساكر فرانسا سنة ١٢٨٣ حيث كانت مرسحا للحرب ولكنى لما رأيتها سنة ١٢٩٢ كانت كأن لم يكن بها شئ وكانت أشجارها نابتة فيها منذ قرن حيث انهم لما أصلحوها نقلوا اليها الاشجار العظيمة من الغابات وهم فى كيفية نقلها ابراعة أعان عليها علم جر الاثقال وآلات البخار حتى انهم يحملون الشجرة بأرضها النابتة بها من غير ان تمس عروقها ويبقى محلها كأنه بئر ومنها غيضة ابوادى ونسن وهى خارج البلد من الجهة المقابلة للغيضة السابقة وهى على نحوها وأشجارها أكبر غير انها لا رونق عليها وكان ذلك لعدم انتداب الاغنياء اليها وانما يتفسح فيها الاواسط والفقراء لبعدها عن حارات الاغنياء ولكن افقها وبها ساحات لالعاب رياضية بدنية بآلات كثيرة تستعملها الاهالى وهاته الغيضة يوصل اليها بالعجلات والحوافل المسماة بالامنيبوس وبالترامووى الذى تجره مزجية بخارية وكلا هذين النوعين لا يستعمل فى الغيضة السابقة لكثرة ورادها مع الغنى والترف ومنها غيضة بارك مونسو قرب الشانزى لزى لها أبواب من حديد مذهب أبدع من أبواب سرايات الملوك المسرفين وهى ليست بكبيرة جدا وفى باريس عدة غيضات على نحوها فى كل قسم منها غير انها ادون منها تأنيقا ومنها جردان دى كليماتسون الذى أنشأته جمعية أهلية للنباتات والحيوانات وقد جمع فيه من كلا الامرين كل ما يقدر عليه البشر من جميع أقطار العالم ولكل نوع من الحيوانات أو النباتات هيئة وهواء صناعى على نحو ما هو معتاد به فى قطره وقد تيسر بذلك التحفظ على حياة جميعها غير ان الاشجار المعالج هواؤها اذا أثمرت لم تكن ثمرتها كأصلها ومن ذلك النخل فان تمره لم يكن تمرا ثم الحيوانات التى يصعب جلبها اذا مات منها شئ فانه يصبر جسمه لينظر على نحو ما كان عليه مدة حياته اما ما رأيته فيها من الحيوانات البرية والبحرية فيلزمه كتاب حياة الحيوان ليستوفى الكلام عليها وأقول باختصار ان أنواع الكلاب وحدها تزيد على المئات فضلا عن غيرها وكذلك أنواع

البيغا من الطيور بألوانها وتذهيبها البديع ومن الحيوانات الغريبة نوع من
الضأن الكبش منه كالحيوان المسبع غير انه لا يأكل اللحم وانما هو جرى وحشى
قوى جدا ومن حيوانات البحر أسد البحر وله صوت عال ويخرج الى البر أحيانا ليأكل
ما يلقى اليه وهو سريع الحركة قوى جدا ومن حسن تربية الاشجار ان شجرة ترى
قاعدتها على أصل واحد ثم تتفرع وتصير كالمكورة ثم تجتمع وتصير أصلا واحدا ثم
تختلف على أشكال عديدة وفى هذا البستان عجلات تجرها خيل صغار جدا لمن يريد
الجولان راكبا وفيه عجلة يجرها أربعة من المعز يركبها الصبيان وأخرى تجرها نعامة
يركبها الصبيان أيضا وهناك أفيال برخوتها يركبها كل من يريد ذلك وفيه أيضا
محلات للقهوة وأخرى للجلوس وتنقابه الموسيقى فى أيام من الاسبوع وعلى كل داخل
للبستان أن يؤدى فرنكا واحدا أما اذا أراد شيأ آخر غير التمشى والجلوس فيؤدى أجره
وله أن يشترى من كل ما فى البستان من الحيوان والنبات غير انهم اذا كان لهم من النوع
فرد واحد فلا يبيعونه وقد وجدت فيه سنة ١٢٩٦ ما هى مركبة من سودان أفريقية
تسموهم بالزلوس لوقوع الحرب بينهم وبين الانكليز فى ذلك التاريخ لكنهم فى الواقع
من سودان مصر كما صرحوا الى أنفسهم بذلك ويتكلمون بالعربية ويصورون حروبا
وغيرها ومنها جردان دى بلانت وهو مثل السابق غير ان بينهما عموما وجهيا فالاول
أبهى منظرا وأكثر حيوانات والثانى يشتمل على الحيوانات المسبعة التى يمنع
وجودها فى الاول لان الثانى للدولة وفيه كل السباع الا الكركدان فقد كان لهم منه
واحد لكنهم اكلوه عند محاصرة باريس ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م ومن أعجب
ما رأيته من الثعابين ثعبان اسود فى غلظ عقدتين وعيناه حمراوان جدا ويظهر عليه
خبث شديد والزجاج المحيط به مزدوج وراءه اسلاك غليظة من الحديد مشبكة تشبيكا
ضيقا ويقال ان سبب ترديد الزجاج كون شعاع بصر الثعبان مسموما ورأيت فيه
الحيات على أنواع ويلقون اليها أولاد الفار الصغار قبل نبات الشعر بجلدها فتنهشه الحية
وتعرض عنه فيلقى مغشيا عليه يضطرب ثم تعود اليه الى أن يموت فتأكل منه ولعل ذلك
لانها متعودة على أكل مثل ذلك وانظر من هذا المقدار اعتناءهم بتربية كل حيوان
على طبيعته كما ينفرد هذا البستان بكونه فيه دار للتشريح والتاريخ الطبيعى
مجسما فكانت جميع الاجسام من أنواع الحيوان فيه مصبرة ومشرحة والانسان
على جميع أطواره من النطفة الى الشيخ الفانى كما يوجد فيه خزنة الكتب فى الفن

المذكور ومنها قصر معرض سنة ١٨٥٧ الذى جعل فيه الآن أنواع الصور والاصنام
ومنها قصر اللوفر الضخم المتقن البناء والتأنيق الملوكى وكان مسكنا للملوك والآن معرضا
للظرف والآثار الدهرية وفيه بيت يشتمل على بعض بدائع ملوكهم ومجوهراتهم
ومما فيه مائدة من المرمر الابيض مرسوم على سطحها خريطة أرضية بالوان المرمر الاخضر
والاحمر وغيرهما بحيث أن كل جهة من الارض بلون خاص وفيه بيت لآثار الصينيين
وآخر لدواخل أفريقية وآخر لاعمال فردينانددى لسبس المسمى باسمه وفيه صورة
خليج السويس مجسمة مع جميع آلات الحفر والاشغال وعدة بيوت لصور تشتمل على
عشرات الآلاف من الصور وأخرى لبلدان مجسمة وبحار وسفن ومراسى وجميع
غرائب الاقطار يقضى فيه الانسان مدة أيام ولا يستوفى حصر ما فيه وقد أخذ من هذا
القصر قسم لادارة قسم من مالية الدولة ومنها قصر التولرى الذى وصله نابليون الثالث
بالقصر السابق وخربه الاشتراكيون بالحرق فى ثورة ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م
وعينت الدولة قسطا سنويا لترميمه على أصوله والعمل جار فيه غير ان ما كان داخله
من الفرش والظرف لا يمكن استعواضها حيث كان مقر الامبراطور ويحتوى على
أنفس بدائع الملوك وأمام هذا القصر حديقة بديعة نضرة زهرها هى يتمتع بها الناس نهارا
وليلا ورأيتهم ليلة يعجبون من احد العازفين بآلة كل باب كبيرة جدا فى طول الانسان
حيث انه أتقن دقها بدون ان تكون امامه ورقة التعليمات ومنها ملهى كران اوبره
الذى هو أبهى وأنظر من سائر القصور والملاهى واحتوى على الضخامة والتزويق
والتأنيق والاسراف فدرجه المرمرية وشكلها ودرابزينها توقف الابصار وهو ذو تسع
طبقات للمتفرجين وايوانين للمستريحين ويحمل خمسة آلاف من النفوس وينور
بالكهربا وأخبرت انه صرف على انشائه وتنميقه مائة مليون وأربعة عشر مليون فرنك ومنها
قصر لكسنبورغ وهو وان لم يلحق نفاسة ما سبق ذكره من القصور لكنه عجيب
وبجانبه دار الرصد العجيبة التى هى فى أرفع ربوة بباريس وفيها من المرايا المكبرة أنواع
شتى منها ما هو فى حجم مدفع كبير وفيه بيت سقفه يدور على عجلات لكى تدور المرآة الى
أى جهة من السماء من غير مانع وترى منه الكواكب ليلا ونهارا فقد شاهدت نهارا
بالمرآة نجم الريغولوس الذى لا يرى ليلا الا بالمرآة ويقال المدير ان بعده عن الارض
أربعة وعشرون مليونا ميلا والحاصل ان فى هذا المرصد جميع آلات علم الفلك وبه علماء
مثابرون على الرصد والتفتيش على ما يمكن لهم الوصول اليه ومنها قصر معرض سنة

١٢٩٥ ه ١٨٧٨ م وهذا المعرض البديع الذي جعلت به باريس دار مأدبة لسكان
الارض واحتفلت بهم احتفال الكرام هو أبدع من جميع المعارض التي سبقته في جميع
البلاد ولا يفهم من قولي احتفال الكرام ان القادمين تقوم بشؤنهم فرانسا بل كل منهم
يصرف على نفسه وانما المراد هو التهيء لاحضار ما تشتهيه أنفسهم وتلذ به أعينهم من
كل ما يدخل تحت قدرة البشر ثم انفاق النفقات الباهظة للمحافل العامة والمآدب
التي يضعها كبراء الدولة أحيانا ويدعون اليها أعيان المسافرين والاهالي فان دولة
فرانسا قد دعت ملوك أوروبا وغيرهم من الامراء والوزراء وكل من له اقتدار من غيرهم
فانه يأتي لمشاهدة ما لم يمكن الوصول اليه بسهولة حيث انه يرى أنموذج جميع ما في
الارض كله بمحل واحد وقد كان ممن أجاب الدعوة من الملوك شاه ايران ومن غريب
التواريخ ما قلته في رحلته تلك وهو قولي مؤرخا (قد زار أوروبا الشاه ناصر الدين) ١٢٩٠
لكنه قدم على غير الصورة الرسمية ولذلك سكن بأحد منازل المسافرين وذكرت الصحف
انه أفطر يوما بادفونتين البلو التي حولها غابة ومنتزهات فكانت نفقته في ذلك
الفطور أحد عشر ألف فرنك ولا يخفى ان سائر الاشياء كانت في تلك السنة في نهاية
الغلاء بباريس لاسيما المأكولات والمشروبات بداخل المعرض لكثرة الواردين من
الاقطار حتى قيل ان معدل القادمين من الانكليز كل يوم أربعمائة ألف ومثلهم
الرائحون فضلا عن غيرهم من سائر الاقطار وقد اجتمعت مدة هذا المعرض بأعيان من
العرب وغيرهم فمن أعزة أبناء وطني الحازم النصوح محمد الطاهر الزاوش الذي هو من
خيار الاهالي وترقى بنصحه لدى الامير ولي العهد بتونس الى ان ولي مستشاره وأبدى من
النصح والنجابة في اسفاره مع مخدومه لسياسة القبائل والعربان ما أقر له به المنصفون
وله دراية جيدة بأخلاق الاهالي وله نصح ووفاء عظيم مع الامير وسائر النصحاء وكذلك
قدم من أبناء الوطن الوزير حسين والعلامة سالم أبو حاجب وقد تقدمت ترجمتهما
واجتمعت بوحيد دهره الناصح للأمة الباذل في الاخلاص اليها نفسه حتى مات شهيدا
ألا وهو مدحت باشا الذي ولي صدارة الدولة العثمانية وأنفذ بمساعيه القانون الاساسي
الذي لو جرى به العمل حقيقة لنجت الدولة مما ألم بها لكن لما كان الحق صعب الاجراء
الاعلى من وفقه الله قد عزل ذلك الوزير الوحيد من الصدارة قبل استقرار العمل بالقانون
ثم نفي الى خارج الممالك العثمانية ثم أذن له بالاقامة في جزيرة كريد ثم ولي واليا على
الشام ثم نقل واليا على أزمير ثم قبض عليه وحكم عليه بالقتل بدعوى اشتراكه في خلع
السلطان

السلطان عبد العزيز وقتله لكن أكثر دول أوروبا أنكرت الحكم مع العدم جريانه بالحق
الصراح فعوض عن القتل بالسجن المؤبد في الطائف من الحجاز ثم شيعت وفاته شهيدا
للحق رحمه الله ونعمه وكذلك اجتمعت بذي الاصالة داود باشا المصري حفيد محمد علي
باشا الابذت وصهر الخديوي الحالي وكذلك بسفير الفرس بباريس نازار آغا وغيرهم من
أعيان الاقطار في الاجتماعات الخصوصية زيادة على الاجتماعات العامة في المآدب التي
أشرنا اليها من دولة فرانسا فقد دعيت مدة اقامتي هنالك تلك السنة لمأدبة في وزارة
البحر وأخرى في وزارة الخارجية وأخرى في وزارة المال وكل منها كان خارج المحل
وداخله على غاية من التنوير والتزيين وجنائنه ملونة الانوار الارضية والفوقية كألوان
أزهاره وموائد المآكل والمشروبات والمثلجات مصفوفة والموسيقات عازفة والاعيان من
النسوة والرجال يرقصون أو يتفرجون في الملهى المتخصص للطربات وصاحب الوزارة
المدعو اليها الضيوف يقف في البيت الثاني من المدخل هو وامرأته ويسلمون على
الداخل ويتلقونه ثم يكون الداخل على حسب ارادته ولا يلزمه الوداع عند الرواح
ويرى الانسان آلافا من المدعوين بأفخر لباسهم وذوي النياشين متقلدين بها ورئيس
الجمهورية يؤانس البعض ونساؤهم يتهن بدلالهن ولباسهن وحليهن فان منهن من تلبس
الشفوف المطرز باللؤلؤ النفيس من صدرها الى ذيلها عدا حليها المكللة بالياقوت الملون
ولا يكلم بعضهم بعضا في هاته المواكب الا من كان له معرفة بالآخر أو عرفه معرف
نعم انهم يتهيئون الى أدنى مناسبة للتعرف بالغريب ويؤانسونه وربما اضطرت المرأة
زوجها أو قريبها الى عمل مناسبة للتعرف بالغريب سيما اذا كان لباسه على خلاف
معتادهم وقد عينت الدولة لمصاريف تلك المواكب عدة ملايين فضلا عن مصاريف
الليلة الحافلة التي أعدوها تذكارا للجمهور فقد روي أن مصروف الاهالي والمجلس
البلدي في التنوير والتحسين والالعاب النارية تجاوز ستة عشر مليونا فرنكا وان ثمن
الرايات التي نشرت على طيقان الديار والطرقات تجاوز الاربعة ملايين وكان مركز
ألعاب تلك الليلة هو بركة ابوادي بولونيا وقد اكترى بعضهم طاقة في الطبقة التي فوق
من الدار التي نسكنها للفرجة تلك الليلة بسبعمائة فرنك حيث كانت على النهج الكبير
الموصل الى محل الالعاب وكان المهندسون والعملة متهيئين لها منذ نصف شهر وعلقت
الثريات والفوانيس على الطرقات قائمة على عيدان ومشبكة بالاشجار وما قرب غروب
تلك الليلة الا وانتشرت العساكر والخيالة في جميع المراكز حفظا للراحة وخشية من

الاحزاب المضادين للجمهورية وماغربت الشمس الاوناب عنها نور المصابيح ومنعت العجلات من السير فى الطرق مطلقا وما بدت النجوم الا وتصاعدت لها شماريخ البارود ترمى لها باقات أزهار ألوانها المختلفة الاشكال وترا كم ازدحام خلق الله بما يذكر يوم الحشر الاكبر ودام الحال على ذلك وأصوات الموسيقى والبارود تتهادى من كل طرف الى نحو الساعة الثالثة من بعد نصف الليل فرجعت العساكر الواقفون على البركة بخيلهم ورجالهم وبايديهم فوانيس على عيدان والموسيقات تصدح بلحن المرسيلياز وهى قصيدة فى اثارة الحمية لاهل الوطن كانوا أعلنوا بها فى الثورة الكبرى سنة ١٨٣٠ لطالب الحرية وقد كان ترجم هاته القصيدة العلامة رفاعة باشا رحمه الله ونظمها ودونتها بنصها

فهيا يا بنى الاوطان هيا * فوقت فخاركم لكم تهيا
أقيموا الراية العظمى سويا * وشنوا غارة الهيجا مليا

عليكم بالسلاح أيا أهالى * ونظم صفوفكم مثل اللآلى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال * فهم أعداؤكم فى كل حال
وجورهم غدا فيكم جليا * بنا خوضوا دماء أولى الوبال

أما تصغون أصوات العساكر * كوحش قاطع البيداء كاسر
وخبث طوية الفرق الفواجر * ذبيح بنيكم بظبى البواتر
ولا يبقون فيكم قط حيا

﴿عليكم الى آخر الابيات الثلاث﴾

فماذا تبتغى منا الجنود * وهم همج واخلاط عبيد
كذا أهل الخيانة والوعود * كذاك ملوك بغى لن يسودوا
تعصبهم لنا لم يجد شيا

﴿عليكم الى آخره﴾

لمن جعلوا السلاسل والقيودا * وأغلالا وأطوقا حديدا
لاهل فرانسا البروا عبيدا * وليس مرامهم هذا جديدا
أما هذا عجيب يا أخيا

﴿عليكم الى آخره﴾

وكيف

وكيف يسوغ ان نرضى رعاعا * من الاغراب يبغون ارتفاعا
ويجرى شرعهم فينا شراعا * وانذالا لديهم لا تراعى
رعايا بل تكب على المحيا

﴿عليكم الى آخره﴾

فسلم يا سلام من المذلة * فما نرضى بان نبقى أذلة
ويأسرنا وفيتنا أجله * فريق بالدراهم قد تولة
فكيف وقدرنا أضحى عليا

﴿عليكم الى آخره﴾

الهى كيف يقهرنا ملوك * بسبل العدل ليس لهم سلوك
وأنذال للاستعباد حبكوا * ومافى الفخر شركنا شريك
ولا أحد به أبدا حريا

﴿عليكم الى آخره﴾

فقل لهم أيا أهل المظالم * وأرباب الجرائم والمآثم
اما تخشون من تلك المحارم * كذا أهل الخيانة للمكارم
وظلمهم لقد بلغ الثريا

﴿عليكم الى آخره﴾

أحلوا الخوف نحوكم أماما * وخلوا العدل عندكم اماما
ونقضكم لوطنكم ذماما * به تجزون ذلا وانتقاما
وتكتسبون عند القوم خزيا

﴿عليكم الى آخره﴾

فها كم قد تعسكرت الاهالى * وسارت كلها نحو القتال
لتقتحم المهالك لا تبالى * اذا ماما ت ليث فى النزال
تولد أرضنا شبلا صبيا

﴿عليكم الى آخره﴾

صغير القوم منا والكبير * يحب قتالكم فرحا يطير
فصار بكم وليس لكم نصير * وليس لحربنا أصلا نظير
وحاشا خولنا يلقون عيا

﴿عليكم الى آخره﴾

لنا وطن به همنا غراما * به تقوى عزائمنا دواما
نمانعه ونخشى أن يضاما * ونأخذ ثاره ممن تعامى
وجاروا ان يكن ملكا عتيا

﴿عليكم الى آخره﴾

لنا حرية في الكون تسمو * تزيد اذا الحروب بدت وتنمو
نمانع من بنيها مابهم * بها ثمرات نصرتهم تتم
على نغم المثاني والمحيا

﴿عليكم الى آخره﴾

نموت عدا تماموتا شنيعا * اذا ما أبصروا عزا منيعا
يحوز جماتها مجدا رفيعا * فويل للذي يبغي الرجوعا
لرق يكتسي خطأ وغيا

﴿عليكم الى آخره﴾

سندخل سلك أرباب الجهاد * كأسلاف لهم طول الايادي
وننضو نحوهم في كل ناد * ونقفو قفاهم في كل واد
ونبلغ في العلى شأوا قصيا

﴿عليكم الى آخره﴾

نؤمل أن نكون لهم فداء * وكل فتى بفخر النصر باه
وان لا بعدهم نبقى مساء * اذا لم ننتقم لهم العداء
ونأخذ ثارهم من كان حيا

﴿عليكم الى آخره﴾

وهذه القصيدة جعلوا لها لحنا خاصا وكانوا يترنمون بها في ليلة تذكار الجمهورية ولم ينتظم في تلك الليلة عتزان مع أن بعض اضداد الجمهورية لم يفتح طاقة تلك الليلة ولم ينور فانوسا وبعضهم رحل عن البلاد بالمرة تلك الليلة ومن الاحتفالات الواقعة لضيوف المعرض الاحتفال الذي صنع بعرض الجيش حول الوادي بولونيا كامرد كر محله فمعدا احتباك الموكب بالمتفرجين الذين يجاوزون النصف مليون ومنهم شاه ايران والعساكر ترى من بعد حول تلك التلال والهضاب واذا بالمارشال مكماهون رئيس الجمهورية

الجمهورية اذ ذاك قادما راكبا على حصان أشهب عربي يقدمه ثمانية فرسان من العرب سكان الجزائر بلباس العرب وبرانيسهم حمر ووجوه عربية ووراءه وزير الحرب ثم نحو عشرين فارسا من ضباط العساكر والمعينين وكلهم بالملابس الرسمية فلما دخل الميدان وسامت وسط الموكب أومأ بالسلام لجهة المتفرجين الجلوس في الايوان الوسط ثم ركض حصانه وصار يطوف على كراديس العساكر وهيما وصل الى راية الاي كشف رأسه مومئا بالسلام الى ان طاف على الجميع ثم رجع الى أمام الايوان الوسط واستقبله ووقف وكان أمير الجيش كله المكلف بذلك الموكب هو أمير جيش باريس فجاء راكضا وسلم على رئيس الجمهورية ثم انحاز الى جهة الاواوين وأصدر أوامر الحركات العسكرية فاذا بالجيوش من كل حدب ينسلون وجاء الآلاي الاول وموسيقته تعزف أمامه فلما حاذت رئيس الجيش وقفت ومر الآلاي ماشيا من الجنوب الى الشمال بجميع لوازمه وسلاحه الى أن انقضى فجاء غيره ووقفت موسيقته وهكذا الى ان مرت خمسة وأربعون الفا من العساكر المشاة ثم أقبلت الخيالة المدرعون سربا سربا يمشون خببا وكل سرب متقارب لون الخيل الى أن مرت خمسة آلاف خيالة ثم أقبلت الطبجية أي عساكر المدافع بمدافعهم تجرها الخيول ذاهبين خببا الى ان مرت مائة مدفع وثمانية مدافع وكل فرقة من الجيش يقدمها رئيسها راكبا ويقف بين يدي الرئيس الى أن تمر فرقته فيتبعها ومهما مرت راية كبيرة أومأت بالسلام للرئيس وكشف هو لها رأسه ومنذ سلم هو عند دخوله الموكب الى ان انفض الموكب كانت المدافع تطلق من الحصون وعندما مرت العساكر الاهلية أبناء باريس ضج الموكب بالتصفيق والتحيات استحسانا لسمتهم ونشاطهم حتى صارت كأصوات الرعد ووقع لغيرهم قليل من ذلك النوع وكان اليوم حارا والرئيس مستقبل الشمس بلا مظلة وقد سقط عسكري من حر الشمس ففي الحال حمل في نعش مصاحبي العساكر وعالجه الطبيب وأرسل اليه الرئيس مرارا تفقدا وعند خروج الناس للرجوع احتبكت الطرق واشتبهت الكراريس على أصحابها وكان يوما مشهودا واشتباه الكراريس انما كان مستغربا لانه من عاداتهم في هاته المواكب اذا حضرت كروسة يتلقاها أحد صغار المكلفين ولما ينزل الراكب يعطيه بطاقة بها عدد خاص ومثلها السائق الكروسة ويوقف كروسته في مكان رحيب على ترتيب الاسبق فالاسبق فاذا خرج الراكب أعلم أحد أولئك المكلفين بنمرته فيرفع صوته بها فتأتي العجلة بمجرد سماع

سابقوا بعد تمرنه من غير أدنى اختلاط ولا تعب لكن في ذلك اليوم حيث خرجت الناس
دفعة مع كثرتهم ومع ازدحام الناس خارجا وقع الاختلاط وعدم التمييز لكبر الموكب
ومثل ذلك احتفال يوم السباق فانه لما انتظم الموكب على نحو السابق تهيأت خيل
السباق وكان الجعل من الدولة للمجلى مائة ألف فرنك وللمصلى عشرة آلاف ثم ألفان ثم
علق في عمود أسماء الخيول المندفعة أولا وكانت ستة عشر فرسا من عتاق الخيل الجياد
العربية وكل منها مسرج بسرج صغير جدا وركابها متساوون في الوزن حتى اذا كان
أحدهم أخف حمل شيأ يستوى به مع أصحابه وكل منهم لابس لباسا لاصقا بالبدن وعليه
نحو جبة قصيرة ضيقة من الحرير بأحد الالوان لكل لون خاص وكل منها يمسكه رجل ثم
يتصافون سواء من مبدأ الميدان فيضرب جرس اذانا بالركض فاندفعوا راكضين وكان
الميدان على هيئة دائرة واسعة تتصل بأخرى أوسع منها ثم أخرى أوسع ولكل فرقة من
الخيل حد فأعلاها ما يقطع الدوائر الثلاث ومجموع طولها نحو تسعة أميال وأدناها
ما يقطع الاولى فقط فالسرب الاول كان من المتوسط وحاز القصبة حصان أحمر وعلق
اسمه واسم صاحبه ثم فرقة أخرى وهكذا ولما خرجت الفرقة العليا تهيأت الناس
وكثر اللغط في المخاطرة كل يدعى ان الفرس الفلاني يغلب وكثيرا ما تربح عشرات
الملايين في مثل ذلك السباق بالمخاطرة بين المتفرجين ثم انبعثت الخيل راكضة وكانت
ستة فقط وكانوا أولا يحتالون على أيهم يحوز الخط الداخلي من الدائرة ولا يطلقون عنان
الخيل وعندما توسطوا الدائرة النهائية أرسلوا الخيل على غايتها فتخلف من تخلف ولم
يبق الا ثلاث وعندما بقي الربع من الدائرة تخلف الثالث وتجارى اثنان فكان كل
منهما تارة يكون مصليا وتارة مجليا لكن لما قربت قصبة السبق فاز الاحمر الكميت
وصار ينطنط لما راعه من شدة نشاط راكبه وكنت تخيلت سبقه من أول الامر لما
تفرست فيه من حدة نفسه وتقارب وسرعة حركاته مع ان الكل مستوون في صفات
الجودة غير ان هذا أحد وأخف وقد أعطى صاحبه للراكب عشرة آلاف فرنك من
الجائزة لان عادتهم ان يكون لمضمار السباق فرسان خاصون أو ساسة الفرس أما
صاحبها فلا يسابق بنفسه الا نادرا مع أمثاله وليس ذلك لزهدهم في الفروسية بل أنفة
لانهم كثير والركوب للخيل نساء ورجالا ويصرفون على تربيتها وتوليدها أموالا
جسيمة حتى يباع الفرس الواحد بأربعين ألفا وأزيد ويكتبون أنسابها وسلسلة
وأصلها من العراب وذكر لي ان جد أقدم نسل من خيل انكلتيره هو حصان تونسي

اشترى

اشترى من جمال ثم اعلم ان المعرض الذي نحن بصدد ذكره موقعه في الجهة الغربية
الشمالية من باريس يقسمه نهر السين الى شطرين فما كان عن يمين انحدار السين
يسمى التروكادرو وبنى به قصر على شكل بديع وبناء متقن ليبقى هنالك مستمرا وهو
المشار اليه أولا وأمامه رواق وقدامه بركة ماء واسعة جدا على جهاتها صورة أسد وثور
وفرس وخنزير كل صورة ضخمة جدا كلها مذهبة والماء متدفق بهيئة عجيبة ويحيط
بالجميع حديقة أنيقة وحول هذا المكان بناآت الصورة بناآت الممالك التي أجابت
الدعوة فمنها دار أرسلها سلطان المغرب كلها من خشب على هيئة ديار فاس وبها النقش
حديدة وغيرها مما هو عادتهم وكذلك فرشها ومنها قصر ظريف لشاه ايران على نحو
قصره ببلاده ومن عجيب ما به سقف بيت كله من البلور المضلع على هيئة عناقيد وهكذا
كل مملكة أجابت الدعوى تبني مكانا على هيئة ابنيتها في بلادها وحول تلك الابنية
مخادع ومقاعد وحوانيت وقتية في تلك الحدائق والشطر الثاني من المعرض يسمى
شان دي مارس وفيه حدائق أيضا وقهاوي ومطاعم وفيه المحل المهم المقصود من
المعرض وهو بناء عظيم واسع طوله نحو ميلين في ذلك المعرض كله بناء من قضبان حديد
ومقسم على أقسام على حسب الممالك كل مملكة تأتي بأنموذج ما عندها من الجمادات
والنباتات والحيوانات والمصنوعات قل أو جل حقر أو عظم فكان ذلك المحل حاويا لجميع
أنواع ما يعلم في الدنيا لانه أجابت دعوة فرانسا الى ذلك جميع الممالك ذات الشان
الا الدولة العلية لاشتغالها بحرب الروسيا اذ ذاك فالتعرض حينئذ لما فيه عبث اذ يعجز
عنه الواصف وانما أذكر أفرادا من المستغربات التي لم تزل عالقة بذهني فمنها ساعة ذات
أربعة أوجه مرفوعة على نحو أسطوانة ارتفاعها أزيد من ستة أذرع وركاصها صورة
كورة أرضية معلقة في القبة التي فوق الساعة ويحيط بالكورة صورة الشمس والقمر
وبقية الكواكب السيارة والغرابة من جهة كون الساعة ليس لها آلة تحركها سوى
تلك الكورة وذلك بان اعتبر ثقلها وبعدها عن مركز تعليقها ومنعت من الاستقرار
بمركزها باعتراض قائم في رأس الساعة متصل بآلاتها مسهل الدوران فكانت الكورة
تطلب المركز وتدفع العارض بثقلها وهو يدور وهي تدور معه وهكذا وهي من مصنوعات
الفرانسيس وقيل ان ثمنها ستون ألف فرنك ومنها مقعد من البلور الرفيع ذو ثلاث درج
واثنى عشر ضلعا مرفوعة قبته على أسطوانات من البلور يجلس به اثنا عشر انسانا كله
قطعة واحدة من البلور المضلع وهو من صناعة النمسا ومنها مطبعة تطبع بلونين في آلة

واحدة وتخرج عدداوافرافى كل دقيقة ومنها ارسال الرسائل المكتوبة فى قنوات من حديد مفرغة من الهواء فتصل بسرعة كالسلك الكهربائى وقد صار الآن فى عدة جهات من باريس ارسال الرسائل بتلك الصورة ومنها المجوهرات والتحف الغريبة التى اهداها ملوك الهند الى ولى عهد انكلاتيرة وهى كثيرة عجيبة جدا ومن أغربها معولان من العاج فى طول الذراع ورأساهما على صورة رأس أسد وعيناه ياقوتتان حمراوان لم أر أجل وأضوأ وأخلص منهما الى غير ذلك مما يقصر عنه وصف الواصف من بدائع الصنائع والمخلوقات وأما بقية اماكن وبناءات باريس الشهيرة فهى كثيرة جدا ومن أهمها ليزان فاليد وهو محل العاجزين من العساكر وبه آثار الاسلحة القديمة منذ عرف السلاح فى الدنيا الى الآن وبه قبر نابليون الاول والرايات التى غنمها وعلى قبره هيكل وتابوت فوقه نيشانه وسيفه ادخلونى اليه واورونى جميع جزئيات غرائبه تكرمة منهم وحوله قشلة كبيرة للعاجزين من العساكر بالسن أو الحروب الذين يريدون الاقامة هنالك زيادة على القيام بجميع ضروريات‌هم لهم خدمة وكل من لا يقدر على المشى تجعل له عجلة صغيرة يحركها بنفسه ان قدر والا جرها خادم للتروح فى المنزه الذى حول ذلك المكان والمدير لهذا المحل رجل من رتبته أمير آلاى ذو اخلاق حسنة ومعارف جيدة أما ملاهى باريس فهى كثيرة ومختلفة المقاصد اذ لا يقصدون بالملاهى مجرد التلهى بل ظاهرها التلهى وباطنها فائدة من الفوائد كالاعلام بتاريخ غريب لتجتنى محاسنه وتجتنب قبائحه لان الرائى يشاهد النتائج عيانا فتكون أوقع فى النفس وكالافادة بفائدة علميه مثل ما يحصل فى أحد الملاهى من ذكر كورية الارض وان من يقطعها ذاهبا الى جهة الغرب فى نيف وثمانين يوما فاذا وصل الى المكان الذى خرج منه يجد انه نقص له يوم من أيام الاسبوع مثلا يرى انه وصل فى يوم الاحد والحال ان اليوم عند أهالى ذلك المكان هو يوم الاثنين وبعكس ذلك من يقطعها ذاهبا الى الشرق فانه يزداد عنده يوم فيرى انه وصل يوم الثلاثا والحال ان اليوم عند الاهالى هو يوم الاثنين وذلك لان السائر الى جهة الغرب يكون ذاهبا مع الشمس فاليوم بليلته عنده ازيد من اربع وعشرين ساعة فيجتمع فى تلك الايام يوم كامل يضيع على المسافر ويزيد عنده مقابله مثله لان اليوم بليلته عنده أقل من اربع وعشرين ساعة لذهابه ضد سير الشمس وقد نص القرافى على هاته المسئلة وما هو الحكم الشرعى فيها اما اذا صادف اليوم المختلف فيه يوم الجمعة فان المقيم يعده يوم الجمعة والمسافر الى الغرب يعده الخميس والمسافر الى الشرق يعده السبت

السبت وغير ذلك من احكام العبادات والمعاملات الموقتة وان الحكم هو الاعتبار بما عند أهل المكان فأولئك اللاعبون يصورون هاته المسئلة العلية بتشخيصها وصورة السفر برا وبحرا وما يعترض من العوائق وثمرة الحسال للتوصل به الى الاغراض الى غير ذلك وهنالك ملاهى لافادة البراعة والبلاغة فى الكلام وأخر لافادة علم الموسيقى الى غير ذلك من الفوائد ولو السياسية فقد كانوا مدة رياسة المارشال مكماهون على الجمهورية طلب مجلس الامة ان تعزل ولاة البلدان ورؤساء العساكر الذين هم من حزب الملكية فامتنعت الوزراء من قبول ذلك وحل الرئيس المجلس واذن بانتخاب اعضاء آخرين ولما انتظم المجلس الجديد أصر على مطلب سلفه فاراد الرئيس حله أيضا فامتنعوا من ذلك اذ لا حق له الا فى حله مرة واحدة فى نازلة متحدة وحصل نزاع كاد يفضى الى شغب فكان أحد الملاهى لاعبا واذا باحد اللاعبين يقول ما ترجمته نظما

المارشال مكماهون يخضع * وان أبى من الخضوع يخلع
كذا الولاة من سياسى تدفع * لان ذلك للبلاد أنجع

فدخل الحرس وفتشوا على القائل فلم يقر لهم أحد ولا وجدوا الكلام فى كتاب الحكاية وآل أمر النزاع الى استعفاء المارشال واعلم ان تلك الملاهى يوجد منها ما هو مضيعة ومشغلة لكنه قليل والحاصل ان ملاهيهم لا تخلو عن فائدة معتبرة ومع ذلك فهم غافلون عما فيها من مفسدة مهمة وهى تعليم الشبان والشابات أوجه العشق ومبانيه ووسائله اذ قل ان يخلو تشخيص عن مثله ويعتذرون عن ذلك بانه يعلم أيضا شناعة ثمرات العشق وشناعة الفضيحة وايثار الموت على حفظ العرض مما يكون خاتمة تلك التشخيصات وكان ذلك لا يفيد اذ البواعث النفسانية غالبة على عقول الكثير من الناس فتأخذ ما يلائمها وتغفل عما سواه ويؤيد هذا ان الكثير ممن يحضر تلك الملاهى انما يجعلها وسيلة لتمكن من امعان بصره فى اللاعبات والمتفرجات التائهات بدلالهن وجمالهن ولباسهن وترى كلا من الحاضرين بيده مرآة مقربة وهو لا شغل له الا اشخاص من واحدة الى أخرى ثم يلتمسون الوسائل الى المخالطة بمن يعلقون بها بل وكذلك تفعل الابكار والشابات مع الرجال الاالعفيفات وأعظم هاته الملاهى هو كران اوبرا الذى تقدم ذكره وكان دخله من اكتوبر سنة ١٨٧٩ الى نهاية ينابر سنة ١٨٨١ الذى هو عام وأربعة اشهر ٤ر٧١٥ر٠٠٠ فرنك ومصروفه فى تلك المدة ٤ر٧٤٩ر٥٠٠ فكانت الخسارة أربعة وثلاثين ألفا وخمسمائة فرنك زيادة على ما تعطيه الدولة

اعانة له لانها تعين من دخلها فى كل سنة اعانة للملاهى مبالغ وافرة فمكان معين للملاهى
المذكور وملهى أوبيره كوميك وملهى تياتر فرانسز وملهى لودبون فى سنة ١٨٨١
١٣٢٤٠٠٠ فرنك عدا بقية الملاهى للفوائد التى مر ذكرها وكراء البيت الواحد
فى هذا الملهى سنة ١٢٩٥ مائة وعشرون فرنكا فى الليلة الواحدة وبه بيت لرئيس
الدولة يحتوى على مرافق وقد أذن لى بالدخول اليه تكرمة من رئيس الجمهورية
اذ ذاك المارشال مكماهون ومن أهم الملاهى الهبودروم الذى يلعب فيه بالخيول العابا
عجيبة وكذلك ملاهى السرك فترى الخيل تدرك مثل الانسان الحاذق وكذلك غيرها
من الحيوانات ولو السبعية فان الاسود والفيلة وغيرها لها ملاهى خاصة وتطيع آمرها
كالآدمى حتى رأيت الشاة تسطو على الاسد وتركب على ظهره وتدخل رأسها كله فى
فمه وهو منقاد خاضع وحوله فى الحجرة التى هو بها أربعة اسود أخر وأربعة نمورة ومثلها
ضباع ثم ذئاب ثم أربعة من الدب كلها وقوف حول حيطان الحجرة كاصحاب موكب
عظيم وذلك الاسد الكبير فى وسط الحجرة والنعجة تلاعبه وتركب عليه وصاحبها واقف
معها لكى لا يسطو واحد على آخر وتلك النعجة لا تخشى بأس جميع تلك السباع بل كانهم
هم الخائفون منها غير انى شاهدت هاته السباع فى تلك الحالة والضبع واقف يرتعد من
الاسود وبوله جار على رجله ومع ذلك لا يخل بامر صاحبه ومثله الدب فان صاحبه اذا أمره
بالقرب من الاسد الكبير تراه يرتعد ويصيح ولكنه يفعل ما أمر به وكذلك ذلك الاسد
يكفهر ويكره قرب الدب منه ولكنه لا يضره بشئ فالنفرة بين النوعين شديدة بخلاف
الاسد مع النمر فالتآلف بينهما قريب ومن غريب ما شاهدته هنالك ثعبان فى غلظ شبرين
وطوله نحو خمسة عشر ميترو يحمله عدة رجال ويمسه كل أحد ولا يضر شيأ وهو من النوع
الذى ذكرناه بجبال الوادرنة بقطر تونس وقلنا انه بين الاهالى مثل القط الاهلى كما لهم ملاهى
للشعوذة يعملون بها اعمالا غريبة وأما معامل باريس للصنائع فهى كثيرة جدا ومما اختصت
به عن غيرها معمل كبلان الذى ينسج به المنسوجات الثخينة كالزرابى التى يضرب بها المثل
وكذلك معمل السيفر الذى يصنع به الاوانى الخزف التى يفضلونها على الخزف الصينى
وقد رأيت به مائدة على ساق واحدة أرفع ما رأيته من ذلك الشكل بالوان وصفاء بديع
ذكروا ان قيمتها ستون ألف فرنك وكذلك معمل التمويه بالفضة والذهب بالجاذب
الكهربائى فترى القناطير المقنطرة من النحاس مصنوعة ساعات وشوكات وملاعق
وغيرها يدخلونها فى برك من مياه الفضة والذهب فتخرج كانها من ذلك المعدن وأما
منازل المسافرين فتكاد ان لا تحصى وأهمها المنزل الاكبر فى بلفار الطليان فانه من
عجائب المبانى والتنظيم وترى فيه ايوان الاكل العام متسع جدا بقبة واحدة محيط بها

رواشن

رواشن ويوقد به نحو سبعمائة مصباح وقبته وحيطانه كلها مموهة بالذهب على اشكال
جميلة وبه سبع موائد كل مائدة يجلس عليها خمسون نفسا فترى ثلاثمائة وخمسين نفسا
فى بيت واحد يأكلون جميعا على غاية الراحة والنزهة والابهة ولا تسمع فيه الاغبية والكل
يأكلون سواء والفطور له خمسة الوان والعشاء له سبعة الوان عدا الحلويات والفواكه
وزينة المائدة البديعة وثمن الاكل فيها للواحد ستة فرنك عشاء وأربعة فطورا ويحتوى
المنزل على سبعمائة حجرة للسكنى وستين بيتا متسعة للجلوس ويصعد الى طبقاته العليا بالجلوس
على كراسى تصعدها آلة بخارية وأما حماماتها فهى على نحو ما سيأتى فى الصفات العامة
غير انها اختصت بحمام عربى قرب البلفار وهو فى نهاية التأنق والتزويق والزخرفة
شبيه بالحمامات العربية فى كونه له بيت كبير حار للاغتسال والعرق وبيت كبير لنزع
الثياب والراحة للمغتسل متلاق بعد الاغتسال وبين البيتين حوض كبير مملوء بالماء البارد
ينزل اليه كثير من المغتسلين بعد الغسل ليخرج منه الى بيت الارتياح وعند وصوله الى
الحائط الفاصل بين البيتين يضطر الى ادخال رأسه أيضا فى الماء لان الماء واصل الى
اسفل الحائط وفى الحمام خدمة يكبسون المغتسل وينظفونه على النحو المعتاد فى البلاد
العربية وبعضهم من الجزائر وبعضهم من السودان أما احوال المعارف وترقى العلوم
فالباب فيها واسع جدا ونقول اختصارا ان فى باريس مكاتب للعلوم العالية واولها مجمع
كبار العلماء ثم مكتب فرانسا وهو لنهاية المعلمين ومكتب اركان الحرب ومكتب المعلمين
ومكتب الصيدلانيين ومكتب اتقان علوم الطرق والجسور ومكتب علوم المعادن
ومكتب تعلم التجارة ومكتب الصنائع الظريفة ومكتب علم الموسيقى وعلوم تشغيل
الملاهى وانشائها ومكتب اللغات الشرقية والآثار القديمة ومكتب الصنائع وخمسة
مكاتب ابتدائية للدولة وأما الابتدائية للاهالى فغير محصورة وهى كثيرة جدا ومكتب
للقسيسين عال ومكتب لهم دونه ومكتب للعمى وآخر للصم البكم يعلمونهم باللمس والاحرف
المجسدة والخوارط المجسدة فيصلون الى سائر المدركات كما ان فى باريس ثمانية خزائن
كتب عظيمة للعامة تحوى من المجلدات نحو ثلاثة ملايين مجلدا وأكبرها خزينة الكتب
العمومية التى فيها أول ما عرف من آلة طبع الكتب وفيها بعض تحف عتيقة مثل قطع
من الشطرنج الذى كان اهداه هارون الرشيد الى شارلمان وجملة ما فيها من
الكتب أزيد من مليون مجلد منها أزيد من ثمانين ألف مجلد بخط اليد ومن ذلك
الكتب الكتب التى أخذها نابليون الاول من مصر ثم الكتب المأخوذة من الجزائر

وقد رأيت فيها كتبا نفيسة عربية ومصاحف كريمة أنيقة ذات أسفار بقطع من
الذهب وخطوط جميلة وكان فيها من المطالعين والناسخين نحو خمسمائة نفس نساء
ورجالا لكن الرجال أكثر على غاية من الادب والصمت وهاته الخزنة مثل قصر عظيم
ذى طبقات ومحل المطالعة واحد ديوان واسع ثم وراءها تلك المكاتب والكتب واعتناء
الدولة بواعث الاجتهاد والتقدم فى العلوم وذلك بانعقاد جمعيات للتحريض والاعانة
بالمال وسائر الوسائل للوصول الى المقصود فى خصوص باريس فمنها جمعية اللغة
الفرانساوية وجمعية سائر العلوم وجمعية علوم الادب وجمعية المعارف الظريفة وجمعية
العلوم العقلية وجمعية علوم الطب وجمعية التحريض على الاختراعات وجمعية علم النباتات
وجمعية علم طبقات الارض وجمعية معارف آسيا وجمعية الاحصاآت الدنيوية وجمعية الجغرافيا
وجمعية علم التاريخ وجمعية المرحمة الانسانية وجمعية الصيدلة وجمعية الفلاحة وجمعية
مقدمات الفلاحة وجمعية تربية النبات والحيوان وجمعية الصنائع الفرانساوية وجمعية
لتنمية سائر العلوم ومما يلحق بهذا الباب كثرة المطابع فمن أعظمها مطبعة الدولة ورأيت
فيها من أنواع أحرف اللغات التى يطبع بها سبعة أنواع منها الاحرف العربية وعدد
المستخدمين بها يقرب من ألف نسمة وفيها كتب عتيقة وحديثة فى كثير من اللغات ومنها
كتب عربية عتيقة بالخط الكوفى وغيره ومن المطابع المهمة المطبعة المختصة بطرق
الحديد لطبع اعلاناتها ودفاترها وجميع ما تحتاج اليه فيها من المستخدمين أزيد من
سبعمائة نسمة وتطبع بالحروف وعلى الحجر بخط اليد وهنالك مطابع أخر كثيرة
للصحف وغيرها فان الصحف لها تأثير كبير فى المعارف حتى انه يوجد ثلاثمائة صحيفة بين
يومية وشهرية وأسبوعية فى السياسة أو التجارة أو العلوم ومنها ما يطبع منه يوميا أزيد
من خمسمائة ألف نسخة وفى بعض الاحيان لا تجد منه نسخة للبيع اذ قل ان تجد سائق
الكروسة ليس له صحيفة يطالعها فضلا عن غيره وأما أماكن المرحمة كالمستشفيات وديار
اللقيطين فهى كثيرة ويكفى لعظمتها ما ذكرناه فى المستشفى الذى نظارته الى الحكيم
شاركو واللقيط ينفق على تربيته وتعليمه مجانا الى ان يبلغ أشده وهم كثيرون بسبب كثرة
الزنى والزانيات المتجاوز عددهم عشرات الآلاف منهن من هن فى ديار مخصوصة لذلك
جهرة ولهن أطباء من قبل الحكومة لكى يمنعون المريضة بالامراض المعدية
ويدخلونها المستشفى ومنهن من هن فى ديارهن أو فى الملاهى أو خادمات الى غير ذلك
ومن أماكن المرحمة الدار الرحيبة المتخذة للفقراء الذين لا يجدون مأوى وهم قادرون على
التكسب

التكسب فان هاته الدار تأويهم ليلا وتطعمهم ما يسد الرمق وتعطيهم فراشا بشرط ان
يغسلوا ارجلهم قبل دخوله ولا تقبلهم الا فى الساعة الثانية بعد الظهر وفى السهر يسرد
عليهم قارئ كتابا فى تهذيب الاخلاق والحث على العمل ولا يقبل الواحد أزيد من ثلاثة
أيام ومع كثرة المراحم فكثيرا ما يموت الناس فى الطرق جوعا أو بردا سيما فى سوق الخضر
لان من لا يجد مأوى يتقى به من الزمهرير فيجمد بردا (وأما طرق المواصلة) والانتقال
من محل الى آخر فى وسط البلد فلهم وسائل كثيرة كالبواخر فى نهر السين تقف على الشطوط
يمينا وشمالا من طرف البلد الى طرفها الآخر والركوب فى هاته البواخر اذا لم تكن
مزدحمة بالخلائق فيه نزهة جميلة سيما خارج البلد أيام الربيع والصيف ومنها ما يمر على
القرى المجاورة للبلد ومن الوسائل الترامواى وتجره الخيل فى أغلب الاماكن وفى الطرق
القليلة المرور تجره مزجية بالبخار ومنها الامنيبوس وهو مثل سابقه غير ان طريقه
ليس حديديا ومنها الرتل يحيط بالبلد مارا حذو السور ولكنه تارة يجرى فى نفق تحت
البلد ومنها الكراريس ولها ترتيب منضبط فى باريس أزيد عن غيرها لان التسعير
المرسوم لا يزاد عليه ولا ينقص بخلاف غيرها من البلدان ومع ذلك فان سائقى
العجلات أظن انهم فى كل بلد هم أسوء أهلها أخلاقا الا ماندر وفى عام المعرض أكدت
عليهم الحكومة التأكيد الزائد وشددت فى الحكم على من يتعدى منهم الحدود ومع
ذلك كانوا كثيرا ما يسيئون السيرة ومن الوسائل أيضا الركوب على الخيل لكنه خاص
باصحابها وأما المكترون فهم أقل استعمالا لها من الكراريس وسائر العجلات
وبالجملة فان فى باريس مائة ألف عجلة ومائة وثمانين ألفا من الخيل وهذا كاف فى
بيان مقدار الحركة وأما رواج التجارة والسلع فلنكتف بذكر شئ منها وهو قصر البورس
الذى تروج فيه كل يوم تجارة تتجاوز آلاف ملايين وفى أحوال السلع نقتصر على ذكر
مخزن اللوفر الذى هو قصر قدر حارة كبيرة ذو أربع طبقات فيه ستمائة مستخدم وفيه
من السلع كل ما يحتاجه الانسان من الملبوس وأثاث المنزل والفرش بل وحتى الكراريس
والخيل التى تجرها واذا دخل اليه المشترى تتلقفه الخدمة بالبشاشة واللين ويطلعونه على
كل ما يريد فيختار ما شاء ويذكر لهم اسم محله ويذهب وهم يأتون بما اختاره مع صحيفة
مبين بها الاثمان ممضاة بالخلاص فاذا وجد شيئا غير الذى اختاره أو سعرا غير الذى سمع به
رد ما لا يعجبه وأخذ الباقى وأخذ صك الخلاص بعد دفع الثمن من غير مماكسة فى السعر
ولا يخشى المشترى من الغرر لان السلع هنالك أرخص ما يمكن ان توجد لان صاحب

المخزن يأخذها من العامل ويزيد عليها نصفا فى العشرة ربحا وكل من دخل المخزن الذى هو حقيق باسم قصر فله أن يدخل الى ايوان الجلوس ويقرأ فيه ما يشاء من الصحف ويكتب ما يريد ويشرب شيأ من المشروبات كل هذا مجانا ولصاحب المخزن دفاتر عديدة مقيد بها أسماء السلع بأعدادها مع أسعارها يعطيها لكل من أراد ومن يريد بعد ذلك شيأ من السلع ولو من الاقطار البعيدة فليس عليه الا أن يكتب للادارة جريدة بها أسماء ما يريد بأعداده فيأتيه مطلوبه مع البريد ويدفع اذ ذاك الثمن ويأخذ المطلوب أما اذا تعرف بتجار وجعل معهم حسابا متصلا فان دفع الثمن يكون حسب الاتفاق ومثل هذا المخزن مخزن بومرشى وهناك مخازن أخر عديدة ولكنها دون هذين ومن غرائب ما رأيته بباريس القبة الهوائية الكبرى التى تسمى بالبالون وقد سماها علامة اللغة أحمد فارس بالمنطاد فقد صنعوا واحدة كبيرة جدا ونصبوها فى بطحاء التولرى وربطوها بحبل من التل تجذبه آلة بخارية وعلقوا بها مركبة تسع أربعة وعشرين نسمة وكل من ركب يدفع أجرة الركوب عشرين فرنكا ثم يطلقونها تصعد الى ارتفاع ثلاثمائة ميترو فيرى الصاعد جميع باريس وما حولها كأنه تحته وكان أول اختراع هاته القبة سنة ١٧٨٣ فى فرانسا وهى قبة متخذة من منسوج الحرير مدهون بنوع صمغى كالمسمى بالفرنيز تملأ بالبخار الغازى الذى هو أخف من الهواء العادى بأربعة وعشرين ضعفا فتصعد ضرورة فوق الهواء لانها أخف منه وتحمل ما يتصل بها مما لا يعادل ثقله خفة هوائها ومن محاسن باريس الماء المجلوب اليها من عيون غزيرة وجعلت له خزنة هائلة تقصد للتفرج عليها زيادة على الماء الذى يرفع من النهر بآلات بخارية فالاول للشرب والثانى للاستعمال ومن أماكن التفرج الدهاليز الكبيرة التى تحت الارض ويقال انها كانت لقطع الحجارة ثم جعلت مقبرة لعظام الموتى مرصفة مرتبة وكذلك الخنادق الوسيعة التى تجرى فيها الفضلات والمياه فانها تسير فيها آلات بخارية نحو الرتل لتنظيفها وتقصد بالتفرج ومن صفات باريس ان أغلب دورها يصلها الماء فى قنوات صغيرة كل دار على قدر استحقاقها وكذلك كل دار لها قنوات للبخار الغازى للتنوير ليلا ولبعض الديار ساعات تحسر كها قوة الكهربا فى مكان متحد فى البلد بحيث تكون جميع الساعات متساوية الوقت على التحرير الصحيح فى المرصد من غير مشقة لاصحاب الديار ولبعض الديار أيضا قنوات لاتيان الحرارة لتسخين الديار على حسب ارادة صاحبها وما يقسمه على بيوتها من غير كلفة لايقاد النار ولا خوف من احراقها لان الحرارة الآتية هى حرارة

هوائية

هوائية وليس لصاحب الدار الا دفع ثمن هاتيك المرافق شهريا أوسنويا بأغيران جمل التسخين والساعات لم يتكاثر كغيره ولا يلبث أن يعم واتحاد ساعات البلد أمر مهم جدا فى كثير من الامور ولهذا كانت أوقات طرق الحديد فى كل مملكة معتبرة على قاعدة تلك المملكة فتجد جميع ساعات المحطات متحدة على وقت واحد

الفصل الثالث

﴿فى بقية البلدان التى شاهدتها بفرانسا﴾

فاولها بلد فرسال هى غربى باريس تبعد عنها مسير نصف ساعة فى الرتل وهى منتزه الملوك وبها قصور أنيقة وبدائع من تحف الملوك وما ترهم منها الكراريس الرسمية التى تبلغ قيمتها الملايين لما فيها من الذهب والفضة واتقان الصنعة وحول تلك القصور البساتين والحدائق الجميلة ذات المياه الدافقة والبرك الواسعة قد جعل فيها سنة ١٢٩٥ وهى سنة المعرض عدة ليال للزينة واندفاع المياه فرأيت هاتيك الحدائق ملونة بقناديل الانوار المحاكية كثرة النجوم وشماريخ البارود بألوان وأشكال صاعدة وفائضة ودائرة ومنابع المياه طائرة فى الهواء كل عمود منها فى غلظ نحو نصف ذراع مرتفع عن منبعه نحو أربعين ميترو فكأنها منائر من الزجاج تبرق بسطوع الانوار عليها وكذلك أنواع أخر من المنابع ترمى الى أمامها على استقامة الى أمد بعيد وكل تلك المياه منبعثة من نهر السين بآلات قوية بخارية والمتفرجون عدة مئات الالوف وحول البلاد غابات وممشى جميلة والبلاد واسعة الطرق نظيفة ظريفة والقصور الملوكية ليس بها من المفروشات الا قليلا من آثار الملوك محتفظين عليها على ما كانت عليه وقد رأيت بها كلا من مجلس الاعيان والنواب اذ كانا نقلا الى هناك بعد حرب المانيا سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م وكان جلوسى فى بيت رئيس الجمهورية اكراما منه لى على عادتهم فى الاكرام بمثل ذلك فاما مجلس الاعيان فلم يكن به شئ من المسائل المهمة ذلك اليوم اذ هو يوم لتصحيح قانون استقر عليه رأيهم فى اعتراضات واصلاحات للولايات حتى رأيت الاعضاء كل مشتغل بالحديث مع صاحبه والكاتب يقرأ فى القانون ولما كثر اللغط نبههم الرئيس مرارا للاستماع فكأنه لم يخاطب أحدا واضطر للسكوت وذلك لان ذلك القانون قد تباحثوا فيه مرارا واستقر الرأى فيه وطبع ووزع على الاعضاء وعرفوه تفصيلا فكانت قراءة الكاتب اليه قراءة رسمية ليقع الامضاء عليه فقط وأما مجلس

النواب فتذاكروا فيه على مسئلتين أولاهما طلب وزير المال الرخصة في صرف خمسة آلاف فرنك على جنازة أمير آلاي بلغ السبعين سنة من العمر مومات تحت السلاح فقبر ابعد ان ذكر تاريخ حياته وما ثره وطلب اجراء ستة آلاف فرنك سنويا لعائلته وان ذلك المطلب استقر عليه رأى الوزراء فما ختم كلامه الا وارتفعت الاصوات من جهات اليمين منكرين لذلك وردت عليهم أصحاب الشمال واشتد الوطيس بين الفريقين الى أن التزم الرئيس باسكاتهم ورام اتباع القرعة فخرجت الاكثرية بموافقة الوزراء فقلت لرفقائى هل رأيتم ماوقع قالوا نعم لكن ماقصدك قلت ان دخل دولة فرانسا نحو ثلاثة آلاف مليون وقد اتفق وزراؤها ورئيس الدولة على صرف خمسة آلاف فرنك على رجل بذل في خدمة دولته والدفاع عن أمته مجموع عمره ومع ذلك لم تستطع الدولة ان تنفذ أمرها في مال الامة الا بعد مشورة أهل الحل والعقد وموافقتهم وبمثل ذلك لا يصرف المال الا في وجهه لا على اختيار فرد ولا على مداراته ثم قام وزير الخارجية وذكر ملخصا في تجديد معاهدة تجارية مع ايطاليا وان شرح النازلة يوفى به أخوه الذى هو أيضا عضو في المجلس فقام هذا العضو خطيبا نحو ساعة ذكر ملخص تاريخ التجارة بين المملكتين وان ايطاليا أربح تجارة من فرانسا وطلب تعديل فصول في المعاهدة السابقة فوافقوه على ذلك (وثانيها) بلد السيفر وهى قرية على نهر السين قريبة من باريس نحو نصف ساعة في العجلة وبها معمل السيفر للخزف وبستان أنيق وقصر ملوكى (وثالثها) بلد صان اكلوا بقرب السابقة وقريبة من هيأتها والحاصل انك اذا خرجت من باريس راكبا كروسة الى فرسال فانك ترى كأن البلاد الثلاثة المتقدمة متصل بعضها ببعض ويتنقل من واحدة الى أخرى بالرتل وبالكروسة وبالتراموى وبالامنيبوس وبالبواخر النهرية سوى فرسال فان النهر لا يحمل السفن الى قربها (ورابعها) بلدة فونتيبلو التى هى اصغر من فرسال وعلى نحوها لكن ليس بها الا قصر واحد ملكى وبه أثاث لنابليون الاول ومنها مائدة كانت أمامه وقت اعلامه بانكسار جيوشه عند تعصب أوروبا عليه وكان بيده موسى فضرب به المائدة غيظا ولا زال أثره فيها لكن هاته البلد تفضل غيرها بما حولها من الغابة ذات الاشجار الفائقة ومحيط الغابة نحو أربعين ميلا وفيها من الطرق والمقاعد ما يفرح النفوس وفى وسط الغابة قهاوى ومعامل لخرط تحف من اخشاب الغابة وفيها كثير من الصيد كبقر الوحشى وغيره والغابة متصاعدة في جبال جميلة بما كساها الله من النبات وفيها صخرة يعتنى بالتفرج عليها

سقطت

سقطت على حجارة صغيرة كانت في الوسط فصارت الصخرة تتحرك كلما حركها أحد مع عظم جرمها وفى الجبال عيون كثيرة ويجرى حول البلد نهر فهى من منازه فرانسا المقصودة (وخامسها) بلدة ليون وهى بلدة كبيرة ذات بطحاآت وبناآت انيقة ويخترقها نهران أحدهما يسمى هالرون منحدر بسرعة وتسافر فيه البواخر بقلة وثانيهما نهر السون ثم يجتمع النهران خارجها ويذهبان الى البحر وهى متوسطة بين مارسيليا وباريس ومنظر الجبل الذى حولها جميل سيما جهة منتزهها المطل على النهر الاول ويصنع في مطاعم ذلك المنتزه طعام من سمك النهر الاحمر ويتغالون في ثمنه وعلى النهر عدة جسور في البلد أحسنها الجسر الحديد ذو القوس الواحد المعلق وسطه في اطرافه بسلاسل وأحسن أماكن هاته البلدة هو بطحاؤها الكبرى التى بها قصر البورس وقصر الحاكم واهاليها يظهر عليهم الجد في الصناعة لان هاته البلدة هى أشهر البلاد الفرانساوية بمنسوجات الحرير فكانت السكان قليلوا الجولان في الطرقات اذ اغلبهم معتكف في المعامل وتجارة أهلها شهيرة في المعمور ورأيت فيها النفق في الجبل الذى يصعد فيه الرتل صعودا بينا حيث كان قسم من البلد في أعلى الجبل وقسم في أسفله فعملوا طريقا حديديا ولتقريب الطريق واستقامته ثقبوا له الجبل حتى يصعد مستقيما وجعلت فيه حافلة وسيعة تحمل نحو خمسين نسمة ويجذبها للاصعاد حبل من سلوك من الحديد بآلة بخارية الى ان تصل الى أعلى الطريق فينزل الركاب منها ويسمى ذلك بالتونيل واقمت بهاته البلد يوما وليلة وهى ليست الا شغلا للتجارة (وسادسها) بلدة مارسيليا التى هى أعظم مرسى تجارية لفرانسا بل وفى البحر الابيض وهى بلدة كبيرة ذات جمال ونزهة وفيها حركة عظيمة للتجارة الى سائر الاقطار وفيها اخلاط من السكان من سائر الاقطار وأحسن طرقها طريق كانوبيار فيه قهاوى ومقاعد ربما فاقت بجمالها على قهاوى باريس وفيها منتزه يسمى اشاتو دو في أعلى مكان بها ومنه ينحدر الماء المجلوب اليه على حنايا ذات بناء متين ومحل انقسام الماء له منظر بديع من حسن البناء وتأنيقه وحوله حديقة نزهة وبها حيوانات عديدة من أنواع شتى ومن محلات نزهتها دار الآثار القديمة قرب شاطئ البحر وقرب محل السباق وأنزه قصر بها هو القصر المسمى اوتيل دو دبزبرف المتخذ مطعما على ربوة من الجبل المحدق بالبلد يحيط بالقصر من جميع جهاته رواقات على اسطوانات بشكل جميل مع تمنيق للبناء وحسن الفرش والماكل يحيط به حديقة ظريفة فهو نزهة للخواطر ولولا ان منظره للبحر عشية تكدره الشمس لانه غربى لكان أجمل

مارأيته من نوعه أما قوة حركة التجارة بهاته البلدة فهى عبرة للمتبصرين وذلك انك تشاهد من حركة العجلات والسفن والقوارب والارتال وكثرة البضائع من أنواع شتى داخلة وخارجة الى الصين وأمريكا وسائر الاقاليم وترى من المخازن التى هى حقيقة باسم قرى لكبرها وكثرة ما فيها من السلع ما يحير الفكر كما ان قصر البورس بها يكاد يناكب بورس باريس والحاصل انها هى ثانى بلد لباريس فيما رأيته بفرانسا وأما مرساها فهى ذات حوضين عظيمين لامن السفن وترى فيها من البواخر وغيرها ما يشبه الغابات المحتبكة وقد وردت على هاته البلدة ثلاث مرات فى سفراتى وأقمت بها عدة أيام ذهابا وايابا (وسابعها) بلدة طلون التى هى أول مرسى حربى على البحر الابيض وهى بلدة حربية اذ لا نضارة لها ولا انشراح بالنسبة لغيرها لكن فيها من الحصون والاحواض لانشاء السفن والمدرعات والمعامل لانشاء المدافع والمكاحل والالغام البحرية وغير ذلك من قوات الحرب شئ كثير ورأيت فيها احدى عشر حوضا بكل واحد سفينة مشتغل بانشائها منها ما هو على تمام ومنها ما هو فى البداءة والخلائق منكبون على الاجتهاد كالنمل فى المصيف وقد كان سفرى اليها سنة ١٢٩٠ وكان مصاحبا لى فى الرتل سفير الصين القادم بالاستدعاء للمعرض وهو وزير البحر عندهم وهو رجل مسن شعره خفيف على عادة أهل الصين وكل لحيته وشواربه بيض نحيف الجسم ومعه غلمان لا ادرى أهم ابناؤه أم اتباعه ومعهم غيرهم من الاتباع مجموعهم نحو ثلاثة عشر رجلا وكان راكبا فى حافلة منفردة هو واتباعه والحافلة ذات مخادع ومقاصير ومرافق بحيث لم ينزل منها مدة السير الى ان وصلنا الى طلون فنزل هناك حيث أعدت له دولة فرانسا باخرة حربية ذات طبقتين من المدافع لتوصله الى مرسى بلده فى الصين وكانت الباخرة مباحة ذلك اليوم للمتفرجين والحاصل ان هاته البلدة بلدة حربية تظهر عليها سمات القوة والشارات العسكرية وأقمت بها نحو ستة ساعات (وثامنها) بلدة نيس التى هى على شاطئ البحر وهى مأوى الاغنياء وذوى الترف من الفرانسيس وغيرهم من أهالى الاقطار الباردة فى الشتاء وذلك لان موقعها على جون مستقبل الجنوب ويحيط بها من بقية الجهات سلاسل جبال شاهقة تمنع عنها مرور الرياح الباردة فكانت مأوى فى الشتاء حسنا وكثرت بها القصور والمبانى الجميلة ومنازل المسافرين الرحيبة وجميع ديارها صغيرة لا تزيد على أربع طبقات سوى منازل المسافرين وذلك لان عادة الانكليز فى بنائاتهم على ذلك النحو وهم أكثر القادمين الى هاته البلدة ولان غيرهم أيضا انما يقدم منهم ذووا الترف المتعودين

على

على سكنى الانفراد فلذلك كانت مبانيها جميلة طريفة وسياج حدائقها من الآجر أو الحجر مرصوف على أشكال حسنة والبلدة يشقها نهر تجرى فيه المياه عند نزول الامطار فقط وعليه عدة قناطر ولها عدة ملاهى لكن لما قدمت لها صيفا وجدت البلد كانه خال عن السكان لقلة من به بالنسبة لكثرة البساتين والديار المنفردة وليس بها ما هى مشتغلا سوى الملهى الصيفى على شاطئ البحر ويقرب من هاته البلدة عدة بلدان هكذا على نحوها طرافة ونزاهة وأقمت بها ليلة ويوما (وتاسعها) بلدة أياتشو وهى قاعدة جزيرة قرسكا وهى مرسى امنية صناعية ومن عاداتهم فى المراسى ان البواخر مهما وصلت تتمم اشغالها الليل والنهار سواء فتحمل السلع وتنزل غيرها وكذلك الركاب بحيث ان ساعاتها المعينة لا تتأخر عنها ويجد المسافر فى المرسى وحولها ضروريات ما يحتاج اليه وهى منورة وهاته البلدة ظريفة جميلة ذات اشجار كثيرة من النارنج والليمون فكانت رائحة الزهر عند دخولى اليها فى الربيع عابقة وفيها بطحاء وسيعة بوسطها صورة نابليون الاول والدار التى ولد بها لازالت على هيئتها وفرشها للتحفظ عليها كالمصالح العامة لانه من رجال السياسة المعدودين فى الدنيا ورقى اسم فرانسا الى درجة عظيمة وهو فى الاصل من عموم أهالى هاته البلدة وأقمت فيها بضع ساعات ولما أوقدت المصابيح ليلا عند الغروب ثم طلع البدر نقصوا النصف منها اقتصادا فهاته هى البلدان التى دخلتها وأقمت فيها بفرانسا فى السفرات الثلاث وعند رجوعى الى الوطن فى السفرة الاولى راكبا من مرسيليا وكان ذلك فى ينايرالموافق لمحرم سنة ١٢٩٣ ليلا صادفت هيجانا عظيما فى البحر حتى كادت ان تهلك الباخرة بمن فيها وانكسر منها عمودان من حديد معلق فيهما قاربا ومات ثلاثة من الخيل وانكسرت رجل أحد الركاب ولم يستطع أحد ولو من النوتية ان يتحرك من محله وجاء فى السفن صباحا بعد هدو البحر مهنيا بالسلامة وأخبرنى انه لم ير مثل تلك الليلة وانه ربط نفسه بحبل مع عمود الباخرة ليستطيع الثبات فى مكانه وما وصلت الباخرة الى جزيرة قرسكا الا بعد ميعادها باثنى عشر ساعة ومن غرائب المرائى انى رأيت فى الليلة الثانية فى الهجران سنة من اسنانى سقطت وكان احبائى سألونى عنها وكنت أسلى نفسى بانها كانت غير ثابتة بل مضطربة ولذلك لم أجد ألما فى نزعها فلما أفقت انقبضت من تلك الرؤيا ولم أعلم ما تشير اليه فلما وصلت الى الوطن ظهر لى فى أوجه الاحباب الملاقين غبارا وفى اثناء الطريق سرد على الفاضل محمد السنوسى هاته الابيات قال

فاشكر المك واذكر النعم التى * ردتك بعد تلاحم الاهوال
فاتيت ارضك سالما وأعزما * تلقاه فيها فوزكم بالآمال
فترى بنيك من السلامة فى حلى * موصوفة منكم بكل كمال
وجميع أهلك والاحبة كلهم * يلقونكم بتساحب الاذيال
هذى هى النعم التى لم نوفها * حق الثناء على الولى المفضال
وهو الذى أبقى اليك الاخت كى * تسمو بعزك فى حلى الاجلال
اذلم تصب فى غير ليلة أمسنا * والآن ترقب منك خير هلال
فاشكر المك صابرا متيقنا * بجزيل فضل الواحد المتعالى

فاعلمنى بوفاة أختى الوحيدة رحمها الله ونعمها وكنت تركتها مريضة بالسل فتوفيت ليلة قدومى بعد تلك الرؤيا بليلتين وحضرت جنازتها ولم أعلم بان رؤيا مثل ذلك تدل على موت الاقارب الا بعد ان حللت فى الاستانة سنة ١٢٩٧ فذكر لى فى الوصول الى المقصود بالملاطفة وهو ان أحد الملوك كان رأى ان جميع اسنانه سقطت فأتى بمعبر فقال له سيموت جميع أهلك فبطش به ثم أتى بمعبر آخر فقال له ان الملك أطول عمرا من جميع عائلته فأجازه فتعجبت بتذكر تلك الرؤيا الى ان قال لى المتحدث ان أمر هذا مشهور فى علم الرؤيا فقلت نعم ها أنا قد شاهدته فى نفسى لكنى لا اريد معرفة هذا العلم لانه يشوش الفكر ولا يكاد يتوصل اليه الا القليل لان له شروطا فى الاحاطة باحوال الرائى ووقت الرؤيا والاحاطة بالمرئى الى غير ذلك وربما غفل عن شئ منها فيتغير المعنى وأما أصل العلم فلا شك فى ثبوته وما أوتيتم من العلم الا قليلا ويكفى فى ثبوت هذا العلم الاحاديث المروية فى صحيح البخارى ومنها ان الرؤيا الصالحة جزء من ثلاثة وستين جزأ من النبوة وأما سفرتى الثانية الى فرانسا سنة ١٢٩٥ فكانت من تونس الى مرسيليا تواجورا الباخرة البريدية على بلد بونة من اعمال الجزائر وكان البحر فى غاية الهدو حتى رأيت على سطح الماء قطعة من نبات بحرى مثل قطع القطن المنفوش متكاثرة وهى قليلة الظهور وانما ترى عندما يكون الماء فى غاية السكون كما رأيت أعمدة من البحر منبعثة بقوة مثل أعظم الفوالق فاخبرنى انها من نوع سمك يفعل ذلك وان منها العظيم الذى اذا صادف عمله ذلك احدى السفن الصغيرة ربما اغرقها وهو من عجائب المرئيات وكذلك عند رجوعى من هاته السفرة كان البحر مثل ذلك الى ان وصلنا الى بلد الجزائر وكان الوصول اليها صباحا بعيد الشروق لكننا لم نر البر وكان السفن أخبرنا بالوصول لكنه لما لم ير البر مع تيقنه بالحساب للوصول

التزم

التزم الوقوف وذلك لكثرة الضباب المتكاثف ذلك الصباح فما انقشع الضباب بعز الشمس الا ووجدنا البركانة فى مقدم الباخرة والمرسى عن يمينها فكان من لطف الله التدارك بالوقوف والتزمت الباخرة ان ترجع القهقرى الى ان تيسر لها الدوران ودخلت المرسى وسيأتى الكلام على مملكة الجزائر فى باب مخصوص (وأما) السفرة الثالثة فكانت على طريق ايطاليا ومنها الى فرانسا ومنها الى انكلاتيرة وهكذا الرجوع ولم يكن البحر اذذاك الا على ما هو معتاد ومما حدث فى الوطن فى سفرتى الاولى وبلغنى خبره وأنا فى باريس ظهور دعوى وقعت لها ملاطنة من الشيخ المسن التقى أحمد بن المهدى فى العمل بالسنة حسب ادراك كل من فهمها وترك الاخذ باقوال الائمة المجتهدين واختلفت الروايات فى الواقعة ومدارها تصميمه على رأيه وتعصب العلماء عليه الى ان حكموا بنفيه فارتحل الى مكة المكرمة ومات بها رحمه الله وتحرير الكلام على المسئلة باختصار حسبما وعدنا به فى الكلام على ائمة جزيرة العرب هو ان يقال ان الشيخ المذكور هو من تلامذة الشيخ السنوسى ذى الصيط الشهير علما وعملا غير ان هذا التلميذ هو دون شيخه بمراحل فى العلم فالف رسالة أراد ان يذكر فيها طريقة شيخه فلم يوف بها وتغير المعنى المقصود لشيخه اذ مدار هاته الرسالة ان لا يقلد أحد الا المعصوم ولذلك يجب على الامة ان لا يعملوا الا بالكتاب والسنة ويتركوا ما وراءهما ولا يخفى أن ظاهر ذلك يوقع فى افساد الشرع حيث انه لا خلاف فى ان لا اتباع الى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما فى الكتاب والسنة لكن اين أهل الفهم منهما وأين ادوات ذلك التى كانت فى صدر الاسلام سليقة وصارت على التدريج صناعة وعلوما تتعلم وتدلى الامر حتى لم يبق من يوفيها حقها فاذا سوغنا لكل أحد ان يعمل بما يفهم مع ما هو عليه من الجهل كان ذلك هو عين الفساد ولذلك لزم اتباع الاجماع والاجتهاد من أهله المسلم اليه وقد كانت المجتهدون كثيرين فى الصدر الاول فمنهم من كثرت أتباعه وتسلسل النقل لاقواله الى الآن وهم الائمة الاربعة أبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل رضوان الله عليهم ومنهم من انقطع النقل عنه فلا يجوز الآن تقليده لعدم صحة السند فى مذهبه بالنسبة لاهل العصر والافكلهم سواء بالنسبة للمقلد وكل من ليس له ملكة الاطلاع على الادلة ومناطاتها وترجيحها فهو عامى وله ان يقلد من شاء من الائمة المجتهدين لقوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وبذلك تحفظ الشريعة لان سند الاجماع هو نص من الشارع وسند القياس والاستنباط من نص الشارع أيضا فرجع الامر الى

ان لا عمل الا بالكتاب والسنة والشيخ السنوسي رحمه الله مقرر لذلك في رسالة له الفها في
المعنى المتقدم واختصرها تلميذه اختصارا مخلا وذلك ان الشيخ السنوسي قرر في رسالته
وجوب الاتباع للشارع والتباعد عن العمل بالرأي والبدع وحث على وجوب اخراج
المكلف نفسه من حضيض التقليد الى درجة الاجتهاد والكمال حتى يقدر ان يفهم
كلام الشارع ثم ذكر شروط ذلك وانه اذا ابتلى الانسان بالتقصير فحينئذ يلتجئ الى تقليد
ائمة الهدى وعلى الناقل عنهم ان يتثبت في السند لكي لا ينسب لاحد ما لم يقل به كما
يقع كثيرا في تفريعات بعض المتأخرين فيخطئون في التخريج ومع ذلك ينسبون القول
لاحد الائمة فيما لم يقل به بل نقل عنه انه قال على ما هو عليه من العلم واتساع الباع اني
اذا استفتاني مستفت من ملتزمي مذهب مالك فاني لا أفتيه الا بما نقل عن ذلك الامام ولو
كنت مرجحا لغير قوله حسبما اطلعت عليه من الادلة وذلك لان المستفتي انما سألني
من قول مالك لا على قولي والحاصل انه في نفسه يرى صحة الاجتهاد ويرى على كل
مكلف ابلاغ نفسه الى تلك الدرجة فان لم تحصل فليقلد المجتهد ورأيت في تأليف كثير
من أهل العصر في الهند النحو الى هذا المنحى وان من له اطلاع على الادلة ومناطاتها يجب
عليه اتباع الدليل وكان هؤلاء العلماء يعدون من هو من طبقة أهل الترجيح
المنصوص عليها في كتب الفقه

الفصل الرابع

(في التعريف بفرانسا)

(اعلم) ان فرانسا من ممالك أوروبا الغربية وتبتدئ من عرض درجة ٤٢ ودقيقة ٢٠
شمالي الى درجة ٥١ ودقيقة ٥ من العرض المذكور ومن طول درجة ٦ ودقيقة
٥٠ شرقي الى درجة ٧ ودقيقة ٩ من الطول الغربي لان مبدأ الطول عند كثير من
المتأخرين هو باريس التي هي قاعدة هاته المملكة ويحدها جنوبا البحر الابيض واسبانيا
وشرقا ايطاليا وسفيسره والمانيا والبلجيك وشمالا بحر المنش وخليج كالي الفاصل بينها
وبين انكلاتيرة وغربا البحر المحيط الغربي فلذلك كانت ذات موقع جسيم ونفوذ برا
وبحرا في ثلاثة أبحر محيطة بها ويتبعها عدة جزر منها كرسيكا وجزر يارس في البحر الابيض
وجزر ري واوليرون وويسان في المحيط وفيها جبال كثيرة وأعظمها جهة الشرق
كالجورا وآلاب وتتصل بسلسلة مارة جهة الشمال الى جهة الجنوب الغربي فتتصل
بجبال

بجبال بيرني الفاصلة بين فرانسا واسبانيا واعلى جميع جبال فرانسا هو جبل أوروفان
ارتفاعه على سطح البحر قدما ٦٢٣٠ وليس بها جبال بالكانية وأما انهارها فهي
كثيرة وليس بها ما يحمل السفن الكبيرة وانما البعض منها يحمل الصغيرة وأشهر
انهرها نهر السين الذي يخترق باريس وطوله ميلا ٤٥٠ ويصب في المنش ثم نهر
اللوار وطوله ميلا ٦٠٠ ويصب في المحيط الغربي ونهر رون وطوله ميلا ٥٤٠ وهو عميق
سريع السير ويصب في البحر المتوسط ونهر جيرون ويصب في البحر الغربي الى غير ذلك
من الانهر وبها من الترع نحو من تسعين ترعة ولا زالوا مجتهدين في تكثيرها ووصلة
الانهر والبلدان بعضها ببعض لنقل الركاب والبضائع زيادة على سقي الاراضي ويبلغ
طول هاته الترع جميعا نحو خمسة آلاف ميل وأما بحيراتها فلم اعلم فيها الا ثلاثة (أولاها)
بحيرة دييورجي حذو جبل المونسني حلوة محدق بها منظر جميل ويمر على شاطئها
طريق الحديد (وثانيتها) بحيرة دنسي قرب جبل آلاب وكلاهما جار يصب في نهر الرون
(وثالثتها) بحيرة آن قان قرب باريس وأما هواؤها فالجهة الشمالية منها باردة والجهة
الجنوبية معتدلة وينزل الثلج فيها جميعا شتاء ومع ذلك فهواؤها سليم لائق بالصحة ولا يقع فيها
الضباب الا بقلة وهو متعب جدا وقد صادفته في سنة ١٢٩٣ وذلك اني ذهبت زائرا
أحد معارفي قرب الغروب نحو الساعة الرابعة بعد الزوال فخرجت في الساعة السادسة
بعد مضي الغروب بنحو الساعتين فوجدت الطرقات في غاية الظلمة ولم ادر الى أي جهة
الطريق فتعجبت من ذلك وسألت صاحب الباب ما بالهم لم ينوروا الطرقات تلك الليلة
فقال كلا ولكن الضباب منع نور الفوانيس من الظهور ومع ما عليه باريس من كثرة
التنوير فارسلت ليؤتى لي بكروسة فلم يدر المرسل الطريق واضطررت الى تتبع الاس
للحائط مع التحذر من المصادمة وكنا نعلم قرب موقف الكراريس فذهبنا الى جهتها ولم
نر نورها ولم نرها الا عند الوصول اليها فلما أردنا ركوب احديها امتنع صاحبها وكثر اللغط
بينه وبين التابع فجاء أحد الضابطية والزمه باركابنا وايصالنا الى منزلنا فاجابه بانه غير
ممتنع لكن الخيل لا تمشي لانها لا ترى فقال اركبوا الى ان نصل وجهها فلم يكن غير بعيد حتى
ظهرت المشاعل على وجه الارض بيد الضابطية وغيرهم مشاعل من حبال غليظة تحرق
وتدار باليد في الهواء على وجه الارض على نحو ما تفعله البوادي فاخذ سائق الكروسة
رجلا منهم ومكنه من أحد تلك المشاعل وجعل هو يسوق الخيل وراءه الى ان أوصلنا
واعطينا الرجل احسانه وكنا نسمع صهيل الخيل بكثرة في تلك الليلة مع قلة صهيلها هنالك

على كثرتها وكذلك كثر نباح الكلاب وزاد حسها وضوحا هدوّ حس العجلات ولما وصلنا
الى البلغار على كثرة تنوير حوانيته وقهاويه لم يظهر منها شئ الا اذا لصق الانسان بالفانوس
فانه يرى نوره مقصورا عليه وقد ذكرت تلك الليلة صحف الاخبار وشيدت بشأنها وان مثلها
كثير بانكلترا ليلا ونهارا أما البرد فهم مستعدون له ايما استعداد ولهم عملة لازالة الثلج من
الطرقات وشدة ذلك البرد مع طول مدته أهون من شدة الحر في الصيف الذي لا تطول
مدته لانه يكاد أن يكون الهواء منقطعا من شدة سكونه وحره وأما نباتات فرانسا فينبت
بها جميع نباتات أراضي الاعتدال والاراضي الباردة بالنظر لجنوبها وشمالها وعلى
الاجمال فالجهة الشمالية منها أجمل منظرا الان في الجنوب جبالا صخرية واراضي غير
صالحة للزراعة وأهم نباتاتها العنب سيما جهة بلد بردو وشمبانيا لكن في هاته السنين
الاخيرة أصيب بمرض أوجب خسائر بليغة وفيها من الكمثرى أنواع فاخرة لذيذة سيما
في الشتاء وبطيخها وخوخها حسن لكنهم لا يأكلون البطيخ الاخضر المعروف بالدلاع
أو الحبحب وعندهم أكله معرة وبقية فواكهها وأشجارها حسنة وفيها آجام وغابات
لاخشاب السفن وغيرها كثيرة جدا وأما حيواناتها ففيها جميع الحيوانات الانسية والنعم
وخيلها على ثلاثة أنواع (فأولها) العراب العتيقة وهي مخصوصة للركوب (وثانيها)
البراذين وهي لجر الاثقال والحوافل الكبيرة للركاب (وثالثها) المختلطة من نسل المذكورات
ويستعمل لكلا القسمين لكن أكثره لجر الكراريس ومنه الجيد للغاية القصوى
والبغال بالنسبة الى الخيل قليلة الاستعمال وأقل منها الحمير ورأيت في باريس ان الحمير
الاناث الوالدات يطاف بها بكرة الصباح على الازقة لحلب من يشتري لبنها وهي نظيفة
حسنة والبقر ضخم جدا يعتني بتسمينه للاكل ولهم على من يفوز بأكثرية التسمين
جوائز حتى بلغ مرة وزن ثور منها نيفا وأربعين قنطارا وتستعمل للحرث أيضا ولجر الاثقال
بقلة والغنم من النوع الذي له ذيل وذوات الالية قليلة وأما أنواع الحيوانات المسبعة
فالظن انه لا يوجد منها الا الدب والذئب والثعلب والخنزير وأما غيرها فقد انقطع من
هنالك للاعتناء بقطعه مع كثرة العمران نعم يوجد منها مربي في الامصار كالاسود والنمر
ويتوالد الاسد ويرضع بنيه كلاب كبار لتقابل جرئته ولعدم ضعف والدته وأما الثعابين
والحيات فهي قليلة ولا يزالون مجتهدين في قطعها فان غابات فنتينبلو مجعول لكل من
أتى بحية منها مقدار من المال أما في باريس فلم أسمع بوجود عقرب ولا غيرها من الحشرات
ولا خنفسة وكان ذلك لشدة الاعتناء بنظافة الديار والطرقات حتى لا تكاد تجد في حائط ما

مغرز مسمار وكلها متقنة الطلي ظاهرا وباطنا بالجص أو الرمل والجير سواء الظاهر والباطن
مع عدم وجود التراب في أي جهة نعم في الجنوب من المملكة يوجد البق والذباب وغيرهما
من الحشرات وهي أيضا قليلة في المدن بالنسبة لما نعرفه في البلاد التي تشبه تلك البلاد في
الخطوط وطيورها كثيرة رحالة ومقيمة ولا يصطادونها الا في أوقات معلومة كما انه ليس لاحد
أن يصطاد الا برخصة من الحكومة يؤدي عليها معلوما وليس له ان يصطاد في غير أرضه
المعدة لذلك أو أراضي العامة المعدة لذلك برخصة فيها من الحكومة أو يدخله غيره أرضه
برضاه ومن خالف ذلك عوقب وأنواع الصيد كثيرة وفيها من نوع الفيران كثير (وأما مدن
فرانسا فقاعدتها باريس وقد تقدم ذكرها وهي مائلة الى الشمال من المملكة وبقية
المملكة تنقسم الى ستة وثمانين ولاية كل ولاية لها مدينة هي مركزها ويتبعها عدة أوطان
لكل وطن مركز ويتبعه عدة أوطان صغار وهاته أيضا الى أصغر منها فمجموع النوع
الاول من الاوطان عدده ٣٧٠ والثاني عدده ٢٩٣٨ والثالث عدده ٣٧٥١٠
ولكل منها مدينة أو قرية هي مركزه فهي حينئذ كثيرة جدا ومن أشهرها ما تقدم
ذكره هنا (وأما معادنها) فليست بكثيرة لكن منها الغني للغاية فالذهب لا يكاد يستخرج
من محله وان وجد لانه لا يوفي بمصاريفه والفضة موجودة بقلة ومثلها النحاس والفحم
الحجري كثير غني وكذلك قطران الارض وأنواع من الحجر والرخام الابيض ومنه الشفاف
وأنواع عديدة من الحجارة كحجر الطبع وأنواع الجص والكبريت ومقاطع الحديد
والرصاص كثيرة وبها حجر الزجاج والمياه المعدنية نافعة شهيرة كحمام فيشي وحمام
برني (وأما مراسيها) فكثيرة حربية وتجارية وقد تقدم ذكر بعضها ويقاس عليه ضخامة
وحصانة باقيها (وأما سكانها) فأصلهم القديم من قبائل مختلفة وردت الى هنالك من المشرق
في أوقات مختلفة وأشهر القبائل قوم من الكلتيين وقسم منهم عبر المحيط الى انكلترة
وانضاف معهم في فرانسا قبائل أتت من جنوب افريقيا يسمون الباسليك ولا زال الى
الآن سكان جبال برني يتكلمون بلغتهم ثم وفد عليهم الرومانيون ثم هجمت عليهم قبيلة
الافرنج الآتية من الشرق واستوطنت قبل ذلك في البلجيك ثم تغلبت على قبائل
فرانسا واختلط نسل الجميع واتحد باسم الافرنج ثم حول الى الفرانسيس وصاروا الآن
جنسا واحدا وهو الفرانساوي الا أهل نيس وساقوي وقرسكا فهم طليانيون وعدد
الجميع ستة وثلاثون مليونا ونصف عدا ما في مستعمراتها والديانة الغالبة هي النصرانية
على المذهب الكاثوليكي وقد كان هو مذهب الدولة الرسمي لكن الآن لم يبق من الدولة

اعتبار لديانة أو مذهب خاص حتى انها أزالت سنة ١٨٨٠ علامات المذهب العلنية عن الاماكن الرسمية والمكاتب كما وجد فيهم المذهب البرتستانتى وديانة اليهود وتوجد الدهرية بكثرة وقليل موحدون بالعقل أو باتباع لعيسى عليه السلام ويتبع فرانسا مستعمرات ففى افريقية قهرت الجزائر وادعت بالحماية على تونس واستولت على سانيغال وجزائر غورى وسانت مارى وبوربون وعدد سكان هاته المستعمرات نحو الخمسة ملايين منهم مسلمون نحو أربعة ملايين والباقى على مذاهب وديانات شتى ويتبعها فى قسم آسيا أرض بوندشيرى وكاريكال وماهى وينساون وشاندرنغور كلها فى شطوط الهند كما لها ايغون فى كوشنشين الصين وعدد سكان الجميع نحو الثلاثمائة ألف ولها فى أمريكا جزائر صان بيير وميكلون ومارتينيك وغوادلوب والغيان الفرانساوية وسكان جميعها نحو الثلاثمائة ألف أيضا ولها فى الاقيانوس جزر مركيز وتاييتى وسكانها نحو المائة والخمسة وسبعين ألفا فجميع السكان والملحقات نحو اثنين وأربعين مليونا

الفصل الخامس

﴿فى اجمال تاريخ فرانسا﴾

مطلب

فى تاريخها القديم

كانت هاته المملكة تسمى قديما غاليا أو غالة ويجهل الحال فى تاريخها القديم أعنى ماقبل تاريخ الميلاد بألف وستمائة سنة ومن هذا الوقت عرفت أحوالها فكان أهلها شجعانا حاربوا من جاورهم ولم يخضعوا لدولة الرومان الا بعد مشاق ثم استقلت فرانسا عنهم باستيلاء أمة الافرنك فى القرن الخامس وذلك انها خضعت لعدة رؤساء متحدين ثم خضع الجميع للملك سنة ٤٢٠ مسيحية وأول عائلة معروفة من ملوكها تسمى الميروفنجيين وفى مبادى القرن السادس تغلب اسم قبيلة الافرنك على جميع الاهالى لانتصارها على جميعهم ثم قلبت الكاف سينا وصارت فرانسا وذلك لقب ألحق عليهم مأخوذ من فرانكس أى شجعان ثم انقسمت الى عدة ممالك واتحدت عدة مرار وكانت شوكة الملوك ضعيفة فيهم والنفوذ الى جمعيات الاعيان التى تجتمع كل سنة وتختار الملك وتعين السيرة

السيرة فى الادارة حتى كان للاهالى حرية تامة بل قد تخرج عن الاعتدال الى التهور فقد ذكروا انهم كانوا يقتسمون الغنائم ويعطون الملك حصة كآحاد الجيش فلما انتصروا فى احدى الوقائع وقد انتهبوا فيها كنيسة كان من جملة مافيها اناء من ذهب طلبه الملك من الجيش برضاهم فبينماهم بصدد اجابته واذا باحدهم تقدم وضرب الاناء بيطانه وقال له بأعلى صوته ليس لك أدنى شئ سوى مايخصك بالقرعة ولا نقر لك بامتياز وأول تدين ملوكهم بالديانة النصرانية كان فى أواخر المائة الخامسة مسيحية وفى أواخر هاته الدولة أعنى سنة ٧٣٢ وقعت الحرب مع العرب الاندلسيين الذين تغلبوا على قسم كبير من جنوب فرانسا حتى وصلوا الى اليون وخرجت تلك المستملكات واتحدت مع فرانسا وبقيت فرانسا على نحو ماذكر الى ان استولى عليها كارلوس الكبير ويعرف أيضا بشارلمان المعاصر للرشيد العباسى وقد ضم الى فرانسا عدة ممالك من أروبا حتى تسمى بامبراطور المغرب وانتقل تاجه الى فروع من العائلة الى ان بقى الآن فى المانيا التى كانت احدى ممالكه واستقل بها أحد احفاده عندما قسم ابنه ممالكه على أولاده فملك بكره على جرمانيا والثانى على فرانسا والثالث على ايطاليا وضعف ملوكهم باسنادهم الامور الى غير أهلها فكانوا يقدمون خدمتهم الى أعلى المناصب والالقاب بدون جدارة فاستقلوا على ساداتهم وماتهم الامم وتناصروا الى ان خربت العائلة واستولت على فرانسا العائلة الكابيتيانية ومن مشاهير ملوكها فليب الثانى الملقب أوغسطوس الذى اتحد مع ملك الانكليز الملقب بقلب الاسد على حرب المسلمين المعروفة بحرب الصليب الثالثة لكنهما لما وصلا الى صقلية تنافرا وافترقا ثم بعد رجوعه من الشام بوقائع صلاح الدين أثار الحرب على الانكليز واستخلص منهم بعض ما كانوا ملكوه من فرانسا ومن هاته العائلة صان لويز الذى أسر بمصر ومات بتونس وله تذكار معروف قرب قرطاجنة وذلك فى حدود سنة ١٢٧٠ ومنهم فليب الثالث الذى حدد للاعيان سلطتهم على العامة بمجلس الشورى لكن اضمحل ذلك بميل فليب الخامس الى الاعيان وأشرفت فرانسا على السقوط وتداخلت فيها الدول المجاورة ونشأت مع الانكليز الحرب المعروفة بحرب المائة سنة وكان مبدؤها سنة ١٣٣٧ وانتصر الانكليز فى كثير من الوقائع وتملكوا كثيرا من الجهات حتى ذات باريس مع التناصر الداخلى فى فرانسا ثم ظهرت بنت لاحد الفلاحين تسمى جان دارك فادعت علم الغيب والتأييد الالهى لانقاذ فرانسا وساعدها الملك بتأميرها على الجيش وأظهرت شجاعة غريبة

واقتكت من الانكليز عدة جهات وفى حصارها المدينة كميان أخذت أسيرة وحكم
عليها بالحرق لانها ساحرة ثم عقد الصلح مع الانكليز سنة ١٤٤٤ ولم يبق بأيديهم الا
الجهات البحرية ثم أعيدت الحرب ولم تخلص فرانسا الا سنة ١٤٥٣ فرتب الملك اذ ذاك
كارلوس السابع الجيش المستمر تحت السلاح وقد كانت العادة من قبل ان الاعيان
المالكين للملكة بأهاليهم الذين يقدمون العساكر للملك فكسر كارلوس شوكتهم
واعتنى بترقية المملكة فى المعارف حيث كان مطلعا عليها وقد نقلت صناعة الطبع
الى باريس فى أيامه وأنشأ مدرسة خاصة للطب وباستقامة سيرته نال من الفتوحات
والترقى ما لم ينله غيره من ملوكهم بالحروب ثم فى أيام هنرى الثانى سنة ١٥١٠ تعصب
به الكاثوليك وأغروا أمه به وقتلوا كل من ظفروا به فى فرانسا من أهل مذهب
البروتستنت فى يوم واحد ويقال ان عددهم اذ ذاك نحو سبعين ألفا وقتل الملك بيده
عددا كثيرا وهو واقف متململا فى أحد رواشين قصر اللوفر ثم تعاقب على فرانسا الصعود
والهبوط على حسب سطوة الملك واقتداره الى ان عظمت جدا فى أيام لويس الرابع عشر
الملقب بالكبير المتولى سنة ١٦٤٣ وفى أيامه وأيام والده حدثت الحروب المعروفة
بحروب الثلاثين سنة وانتقل لفرانسا النفوذ الذى كان للنمسا فى أروبا وظهر فيها عدة
مشاهير بالمعارف وهو الذى أنشأ قصر فرساى وبساتينه وقصر ليزان فاليد لكنه فى
آخر أمره فقدت فرانسا ما نالته فى الداخل والخارج بأسباب التعدى على الرعايا وضعفهم
وبعده فقدت فرانسا المستعمرات الهندية وغيرها وان حازت كرسكا واللورين وكان
ذلك باتباع لويس الخامس عشر لشهواته وتحكم النساء فيه والغائه لشورى مع
مجالس نواب الامة وآخر الملوك من تلك العائلة هو لويس السادس عشر الذى انتقم
من انكلاتيره باعانة أمريكا على استقلالها وحدثت فى أيامه الثورة العامة التى
قلبت حال التاريخ حيث كان يرجى منه اصلاح ما أفسده أبوه وجده لكنه كان
ضعيفا عن الوفاء بذلك فهو خاتمة التاريخ القديم

مطلب

﴿فى تاريخ فرانسا الجديد﴾

اعلم ان الفرنساويين لما انتشرت فيهم المعارف وعلموا ما لهم وما عليهم ونالوا من بعض
ملوكهم أحيانا انصافهم واشتهرت بينهم الصحف الخبرية المعلنة بالمحامد والمذام وحدث

فيهم

فيهم أخيرا ما أشير اليه من الظلم انعقدت فيهم جمعيات سرية للتدبير والعمل فيما يمكن لهم
به حفظ حقوقهم وممالكهم وتفطن لذلك لويس السادس عشر فكان مرة يميل الى
معاضدة الامة فيما تريده ومرة يجنح الى عادات الاعيان والسيرة القديمة حتى خشى
على نفسه وفرع عائلته لكن الاهالى أرجعوه غصبا وخضدت شوكته فخاف بعض
ملوك أروبا من أن يلحقهم ما لحقه بسبب فتح أبصار رعاياهم وقد كانوا اذ ذاك مستبدين
فتعاضدوا على اركاس الفرنساويين لاسيما امبراطور النمسا صهر لويس المذكور
فانه تولى كبر تلك الحرب غير ان الفرنساويين دافعوا عن حقوقهم بجد وانظم اليهم ملكهم
المذكور وأجرى الجمعية الاهلية المسماة بالجمعية الوطنية وذلك سنة ١٢٠٧ هـ
١٧٩٢ م ثم بدا لهم منه الخيانة فقتلوه مع زوجته وطردوا ابنه الى جده امبراطور النمسا
وذلك بحكم الحكومة الاجرائية التى حكمت بالغاء الملكية واثبات الجمهورية وأعلنت
لسائر الامم انها تساعدهم على نحو عملها وتسمت الحكومة جمعية اتفاق الامة وكان
من أكبر زعمائها ابولتير الذى لادين له وهو أحد الذين ثاروا غيظ الامة بما ينشره
من الاقاويل والكتابات ولما استتب أمر الجمعية تجاوزت حدود الاعتدال بمضادة الاديان
وقتل رؤساء الكنائس وابدال أغلب العادات حتى الايام والشهور فجعلوا الاسبوع
عشرة أيام ومبدأ التاريخ هو عام انتصاب الجمهورية وكذلك أشهروا الحرب على جميع
الدول وانتصر الفرنساويون سيما تحت راية نابليون الاول بونابارتى الذى كان أحد
أبناء العامة فتعلم الفنون العسكرية وساعده القدر بالانتصار الذى نال به أعظم
الشهرة فكان من أعظم رؤساء العساكر ثم عوضوا تلك الحكومة بحكومة الدركتوار
أى الحكومات المديرية مؤلفة من خمسة أشخاص وحدثت فى أيامها الحروب العظيمة
مع سائر الدول ووافق نابليون البخت فانتصر على الجميع وملك ايطاليا ورتب فيها
حكومات عديدة جمهورية ثم استولى على مصر وأراد الشام بقصد التوصل الى الاستيلاء
على الهند انتقاما من الانكليز ثم عاضدت انكلاتيره الدولة العثمانية واسترجعوا مصر
وما أخذ من الشام وهيجت انكلتره دول أروبا على الاتحاد على فرانسا فاستمدوا الحرب بها
وحاربوها وكانت الحرب سجالا لكن نابليون الاول لما وصل الى باريس بعد ان كاد
أن يكون أسيرا فى رجوعه من مصر وجد حكومة الدركتوار على شفا وأروبا منتصرة فى
أغلب الجهات فاستعان بحزبه ورتب حكومة جديدة تسمى بحكومة القنسلات مؤلفة
من ثلاثة أشخاص يسمون قناصل وتبوأ هو رياستها وذلك سنة ١٢١٤ هـ ١٧٩٩ م

ثم تسمى قنسلا مدة حياته وتسلم رياسة الجيش ورجع الانتصار المفقود والتفت عند
ذلك الى لم شعث الداخلية واصلاح الامور فسماه مجلس الاعيان امبراطورا سنة
١٢١٩ هـ ١٨٠٤ م ونال صيتا عظيما في الدنيا بانتصاراته على أغلب اوربا
فدخل فينا وبرلين وعقد الصلح مع دولتيهما كيف شاء وأمست ايطاليا وكثير من
جرمانيا تابعة لفرانسا وانتصر على الروسيا أيضا وعقد معها صلحا ومعاهدة سرية من
شروطها اقتسام جميع أوروبا بين فرانسا والروسيا عدا الممالك العثمانية وان بلغنا
انهما أيضا في القسمة حتى اغتاظ السلطان لذلك كما سيأتي في محله ومن المستثنى من
القسمة أيضا الممالك الانكليزية وكان ذلك سنة ١٢٢١ هـ ١٨٠٦ م وأتم
تأليف قانون الاحكام الشهير المعروف بكود نابليون سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م
وهو عمدة أحكامهم ونسجت اوروبا فيما بعد على منواله وهو كتاب مقسم على أبواب
المعاملات والجنايات وكل مسئلة من الباب يعقدها فصل يبين حكمها بعبارات بينة
من غير بيان لدليل الحكم ولا محل استخراجه لسهولة التناول وكان عين لتأليفه جمعية
علمية عولت في تنظيمه على ما يليق بالعادات من أحكام الشرع الاسلامي وأحكام
الرومان وسنة ١٢٢٨ هـ ١٨١٢ م عاد لحرب الروسيا لنكثها شروط الصلح
المار ذكرها وانتصر عليها الى أن وصل قاعدتها مدينة موسكو وقد أعدوا له كيدا
باحراق المدينة فلما وصلها اوجدها قاعا صفصفا وكان الوقت شديد البرد فهلك عسكره
بردا وجوعا وعاد هو متنكرا الى فرانسا وجهز نفسه لحرب الروسيا والمانيا وبروسيا
والنمسا الذين اتحدوا عليه بسبب انكلتره فغلب أخيرا ودخلت العساكر المتحدة
الى باريس وملكوا على فرانسا لويس الثامن عشر وأسكنوا نابليون جزيرة الاب
على انه ملك عليها وذلك سنة ١٢٣٠ هـ ١٨١٤ م وبعد عشرة أشهر عاد الى
فرانسا وتلقته الاهالي بالرحب لما نالوه من العظمة في أيامه فهرب لويس الثامن
عشر الى مقره أولا بانكلتره ثم اتحدت الدول ثانيا ومعهم انكلتره وقهروا نابليون
فتنازل عن الملك لابنه الملقب بنابليون الثاني سنة ١٢٣١ هـ ١٨١٥ م فلم تعترفه
الدول وأعادت لويس الثامن عشر وأما نابليون فطلب الاقامة بانكلتره مستأمنا تحت
أحكامها وقبلته وعند ارادة نزوله من السفينة الحربية الانكليزية الى البر اعلمته
بانه أسير للدول فسجل على ذلك ولم ينفعه ونفي الى جزيرة هيلانة في الاقيانوس الاتلانتيكي
الى أن مات. ونقلت جثته فيما بعد الى ابزان فالبد بباريس وانحصرت اذ ذاك فرانسا
في

في حدودها القديمة ثم تبوأ ملكها كارلوس العاشر اخو ملكها الذي أجلسته الدول
وفي مدته استولى على الجزائر وأراد أن يحجر من حرية المطابع والقوانين فثاروا
عليه وولي لويس فليب سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م فاطلق الحرية وأحبوه ولكنهم
أسقطوه أخيرا لامتناعه من اصطلاح قوانين الانتخاب وكانوا يميلون الى الجمهورية
والى عائلة بونابارتي فاعادوا الجمهورية ثانية سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٨ م ورأسوا عليها
لويس نابليون ابن أخي نابليون الاول ووريث ملكه حيث مات ابنه عن غير عقب وكان ابن
أخيه مرسوما في ولاية العهد وذلك بعد أن نفي مرة الى أمريكا وأخرى الى انكلتره وايطاليا
وسجن مرة في حصن وفر منه بتزييه بزي أحد عملة البناء بعد حلق شاربه وأشهر عدة
تآليف تنوه بالحرية والفخر فولوه زمام الادارة وأبدى من المصالح الداخلية واستمالة
رؤساء الجيش اليه ما اقتدر به على الاعلان بامبراطوريته سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م
وتلقب بنابليون الثالث وعاضد الدولة العلية وانكلتره على حرب الروسيا سنة ١٢٧١
١٨٥٤ م لتنال بها اعترافهم امبراطورا في مبدء أمره وللدواعي السياسية من الخوف من
استيلاء الروسيا على الممالك العثمانية وعقد الصلح على معاهدة باريس سنة ١٢٧٣ هـ
١٨٥٦ م وانتصر الى ايطاليا على النمسا بدعوى القاعدة التي أسسها وهي اتحاد الجنسية
كما تقدم في تاريخ ايطاليا الجديد حتى اتحدت ايطاليا سنة ١٢٧٦ هـ ١٨٥٩ م وحارب
الصين مع انكلتره سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦٠ م وانتصر عليه وافتتح المكسيك من أمريكا
سنة ١٢٧٩ هـ ١٨٦٢ م وملك عليها مكسيمليان أخا امبراطور النمسا وكانت اذ
ذاك دول أمريكا المتحدة في حرب شديدة داخلية ولما فصلت حربهم حنقوا على فرانسا
من تداخلها في قارتهم فتسال نابليون بعساكره وترك المكسيك حتى قتلوا من ملكه
عليهم وذهب سعي نابليون سدى ومن ذلك الوقت ابتدأ ميل القلوب عنه لاستبداده
باطنا وتصرفه طبق شهواته في السياسة بعد ان كان أوصل فرانسا الى ذرى المجد حتى
لحظتها سائر الدول بعين الوقار وهرعت ملوك الدنيا الى باريس في دعوته للمعرض وكانوا
يفتخرون باستمالته نحوهم حتى فضله كثير من عقلائهم على عمه لكنه لما غره زيادة
البخت استبد برأيه باطنا وأسرع الى التداخل في أمر غيره فقلقت الاهالي من عمله ولما
أحس بذلك أعلن بعمل الانتخاب العام له من سائر السكان بحيث لا يختص باصوات
الاعالي بل حتى العامة لانهم لهم الحق في ذلك من حيث ان المملكة اغناهم على
الفرانسا وبينه مطلقا ولما كانت العامة محبين له لعدم اطلاعهم على مخفياته أوعدم

تبصرهم مع أنه محسن اليهم بحيث يؤثر نفعهم ويوجد لهم أسباب الانتفاع عند المحل ثم ان حزبه يغريهم بالمال عند الانتخاب اذ كان ينفق فى مثل ذلك من أموال الدولة مقادير ذريعة سرا وترسم فى ميزانية الدولة باسماء أنواع من المصاريف اللازمة فبذلك الوجه حصل أغلبية عظيمة فى ارتضاء الفرانسيس به ملكا عليهم وانشىء اذ ذاك قانون الامبراطورية المؤرخ فى سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م ونص تعريبه (الحكم الاول) لمجلس الاعيان مزية وضع الاحكام والقوانين بالاشتراك مع الامبراطور ومجلس النواب وله أيضا الابتداء فى وضع المعروضات واللوائح الا أن الامور المتعلقة بالمالية ينبغى أن تقرر أولا فى مجلس النواب (الحكم الثانى) عدد أعضاء مجلس الاعيان يمكن زيادته حتى يبلغ ثلثى عدد مجلس النواب ماعدا الذين يحضرون فيه بالاستحقاق وليس للامبراطور أن يعين فيه فى كل سنة أكثر من عشرين (الحكم الثالث) قد تعين الغاء المزية التى خص بها المجلس من جهة التشريع المذكور فى الحكم الحادى والثلاثين من القانون الذى تقرر فى ١٤ كانون الثانى أى يناير سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م (الحكم الرابع) التراتيب التى ألحقت بهذا القانون وهى المشمولة فى الاصول العمومية التى استقرت فى ١٤ وفى ٢١ من كانون الاول سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وفى ٣١ وفى ٢٢ من الشهر المذكور فى السنة التى بعدها هى أصول المملكة وقوانينها الاساسية (الحكم الخامس) وهذه الاصول والقوانين انما يغيرها سكان المملكة بطلب الامبراطور (الحكم السادس) تعين الغاء الفقرة الثانية من حكم ٢٥ و١٧ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٥ و٤٠ و٥٢ و٥٧ من تلك القوانين وكذا الاحكام المخالفة لهذا القانون (الحكم السابع) يبقى ماتقرر فى قوانين ١٤ من كانون الثانى دجنبر سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وفيما بعد ذلك معمولا به اهـ ثم ألحق بهذا القانون علاوة أخرى هذا نص تعريبها

الفصل الاول

الاول قوانين المملكة تعترف وتثبت وتتكفل بالاصول المعظمة التى شهرت فى سنة ١٢٠٤ هـ ١٧٨٩ م وهى أساس شرع الفرانسيس العمومى

الفصل الثانى

﴿فى مزايا الامبراطور وملكه الثانى﴾

المرتبة

المرتبة الامبراطورية التى خصت بلويس نابليون بونابارت وهو نابليون الثالث فوضت اليه بحسب قرار رأى جمهور المملكة وفى ٢١ تشرين الثانى (نفمبر) سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وهى مزية متوارثة فى سلالة ذريته الذكور الاول فالاول ويلغى منها الاناث وذريتهن الغاء دائما (الثالث) اذا لم يكن للامبراطور المشار اليه وارث فله أن يتخذ وارثا من سلالة اخوة نابليون الاول الذكور وهذا الاتخاذ لايباح لخلفائه ولا لورثتهم (الرابع) اذا لم يوجد له وارث حقيقى أو متخذ يخلفه فى الملك البرنس نابوليون وورثته الحقيقيون من سلالة الذكور الاول فالاول ويستثنى من ذلك الاناث وذريتهن استثناء دائما (الخامس) اذا لم يوجد وارث شرعى أو متخذ لنابوليون الثالث ولخلفائه فلسكان المملكة أن ينتخبوا امبراطورا ويعينوا من أهله الوارث من الذكور دون الاناث وفى مدة انتخاب الامبراطور تدار الامور بواسطة الوزراء القائمين بالوظائف بحسب أكثرية الآراء (السادس) افراد عائلة نابوليون الثالث الذين تثبت لهم الوراثة وكذلك سلالتهم ذكورا واناثا هم من العائلة الامبراطورية ولا يمكن لهم أن يتزوجوا الا باذنه واذا تزوجوا من دون اذنه كان ذلك سببا فى حرمانهم من حقوقهم فى الخلافة وفى حرمان ذريتهم أيضا ولكن اذا كان زواجهم عقيما فللبرنس الذى تزوج حق فى الخلافة وللامبراطور أن يعين القاب الباقى من العائلة ويعين حقوقهم وما يجب عليهم وله عليهم السلطة التامة (السابع) النيابة فى الملك مقررة فى القوانين التى نظمت فى ١٧ تموز (يوليه) من سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م وفى الاحوال المشروحة فى الفقرة الثالثة من الحكم الخامس ينعقد كل من مجلس الاعيان ومجلس النواب ويقرر رأيهم على اقامة من ينوب فى الملك (الثامن) كل من افراد العائلة الامبراطورية الذين تحق لهم الخلافة يسمى برنسا وأكبر أبناء الامبراطور يقال له برنس امبريال (التاسع) كل من يطلق عليه برنس يؤهل لان يكون من أعضاء مجلس الاعيان ومجلس الدولة بحيث يبلغ ثمانى عشرة سنة تامة ولكن جلوسه فى المجلسين متوقف على رضى الامبراطور

الفصل الثالث

﴿فى نوع حكومة الامبراطور﴾

(العاشر) الحكومة للامبراطور بمساعدة الوزراء ومجلس الاعيان ومجلس النواب ومجلس شورى الدولة (الحادى عشر) وضع الاحكام والقوانين يجرى بالاتفاق مع

الامبراطور ومجلس الاعيان ومجلس النواب (الثانى عشر) البداءة فى القوانين منسوبة للامبراطور وللمجلسين المذكورين ولكن كل تقرير يرسم فيه بوضع الضرائب ينبغى الاقتراع عليه فى مجلس النواب

الفصل الرابع

﴿فى أحوال الامبراطور﴾

(الثالث عشر) الامبراطور مسؤل لامة الفرانسيس وله الحق فى كل وقت لان يبلغها استدعاءه (الرابع عشر) الامبراطور هو رئيس الدولة وهو يحكم على العساكر البرية والبحرية وله أن يأذن بالحرب و يجرى معاهدات السلم والتجارة والاتفاق والمحالفة و يعين جميع الوظائف ويثبت التراتيب والاحكام اللازمة لتنفيذ الشرع (الخامس عشر) اجراء الاحكام القضائية يكون باسمه (السادس عشر) له الحق فى منح العفو والاعفاء (السابع عشر) وفى ان يمر الاحكام ويشهرها (الثامن عشر) ما يراد بعد الآن من تعديل الاحكام وتعريفات الكمرك وجعل البوسطة على حسب الموافقة مع أمم أخرى لا يكون العمل به واجبا الا بعد أن يقرر رأى المجالس عليه (التاسع عشر) الوزراء مرتبطون بالامبراطور وحده وهم يتذاكرون فى مجلس يكون الامبراطور رأئيسه وهم مسؤلون (العشرون) يصح للوزراء ان يكونوا من اعضاء مجلس الاعيان أو مجلس النواب وان يحضروا فى أحدهما بان شاؤا وان ينصت اليهم حين يتكلمون (الحادى والعشرون) يجب على الوزراء وأهل مجلس الاعيان ومجلس النواب وضباط العساكر البرية والبحرية والقضاة وذى المراتب ان يحلفوا هذه اليمين وهى انى أحلف بان أكون خاضعا لقوانين المملكة وامينا للامبراطور (الثانى والعشرون) الحكم الذى صدر فى ١٢ كانون الاول (دجنبر) سنة ١٢٦٩ ﻫ ١٨٥٢ م وفى ٢٣ من نيسان (ابريل) سنة ١٢٧٣ ﻫ ١٨٥٦ م مما يتعلق بالمرتب لمصروف الامبراطور يبقى معمولا به أما فى المستقبل فيكون مرتب صاحب التاج مدة ملكه مقررا برسم من لهم مزية وضع الاحكام عند اجتماعهم وذلك بعد نصبه

الفصل الخامس

﴿فى مجلس الاعيان﴾

(الثالث

(الثالث والعشرون) مجلس الاعيان يؤلف ممن هم فى مرتبة الكردينال والمارشال والاميرال ومن الاهلين الذين يرقيهم الامبراطور الى رتبة سيناتور (الرابع والعشرون) لا يتغيرون ووظيفتهم باقية مادموا احياء (الخامس والعشرون) يصح ان يبلغ عددهم مقدار ثلثى أهل مجلس النواب ولا يصح للامبراطور ان يعين فيه أكثر من عشرين فى العام (السادس والعشرون) رئيسه ونائب رئيسه يكون تعيينهما من قبل الامبراطور وهو الذى يعقد المجلس و يطيل مدة انعقاده و يكون الجلوس فيه علانية ولكن عند طلب خمسة اعضاء منه يصح ان تجعل الجلسة خفية (السابع والعشرون) مجلس الاعيان يحافظ على الشرط الاصلى الجوهرى وعلى حرية العامة وله ان يتذاكر على التقارير المعروضة و يقترع على الضرائب

الفصل السادس

﴿فى مجلس النواب﴾

(الثامن والعشرون) اساس الانتخاب سكان المملكة (التاسع والعشرون) اعضاء المجلس يكون انتخابهم عاما (الثلاثون) مدة انتخابهم لا تنقص على ثلاث سنين (الحادى والثلاثون) ولهم ان يتذاكروا على القوانين و يقترعوا على الضرائب (الثانى والثلاثون) وان ينتخبوا رئيسهم ونواب رئيسهم وكتاب اسرارهم (الثالث والثلاثون) للامبراطور ان يعقد المجلس و يؤخره أو يطيل مدة انعقاده وان يحله لكنه عند حله يتعين عليه ان يعقد آخر فى مدة ستة أشهر (الرابع والثلاثون) الاجتماع يكون ظاهرا ولكن عند طلب خمسة أعضاء يصح ان يكون خفيا

الفصل السابع

﴿فى مجلس الدولة﴾

(الخامس والثلاثون) مجلس الدولة مكلف على حسب ارشاد الامبراطور بان يرسم التقارير واللوائح والتنظيمات المتعلقة بالادارة الدولية وبان يحل المشاكل الناشئة من معاطاة الامور (السادس والثلاثون) وان يرسم باسم الدولة المذاكرة فى المعروضات واللوائح فى كلا المجلسين (السابع والثلاثون) للوزراء حق فى حضور المجلس والاقتراع فيه. اﻫ فكان الامبراطور يرى ان هاته القوانين ترضى منه جميع الاهالى سيما بعد

رجحان انتخابه من الجمهور وقد كانت اذ ذاك المشاحنة بين فرانسا وبروسية فى ازدياد كما تقدمت الاشارة اليه فى اخبار ايطاليا غيرة من فرانسا على ما نالته بروسية من الشهرة والانتصار على النمسا مع وعد بروسيا لامبراطور فرانسا بانها اذا تم قصدها فانها تساعدها على تعديل حدودها جهة نهر الرين وتعدو عن حقوقها من وضع العسكر فى لكزنبورغ وادخالها عضوا فى العصبة الجرمانية مع انها تحت تملك ملك هلاندة ولما حصلت بروسية قصدها ماطلت تلك الوعود الصريحة التلويحية فهاجت لذلك فرانسا وكان من تخمينها انها اذا شهرت الحرب على بروسية تعاضدها النمسا عليها انتقاما مما حصل لها فى سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م وبينما الامر على ذلك واذا باهالى اسبانيا خلعوا ملكتهم وطلبوا ان يولى عليهم الامير دوهنزولرن أحد قرابة ملك بروسيا فارعدت فرانسا لذلك وأبرقت وتداخلت انكلاتيرة فى طلب ابقاء السلم لكن الامبراطور نابليون أبى الا الحرب والا فان الامير المطلوب الى الولاية على اسبانيا رفض طلبهم ولم يقتنع بذلك الامبراطور بل ذهب سفيره فى برلين الى ملك بروسيا فى غير وقت وغير محل معتاد واغلظ عليه الكلام بان يتعهد هو بان لا يقبل الامير المذكور فى المستقبل الولاية فلان له الملك الكلام لكنه امتنع من ذلك التعهد وهاجت المانيا جميعا على ما لحق الملك من الاهانة كما ان فرانسا غالت بطلب اعلان الحرب ولم يخالف الا قليل من عقلائهم مثل تيرس فانتهزها نابليون فرصة لاشتغال فرانسا بالحرب عن الهيجان عليه اذ انه وان حصل على أكثرية الانتخاب لكنه كان على يقين من ان حزب النفوذ كاره له ومنتقد عليه وكان وزير الحرب بفرانسا اعلن للمجلس بان العساكر مستعدة كلها وانها تتجاوز المليون وان الحرب ولو دامت سنين فلا يحتاجون الى زرة لباس وابتدأت فرانسا باعلان الحرب وتقلد نابليون رياسة العسكر بنفسه واناب زوجه فى الملك فاتحدت المانيا على الدفاع وبقيت الروسيا معاضدة لالمانيا معنى لاتفاقهما معها سرا فكانت بالمرصاد من النمسا لكى لا تعين بروسيا مع ما فى نفسها أى النمسا على فرانسا من اعانتها الايطاليا ومساعدتها من قبل لجرمانيا فلم تتداخل بشئ وما مضت تسعة عشر يوما من ساعة الاعلان بالحرب حتى وقع نابليون اسيرا بيد عدوه اذ فى نفس الامر لم تكن فرانسا مستعدة وكانت الاموال المعينة لمصاريف الحرب تصرف فيما يراه الامبراطور وحيث كانت الوزراء مسؤلون له لا لمجلس الامة فيتصرف بهم كيفما أراد وكان يظن انه بسرعة الهجوم يحصل على بهرجة الانتصار ويعجل الى عقد الصلح لكن المانيا كانت لها

جواسيس

جواسيس من اعيانها فى جميع دواوين فرانسا وفى قصور رجالها على صورة خدمة وغيرهم مع كمال استعدادها وتمرن أهاليها على الحرب اذ هى دولة عسكرية من قديم وأهالى فرانسا غلب عليهم الميل الى التنعم فالتقى مركز الجيشين فى سيدان من عمل فرانسا وحمى الوطيس الى ان تيقن نابليون بالغلب وقوة قرنه عددا وعدة فكتب الى ملك بروسيا ما تعريبه يا أخى حيث انى لم يتيسر لى ان أموت فى مقدمة جيشى فها أنا أضع سيفى لدى قدميك اه ورفع من هنالك اسيرا وسبحان الدائم عزه وملكه وهربت زوج نابليون واستقرت مع زوجها بلندرة الى ان مات بها وأما العساكر التى معه فطلبت الاستسلام على وجه لا يحط بشرفها وحيث كانت المخاطبات الواقعة فى هذا الشأن واقعة بين الرؤساء بالسلك البرقى ولها أهمية رأينا اثباتها هنا نقلا عن كتاب ألف وطبع فى باريس وهى (من الجنرال) دوومبيين الفرانساوى الى الجنرال ملتك رئيس عساكر جرمانيا اريد ان أعرف (ماهى) شروط التسليم التى يريده ملك بروسة ان يوجهها علينا (جواب) الجنرال ملتك شروطنا سهلة فان جميع جيشكم أسرى مع كل ما عندهم من الاسلحة والذخائر ولكن نترك للضباط سيوفهم علامة على اعتبارنا لهم وعلى بسالتهم ولكن يكونون أسرى أيضا كبقية الجيش (الجنرال) دوومبيين هذه الشروط شديدة يا جنرال اذ الظاهر ان بسالة عساكر فرانسا تستوجب مراعاة أكثر من هذه أليس من الممكن لجيشى ان يتحصل على شروط على هذه الصورة الآتية وهى ان أسلم لكم سيدان بما فيها من المدافع (وأما) العسكر فيتركوه يخرج بما عنده من الاسلحة والاثقال والرايات بشرط ان لا يعود لمحاربة بروسية فى هذه الحرب والامبراطور يتعهد بنفسه بهذه الشروط بالمكاتبة وكذا أعيان ضباطه العسكرية ثم ينقل هذا الجيش الى احدى جهات فرانسا التى تعينها بروسية أو ان شئت ينقل الى الجزائر الى ان يبرم بيننا الصلح (جواب) الجنرال دوملتك طلبكم هذا لا يقارن القبول (الجنرال) دوومبيين انى وصلت الى هنا من صحراء افريقية منذ يومين فقط وكان لى الى الآن شهرة عسكرية مرضية والآن فوض الى رئاسة جيش فى ميدان القتال فاصبحت مضطرا الى ان أقيد اسمى فى الاذعان لمصيبة مثل هذه حتى اضطررت أيضا الى تحمل جميع المسؤلية بدون ان أكون قد أحدثت هذه الوقائع الحربية التى هى سبب فى هذا التسليم وحيث انك جنرال مثلى يلزمك ان تشعر بحالى الحزنة ولكن يمكنك تخفيفها باشتراطك على شروطا أهون وأيسر والا فلا يمكننى قبول شروطكم وحينئذ ادعو جيشى الى شرفهم واخترق بهم

صفوفكم والا فابقى فى سيدان متوقعا (جواب) الجنرال ماتلك اهتمارى لكم عظيم وشرح
حالكم فى محله ولكن أتأسف على انه لا يمكننى فعل شئ مما التمسوه وأما خرق الصفوف
وخروجكم من سيدان فمن المحال وكذلك تحفظكم فيها نعم ان عندكم عساكر عظيمة
ولا سيما المشاة فانهم على غاية من المهارة والاقدام وكذا فرسانكم وطوبجيتكم وقد
أوقعوا بنا ضررا كبيرا فيران جل عساكركم قد فسدت اطوارهم وعندنا اليوم من
اسراهم ازيد من ٣٠ر٠٠٠ نفر غير الجرحى فلم يبق عندكم الآن أزيد من
٨٠ر٠٠٠ نفر فلا يمكنكم اذا خرق صفوف جيشى فيلزم ان تعلم ان من جيشى حولكم
٢٤٠ر٠٠٠ نفر و ٥٠٠ مدفع منها ٣٠٠ على هيئة الاستعداد لاطلاق النار
على سيدان والباقى اعنى ٢٠٠ تكون على هيئة الاستعداد فى فجر الغد فان شئت
تحقيق ذلك فارسل أحدا من ضباطكم الى والارسله الى المواقع المذكورة حتى يشاهد
بنفسه ما قلته لكم أما تحفظكم داخل سيدان فمن المستحيل لان المؤنة التى عندكم
لا تكفيكم الا ٤٨ ساعة ولم يبق عندكم شئ من الذخائر (جواب) الجنرال الفرانساوى
الظاهر ان من مصلحتكم حتى من المصلحة السياسية أيضا ان شروط التسليم لا تكون
مخلة بشرفنا الان جيشى يستوجب ذلك ومرادكم عقد الصلح وما أظن الا انكم تريدون
عقده بسرعة وأمة فرانسا كريمة أكثر من غيرها ومستعدة للفداء وعلى هذا فهى تقدر
مكارمكم التى تخصونها بها وتراعى الجميل فان امكنكم ان تشرطوا علينا شروطا من شأنها
مداراة خاطر الجيش فان الامة تحسبه أيضا ثملة لها فيخفف عنها مرارة الانهزام وبث
شروط الصلح على هذه الصورة يكون على الدوام (اما) اذا عاملتمونا بالقساوة فلا شك انكم
تثيرون الكراهة لكم والبغض فى قلب كل عسكرى وعزة نفس جميع الامة تعود وقد
استاءت وبذلك توقظون الاحساس الذميم الذى انامه التمدن وتخاطرون بايقاد حرب
لا نهاية لها بين فرانسا وبروسية فاجابه البرنس بسمارك قائلا برهانك يظهر بادى بدء
انه على الجد وهو فى الحقيقة كلام ظاهر ولكن كما انه لا ينبغى ان يعتقد اعتقادا راسخا
بممنونية الانفراد فكذلك لا ينبغى ان نتوقع ممنونية أمة كاملة أو نركن الى ممنونية ملك
ومراعاة الجميل منه وان شئت فقل مع أهله أيضا نعم انه فى بعض الاحيان يمكن الركون
الى عهد ملك ولكن اكرر لكم انه لا يمكن انتظار مراعاة الجميل من أمة ولو كانت أمة
فرانسا مثل بقية الامم ولو كان عندها تنظيمات ومبادئ راسخة ولو كانت مثل أمتى
تحترم احكامها وتنظيماتها ولو كان عندها ملك جالس على سرير الملك على أصول راسخة

ثابتة

ثابتة لكنا نعتقد بممنونية الامبراطور وابنه أما فرانسا فقد مضى ثمانون سنة وحكومتها
قد تغيرت نوعا وجنسا بصورة غير ثابتة فما عاد من الممكن ان يعتمد عليها فبناء آمالنا على
مودة ملك فرانساوى يكون من قبيل بناء فى الهواء فاذا صدقنا ان فرانسا تسامحنا عن
ظفرنا بها مع كونكم أمة سريعة الهياج ومجبولة على الحسد والكبر الى النهاية فذلك
جنون فانها اعلنت بحرب بروسية منذ مائتى سنة ثلاثين مرة وهذه المرة اعلنتم الحرب علينا
حسدا كعادتكم اذا لم يمكنكم ان تسامحونا عن ظفرنا فى واقعة سدوه فهل يمكنكم ان
تسامحونا اليوم فى ظفرنا فى سيدان كلا ثم كلا فان عقدنا معكم الصلح الآن فبعد بضع سنين
تعودون الى حربنا حين يتيسر لكم ذلك وهى المكافات على الجميل التى ترقبناها (أما)
نحن فاخلاقنا مخالفة لاخلاقكم فانا أمة صادقة ساكنة لا تحرص على الفتوحات وانما
تحرص على ان تعيش بالسلم وقد كفى اليوم فيلزم ان تتأدب فرانسا على تجبرها ويلزمنا
ان نطمئن على سلامة اولادنا لذا يلزم ان يكون بيننا وبين فرانسا حدود منيعة فلا بد
لنا من ارض وحصون وحدود لنكون دائما آمنين من هجومها (جواب) الجنرال
الفرنساوى قد غلطت يا أيها الذات الموقر فى حكمك على أمة فرانسا فانك انما تتصور
فرانسا فى سنة ١٨١٠ وتتصور حالها من ابيات بعض الشعرا ومن كلام بعض
الجرنالات وهى اليوم على غير حال فان بهمة الامبراطور صارت افكار أهلها مشغولة
بالتجارة والصنائع والعلوم وكل واحد منهم يسعى فى تكثير مكاسبه وينظر الى منافعه
وكلهم يحبون الاخاء انظر الى انكلترة مثلا فان اليوم تلك الكراهة التى طالما أبعدتنا
عنها أليس ان الانكليز اليوم اعز أحبابنا وكذلك يكون أهل المانيا اذا أظهرتم
المكارم معنا (البرنس) بسمارك قف هنا يا جنرال ان فرانسا لم تتغير فانها هى التى
اكرهتنا على الحرب ولاجل خداع الامة حرصا على نفع آل الامبراطور نابليون
الثالث أعلن بحربنا نعم انا ندرى ان كثيرا من أهل فرانسا وهم العقلاء لم
يريدوا الحرب ولكن تلقوا فكر الامبراطور بالقبول والباقى هم الذين تحمسوا للحرب
حتى أصحاب الجنرالات أيضا فهؤلاء القوم يلزم تأديبهم ولذلك يلزمنا ان نسير الى
باريس ومن ذا الذى يدرى ماذا يقع بعده اذ من المحتمل انه ينشأ عندكم دولة من الذين
لا يعفون عن شئ بل يحدثون أحكاما على حسب هواهم ولا يعترفون بشروط تسليم
جيشكم فربما الزموا الضباط بنقض عهودهم نعم انا نروم الصلح ولكن الصلح الذى
يكون على أساس الثبات والدوام وشروطه صارت معلومة لكم فيلزمنا ان نجعل فرانسا

بصورة بحيث لا يعود يمكنها ان تقاومنا فيما بعد وقد قدر الله ان تكون زهرة عساكركم أسرى عندنا فمن الهوس ان نعيدهم اليكم ليعودوا الى محاربتنا وشأن ذلك دوام القتال ومصلحة بلادى تأباه أيها الجنرال ومهما يكن من المصالح المختصة بذاتك ومهما يكن من أفكارك عن جيشكم فلا يمكننى الاجابة الى مطلوبك أو تغيير شئ من الشروط التى أبلغتك اياها (الجنرال) الفرانساوى فلا يمكننى اذا ان أوقع شروط التسليم على هذا المنوال بل يلزمنا ادامة القتال (جواب) الجنرال كستلان من أعيان الامراء الفرانساوية الى البرنس المشار اليه عندى ان الوقت قد حان لابلاغ ما ذكرتم الى الامبراطور (جواب) البرنس بسمارك انا سامعون لكم (الجنرال) كستلان قد كلفنى جناب الامبراطور ان أبلغ مسامع جناب ملك بروسية انه كان بعث اليه بسيفه بدون شرط وسلم نفسه له بلا شرط وانما فعل هكذا أملا فى ان الملك يشعر بما يوجبه هذا التسليم فيقع لديه موقع الاعتبار فيتساهل مع جيش فرانسا بتسليم أشرف لهم كما تستحقه بسالتهم (البرنس) بسمارك أهذا كلامكم كله (الجنرال) كستلان نعم (البرنس) بسمارك ما هو السيف الذى سلمه الامبراطور هل هو سيف فرانسا أو سيفه الخاص به فاذا كان سيف فرانسا أمكن تعديل الشروط ولكن يكون جوابكم الاخير ذا بال (الجنرال) كستلان السيف الذى سلمه لكم الامبراطور هو سيفه فقط (الجنرال) ملتك فعلى هذا لا يمكن تبديل شئ من الشروط وانما يكون للامبراطور ما يختص به (الجنرال) دوومبين اذا نستأنف الحرب (الجنرال) ملتك المهلة تنقضى فى فجر الغد وفى الساعة الرابعة أشرع فى اطلاق النار عليكم (البرنس) بسمارك نعم أيها الجنرال ان عندكم عساكر شجعانا فلا أشك انهم يظهرون غدا بسالة غريبة ويرزؤن منا ويوقعون بنا الضرر ولكن ما الفائدة من ذلك لانك فى مساء الغد لا تجد نفسك متقدما أكثر مما تقدمت اليوم ويبقى فى أعناقكم دم عساكركم بل عساكرنا أيضا الذين يسفكون دماءهم لغير فائدة فقد أخبركم الجنرال ملتك ان مقاومتكم لنا هوس (الجنرال) ملتك انى أؤكد لك مرة أخرى ان خرق صفوف عساكرنا لا يمكن ولو كان عسكركم على أحسن أهبة لانه فضلا عن كون عسكرنا أكثر عددا من عسكركم فانى مستولى على مواقع تمكننى من احراق سيدان فى بعض ساعات وهذه المواقع متسلطة على جميع الجهات التى يمكنكم المرور منها وهى منيعة فلا يمكنكم حوزها (الجنرال) الفرانساوى ليست مواقعكم قوية كما تذكرون (الجنرال) ملتك أنت لا تدرى المواقع حول سيدان وانى أفيدك فائدة تبلغ من أمتكم المتكبرة وهى انكم عند

افتتاح

افتتاح الحرب بيننا وزعمتم على ضباطكم خرائط كان رسمها وطبعها فى المانيا فلم يمكن لكم حينئذ ان تطلعوا على مواقع بلادكم اذ لم يكن عندكم خرائط لها فأقول لكم الآن ان هذه المواقع فضلا عن كونها منيعة فالاستيلاء عليها ضرب من المحال (الجنرال) الفرانساوى انى اغتنم الفرصة لارسال أحد من ضباطى كما عرضتم على فى مبادى الامر حتى يرى مواقعكم المنيعة وعند رجوعه أجاوبكم (الجنرال) ملتك لا ترسل أحدا فان ذلك عبث اذ ليس لكم وقت طويل حتى تتداركوا ما يلزم فعله فالوقت الآن نصف الليل وبعد أربع ساعات تنقضى المهلة ولا يمكننى أن أمهلكم بعدها ولو دقيقة واحدة (الجنرال) الفرانساوى ولكن يلزم ان تعلموا انه لا يمكننى بت الرأى على شئ وحدى فيلزم ان أشاور سائر رفقائى الضباط ولست أدرى أين أجدهم فى سيدان فى هذه الساعة فلا يمكننى أن أعطيكم جوابا فى الساعة الرابعة فمن الضرورة والحالة هذه اطالة المهلة فعند ذلك أسر البرنس بسمارك الى الجنرال ملتك فى اذنه وأشار اليه بتطويل المهلة الى الساعة التاسعة أعنى قبل الظهر بثلاث ساعات فلما حانت سلم الجنرال الفرانساوى جميع عساكر فرانسا الذين فى سيدان على موجب شروط الجنرال ملتك وبذلك يتبين حالة قوة فرانسا اذ ذاك واستعدادها فلذلك انقلب رأى الامة الفرانساويه وحملوا الذنب على نابليون وخلعوه وأعادوا الدولة الجمهورية ثانيا واندوا المانيا الى ان حاصرت باريس وأخذت مئات آلاف من عساكر فرانسا أسرى منهم مائة وخمسون ألفا أو يزيد بدون سلموا من غير دفاع فى قلعة متس تحت رياسة المارشال بازين ثم عقدوا الصلح على نحو ما طلبت المانيا بأخذها ولاية الالجاس وقسم من ولاية اللورين وغرامة خمسة آلاف مليون فرنك مقسطة على خمس سنين وتتوج ملك بروسيا امبراطورا على المانيا فى قصر فرساى وحضر له ملوك المانيا ودخلت عساكرهم الى باريس على وجه الانتصار بلا حرب ومن ذلك الوقت تغيرت السياسة الاروباوية وصارت المانيا هى معدلة الميزان لكن فرانسا استولى رياسة جمهوريتها الرجل الشهير تيرس ولم تنشها بعد حصول حرب أهلية هائلة من جمعية تعرف بالكومون أى الاشتراكيين الذين يريدون ان تكون الناس كلهم شركاء فى جميع ما يمكن ان ينسب الى انسان وأضروا بباريس أكثر من اضرار المانيا بها وقد أظهرت فرانسا من الغنى ما لم يكن فى الحسبان ودفعت الغرامة تماما قبل ابانها بأزيد من سنتين ولم يؤثر ذلك فى ماليتها أدنى خلل فان المقدر من خسائرها وغراماتها فى ذلك الحرب نحو عشرة آلاف مليون ومع ذلك فانها عند ارادتها

استقراض ثلاثة آلاف مليون لدفع بقية الغرامة فهرعت لها أرباب المال من كل فج حتى من المانيا وأحضروا لها ما ينيف عن الخمسين ألف مليون وأقبلت على اصلاح داخليتها وعساكرها بما أرجعها الاعتبار وأوجس غالبها منه خيفة وقد أحدث الفرانساويون فى حديقة الشانزى لزى محلا حيطانه مرايا مكبرة بحيث يحسبه الداخل بلا حيطان ويرى منه صورة حالة باريس من الحرق والهدم وقت الحرب تذكارا منهم لاحياء أخذ الثار وقد رأيت ذلك المكان وله منظر هائل واستقرت الحكومة الى الآن جمهورية

مطلب

(فى السياسة الداخلية فى فرانسا)

قد تقررت الحكومة الجمهورية على القانون الآتى ترجمته (البند الاول) ان مجلس الاعيان ومجلس النواب يجتمعان كل عام يوم الاربعاء (الثانى) من كانون الاول يناير الا أن يكون جمعهما قبلا لرئيس الجمهورية فالمجلسان ينبغى أن يعقد جلساتهما أقله فى مدة خمسة أشهر كل سنة وجلستا كليهما تجتمعان وتنتهيان معا وتقام الادعية الجمهورية لله سبحانه فى الكنائس والمعابد لالتماس المعونة منه تعالى فى اعمال المجالس (البند الثانى) ان رئيس الجمهورية يختتم الجلسة وله حق أن يستدعى المجالس للاجتماع فوق العادة وينبغى أن يستدعيها اذا ما صار الطلب فى اثناء الجلسة من أكثرية الاعضاء المؤلفة لكل مجلس على ان رئيس الجمهورية له أن يؤجل اجتماع المجالس انما لا يمكن أن يطول هذا التأجيل أكثر من شهر ولا يحدث أكثر من دفعتين فى جلسة واحدة بعينها (البند الثالث) وقبل ما ينتهى الاجل القانونى لسلطة رئيس الجمهورية أقله بشهر واحد يجب ان تجتمع الاعضاء فى مجلس الامة ليباشر وانتخاب الرئيس الجديد واذا لم يصر استدعاء المجالس للاجتماع فعلى المجالس ان تجتمع من تلقاء ذاتها قبل نهاية سلطة الرئيس بخمسة عشر يوما واذا ما توفى رئيس الجمهورية أو تنازل عن وظيفته يجتمع المجلسان حالا بسلطانهما الخاص واذا ما وقف مجلس النواب حين ما يفرغ مسند الرئاسة الجمهورية تبعا للبند الخامس من قانون ٢٥ شباط فبراير سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٥ م تستدعى المجامع الانتخابية حالا ويجتمع مجلس الاعيان الخاص بمطلق سلطانها (البند الرابع) ان كلا من

مجلس

مجلس النواب والاعيان اذا اجتمع فى غير الوقت المعين للجلسة العمومية يكون باطلا ولغوا ما عدا الحادث المنبه عليه فى البند السابق وما عدا ما اذا اجتمعت الاعيان للقضاء فى الدعاوى والعدلية وفى هذا الحادث لا يحق لها الا مباشرة الوظائف القضائية (البند الخامس) ان جلسات الاعيان ومجلس النواب تكون مشتهرة على ان كل مجلس له أن يقيم جمعية سرية فى طلب عدد معلوم من أعضائه معين بالقوانين ثم تقضى بموجب رأى الاكثرية المطلقة اذا ما اقتضى اعادة الجلسة جهارا على نفس المشروع (البند السادس) ان رئيس الجمهورية يتخابر مع المجالس بواسطة رسائل يقرؤها أحد الوزراء ويحق للوزراء الدخول فى المجلسين والتكلم فيما اذا ما طلبوا الاصغاء لاقوالهم ولهم ان يستعينوا بمعتمدين معلومين للبحث فى انشاء قانون معين بحكم رئيس الجمهورية (البند السابع) ان رئيس الجمهورية يبث السنة فى الشهر الذى يلى تسليم السنة المقررة نهائيا للحكومة وعليه أن يبث فى ثلاثة أيام السنن التى حكم كلا المجلسين بوجوب السرعة فى بثها على ان رئيس الجمهورية له فى المهلة المعينة لاذاعة السنن أن يطلب بواسطة رسالة محققة ولا يرفض طلبه اعادة المخابرة فى تقرير القانون والسنة (البند الثامن) لرئيس الجمهورية أن يخابر فى المعاهدات ويقررها ويبلغها المجالس حالما تسمح له بذلك صوالح الدولة وأمنيتها اما المعاهدات المتعلقة بالصلح والتجارة والمعاهدات المرتبطة بمالية الدولة والمنوطة بحالة الاشخاص وبحق الملكية لتبعة الدولة الفرانساوية فى الخارج فلا يحرم جزما نهائيا الا بتقرر المجلسين ولا يعطى ولا يبدل شئ من الاراضى الفرانساوية ولا يضاف اليها شئ الا بتقرير قانونى من المجالس (البند التاسع) ولا يحق لرئيس الجمهورية أن يشهر الحرب بدون رضى المجلسين (البند العاشر) ان كلا من المجلسين قاض فى انتخابه أعضائه وفى أحكام قانونية انتخابه وله وحده أن يقبل اعتفاء من يعتفى من وظيفته (البند الحادى عشر) ان رؤساء كل من المجلسين ينتخبون كل عام لمدة الجلسة بتمامها ولكل جلسة فوق العادة تصير قبل الجلسة المألوفة فى السنة التالية ومتى اجتمع كلا المجلسين بجلسة مجلس الامة تتألف رؤساؤه من الرئيس ونائب الرئيس وكتمة أسرار الاعيان (البند الثانى عشر) لا تقبل شكوى على رئيس الجمهورية الا من مجلس النواب ولا يحكم عليه الا الاعيان وتقبل الشكوى على الوزراء من مجلس النواب بجناية ارتكبوها فى مباشرة وظيفتهم فحينئذ تقام محاكمتهم فى الاعيان ولرئيس الجمهورية ان يقيم على الاعيان مجلس محاكمة بحكم يصدره فى مجلس الوزراء لمحاكمة كل من تقدم عليه شكوى بذنب

يخل بأمنية الدولة واذا ماشرع بالاستعلام فى محكمة العدلية المألوفة فيمكن أن يصدر الحكم باستدعاء الاعيان للاجتماع الى حين استئناف الدعوى اليها ويقام قانونا يعين كيفية سماع الدعوى والاستنطاق والحكم (البند الثالث عشر) لا تقام دعوى على أحد الاعضاء من كلا المجلسين ولا يطالب بشكوى فى شأن رأيه واقتراعه حال كونه فى مباشرة وظيفته (البند الرابع عشر) ولا تقام دعوى على عضو من كلا المجلسين بمادة جنائية أو تأديبية ولا يلقى القبض عليه فى مدة الجلسة الا باذن المجلس الذى هو عضو منه مالم يؤخذ فى حال فعله ويتوقف ضبط أحد الاعضاء من كلا المجلسين ومحاكمته فى الجلسة وفى كامل مدتها اطلب المجلس اه فهذا القانون يبين لك أصول الادارة ورئيس الجمهورية الآن قد عينت له مدة الرياسة خمس سنين وهو الآن البرت اقريفى وأما بقية تفصيل الادارة فهى على نحو ما تقدم فى الكلام على سياسة ايطاليا من انفراد الادارة العامة عن الاحكام الشخصية وتصرف رئيس الدولة بواسطة الوزراء وكون الوزراء مسؤولين لمجلس النواب ومجلس الاعيان بحيث ان الحكومة شورية حقيقة لا يصدر عنها الا ما يوافق عليه غالب الامة بواسطة وكلائهم يجرى ذلك فى جميع الاشياء وعظيمها والوزراء ينتخبون ممن تثق بهم اغلبية المجالس لكى يأمن المجلس بتصرفاتهم لان للمباشرة فى الاجراء دخل عظيم فى نجاح الافكار ولان بعض الامور تفوت بفوات وقتها فهب ان الوزير مسؤل ويجرى عليه العقاب باخلاله لكن منفعة الامة عموما تفوت بفوات الفرصة ولذلك كان انتخاب الوزراء ممن تعتمد المجالس عليهم زيادة على شروط الاهلية الذاتية وهكذا بقية الادارات على نحو ما مر فى ايطاليا غير ان فرانسا لما كانت لها مستعمرات كثيرة فهى تعدهم مثل ولايات فرانسا واوطانها فى كيفية الادارة وكون مصدرها هم الوزراء المعهودون من غير تخصيص بوزير للمستعمرات كما تفعل الدول التى لها مثل ذلك فهى من هاته الجهة تعد مستعمراتها اجزاء منها لكنها تحرمهم مما تحوزه اهل فرانسا من الحقوق والمنح كالحرية وحق ادخال اعضاء فى مجلس النواب وأعضاء فى مجلس الاعيان الى غير ذلك من الامتيازات المحصل عليها اهل فرانسا فلذلك كانت مستعمراتها أسوء حالا من غيرها لفقدانهم حريتهم الاصلية وعوائدهم واستقلالهم مع حرمانهم مما للفرنساويين عليهم من الخصائص (وأما) ادارة الاحكام فهى أيضا على نوع ما تقدم فى ايطاليا ومن أهم ما يذكر فيها وجود حكام الجورى وهم أعداد من مطلق الناس تنتخبهم العامة لمدة من الزمان لاجل مشاركة

مجلس

مجلس الجنايات الشخصية فى النظر بمعنى أنهم يحضرون المجلس المركب من رئيس وعضوين ويعمل المجلس جميع المقدمات بحضرهم ثم يسألهم رئيس المجلس عما يرون فى النازلة هل صاحبها مجرم أم لا ومن أى نوع جريمته فيتفاوضون وما يستقر عليه رأيهم يعملون به المجلس ثم المجلس يطلق المدعى عليه حالا ان رأى الجورى براءته أو يعين العقوبة من القانون ان رأى ذنبه والسبب فى ايجاد الجورى هو زيادة الاحتراس فى الحكام عن ميلهم الى محاباة الامراء والوزراء لان وظيفة الحكام وان كانت عمرية وهم منتخبون بشروط العفة والاهلية وورائهم احتساب مجلس الاعيان ومجلس الامة ومن ثبت ارتشاؤه يعاقب أشد العقاب ولا تهمل العقوبة بعفو أو شفاعة لكن ربما أغرتهم مع ذلك الدواعى بالترقى الى الرتب العالية التى هى بيد الامراء والوزراء ويتعذر الاحتساب بما يرتب من الحيل فدفع هذا بمشاركة الجورى الذين هم ليسوا بموظفين ولا خوف ولا طمع لهم لكن فى ذلك مفسدة أيضا اذ هؤلاء الجورى كثيرا ما يكونون غير فقهاء ولا دراية لهم بالاحكام ولا بمواقعها ولا بالتحرى فيها فيخبطون خبط عشواء ويضيع الحق بسببهم اذ لا تعقب لما يرونه وبه يعلم مدرك الشرع الاسلامى فى أناطة الحكم بالعلماء أهل العدالة وما أدرك ما العدالة ومشاورة الحاكم للعلماء وكون حكمه جهريا ثم وراءه احتساب أهل الحل والعقد الداخل فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن المفاسد الموجودة أيضا عندهم فى انتخاب أعضاء مجلس النواب أو غيرهم ممن تنتخبه الاهالى ان افرادا ممن يعدون أنفسهم للانتخاب يعقدون مواكب ويدعون اليها الاهالى فى أماكن فسيحة ويلقون عليهم خطبا يبينون فيها أفكارهم ومقاصدهم فى سياسة المملكة وجدارتهم القيام بالمناضلة عنها ويعدون السامعين لان يكونوا من حزبهم حتى يقع انتخابهم على الخطيب ومع ذلك يعطون الرشا لمن له صوت فى الانتخاب لكى يحصلوا بذلك أكثرية المنتخبين فكثيرا ما ينجح سعيهم ويحصلون على الوظيفة بذلك الطريق بعد أن تقع غوغاء وتشاتم وسباب بين أحزاب المنتخبين فيدخل بسبب ذلك فى الوظيفة من لا ترتضيه الاهالى حقيقة أو من ليس جديرا بها لكثرة أغراضه وغير ذلك وهذه المفسدة ولان كانوا جعلوا لها علاجا وهو انه بعد التئام المجلس المنتخب ينظر فى المنتخبين هل هم مستكملو الشروط أم لا ومن كان غير مستكمل يفصل عن المجلس ويعاد انتخاب غيره لكن ذلك لا يفيد فى أغلب الاحوال لان الذى انتخب بحيلته ورشائه قد يكون مستكمل الشروط الرسمية فلا يجد المجلس

سبيلا للقدح فيه لكنه غير مستكمل الشرط الاساسي وهو ارتضاء الامة حقيقة بسلكه السياسي فلذلك كان ينبغي أن يعتبر ان طالب الولاية والامانة يحرم منها فشرعنا الشريف ولله الحمد مزيح عنا مثل تلك المفسدة وطالب الولاية وان كان عدلا متوفرة فيه شروط وظيفته فانه يحرم منها لحرصه عليها هذا وقد تضمن كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك تفصيل ادارة هاته المملكة بما يعز وجوده في غيره وينبئ عن باع صاحب التأليف وبصارته في السياسة فمن أراد تحقق الامور وتفصيلها فليرجع اليه

مطلب

﴿في السياسة الخارجية في فرانسا﴾

(اعلم) ان فرانسا لما كانت من أعظم الدول الاوروبارية وفي طبيعة أهلها حب الفخر والوجاهة أكثر من غيرهم كانت تحب التداخل في أمر غيرها أشد من سواها من يقاربها وذلك في بما ذكرناه في أحوال نابليون الاول والثالث وأسباب حرب سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م شاهد على ما ذكر ولذلك كانت فرانسا لها مال الايطاليا مما ذكرناه في سياستها الخارجية وتريد بتغلب النفوذ في جميع الجهات اذ جعلت فيها مستعمرات كثيرة في كل مملكة جاورتها ولو في مستعمراتها تطلب النفوذ لديها ولو بالاعتبار فيما اذا كان الجار ذا شوكة وشأن (أما) اذا كان ضعيفا في القوة والادارة فانها تلتقمه مهما سنحت لها الفرصة شأن طبيعة الدول القوية ودونك ماوقع في تونس هاته السنة وهي سنة ١٢٩١ هـ مما يوضح هذا المقصد وهو الذيل الذي نبهنا عليه في الباب الثاني عند الكلام على سياسة تونس الداخلية والخارجية

ذيل

﴿في تسلط فرانسا على تونس﴾

قد مر في المطلب الثامن من أحوال الادارة الداخلية في تونس حالة وزارة وزيرها مصطفى ابن اسماعيل وتصرفاته وماوقع في نازلة صانسي الفرانساوي التي كانت سببا في خوف هذا الوزير من القنصل ورام أن تبدله دولته وتقدم أيضا ماهي مقاصد فرانسا في تونس وانها تروم نيل الدرجة العليا فيها ولما رأت سيرة الوزير المذكور لم تأمن وقوع ارتيابا كانت مغايرة لما كانت راضية بالبقاء عليه وخشيت ضياع الفرصة من

سهولة

سهولة التوصل على يد ذلك الوزير الى مالم يمكن التوصل به على يد غيره من ذوي العرض والعقل فلذلك بينما كانت مساعي الوزير جارية في ابدال القنصل واذا بالسعاية اليه قد غيرت مشربه حتى طمع في ولاية العهد بان يتولى هو الامارة بعد سيده الوالي الحالي الصادق باشا اذا أتم ادخال تونس طوعا تحت فرانسا فراكن حينئذ قنسلها واحكم معه المودة وصارت بطانة الوزير تأتي اليه معلمة بجميع اسرار الحكومة وسائر تصرفاتها واضمر ابن اسمعيل الشر لمن كان أوعز اليه بان يتشكى من القنصل الى دولته ثم تفطن بذلك التواطؤ السري ونصحه بانه لاينتج له شيأ وعلى فرض الوفاء له بالوعد فانه لايلبث ان ينا له ما نال الوزير العلقمي في انقراض دولة بني العباس من بغداد واتفق ذلك الوزير مع القنصل على شروط ادخال تونس تحت فرانسا غير ان الوالي لم يساعف على لائحة تلك الشروط التي قدمت اليه سرا بواسطة الوزير وخشي من الدول ومن الاهالي في البغي منه على الدولة العثمانية وفي تغيير حالة السياسة وجعل الوالي يسوف العقد من وقت الى آخر وجعل الوزير يسعى في احداث وجه لتداخل فرانسا وانفاذ أمرها فاكثر من الرسل السرية الى الاستانة متطلبا ان يدعى هو اليها رسميا أو يرسل بعض الاسطول العثماني الى مرسى تونس مع اظهار زيادة التشيع الى الدولة العثمانية حتى لايتفطن الى مساعيه الباطنية فلم يساعف من السلطان الى مطلبه اذ لم يكن له من داع كما انه لم تقد في الدولة العثمانية الايقاظات الى دسائسه وعزمه حتى تسعى في سعة لدفع الغوائل المتوقعة اذ من المعلوم ان الدغل السياسي هو كالمرض المزمن الذي لاينجع فيه العلاج الاتدريجا عند أول حدوثه سيما اذا كانت الدولة المعالجة محتاجة الى استمالة غيرها من الدول القوية الى معاضدتها على قرنها القوي ومع ذلك أيضا قد عكر الوزير ابن اسمعيل حالة الخلطة مع ايطاليا لعلها تعلن على تونس الحرب ومنح للفرانساويين منحا لم يطلبوها مما يزيد في نفوذهم والشحناء معهم كما تقدم ذكره في المطلب الثامن من أحوال تونس ولما لم تنجح جميع تلك المساعي التي كان يمكن لفرانسا الاستناد عليها في وضع حمايتها على تونس أحدثوا اقاويل في اهمال حقوق الفرانساويين بتونس وأظهر الوزير المذكور الاستخفاف بقنصل فرانسا ومال عنه كل الميل ظاهرا ورام ان يظهر التعطيل في اجراء المنح التي أنالها الى الفرانسيس باوجه من الاعتذارات حتى اغريت رعايا فرانسا بتونس على ان تكتب تقريرا بالتشكي من ضياع حقوقهم وطلب دولتهم للانتصاف لهم فلم يرع الامم الان فرانسا جلبت بخيلها ورجلها على حدود تونس معلنة

بان قصدها الغاه وحفظ حقوقها من جهة الحدود وغيرها واستندت فى عملها لما تضمنته
لائحة وزير خارجيتها الى سفرائه وهذا نص تعريبها باريس ٩ مايس سنة ١٨٨١ أيها
السيد اتشرف بأن نرسل لكم جملة رسائل فى شأن تونس ونريد ان نحقق لكم المقصود
اجمالا ونخبركم عن سبب ارسال العساكر الآن وعن النتيجة التى نرجو اتمامها فكم
من مرة قد عرفت الدولة الجمهورية بدواعيها ومقاصدها وأنتم تتذكرون ذلك خصوصا
ما صرح به السيد رئيس الوزراء فى المجلس العام وهو لا يمكن ان يكون فيه ادنى شك من
جده وصدقه ومع هذا فانى اريد زيادة ايضاح لكم لينفعكم لدى الدولة التى انتم عندها
فنقول ان سياسة فرانسا فى تونس ليس لها الا مقصد واحد وهذا المقصد الذى يكفى
لوضوح موضوع سيرتنا منذ خمسين سنة نحو المملكة هو الواجب علينا الحفظ راحة
مستعمراتنا العظمى الجزائرية فمن سنة ١٨٣٠ لم تأت دولة من الدول المتتابعة
وتركت هذه المهمة العظيمة وانما نعمل الواجب علينا لحفظ مستعمراتنا الافريقية
التى لا يوجد أحد من أروبا انكر علينا ذلك فيما لحفظها من جار عدو كثير الاراجيف
وقد كانت القبائل التونسية مخوفين ومحاربين حتى فيما بينهم وقد فاق على الجميع
قبائل وشتاتة والفراشيش وخمير ولا تعرف كمية المحاربين ولا كمية قوتهم فلذلك
التزمنا الآن ان نرسل من العساكر عشرين ألفا وهذا مما يدل على قوتهم أى الاعداء
المتحصنين فى بلاد منيعة تقريبا وكان الداعى الاول لارسال العساكر هو قهر قبائل
حدودنا الشرقية ولكن لا فائدة فى تقرير الامن والراحة واعداؤنا الازالوا يهددوننا
ونحن لا نخاف من الهجوم الكبير المنسوب لباى تونس اذا كان منه وحده لكن
النظر القليل فى العواقب الزمنا التحرى من اتحاد الباى مع غيره وهذه التشويشات
يمكن ان يأتى لها وقت وتقلقنا كثيرا فى الجزائر وتصل حتى الى فرانسا فيلزمنا بناء على
ما ذكر ان يكون لنا عند الباى محبة كبيرة واتفاق قلبى ويلزمنا جاريعوضنا المحبة
التى لنا عليه ولا يسمع التشويشات الخارجية لضررنا واستحقار قوتنا الراجحة وقد
وضحنا من نحو أربعين سنة بانه يلزمنا لمحافظة فرانسا الجزائرية ان تحصل فى المملكة
على قاعدة راسخة ونحن نحترم بالتدقيق منافع الاجانب وهم يقدرون ان يتوسعوا بثبات
مع فوائدنا والدول يتحققون ان مقاصدنا من جهتهم لا تتغير والى هاته المدة الاخيرة
اتحادنا مع دولة الباى المفخم مستمر الا ما يحدث احيانا من الاختلاف فى دفع تعويضات
لقبائلنا المضرورين ثم فى الحين يرجع الاتحاد ويزداد ثبوتا بعد هاته الاختلافات
الصغيرة

الصغيرة الاهاته المدة الاخيرة فانه باسباب يصعب الاطلاع عليها قد تغير ميل الدولة
التونسية الينا دفعة واحدة وكانت اذ ذاك الحرب ساكنة ثم لا زالت تزداد الى ان
وضحت وتقوت ومبناها ضد كل الامتيازات التى حصلت للفرانساويين فى تونس مع
شدة الارادة الرديئة الى ان وصلت لهذا الحال وهذا هو السبب الثانى لارسال العساكر
الذى كنا نود التجنب منه ولكن بسبب السيرة الرديئة التى طالما صبرنا عليها التزمنا
بما هو واقع ولو اننا ما ضايقنا الباى فى المطالب الحقانية لاننا نعرف بتونس كمملكة
مستقلة وأما الحالة فى الخلطة الآن مع الباب العالى فهى مخالطة محبة وميل طبيعى
وبودنا ان لو كنا رأينا نازلة تونس فى منظر آخر غير التى هى عليه الآن ولكن قد بان
ما يجب علينا مما ذكرناه سابقا واننا نقدر ان نستفهم من الباب اذا كان باى تونس هو وال
من قبلهم فلماذا لم يمنعوا سيرته التى فعلها نحو فرانسا منذ عامين ولماذا لم يفتشوا لمنع
التحير الموجود الآن الذى نحن منذ زمن طويل كنا نسعى فى عدم ايقاعه ويلزم لهذا
التحير الذى نحن مجتهدون فى حصره ان ينتهى بشروط تؤمن حدودنا من الهرج
المستمر والتشويش المغرى لما يردوا من غيره أو من نفسه فهذان هما المقصدان
لارسال العساكر ولا نخف عندما نقول ان لنا فى أروبا الرضاء العام فى جميع الجهات عدا
الجهات التى بها النظر الفارغ المطمس للعقول وهذه هى أيها السيد التى خيمت حول
الباب وحول تونس ومن كلا الطرفين فنحن مشمولون بالمحبة وجميع ما نرجو من الباى
هو ان لا يكون عدوا لنا ولو ان المملكة تنظر لفوائدها فتقدر ان تحصل من اتحادها معنا
فوائد لا تحصى أكثر مما نحصله نحن منها ونقدر ان نأتى لها بكل خير من العمران
الحاصل عندنا ففى سنة ١٨٤٧ فعلنا فيها البريد وفى ١٨٥٩ وسنة ١٨٦١
فعلنا التلغراف وفى سنة ١٨٧٧ وسنة ١٨٧٨ فعلنا الشمندفير الذى طوله ٥٠
فرسخا من حدود الجزائر الى تونس وفى هذا الزمان نفعل لها شمندفرين جديدين
أحدهما يربط تونس بابن زرت من جهة الشمال وطوله ٢٠ فرسخا والآخر يربط
تونس بسوسة من جهة الجنوب وسنبتدئ عن قريب فى ابتداء عمل مرسى فى تونس
نفسها لتدخل المراكب من الشط ومن حلق الوادى حتى الى ذات القاعدة ودين تونس
وان كان رأس ماله مشتركا بين فرانساوى وانكليزى وطليانى لكنه اذا اعتبرت النسبة
فيوجد ثلاثة اخماسه لفرانسا وان الحنايا الجميلة لادريان التى تأتى بالمياه العذبة
لتونس قد أصلحها أحد المهندسين الفرانساويين ولما ترجع الخلطة الطيبة فانا لا نزال

نفعل اشياء حسنة ومنارات على الشطوط وطرقا داخلية توصل بين البلدان العامرة الناجحة ونسقى الارض بالترع الكبيرة فى البلاد التى بها أنهر كثيرة ولكن هاته البلاد أهلها ليسوا معتنين بتلك الانهر وكذلك الغابات وكذلك نعمل استخراج المقاطع الموجود بها كل نوع من المعادن وكذلك ترتيب الفلاحة فى الاراضى الحسنة التى للاجانب فى المملكة والتى للأهالى أيضا وكذلك استعمال المياه المعدنية التى اكتشفها الرومانيون واستعملوها وبالجملة ان مملكة تونس خصبة وغناقرطاجنة القديمة يدل على ذلك وتحت الحماية الفرانساوية يمكن ان تزال جميع الحجب عن المنافع الطبيعية فى هاته البلاد وتنتشر بقوة وبشدة الترتيب الجديد نقدران نزيد أشياء أخر وهى انه اذا كان الباى يعتمد علينا فى الترتيب الداخلى فى المملكة فانا نفعل تعديلا لازما قارا وهذا الخبر الذى يسهل علينا عمله منه ترتيب كيفية قبض المدخول وترتيب المخروج وترتيب دفاتر الحساب على مقتضى ما نستعمله نحن فى ماليتنا ومنه أيضا خبر عظيم وهو ترتيب العدلية على الاصول التى فعلتها الدول فى ترتيب العدلية فى مصر وفائدة هاته التراتيب لا ترجع لفرانسا وحدها بل ان المملكة يرجع لها النفع وكذلك لجميع الدول المتمدنة التى نحن منها ومن غير فتح ولا حرب فلا شئ يمنعنا من عملنا فى تونس مثل الذى فعلناه فى جزائرنا والذى فعلته انكلاتيرة فى الهند اذا نحن جعلنا باى تونس متكفلا بمطالبنا الحقانية فهو دليل على ما نحسبه دائما من ان تونس مملكة مستقلة من غير ان نراعى بعض آثار للتبعية بالاسم فقط لبعض اسياد قد تركوها منذ مدة قرون وقد تظهر تلك التبعية نادرا ولو نحسب المدة التى هى فيها مستقلة لكانت أكثر من مدة التبعية ففى سنة ١٥٣٤ أخذها المشهور بباربوروس خير الدين أربع أو خمس مرات بانتصاره على الاسبانيول وفى العام الذى بعده أخذها شارل كين وكذلك فى سنة ١٥٥٣ ثم أخذها داى الجزائر سنة ١٥٧٠ ثم أخذها دون جوان النمساوى سنة ١٥٧٣ ثم فى طول القرن السابع عشر كانت تحت ظل الانكشارية من غير حكم ورأساؤهم الموسومون بالدايات كانوا اذ ذاك أربعين فقسموها تقريبا كالماليك الذين قسموا مصر ثم فى سنة ١٧٠٥ كان أحدهم المسمى بحسين بن على الذى اصله كريكى أو كرسكى صار مسلما وكان هو أحذقهم فعرف كيف يشدهم وقتل جميعهم واشتهر بالباى وبعصبيات العساكر أقام العائلة الحسينية ومن ذلك الوقت لم تزل الامارة فيهم على هيئة السيادة الاسلامية والآن ٢٠٠ سنة تقريبا وهم مستقلون والرابطة الحقيقية بينهم

وبين

وبين الباب العالى هى رابطة دينية وهم يعترفون بالخليفة الا انهم ليسوا تحت السلطان ومما يوضح هذا انهم لا يدفعون له اداء الا انه عند ولاية كل باى يرسل هدية غنية تعظيما لرئيس الديانة القاطن بالقسطنطينية وفى باقى مدة الولاية فلا مسئلة سياسية يمكن ان تذكر غير هاته التحية الودادية فليس لامير المؤمنين حق آخر على باى تونس والمملكة تعقد شروطا كدولة مستقلة مع الدول الاجانب وتعقد معهم اتفاقات ويكون لها قوة وذلك برضاء الباى فقط وعلى هذا النمط وقعت معاهدة مع فرانسا فى سنة ١٧٤٢ وكذلك فى العام الثالث والعام العاشر وفى سنة ١٨٢٤ وهكذا صارت المعاهدة المهمة فى ٨ اغشتوس سنة ١٨٣٠ التى تمنع ملك العبيد والتلصص فى البحر ولا يلزم التكلم على المعاهدات الباقية كالتى فى حق صيد المرجان وان الباب لا يحكم على الولاية الا حكما وقتياوهو راض باستقلالها ومما يؤيد هذا انه فى القرن الثامن عشر لم يقبل تشكى دول اروبا من التلصص البحرى والسعى البربرى وليس له حكم عليهم وهو ليس مولاهم وهو لم يضمن السرقات التى فعلوها مخلة بتجارة البحر المتوسط وان دول أروبا عملوا الحرب عشرين مرة مع المملكة من غير عقد الحرب مع تركيا وفى سنة ١٨١٩ كانت معاهدة اكس لاشبيل قد حكمت على تونس بمنع التلصص البحرى من غير ان تطلب من الباب التداخل على انه متسيد على تونس وفى سنة ١٨٣٣ فمملكتا مردينيا ونابلى عملا الحرب مع تونس من غير عمله مع الباب لانهم يرون مثل ما نرى ان تونس مستقلة ثم ان علاقة تونس مع فرانسا من وقت أخذها ته الجزائر على النحو السابق من غير واسطة تركيا ولما قدم الينا أحمد باى فى سنة ١٨٤٣ اقتبل بكل ما يلزم من التعظيم للملوك والباب العالى لم يتوجع اذ ذاك من عملنا التعظيم الملوكى المذكور وكذلك جميع اروبا لم تتكلم على ذلك لان رأيها موافق لرأى اللورد آبردين الذى يقول فى تسجيله ضد أخذنا الجزائر المكتتب بتاريخ ٢٣ مارث سنة ١٨٣١ ان الدول الاروباوية من مدة طويلة يفعلون المعاهدات مع الدول البربرية مثل الدول المستقلين وخصوصا تونس فانها لا تحسب نفسها الا حرة والدليل الواضح الحق الذى لا ينكره أحد هو عمل القوانين فى تونس المسماة بو يورلدى وحلف عليها الباى الموجود بتونس محمد الصادق لما جلس على الكرسى فى ٢٣ أيلول سنة ١٨٥٩ مثل ما حلف اسلافه فان قانونا واحدا منها وهو المسمى بالقانون النظامى لمملكة تونس قد احتوى على مائة وأربعة عشر مادة وانتشر بالعربى والفرانساوى فى تونس وفى بونة ولم يصرح فيه ولا بكلمة واحدة

تقول السلطان وممالا يقدران يشك أحد معه فى استقلال الباى ماشرفى الصحيفة
الرابعة من المقدمة فى ذلك القانون ونصه ان الموظفين الكبار التونسيين اختاروه
بكلمة واحدة ليكون رئيس الدولة على مقتضى قانون الوراثة المعروف فى المملكة وفى
ذلك القانون فصول تامة شرحت الحقوق والواجبات للملك وحالة الامراء من العائلة
الحسينية وحقوق وواجبات الرعايا وكيفية خدمة الوزراء وترتيب خدمتهم
والمجلس الكبير بالمملكة والمداخيل والحساب ولاشك ان من يطلع عليها
يقدران يجد ذلك البيان غريبا اذا اراد ان يقيس على رأينا الاوروباوى ومع هذا
فهو دليل واضح على استقلال مملكة تونس وانها ليست تحت دولة اجنبية وجميع
المعاهدات التى بين الدول الاوروباوية ومملكة تونس منذ مدة الثلاثة قرون الاخيرة
لم تقل ابدا الا مملكة تونس وملك تونس ومنها خمسة عشر أو عشرون معاهدة امضيت
بفرانسا فيها ذلك القول وفى سنة ١٨٦٨ المعاهدة التى وقعت مع ايطاليا مذكور
فيها مملكة تونس وتونس أيضا لم تسم نفسها فى قانونها النظامى الا الاسم الذى
أطلقته عليها جميع الدنيا وهى ارادت ان توضح المزية التى لها بالاستقلال والقدرة
الموافقة له فبناء على ما سبق من الادلة القطعية والمتعددة فالباب العالى لا يقدران
يتعجب من انكار فرانسا سيادته على تونس مهما طلب هو ذلك حتى الى الآن ونحن
نقر بان الباب شدد فى طلبه منذ خمسين سنة وفى سنة ١٨٣٥ ادخل تحت سيادته
طرابلس بعد ما ضبط التحيير الهائل هناك وأراد ان يعمم سيادته على تونس الا ان قوة
فرانسا المضادة له منعته من مقصده وبعد عشر سنين أى فى سنة ١٨٤٥ اتاما يجى
السلطان الى تونس ومعه فرمان ليقلد الباى منصب الولاية الا انه لم يقبل منه ثم مضت
عشرون سنة من غير تجربة جديدة ولكن فى أواخر سنة ١٨٦٤ رجعت التخمينات
القديمة وانما هاته المرة كانت المملكة بنفسها هى التى طلبت التقليد ولكن هذا
كان من الغريب اذ وقع من الامير الذى هو حتى لذلك الوقت بعينه وهو يظهر المدافعة
عن استقلاله وهذا انما كان من الاشارات القوية التى خوفت الباى من حالته امام
الباب فارسل لذلك أمير الامراء خير الدين الى القسطنطينية ليعرض ويأتى بالفرمان
وهاته المرة أيضا فرانسا عارضت فى ذلك وعوضا عن الفرمان السلطانى فالباى
ومستشاريته التزموا بالرضاء بمكتوب وزيرى متضمن لما فى الفرمان ثم اغتنموا الفرصة
وقت مصيبتنا فى سنة ١٨٧١ وتمموا ما كانوا ممنوعين منه سواء كان فى مدة الوى فليب

الذى

الذى كان غالبا اسطوله يمنع الاسطول التركى من القدوم الى تونس أو فى مدة
الامبراطور الذى لم يقل من العزم المشار اليه وفرمان ١٥ تشرين أول سنة
١٨٧١ الذى اتخذوه تحت ظل مصيبتنا اشتهر فى ١٧ تشرين ثانى فى باردو
واعان به خير الدين باسم السلطان وقبله الباى الذى كان طلبه له مع شئ من الغضب
وفرانسا على كل حال سجلت بقوة وحسبت الفرمان باطلا أو كانه لم يقع ومن مدة عشر
سنين لم تبطل شيأ من عملها عندما يقتضى الحال ومع نجاح الباب هو بنفسه له شك فى
اجراء حق فرمانه بتاريخ سنة ١٨٧١ الذى ضرب استقلال مملكة تونس المتقادم
وهذا الفرمان انتشر قليلا الا انه عند الغالب لا يعرف ما عدا بعض الدول الذين لهم فوائد
نوا وفى ترتيب الفرمان المذكور ان تونس تكون جزء تحت الباب مع ان حكم باى تونس
باق كما كان يعرف من منذ مائتى سنة غير ان باى تونس صار واليا أى واليا عاما على ايالة
تونس وعلى موجب ذلك فالوراثة فى الحقيقة لم تكن مستقرة فى العائلة الحسينية خلافا
لما ذكره الفرمان بل الوالى يعزل بارادة السلطان ومن الممكن أن يعرف الباى ضرره
وضرر مملكه وحريته وحياته التى هى غلطة كبيرة حسبما أشار واعليه بها ومحمد الصادق
ليس له خوف من جهة فرانسا ولو مع ما عمل من الشر معها ومع هذا فهى ليست بضده
لا لذريته ولا لذاته ولا لدولته وأما من جهة الباب فهو بالعكس وله الخوف الكبير منه
لانه يمكن أن يبدله بحسب الحال انتهت لائحة وزير فرانسا واذا تأملها المتبصر وتدبر
معانيها يجدها مخالفة للواقع فى كثير من الامور سيما بعض الاحوال التاريخية كما
يتبين من مقابلة كلامه بما ذكرناه فى تاريخ تونس وسياستها وصلتها مع الدولة مع
المكاتيب الرسمية التى نقلناها حرفيا حتى من موظفى فرانسا ويؤكد ذلك ما تراه فى لوائح
الباب العالى الآتى بيانها فان الحالة لما بلغت الى درجة هجوم العساكر على الحدود
تظاهر والى تونس بان أرسل اذ ذاك الى الباب العالى مكاتيب فى التشكى من فعل فرانسا
وأرسل الى نواب الدول تسجيلا على ذلك أيضا ولما تحقق الباب العالى الاحوال الرسمية
أرسل عدة لوائح الى سفرائه مستنجدا بالدول لمحافظتهم على معاهدة باريس التى أشرنا
اليها سابقا وعلى معاهدة برلين ومما يفصح عن مقاصد الباب وحقوق اللائحة التى
أرسلها وزير الخارجية بالدولة العثمانية الى سفراء الدولة ونص تعريبها القسطنطينية
١٠ مايس سنة ١٨٨١ ان اعلاماتى المختلفة عرفت فطانتكم الوقائع التى صارت فى
المسئلة التونسية وقد نسبت بهجوم بعض القبائل البدو من جهة الجزائر ولهذا الهجوم

فالحكام التونسيون أعلنوا بانهم حاضرون ليضبطوه من غير تراخ فالدولة الفرنساوية حكمت بانه يلزمها ارسال عدد وافر من العساكر الذين قد استولوا على جزء كبير من الولاية ولم يبعدوا عن المركز الابعض فراسخ فن غير التفات الى ما كنا أكدنا به على حضرة الباشا الى أخذ التدابير اللازمة لتمهيد الراحة فى المواضع الثائرة فدولة الجمهورية لاتريد أن تنظر للمخالطة الاقترانية بتونس مع السلطنة العثمانية التى هى محسوبة جزأ منها للسلطنة المذكورة وأظهرت بانها لا تقبل قولنا للاتفاق الودادى معها القطع الاختلاف الذى وقع وترتيب حقوق الباب العالى مع منافع فرانسا فى ذلك المحل وترتيب الاشياء الموجودة من زمن قديم ولا نقدر أن نزيد فى ايضاحها كما يلزم وهى سيادة السلطان التى ليس فيها اختلاف على هاته الولاية وهى سيادة لا تنكرها ولا دولة عموما وهذا الحق بقى الى الآن صحيحا ولم ينقطع من زمن فتحها وهو اذ ذاك سنة ١٥٣٤ بخير الدين باشا وفى سنة ١٥٧٤ تقليج على باشا وسنان باشا وكانت الدولة العلية أرسلت الى تلك المواضع قوة عظيمة برا وبحرا ومن زمن ذلك الفتح فالتأسيسات التى فعلها الباب العالى هى ان جميع ولاة تونس يتوارثون الولاية من ذرية الوالى الاول المسمى من السلطان ويتقلدون الى الآن المنصب منه وفرمانات الولاية تبقى فى خزنة الديوان وكذلك جميع المكاتيب التى تأتى منهم للباب العالى فانها تارة تكون فى شأن مخالطتهم مع الدول الاروباوية وتارة تكون فى شأن أحوالهم الداخلية والتى لهاته المدة الاخيرة فان الباب العالى من استحفاظه على حقوقه زيادة على كونه يسمى الوالى العام فانه يرسل من القسطنطينية الى تونس قاضيا وباش كاتب الولاية ولم يكن الامن ترحم الدولة العلية ان منحت الوالى ان يسمى هو بنفسه هذين المتوظفين وأيضافاتباعا للمذهب وخصوصية سيادة السلطان فان الخطب يذكر فيها اسم جلالته ويضرب على السكة أيضا وفى وقت الحرب ترسل تونس الاعانة الى التخت وعلى حسب العادة القديمة يأتى الى القسطنطينية دائما أناس رسميون ليقدموا تعظيمات الوالى وخضوعه لاعتاب السلطنة وليقبلوا أيضا الاذن اللازم من الباب العالى لامور عظيمة فى الولاية ثم ان الباشا الموجود الآن والاهالى التونسيون طلبوا زيادة فى التفضل وأعطى ذلك لحضرته السامية بالفرمان المؤرخ فى سنة ١٨٧١ وتعرف به جميع الدول والآن قد اشتغل الوالى بجهده بسنده الحق ليعينه على الحالة الرديئة التى وقعت فيها تونس الآن وهاته الاشياء التحقيقية لاينكرها أحد فهل تريدون أن تعرفوا الآن تقريرها بالتاريخ وبالمكاتبات

وبالمكاتبات الرسمية هو سهل لكن نقتصر على المهم منها لئلا يطول الكلام فى هذا التلغراف ففى المعاهدات القديمة التى بين تركيا وفرانسا تعدد ألقاب الحضرة السلطانيه ويكون منها لقب سلطان تونس (فانظر مثلا) معاهدة ١٠ صفر سنة ١٠٨٤ هـ ١٦٦٨ م وفى هاته المعاهدات أيضا وجد بان كل المعاهدات التى بين الدولتين تجرى أيضا فى تونس وفى نصف القرن السابع عشر أى فى ١٥ صفر سنة ١١٦٦ أرسل السلطان فرمانا للباى والحاكم الكبير بالولاية فى رضاء الباب العالى بان قنسل فرانسا يجمع خدمات قناسل الدول الذين لم يكن لهم اذ ذاك نواب بالقسطنطينيه كالبرتقال وكتالونى واسبانيا وفينيسيا وفرينسا وغيرهم والقنسل وكالته هى حماية السفن تحت الراية الفرنساوية فى المراسى المشهورة بالولاية والفرمان يمنع تداخل قناسل الانكليز والهولانديز وغيرهم من التداخل فى خدمة نائب فرانسا وذلك سند منع التعدى بين الباب العالى والنمسا المؤرخ فى ٩ رمضان سنة ١١٩٧ هـ المتقرر بمعاهدة ستوفا فى ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٠٠ فانه يأذن حكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بان يحموا على اسم السلطان السفن المتجرية لسلطنة الرومان الفخيمة وأيضا فان الاتفاق الذى تقدم هذا السند وتم فى ١٥ شوال سنة ١١٦١ هـ بالاذن من السلطان وكان هذا الاتفاق وقع بين الحكام المذكورين والسلطنة المذكورة فان الوالى العام بتونس وهو اذ ذاك فى رتبة بكار بيك ونال اسم على باشا يذكر فى مقدمة كل مكتوب يمضى عليه منه هاته الكلمات بعينها وهى (مولانا السلطان الغازى محمود) وعلى ذكر واقعات ذلك الزمان استطرد لكم الاذن الصادر من الباب العالى فى ١٥ ربيع الاول سنة ٢٤٥: هـ ١٨٢٧ م لحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب فانه يأمرهم أن لا يتداخلوا فى الخلاف الواقع بين سلطنة النمسا ومملكة المغرب وكذلك الاذن الصادر من القسطنطينية لوالى تونس فى ١٤ صفر سنة ١٢٤٧ هـ ١٨٣٠ م فانه يأمر بترتيب العسكر النظامى بالولاية على نمط الترتيب العسكرى النظامى العثمانى وأيضا قد أتى مكتوب معين بالطاعة من الباشا التونسى لجلالة السلطان فى سنة ١٨٦٠ وذلك الباشا هو الذى سماه السلطان واليا عاما وقد انتشر هذا المكتوب فى جميع صحف أروبا من غير أن يعارض ولا من جهة واحدة ونزيدكم شيأ آخر وهو انه فى سنة ١٨٦٣ فى واقعة القرض التونسى الذى وقع فى باريس من غير رضاء الباب العالى كان رسيو دواروان دولويس وزير خارجية

الامبراطور نابليون الثالث قد أعلن رأيه بناء على شكايات الدولة العثمانية وقال
انه يلزم اما الباشا بتونس أو الصراف الذى يريد عقد القرض معه أن يطلب رضاء الباب
العالى ليصح هذا القرض وللمدافعة عن حقوق الباب العالى فان الوزير الفرانساوى
أرسل يقول هذا الكلام للصراف المشار اليه وها نحن نضع بثبات الكلام السابق
لدى ميزان العدل والحق الذى للدول الممضين على معاهدة برلين وانا لمتحققون بان فكر
الدول محيط بدلائل كثيرة فى الواجبات العمومية التى يقتضيها المؤتمر المحترم وانهم
يريدون أن يفصلوا بالعدل قولنا الذى قدمناه وانهم يحافظون على حقوق الباب
العالى الانوى المحفوظة بالمعاهدة المذكورة ويصلحون الحال بين الدولتين فرانسا
وتركيا فى علائقهما التى لهما فى هاته الولاية المرؤف بها التونسية المتممة للسلطنة
العثمانية والمرغوب من جنابكم ان تتكلم مع وزير الخارجية فى مضمون هذا
التلغراف وتشرح له ما تراه نافعا ولكم الاذن بان تعطوا نسخة من هذا لجناب الوزير
اذا طلبكم اه (الامضا مصطفى عاصم) ومن تأمل هذه اللائحة مع ما قررناه
فى سياسة تونس الخارجية ومقاصد فرانسا فيها لا يشك فى أن فرانسا لم تكن
تنازع قط فى أن تونس من ممالك الدولة العثمانية وانما غاية دعواها وان تلك
الايالة لها امتيازات جارية تحافظ هى عليها لاجل منافعها ويصدق ذلك تصريح
وزير فرانسا دواروان دولويس فى مجمع فيينا آثر حرب القريم لما سأل وزير الروسيا
عن تعيين الممالك العثمانية للجهل ببعضها ومثل بتونس وانه يتراءى فيها نزاع فأجابه
الوزير الفرانساوى بان لا شك ولا نزاع فى كون تونس من الممالك العثمانية وان
كانت لها امتيازات تخصها وكذلك المعاهدات المعقودة بين فرانسا وتونس حتى
التى وقعت بعد الاستيلاء على الجزائر بمدة طويلة يصرح فيها بان سائر المعاهدات
المعقودة مع الدولة العثمانية تكون مرعية الاجراء فى تونس ولا يعزب عن عاقل ان ذلك
التصريح لاتحاد تونس بالممالك العثمانية ومع هذا كله لم يفد استصراخ الدول لان
فرانسا لم تعلن بعملها الا بعد ان لمست أفكار أغلب الدول الكبيرة فوجدتهم غير
معارضين لها الان دولة انكلترة متولى زمامها حزب الاطلاق الذى لا يرى نفع دولته فى
المحافظة على الدولة العثمانية بعد ان طال تجربتهم لها فى الحث على الجريان على
مقتضى نصائحهم ولكنهم لم يروا العمل ودونك ما نشر فى الكتاب الازرق من المخاطبات
التى وقعت من الحضرة السلطانية ورئيس وزرائها ومع سفير انكلترة بالاستانة حسبما

اخبر

أخبر بها وزيره بعدة تلغرافات نأتى بما تقدم فيها التلغراف من موسيوغوشن (سفير
انكلترة الى وزير خارجيتها) بتاريخ ١٩ نيسان سنة ١٨٨١ هاته ترجمته انى وجدت
جلالته (أى السلطان) مشغول الفكر بهذه الافعال وبناء على ما عندى من الاذن أعلمت
له بان الدولة الانكليزية تريد بقاء الحالة الموجودة فى تونس والنائب الانكليزى بتونس
له الاذن ليرشد الباى اذا استشاره بان يعين فرانسا فى تقرير راحة الحدود وانى أرجو
ان جلالته يشير على الباى أيضا بذلك فالسلطان سكت بعض دقائق ثم ظهر على وجهه
الغضب وقال انه فهم من كلامى ان الدولة البريطانية تريد بقاء الحالة على ما هى عليه
فى تونس ولها نفع فى ذلك وفهم أيضا انا أشرنا على محمد الصادق بان يعين العساكر
الفرانساوية فنبهت عظمته بانى ما قلت ان الدولة الانكليزية تنتفع ببقاء الحالة
الموجودة ولكنها تظهر تمنى ذلك فقط على هذه الكيفية ونحن نتأسف كثيرا من فتح
مسئلة جديدة فى الشرق وانا لا نفتكر أنه توجد فوائد خصوصية لانكلترة مربوطة
باى كيفية كانت فى أحوال تونس فعند هذا أجاب السلطان بانه لم ير كيف يجمع بين
رجائنا فى ابقاء حالة تونس على ما هى عليه ومع ذلك نشير على الباى بان يعين العساكر
الفرانساويه فهذان الشيئان لا يتوافقان لانه على رأيه يكون دخول العساكر الفرانساويه
الى تونس ناقضا للحالة الموجودة وفى تلغراف آخر من موسيوغوشن أيضا يقول فيه ان
الجلسة التى وقعت بينى وبين باشوكيل كان يطلب فيها محبة انكلترة وقال ان الدولة
الانكليزيه تقدر أن تعمل مع الدولة العثمانيه المعروف وان الباب العثمانى يكون
ممنونا اذا كانت انكلترة تريد أن تفعل معه ذلك فقلت له ان ما كنت قلته لكم قد وقع
والذى كنت تقوله دائما هو انه باى زمن تكون فيه تركيا تتذكر بان محبة انكلترة
لها لازمة وقد تكلم على الحاجة الاكيدة الآن وتكلم أيضا على رد مودة انكلترة
فتبعته وقلت ما هو دليل المودة الذى أظهرته تركيا لانكلترة منذ بعض سنين وفى أى
وقت اتبعتم اشاراتنا وفى أى وقت قبلت استشاراتنا النافعة للسلطنة التركية نعم ان الترك
قد عملوا غاية جهدهم ليتركوا المودة التى فى راى العموم فى انكلترة ورجوعها الآن
ليس بسهل فحضرته العلية أجابت بان جميع الاشياء الآن تتغير من غير ان يظهر على
وجهه الغضب من الكلام الذى قلته له قصدا واستمر فى طلبه الاعانة وانا شرحت له بان
نازلة تونس مثل النوازل الاخر الشرقية ولا تقدر انكلترة على اتمامها وحدها ومع هذا
فليس لنا فائدة خصوصية وسياستنا متمسكة بالموافقة الاروباويه ولا دولة تريد قيام

عصر جديد قبل ان تتم الاعمار القديمة وكل دولة تكون حازمة اذا كانت تفتش كل واسطة لحصر النازلة التونسية في حدود ضيقة أقل ما يمكن لئلا تقوم نازلة تدخل فيها الدول برأي مختلف فجنابه العالي يقدر ويفهم من جملة كلامي بان ليس لي اذن لتقرير الرجاء بان تكون الدول العظام الاوروباويه يظهرون أنفسهم مختلفين على نازلة مختلطة بين الباب العثماني وتونس والطلب الخصوصي من انكلتره ليس بموافق لحالة الباب العثماني منذ بعض سنين مع الدولة المشار اليها فهذا الخطاب كاف في بيان الحال مع انكلتره وهي وان أظهر بعض أهل شوراها التنديد على سياستها وطلب المحافظة على تونس وابقائها للدولة العثمانية وبين ما ينشأ لانكلتره من المضرة عند استيلاء فرانسا على مرسى ابن زرت وعلى قربها من خليج السويس ورجحان كفتها في البحر الابيض لكنه لم ينفذ كلامه حيث كان من حزب المحافظين الذي هو مغلوب حينئذ واحتجت عليه الوزارة بان حزبه هو الذي فتح الباب لفرانسا فان اللورد صالسبري الذي كان وزير الخارجيه عند عقد مؤتمر برلين لما شاحنه وزير فرانسا على استيلاء انكلتره على قبرص أجابه بانه لا يعارض فرانسا اذا أرادت الاستيلاء على تونس فاذا يكون استيلاء فرانسا بوعد انكلتره وقد غفل المستند لذلك عن كون الوعد من صالسبري كان في سياق ان ترضى بذلك الدولة العثمانية صاحبة الملك مع الرضى العام لا اغتيالا ومع ذلك فلانكلتره مقاصد على تونس مخفية في مصر فرأت ان مساعدة فرانسا على تونس تلائمها في مقصدها في مصر عند الحاجة اذا ساعدتها فرانسا ولهذا لم تعترف بالمعاهدة الجديدة مع تونس رسميا حتى ان وزير فرانسا الاول أعلن في مجلس النواب بان انكلتره وافقت على معاهدة باستنادا منه لما دار بينهم من الكلام فيها فاعلن وزير خارجية انكلتره حالا بتكذيب ذلك الادعاء رماذالك الاتحفظا على ما يريد لدولته حتى اذا لم تساعفه فرانسا في مصر وآل بينهم الامر الى المشاحنة الحقيقية كان لانكلتره وجه في نقض ما حل بتونس وأما دولة الروسيا فلا اشكال انها يسرها كلما يضعف الدولة العثمانية ولا فائدة لها في مشاحنة فرانسا ولذلك كان جوابها مثل محصول جواب سابقتها وأما دولة المانيا فاجابت خصوصيا بان الاولى للدولة العثمانية الاضراب عن هاته النازلة وانها هي لا تتعرض لفرانسا بشيء والباعث لها على ذلك وجوه (أولها) اظهار عدم التجافي عن فرانسا التي لها عليها حقد أخذ الثار (وثانيها) جذب أعداء ومضادين الى فرانسا كالدولة العثمانية

العثمانية وايطاليا حتى اذا أعلنت الحرب يوما ما بين المانيا وفرانسا تجد المانيا الظهير على قرنها بما لذلك الظهير من الباعث الذاتي (وثالثها) اشغال فرانسا بفتوحات جديدة في أراضي فسيحة وخلق كثير في افريقيا ربما طال اشتغالها بهم حتى يبرد لهيب أخذ الثار (ورابعها) اضعاف قوة فرانسا وقت الحرب اذ الامم الذين تريد التسلط عليهم وان لم يكونوا كفؤا لمحاربة فرانسا لخلوهم عن آلات الحرب والاستعداد لها لكنهم لما كانوا مسلمين وأهل نجدة وشجاعة ومثاقفة للحرب لا يلبثون دائما أن يحدثوا عليها ثورات سيما اذا علموا بوقوع حرب بينها وبين أجنبي فتضطر فرانسا في وقت الحرب الى أن تبقى قسما عظيما من جيشها محافظا على ذلك المستعمر وذلك يفيد المانيا بنقصان قوة جيش خصمها في حربها (وخامسها) تمهيد السبيل اليها فيما تريد التعاوض به بينها وبين النمسا لان المانيا ليس لها مرسى على البحر الابيض وقد بقي من جنس الالمان تحت النمساعدة ملايين حول الجهات التي بقرب مرسى ترست فلو أخذت المانيا ذلك الباقي من الالمان مع تلك المرسى يكون ذلك غاية أمانيها ولكن ذلك لا يحصل الا بحرب مع النمسا وقهرها أو بمعاوضة ذلك لها بشيء يرضيها من ممالك الدولة العثمانيه مثل أخذها لولايات مقدونية ومرسى سلانيك الموازي لذلك لما يؤخذ منها حسبما أشيع ذلك مرارا ولذلك كانت المانيا أول من بادر لامر نائبها في تونس باتباع سياسة فرانسا فيها وتبعتها على ذلك أيضا النمسا لانها ليس لها سياسة تخصها في تونس وهي لها مع المانيا عقد محالفة اتحاد على الذب والاقدام ثم انها لها مطامح في جهة بحر الجزر لتتمكن فيه بمواقع مهمة لكي تسلم في مرسى ترست الى المانيا حليفتها حيث لم يكن لها مرسى في البحر الابيض كما تقدم ذكره فلا تعارض بها فرانسا عند العمل وأما ايطاليا فانها تجرعت من ذلك الغصص وطوت على الضغائن التي لا تزال ولكنها لما كانت غير كفؤ بانفرادها لمعارضة فرانسا واتحادها مع الدولة العثمانية أيضا لا يجدي لاحتياج كل الى المال مع ما فيه الدولة العثمانيه من الحالة الداخلية والخارجية التي أعقبها الحرب الاخيرة فلم يسعها الا السكوت وتحمل عرق القربة مع عظم الضغينة في عموم الاهالي والدولة اذ هي حريصة على ابقاء ما كان على ما كان في تونس وكانت عند ملاحظتها مبادي الشر عرضت بالسعي السياسي مع الدولة العلية فلم يكن من المقدر قبول الاقتباه لما أرادت حتى أنكر الوزير العثماني على المأمور الطلياني التكلم معه

فى تونس وقال له انها تابعة لنا ولا دخل فيها لاحد وعند هجوم فرانسا صار يتملق الى ذلك المأمور لكى تمد ايطاليا اليد اليه فقال له مصداق المثل الصيف ضيعت اللبن وعما تمهد عبرت عساكر فرانسا حدود تونس معلنة بانها تريد تأديب قبيلة خمير من أعراب الجبال الشمالية عند حدود الجزائر ولم يتعرض لها أحد بالمصادمة لان حكومة تونس قد تقدمت حالتها الباطنية من التوافق مع فرانسا ومع ذلك فليس عندها تحت السلاح ألف عسكرى ولا اقتدار لها على معارضة فرانسا بالقوة واستندت ظاهرا الى أمر الدولة العلية بارتكابها سبيل الملاينة وأظهر الوزير التونسى اذ ذاك التزام العمل برأى مجلس الشورى حيث فات الابان مع ان جميع ما يتفاوض فيه يقرره الى تابعه على ابن الزى ليلا وهو يقرره الى نائب فرانسا فكلما عزل المجلس عزلا نقضه لهم من هو بالمرصاد منهم حتى تعجبوا من اطلاعه على جميع أحوالهم وتمكنت عساكر فرانسا من بلاد الكاف وباجة وابن زرت وفى اثناء تلك المدة كانت الحكومة التونسية لا تزال تعجل وتتشكى وانها مستعدة لتربية قبائلها الذين هم فى نفس الامر انما اتخذوا وسيلة فقط ومع ذلك فقد أوعز الوزير بواسطة تابعه المشار اليه الى نائب فرانسا بان لا واسطة مفيدة فى الدخول تحت فرانسا الا قدوم شرذمة من العساكر الى قصر الوالى والاحاطة به اذا القسوة لما ترى ذلك تصعق بالخوف فيضطر الوالى الى الامضاء على الشروط ويجد العذر عند الاهالى ومع ذلك أرسل خبرا بالسلك الكهربائى الى الباب العالى يقول انه قد علم ان فرانسا تطلب عقد شروط ولا يعلم ماهى فماذا يعمل فأجيب من الباب بان يحيل كلما يطلب منه على الباب العالى ولا يمضى شيأ وقبل ذلك أشاع أصحاب الاخبار ان فى عزم الدولة ارسال خير الدين باشا الى تونس معتمدا فى حسم النازلة لمعرفته بأحوالها وسياسة الاهالى والاجانب ولكى يكون عونا على ابقاء الحالة المعروفة فأرسل الوالى تلغرافا الى الباب يطلب أن يكون المرسل غير المشار اليه وتعجب كل غافل عن المقاصد الخفية من ذلك الطلب اذ تلك الحالة لا تدع مجالا للتشخصات سيما وقد سبقت من خير الدين الى الوالى المشار اليه المجاملة وعدم الاكتراث بما فعل معه عند حلوله بالاستانة وترقيه فيها لكن المطلع على الباطن زاده ذلك تيقنا فى التواطئ على تلك الاعمال لان وجود مثل خير الدين فى تونس لا يروج عليه ما يروج على غيره ممن لم يمارس طبائع الشقين ومع مجاراة الباب العالى وتقليله لمواقع النزاع قدر الامكان لتأمين الوالى حيث أظهر الميل الى الدولة

فانه

فانه أى الوالى أسرع الى امضاء الشروط مع فرانسا والحال ان مذا الخبر من الباب العالى بنهيه عن الامضاء لم يجف ولم يخبر الباب بعد ذلك بشئ حتى سأله عما شاع من امضائه فاجابه بانه مكره عليه وكلما ورد بعد ذلك من الباب سلمه الى نائب فرانسا مدعيا ان الشروط قاضية بذلك (وهذا نص تعريب المعاهدة) ان دولة جمهورية فرانسا ودولة باى تونس أرادوا أن يقطعوا بالمرة التحيير المخرب الذى وقع قريبا فى حدود الدولتين وفى شطوط تونس وأرادوا أن يربطوا مخالطتهم القديمة التى هى مخالطة مودة وجوار حسن فاعتمدوا على ذلك وعقدوا معاهدة فى نفع الجهتين المهمتين فعلى موجب ذلك رئيس الجمهورية الفرانساوية سمى وكيله موسيو الجنرال بريار الذى يتفق مع حضرة الباى السامية على الشروط الآتية (أولا) المعاهدات الصلحية والودادية والتجارية وغيرها الموجودة الآن بين الجمهورية الفرانساوية وحضرة الباى يتحتم تقريرها واستمرارها (ثانيا) ليسهل لدولة الجمهورية اتمام الطرق للتوصل الى المقصود الذى يعنى الجهتين العظيمتين فحضرة الباى ترضى بان الحكم العسكرى الفرانساوى يضع العساكر فى المواضع التى يراها لازمة لتقرر وترجع الراحة والامان فى الحدود والشطوط وخروج العساكر يكون عندما يتوافق الحكم العسكرى الفرانساوى والتونسى على ان الدولة التونسية تقدر على تقرر الراحة (ثالثا) دولة الجمهورية تتعهد لحضرة الباى بان يستند عليها دائما وهى تدافع عن جميع ما يخوف منه الضرر ربما فى نفسه أوفى عائلته أو فيما يحير دولته (رابعا) دولة الجمهورية الفرانساوية تضمن فى اجراء المعاهدات الموجودة الآن بين دولة تونس والدول المختلفة الاوروباوية (خامسا) دولة الجمهورية الفرانساويه تحضر نحو حضرة الباى وزيرا مقيما لينظر فى اجراء هاته المعاهدة وهو يكون واسطة فيما يتعلق بالدولة الفرانساوية وذوى الامر والنهى التونسيين وفى كل الامور المشتركة بين المملكتين (سادسا) ان النواب السياسيين والقناصل الفرانساويين فى الممالك الخارجية يتركاون ليحموا أشغال تونس وأشغال رعيتها وفى مقابلة هذا فحضرة الباى تتعهد بان لا تعقد معاهدة عمومية من غير أن تعلم بها دولة الجمهورية ومن غير أن يحصل على موافقتها من قبل (سابعا) دولة الجمهوريه الفرانساويه ودولة حضرة الباى أبقوا لانفسهم الحق فى أن يؤسسوا ترتيبا فى المالية التونسية ليمكن لهما دفع ما يلزم الدين التونسى العام وهذا الترتيب

يضمن فى حقوق أصحاب الدين التونسى (ثامنا) ان غرامة الحرب ينصب عليها القبائل العصاة بالحدود والشطوط وتفعل دولة الجمهورية مع حضرة الباى فيما بعد شروطا على كميتها وكيفية دفعها ودولة حضرة الباى تضمن فى ذلك (تاسعا) للمدافعة على منع ادخال السلاح والآلات الحربية للمملكة الجزائرية الفرانساوية فدولة باى تونس تتعهد بان تمنع دخول الاشياء المشار اليها من جزيرة جربة ومرسى قابس وسائر المرسى الجنوبية فى المملكة (عاشرا) ان هاته المعاهدة توضع لدى رضاء دولة الجمهورية الفرانساوية وترجع فى أقرب مدة ممكنة لحضرة الباى السامية حرر فى ١٢ مايس سنة ١٨٨١ بالقصر السعيد الامضا محمد الصادق باى والجنرال بريار والذى يؤكد صدق التواطئ من قبل ان الوالى طلب ظاهرا من نواب فرانسا وهما أمير العساكر والقنصل أن يمهلاه مدة للتأمل من حالة الشروط فاجابه القنصل بانه لا داعى الى ذلك حيث ان الشروط عند وزيرك منذ مدة وتأملتها أنت وهو ولم يبق الا الامضاء ويؤيده أيضا ان رئيس المجلس البلدى السيد محمد العربى زروق أحد أعضاء مجلس الشورى أصر على عدم الموافقة على امضاء الشروط وألح على الوالى بذلك عند جمعه للمجلس وأميرعسكر فرانسا منتظر لابرامها ونصحه بان ما يخشى منه بعدم الامضاء سيقع لا محالة بعد الامضاء فالتمسك بالبراءة الاصلية أسلم وأشرف وعورض بانه قد علم ان الوالى اذا لم يمض يولى الفرانسيس عوضه أخاه الثالث (محمد الطيب باى) لانهم أكدوا ان له اتفاقا مع الفرانسيس فاجاب بان جميع الاهالى لا تطيع الوجه المذكور وعلى فرض قهرهم يكون الوالى على شرفه وربما اضطرت الدول الى التداخل بوجه يحسن الحال فلم يلتفت لكلامه وعزل أثر ذلك من جميع وظائفه وجعلت عليه مراقبة فى داره وحجر عليه مخالطة الناس وتحقق مزيد الاضرار به الى ان احتمى بقنسلاتو انكلتره وسافر عن وطنه وأقام بالاستانة ويشهد صراحة للتواطئ ما صرح به البارون بيلنك الفرانساوى فى تشرين اول سنة ١٨٨١ بما وقع فى هاته المسئلة وانه كانت أرسلته دولته حيث كان أحد مأمورى الوزارة الخارجية لاستقراء أمر تونس وذلك فى كانون ثانى سنة ١٨٨١ وان الوالى أجاب اذ ذاك فرانسا بانه يقبل الشروط اذا كان الواسطة فيها هو فرديناند لسبس لانه كان يؤمل بواسطة المذكور الحصول على شروط أوفق له وان الشروط اذ ذاك كانت غير التى قررت الآن ومع ذلك كله لم تعلم الدولة العلية بشئ وبه يعلم

صدق

صدق الكلام فى اضمار الوزير التونسى الشر للدولى بالخصوص حيث دافعت عن الحق ونصحته بما يقتضيه الدين والامانة ثم كانت فاتحة أعمال نائب فرانسا عند امضاء المعاهدة أن طلب من الوالى نفى على ابن الزى حالا لكى لا يبيح بما وقع من الاسرار التى اطلع عليها فنفى الى حصن قابس ثم توجه الوزير ابن اسماعيل الى باريس فى سفينة فرانساوية حربية شاكرا الانعام فرانسا بتلك المعاهدة ومعلنا لها بانه يصدق فى خدمتها أزيد مما كان يبذله سابقا كذا فى عبارته الرسمية عند ملاقاته رئيس الجمهورية المنشورة فى الصحيفة الرسمية فقلدته فرانسا بأكبر نيشان لها مع الشريط الكبير ورجع الى تونس ولم يلبث بضع أشهر حتى ورد الامر على الوالى من وزير فرانسا بعزل وزيره ابن اسماعيل لان نائب فرانسا بتونس توجه الى باريس وتفاوض مع دولته فيما يسلكونه فى تونس حيث ان الاعراب والجهات الجنوبية أعلنوا بان الوالى لما بغى على الدولة العثمانية بدخوله تحت حماية فرانسا فهم لا يطيعونه لانهم بايعوا أمير المؤمنين سلطان الدولة العثمانية قديما وحديثا فلا يحل لهم الخروج عليه وهرب على الوالى جميع عساكره فاضطرت فرانسا لتعمية الجيوش لتطويع الاعراب وكان من جملة التدبير عزل ذلك الوزير الذى توقعوا منه أن يفعل معهم مثل ما فعل مع البلاد التى وصل فيها الى تلك الدرجة وتحقق الوزير ما ضرب من المثل بوزارة العلقمى وان كان هذا أى ابن اسماعيل قد احتاز بجميع خزائن أمراء تونس حتى كان آخر ما بقى للوالى من مفاخر الجواهر عقد لؤلؤ منظم سبحة بمائة حبة مع حلية زمرد محاط بها الياقوت الابيض فاعطاها اليه عند سفره لباريس بعد العزل المذكور ورام بسفره ارضاء فرانسا عليه وارجاعه الى الوزارة وبقيت البلاد الى الآن فى حيرة واضطراب ودخلت العساكر الفرانساوية الى قصبة الحاضرة والى منازل العساكر فى المدينة وأمام قنسلاتو فرانسا وسكن رئيس العساكر الفرانساوية بدار المملكة فى بطحاء القصبة وصارت الحكومة لا تتصرف فى شئ الا بامر الوزير الفرانساوى سواء كان فى الداخلية أو فى الخارجية وتفاقم الضرر بولايات غير الاهل فى الوظائف بوسائل غير مرضية وعظم الكرب على القبائل والبلدان بما حصل فيهم من العساكر الذين أقاموا بالقيروان وسوسة وهدموا صفاقس ونحو جوامع قابس بعد دخولها وعادوا اليها ونسأل الله ان يتداركنا بالطافه ويحسن العاقبة ومما ينبغى التنبيه اليه هنا ان الاحوال السياسية التى أشرنا اليها مع الدول سيما مقاصد المانيا لا يمكن ان تخفى على أمة عاقلة مثل

الفرانساويين فكيف مع ذلك قدموا على تبوء تونس مع كون الفائدة التى تحصل لهم منها لا توازى ما ذكرنا اذا كانت المعاهدة مع تونس التى ذكرناها تجرى حقيقة على ظاهرها فالجواب ان كثيرا من عقلاء الفرانسيس قد نددوا على دولتهم ولا زالوا فى الاعتراض عليها لكنها بعد الوقوع فى الامر المتسبب عن تهور من بيدهم مقاليد السياسة حتى انهم موهوا على مضادوهم من نفس الفرانسيس بان لهم فى ذلك أرباح ذاتية من التجارة فى الرقاع الدولية وموهوا على العامة بالانتصار لحفظ ناموس فرانسا فبعد ذلك صعب على الدولة اهمال سعيها مع ما خسرته من الاموال المتجاوزة مائة مليون ومن الرجال الذين ماتوا بالحرب مع الاعراب وبالامراض المتجاوزين خمسة وثلاثين الفا فرأت فرانسا التحفظ على ما وقع مع السعى فى حسن السلوك الذى يخفف أو يدفع عنها الغوائل المنتظرة ثم وراء ذلك أمر مهم جدا لفرانسا وهو طمعها فى احداث مملكة عظيمة فى أفريقية مثل ما للانكليز فى الهند فتريد ان تمتد من الجزائر الى ما جاورها شيأ فشيأ الى ان تصل الى دواخل أفريقية والسودان وتصل بين شاطئ افريقية الغربى فى سانيغال والشرقى فى الجزائر وتونس حتى رسمت جمعية فرانساوية رسما لخط الحديد فى ذلك ولو يتم هذا يكون لفرانسا شأن عظيم غير ان القياس على الهند الانكليزى هو قياس مع الفارق لا من جهة سياسة الفرانساويين فى مستعمراتهم من حيث قلبها الى عوائد الفرانسيس واناطتها الادارة فى الكليات والجزئيات بباريس ولا من حيث أخلاق الامم المستوطنين بافريقية والمستوطنين بالهند وان شئت الوقوف على برهان ذلك فانظر ما حررناه فى أحوال الجزائر وفى أحوال الهند وسياسة كل من الدولتين يتبين لك حقيقة الحال وبما ذكرناه هنا يندفع الاعتراض على ما ذكرناه فى سياسة تونس الخارجية من كون فرانسا اتريد الاستيلاء عليها مع كون أعمالها ناقضت ذلك وشرح الدفع يؤل الى أن الحامل لدولة فرانسا على مخالفة ما سبق من مقاصدها فى تونس شيآن أحدهما سياسى ظاهرى والآخر خصوصى باطنى فالباطنى هو المشار اليه بما وقع من التهمة فى نفع الافراد الذى يأتى له مزيد شرح فى مبحث الاحكام والظاهرى هو أن الدول قد تغيرت أفكارهم بالنسبة لمحافظة الدولة العثمانية منذ عقد معاهدة برلين فدلت أعمالهم على ان من ناسبه شئ منها وكانت له قدرة على حوزه بادر اليه وغض عنه النظر بقيتهم اذا كان المحوز أكثر مناسبة بالحائز وقد علمت مقاصد فرانسا فى تونس ورأت ان ايطاليا لها من المقاصد والمناسبات ما يزاحمها ثم رأت سيرة ابن اسماعيل وانه غير أمين

أمين فلا يبعد ان يفعل مع ايطاليا أو غيرها من الدول ما فعل معها لخوف او طمع مع تيسر اجراء الامور بواسطته فانتهزت الفرصة خوفا على درجة نفوذها فبادرت قبل ان تبادر ومن المعلوم ان السياسة تدور مع الاحوال الحاضرة ولله عاقبة الامور

الفصل الخامس

﴿فى عوائد أهالى فرانسا وصفاتهم﴾

(اعلم) ان الاهالى أصلهم القديم مجهول غير انهم لما هجمت القبائل الشمالية الشرقية من آسيا على أروبا تسلطت منهم قبيلة الافرنج على فرانسا بعد ان اناخت فى البلجيك ولا زالت تتقوى الى أن ملكت جميع فرانسا واتحدت القبائل الاخر معها بالنسل والاسم كما تقدمت الاشارة اليه فى مبحث التاريخ وكان لهم اذ ذاك شهرة بالشجاعة والتقدم بالحرية حتى كانوا اول من كثرت خلطتهم من الاروباويين بالعرب وأهل المشرق ولذلك ترى ان اسم الافرنج يطلق على جميع أهل أروبا عند جميع المشرقيين والعرب وذلك بابدال السين جيما لان أصل الاسم افرنك فقلبت الكاف سينا عند نفس الامة ثم حرف فى الترجمة فى لسان المشرق وصار افرنج وذلك الاشتهار كاف فيما كان لتلك الامة من التقدم وحب الاسفار والتجارة ولا زالوا على ذلك الى الآن لكنهم يؤثرون الاقامة فى وطنهم عن الاقامة الدائمة بغيره ولهذا تراهم أقل أهالى اروبا استيطانا فى سائر الممالك اذ أمريكا التى هى ذات ثروة وأمن وقليلة السكان بالنسبة لاتساع الارض يهاجر اليها سنويا من الانكليز والالمان والطليان وغيرهم خلق كثير يتجاوز مئات الالوف وأقل القليل من المهاجرين هم الفرانساويون بل ان ذلك حاصل ولو فى مستعمراتهم فى الاقاليم اذ الجزائر الآن تحت سلطتهم نيفا وخمسين سنة ومع ذلك لا يوجد منهم فيها الا نحو مائتى ألف أو ينقصون وانما بلغوا ذلك العدد بعد استيلاء المانيا على الالجاس واللورين فرغبت دولة فرانسا أهالى ذينك الاقليمين للاتحاد بها بان تعطيهم جميع حاجتهم مع الاراضى الخصبة الوسيعة فى الجزائر وحيث كان فى ذينك الاقليمين كثير ممن لا يريد الانفصال عن فرانسا الى المانيا هاجروا الى الجزائر ومكنتهم الدولة بارزاق العرب الذين استأصلت أموالهم بدعوى الخروج عنها او العصيان عليها ومع هذا الترغيب فانما كان عددهم ما أشير اليه لولوع القوم بوطنهم فى السكنى وان كانوا منتشرين فى سائر الاقطار للتجارة والسياحة كما انهم لهم ولوع زائد بالتفاخر بمدينة

باريس التي يحق لها الفخر بسر كل فرانساوي مدحها وان لم يكن من أهلها وهذا
الطبع وهو حب التفاخر وان كان طبيعيا في البشر لكن بعض الامم فيه أزيد من بعض كما
هو في الافراد فالفرانساويون ذوو فخر ونشاط الى الاعمال وسرعة الى تبدل الاراء
والافعال حتى أورث ذلك فيهم كثرة الانقسامات في الاحزاب السياسية وقد ذكرت صحيفة
الديمامرة عدد أحزابهم في السياسة فاذا هي أربعة عشر حزبا أحد اطرافها حزب
الاشتراكيين أي الذين يريدون ان يكون الناس كسائر الحيوانات السائمة مشتركين في
جميع ما بايديهم ولو النساء ولا يستأثر أحد عن أحد بشئ والطرف الثاني الاستعباد التام
لشخص ملك يتصرف فيهم تصرفه في الاثاث والمتاع وما بين ذلك درجات أقواها الآن
حزب الجمهورية المضبوطة على نحو ما تقدم في السياسة الداخلية ويليه حزب الملكية
القانونية وان كان في ذاته له عدة اقسام من اتباع عائلة بونابارتي واتباع عائلة أورليان
أو البربون الى غير ذلك ولا تغتر أيها المطالع بكثرة أولئك الاحزاب في ضعفهم مع من ناواهم
من الخارج فانهم اذا رامهم أجنبي يكونون عليه يدا واحدة فاذا انفصلوا منه عادوا الى
الشقاق بينهم ولولا هذا الشقاق لزادوا قوة ونفوذا اذ طباعهم مهذبة ومعارفهم متزايدة
وتجارتهم وفلاحتهم متقدمة للغاية حتى أقر لهم بذلك اضدادهم وهم لينوا الجانب
بشوشون في الملاقاة غير انهم يتجبر قسم منهم على من تسلطه الفرانساويون عليه
وفيهم كثير من المؤتمنين الناصحين العقلاء مثل من رأيناهم قدموا الى بلادنا متوظفين
وأحسنوا السيرة والانصاف والنصح الى وطننا ومن الانصاف الوفاء لهم بالذكر الجميل
فمن هؤلاء صاحب رتبة الوزارة فيليت الذي قدم الى تونس بصفة محتسب عام مالي
عندما انشئ الكومسيون المالي فابدى من نصح الوطن والوقوف على حقوقه
ودفع الغوائل عنه ما لم يصله كثير من أعيان ابناء الوطن مع العفة والصدق وسعة
المعرفة وعلى قدمه من أتى بعده بتلك الوظيفة وهو ابلان ومثله كابي الذين شهد لهم
كل ابناء الوطن بالاستقامة والانصاف بحيث يصح ان يقال ان دولة فرانسا انما تختار
لوظيفة الاحتساب المالي من هو جدير بها ولا مطعن فيه اذ كل من الثلاثة هو من
متوظفي دولة فرانسا في الاحتساب العام المالي وعلى نحو من هؤلاء صاحب رتبة
الوزارة فالات الذي قدم الى تونس بوظيفة نائب سياسي سنة ١٢٩٠ فابدى من
أوجه الانصاف ومساعدة الحكومة والاهالي على حقوقهم ما لهجت به ألسن الثناء عليه
من جميع أبناء الوطن وقلما يرد مثل هؤلاء الى وطننا لتحاميهم عن المقاصد السيئة

واتباعهم

واتباعهم للانصاف فدولتهم تقتصر بهم على وظائف داخليتها ومن مشاهير رجال
سياستهم في عصرنا ممن اجتمعت به وله صيت بين الامة الفرانساوية كنبيتا رئيس
مجلس النواب وممن أدركناه أيضا زيادة على نابليون الثالث الرجل الشهير بالسياسة
والمعارف تيرس وقلما تحدث أفراد مثله وان كانت المعارف والتقدم حاصلة الى العموم
ومع ذلك فلا يزال في فرانسا خلق كثير على السذاجة والجهل ودونك حكاية طريفة
تقيس عليها ما يقرب منها ففي سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م كان أحد أصحاب العمل
باليد مشتغلا جهة باريس وكان له ابن مشتغل جهة بردو فلم يوفر الابن من كسبه ما يشتري
به حذاء فأرسل الى أبيه يشتكي له الفقر ويطلب منه شراء حذاء له فاشتراه له وحمله في
الطريق وهو مفكر في كيفية ايصاله اليه فبينما هو ماش اذ مر محاذيا للسلك الكهربائي
فقال هذا أيسر طريق في ارساله الحذاء وهو يوصله لابني فجاء الى عود السلك وعلق
فيه الحذاء وأسر الى العود بقوله أوصل هذا لابني فلان في المكان الفلاني وذهب
مسرورا باطلاعه على مسلك سهل بلا مصروف ثم مر من غده متفقدا ما فعل السلك بالحذاء
فوجد في ذلك المكان حذاء عتيقا فأنساه اللبس ففرح وقال ان ابني لعاقل حيث أرسل
لي الحذاء القديم لاستعين به على ثمن الجديد فانظر لهاته البلاهة التي لو صدرت من أحد
المشرقيين لشنعوا بجميع الجنس بانه وحشي بعيد عن المعارف وتهذيب الاخلاق واعلم
ان مثل ذلك الرجل كثير سيما في القرى الصغيرة والجبال بل وفي أهل المدن كثير من
يعتقد بالخرافات الباطلة ويعتقد التأثير لاحجار وجمادات ويتشاءم بالاوقات فقد رأيت
في كثير من بلدانهم وبلدان الطليان وكذلك الانكليز طاقات في حيطان فيها منارات
توقد ليلا بالزيت أو بالشمع العسلي تقربا الى بعض أوليائهم أو الجن معتقدين حلول
المتقرب اليه بتلك الطاقة ولا ينورونها بغير ما ذكر من الانواع لان القسوس يقولون لهم
ان شمع الشحم أو الغاز من البدع التي لا يتقرب بها وكذلك يطلبون النجح وقضاء
الحاجات من جمادات أو أماكن اعتقادا حلول أرواح فيها وقد ذكر من هذا النوع في
كشف المخبا عن فنون أوروبا ما يتعجب منه السامع مما ترى الاوروباويين ومن تشكل
بشكلهم وتباهى بتقليدهم يحملون عيبه على البلاد الاسلامية وحدها ويجعلونها
مضربة وينزهون أوروبا عن مثلها مع انها حاوية لشبهها ولاشد منها بل ربما أسند ذلك
الجاهل أو المتجاهل الى ديانتنا الشريفة وحاشا الله ان تؤدي أو ترشد لمثل ذلك بل انها
هي المهذبة والمنقذة من غياهب الجهل الى نور المعارف الحاثة على العلم وفتح البصائر وقد

أفردنا لهذا تأليفا خاصا واعلم اننا لانقصد من ذكر ما مرنسبة الجهل بالمعارف الدنيا وية الى عموم الفرانساويين أو ترجيح كفتنا على كفتهم كلا بل الحق ان الناس على ثلاثة طبقات فاهل الرفعة وأشراف القوم من ذوى البيوت العالية بالتوارث فى الوظائف أو كثرة المال والترف تجد أغلبهم مقتصرين على معرفة مبادى العلوم ومحبين الى انفاذ الاغراض وزيادة علو الصيت والرعاع من أهالى الجبال والقرى والبوادى أغلبهم أيضا جهلاء ولافكر لهم الافيما ينفع كل فرد فى خويصة نفسه والطبقة الوسطى هى مجال التمدن والمعارف والصنائع والتقدم وهم أيضا أصحاب الترجيح السياسى فى فرانسا وهاته الطبقة هى المتقدمة بالنسبة لمشابهتها فينا فهى فيهم أرجح ميزانا وأهلها كثيرون بالنسبة لاهلها عندنا وبالنسبة الى نفس أهاليهم أيضا فترى عدد أهل المعارف يزداد ويترقى يوما وأهل هاته الطبقة عندنا مشاكلون فى الصفات لاهل الطبقتين الآخرتين كما ان أهل الطبقة العليا عندهم أوسع تبصرا ومعرفة منها عندنا (وأما بقية) عوائد الاهالى فهى على نحو من عوائد الطليانيين فى السلام والحياء والاجتماع والرماية والفروسية وغير ذلك وقد كانت فيهم تربية حسنة من التواضع بينهم ولين القول لكن منذ تحت الحكومة الجمهورية تظاهر فيهم التهور شيأ فشيأ حتى انى أدركت ذلك ما بين سنة ١٢٩٢ وسنة ١٢٩٥ فقد رأيت من اخلاق الطبقة السفلى من الناس كالكرارسية والحمالين والسائلين مالم نعرفه منهم فى السنة السابقة وقلت السائلين مع انهم يمنعون السؤال للفقراء لوجود أماكن المرحمة للعاجزين ومن يباح له السؤال تجعل له علامة تؤذن باباحته ولا يكون الا ناقص عضو أو حاسة وغيرهم يتحيلون على السؤال بعزف آلة طرب أو اهداء باقة زهر أو نحو ذلك من غير الحاف فى السؤال حتى اذا رأت الضابطية واحدا الحت منه أو سجنته وفى السنة الثانية رأيت تغاضى الضابطية عن ذلك وعن سوء معاملة الكرارسية للركاب حتى يكون بعضهم سكرانا ويتكلم الكلام الفاحش ولا يتعرض له أحد كما رأيت فى هاته السنة عدة مواطن للتشاكم والتلاكم وبعضها وقع فيه الضرب بالحديد ومات فيه المضروب وفى بعض الاوقات يركض الكرارسى ركضا زائدا يمكن ان ينشأ منه الضرر بالمارة وكل هاته الاشياء ممنوع ولم نر منه شيأ فى المرة الاولى لكن الدعوى بمزيد الحرية التى تتبع الجمهورية أورثت ذلك الاهمال المفضى الى التهور والخروج من الاعتدال كيف لا واحد احزاب الجمهورية يطلب المصير لما عليه الحيوانات العجم من الاشتراك وقد ذكر لى انه كان وقع مثل ذلك

الحزب فى احدى مدن أروبا العظيمة وثار على الحكومة واقتحم منازل الناس وكان فى تلك البلاد أحد الاغنياء المشهور بالثروة حاذقا فطنا فأخذ عدة أكياس بالسكة الفضة وجلس عند باب داره وكلما مر عليه انسان أعطاه فرنكا فجاءه جمع من الثائرين فقال لهم انى منكم وقد حسبت مالى فاذا هو كذا كذا مليونا وأهل المملكة مساوون الى هذا العدد فيصح لكل واحد فرنكا فكل من أتى أعطيته حصته ولا يسوغ ان أعطى لاحد منابا غيره فلم يسعهم الا الرضا وتخلص من نهب أمواله وتشتيتها ومن قتله بيده عن آلاف فرنك دفعها الاولئك الثائرين الى ان قهرتهم الحكومة واضمحل أمرهم ومن تفاخر الاهالى اتقان الاغنياء للكراريس وبعضهم يجر كروسته اربعة أو ثمانية من الخيل بسائق واحد وبعضهم يكون هو السائق بنفسه وتجد بعض هاته الكراريس تركب اثنى عشر راكبا فاربعة داخلها مثل المعتاد وأربعة على سطحها على كراسى لازمة كل اثنين على كرسى مثل الاسفل غير ان ظهورهم لبعضهم واثنان على كرسى السائق واثنان على كرسى الخدمة من وراء وفى قعر الكروسة محل لرفع ما خف من المأكول واللوازم فيركب صاحب الكروسة مع خواص عائلته وأحبابه وما يلزمهم لتنزه يوم ويذهبون لاحد المنتزهات خارج البلاد ومن عاداتهم أيضا انهم يتأنقون فى ظرافة الملابس والاثاث والبناء وتنظيمه وترتيبه وينشؤن المنتزهات وأماكن الارتياح ليشترك فى فائدتها الحقير والعظيم وان كان لكل جهة كالقهاوى فما كان منها للعظماء زاد فى سعر ما يعطيه واتقن آلاته حتى لايزاحم الفقير الغنى لكثرة المصرف من غير تحجير حكمى بحيث يصح ان يقال ان الملاذ والنزهة عند الفرانساويين ينال منها الحقير حظه وهى مشهورة يعرفها الوافد بادئ ذى بدء سهولة مع كثرتها وتهيئتها الى قبول كل أحد

مطلب

﴿فى التجارة﴾

(اعلم) ان تجارة فرانسا لها الرتبة الاولى فى سائر أقسام المسكونة ولهم براعة تامة فى ادارة الاشغال ولكن الاصول فى ذلك هى ما قررناه فى ايطاليا غير انها هى فى فرانسا أقوى وأروج وتسبب عنها كثرة الثروة والغنى المفرط حتى صارت شركات تجارتهم لا يخلو عنها اقليم من العالم وبواخر بريدهم تخترق سائر البحور ودونك أنموذجا على مال فرانسا من الغنى فان دولتها اعدات السككات الرائجة فيها سنة ١٢٩٨ ﻫ ١٨٨١ م

فكانت كما ترى فرنكات	
٢١٠ر٩٤٧ر١٩٠	صرف قطع فضة بخمسة فرنكات
٩٦٥ر٠٠٥ر٢٩٠	صرف قطع ذهبا الواحدة بعشرة فرنكات
٦ر٩٦٤ر٠٨٠ر٣٦٠	صرف قطع ذهبا الواحدة بعشرين فرنكا
٢٠ر٠٤ر٤٢٢ر٣٦٠	صرف قطع ذهبا الواحدة باربعين فرنكا
٤٦٠ر٥٦ر٨٧٠٠	صرف قطع ذهبا بخمسين فرنكا
٤٤٠ر٣٤ر٦ر٤٠٠	صرف قطع ذهبا بمائة فرنك
٥ر٣٦٧ر٤٧٧ر١٩٠	صرف قطع فضة من نصف فرنك وفرنك الى الاربعة فرنكات وقطع نحاس لاتمام الكسور
١٣ر٨٠٣ر٨٩٣ر٤٩٠	

فذلك من عين السكة خاصة عدا آلاف الملايين من قطع الاوراق المعدودة عوضا عن السكة من بنك الدولة وهاته الاوراق لها اعتبار أحسن من السكة لخفة مؤنتها فتزيد في الصرف نصفا في الالف وتروج في سائر الاقطار مرغوبا فيها لدى الصرافين وفي خصوص فرانسا وايطاليا وسفيسرا والبلجيك يرغب فيها حتى غير الصرافين أما غيرهاته من الممالك فانها تعتبر عند الصرافين فقط ويؤيد اعتبار غناها ما ذكرناه في غرامة حربها مع المانيا وكذلك سنة ١٢٩٨ ﻫ ١٨٨١ م طلبت دولة فرانسا استقراض ألف مليون فرنكا فاحضر لها الصرافون وأرباب الاموال ما كنفت به عما تطلبه باخذها خمسة عشر فقط من كل مائة احضرت لها وأساس ذلك الغنى هو الامن الذى سوغ للاهالى عقد الشركات باظهار أموالهم وترويجها والشركات هى الاساس الثانى مع حسن الادارة فاورث ذلك ما أشرنا اليه من أنموذج الغنى وتبعه ثروة الدولة التى هى بيت مال الاهالى بعد ان كانت منذ مدة ليست بطويلة فى غاية العسر والفقر من سوء ادارة حكومتها والحروب الاهلية والخارجية فذكر لى ان منذ نحو سبعين سنة كان لرجل منهم من أوراق دين دولتهم ما قدره عشرون مليونا فرنكا واحتاج ان يفطر ولو بيضا وخبزا فلم يجد من يعامله ولو بالعشرين مليونا التى معه مع ان دين الدولة الآن الذى يدفع فائدة خمسة فى المائة تساوى المائة منه مائة وعشرين نقدا فانظر عجيب الفرق بين الحالتين فى المدة القريبة وأحوال البريد هى فى أول درجة من الانتظام فى هاته المملكة

برا

براو بحرا ومواصلة الطرق الحديدية والصناعية مع عجلات حمل الاثقال المختلفة الاشكال مع المتانة والحسن زادت التجارة رواجا بحيث ان السلع وغيرها لا تحمل الا على العجلات وفى المدن العظيمة لا تجرها الا الخيل السليمة او البغال بقلة وسفن البريد تصل الى أقصى ممالك المشرق والمغرب ومما يحسن ايراده عنوانا عما عندهم من الغنى ان الحكومة المصرية مدة ولاية خديويها اسمعيل باشا باعت سهامها من خليج السويس لدولة انكلاتيره بمائة مليون فرنكا فكثر فى ذلك القيل والقال من جهة السياسة خوفا من استيلاء انكلاتيره على الخليج المذكور واهتزت لذلك فرانسا أزيد مما سواها فذكرت احدى صحفهم يوما ان روشيلد أحد الصرافين الكبار المشهور بالغنى قد أعطى لصهره اذ ذاك مائة مليون فرنكا وخمسة وعشرين مليونا مهرا لابنته ثم ذكرت على وجه التحمس والدعابة بان البائع لو خطب هاته البنت لولده وزوجها به لاخذ مائة مليون لحاجته وزاد بخمسة وعشرين مليونا مع بقاء السهام على ملكه وراحة العالم من التشويش والاضطراب

مطلب

﴿فى الاحكام﴾

(الاحكام) فى فرانسا أصولها هى المذكورة فى ايطاليا لان القانون الاصلى فى ذلك هو قانون نابليون الاول امبراطور الفرانسيس وانما بينهم بعض خلافات مبنية على اختلاف العوائد وادارة الاحكام منفردة عن الادارة السياسية ولا سلطة لهاته عليها بالمرة ودونك مثلا لذلك وهو ان رستان الذى كان قنسلا لفرانسا وسعى فى الانقلابات التى حدثت فى تونس قد تكلم ضده وضد تصرف دولة فرانسا كثير من رجالهم فى المجامع العامة وكذلك تكلمت ضدهم جملة صحف خبرية فرانساوية وغيرها وأشد الصحف مضادة الى رستان وأعماله صحيفة لانترانسيجان التى يطبع منها يوميا ١٠٠ر٥٣١ نسخة وصاحبها هو الرجل الشهير رشفور الفرانساوى وقدح فى عرض رستان في المال والسياسة وصار انكاره ذا رنة عظيمة حيث جعل استيلاء فرانسا على تونس كان لفوائد خصوصية مالية لمن سعى فى ذلك ولمن أعان وكان رستان أشد تهمة فاراد رستان تبرئة نفسه باقامة الدعوى على صاحب الصحيفة لدى مجلس الحكم وترافعوا وأدلى كل منهما بما توصل اليه من الحجج وكانت عدة رجال من الدولة الفرانساوية فى الانتصار الى رستان حتى الوزراء السابقون

فى الخارجية شهدوا له بانه منفذ لاوامرهم ولم يتحقق عندهم ما يدعى به عليه ومثلهم
المتنصبون فى الوزارة وحاولوا استطاعتهم فى نصرته لكن الحق بدا وغلب ولم يمل مجلس
الحكم لاهواء أحد وحكم على رستان وألزمه بأداء مصاريف المحاكم وبذلك صحت
مقالات الصحيفة المشار اليها وخرج صاحبها صادقا منصورا وقد ترجمت جميع جلسات
مجلس الحكم المشار اليه وأفردت بالطبع حتى باللسان العربى وبالاطلاع على ذلك
الكتاب يتأيد جميع ما ذكرناه فى الاحوال التونسية وأسباب انقلابها ويتأيد ما ذكرناه
فى السياسة الخارجية لفرانسا وفى السياسة الخارجية لتونس وما ذكرناه هنا من انفراد
إدارة الاحكام عن ادارة السياسة سيما بعد ارجاع رستان المذكور لوظيفته فى تونس
بعد تلك المحاكمة مما يشهد لما قلناه فى مباحث السياسة من أن سياستهم الخارجية ليست
هى كانصافهم فيما بينهم فى داخليتهم وهو مما يحقق أن الرجال المنتخبين للاحكام انما
يكونون من أعف الموجودين وأنصفهم لا تميل بهم الاهواء عن الاستقامة غير ان هذا هو
الاغلب لاسيما فى المدن العظيمة وفى المجالس الانتهائية (وأما) غيرهم فالارتشاء بينهم
فاحش يكاد أن يكون مثل ما يصفون هم به حكام المشرق وطريقة الوصول اليه عندهم
أيسر بما لهم من اباحة خلطة النساء فالمعطى للرشا يجعل الوسائل للتوصل الى احدى
النسوة ذات النفوذ لدى الحاكم ويرشيها فتبلغه قصده بنفوذها بسبب قرابة أو وداد
أو غير ذلك لدى الحاكم وربما أوصلت اليه حصة من الرشا وعلى تقدير الاكتفاء بما
أخذته هى فهو أيضا ارشا للحاكم حيث مال بالحكم للجهة التى انتفعت منها من يريد نفعها
وبهاته الوسيلة تكون خصلة الرشاء عندهم مستورة نوعا ما الان ظهورها يوجب العقاب
الشديد بالقوانين مع عدم وجود الشفاعة عندهم ومع ذلك يوجد فى هؤلاء أيضا كثير
متعففين وقد حضرت يوما فى مجلس الحكم لرؤية هيئة الاحكام والحكام فى باريس فاذا
هو بيت كبير مستطيل له باب يدخل منه المتفرجون وباب للمتوظفين وباب للخصوم وفى
صدره مسطبة عالية عليها ثلاث كراسى وأمامها مائدة مستطيلة عليها لكل كرسى دواة
وأقلام وورق وعن يمين تلك الكراسى كرسى طويل يجلس عليه أزيد من عشرين شخصا
وعن شمالها باب وأمامها فى نحو نصف البيت درابزين حائلة بين المتفرجين والخصوم
وللمتفرجين كراسى يجلسون عليها وبقرب الكراسى التى فى الصدر كراسى سفلية
أحدها لرئيس الكتاب والثانى لوكيل الحق العمومى الذى رتبته رتبة محتسب عام
على الحقوق وله اعتبار كاعتبار رئيس المجلس وبعد هنيهة من دخول المتفرجين خرج من
الباب

الباب الذى على الشمال رئيس المجلس ومعه عضوان كل منهم لابس جبة طويلة
بأكمام واسعة حمراء وعلى أكتافه منديل مقصب بالذهب وعلى رأسه شعر أبيض عارية
له ذنب معقود على قذالهم فوقف لهم الحاضرون وأومأ الرئيس بالسلام لهم ثم جلس
الرئيس على الكرسى الوسط والعضوان عن يمينه وشماله وجلس كل من وكيل
الحقوق والكاتب على مرتبته ولكل منهم أيضا زى خاص يشبه زى الرئيس والاعضاء
ثم دخل وكلاء الخصام الذين لهم ذلك الوقت دعوى ولكل منهم مثل ذلك الزى ثم دخل
من باب خاص جمع من الناس باللباس المعتاد وجلسوا على ذلك الكرسى الطويل وهم
الجورى فتكلم الرئيس بالسؤال عن حضور شاهد فأحضر واقفا خلف أمامهم ثم أدى
شهادته وبعد سكوته سار الرئيس والاعضاء ثم خاطبه الرئيس لائما عن عدم حضوره
فى اليوم المعين له ومعلما له بما يجب عليه من العقاب عن ذلك فاعتذر بالوحدة فأعلمه
بلزوم الحكم فيه فوقف وكيله وقال ان الشاهد مسكنه فى المحل الفلانى وهو غريب وفقير
عاجز عن اكراء من يستعين به فوجه الرئيس القول للشاهد مشددا بلزوم الحكم عن
مخالفة القانون ثم سار العضو الذى عن يمينه ثم الذى عن شماله ثم أمر الشاهد بالانصراف
وانه ان عاد لمثلها أجرى عليه الحكم وانصرف ثم قام الرئيس والاعضاء ودخلوا من ذلك
الباب الخاص ولحق بهم وكيل الحق العام وبعد نحو ربع ساعة خرجوا وأحضروا
المحكوم عليه مع أحد أعوان الحاكم وقرأ الرئيس ورقة صغيرة بالحكم على الجانى ثم
التفت الى الجماعة الجالسين عن يمينه وهم الجورى وسألهم عما ظهر لهم فوافقوه وانصرفوا
جميعا وخرج المتفرجون اذ لم يكن ذلك اليوم الا تلك النازلة وقد أفهمنى وكيل الحق
العام أن الحكم كان مهيأ من قبل لتمام النصاب بدون ذلك الشاهد غير أنه لما حضر
تم شهادته والمحكوم عليه جانى بتزوير السكة وكان جميع من حضر سكوتا بغاية التوقير
للمجلس وذلك الشعر الذى يضعونه عارية على رؤسهم الاصل فيه ان اللائلويس الرابع
عشر كان ردىء الشعر فاتخذ له عارية وكان اذ ذاك شيخا فاقتدت به أماثل البلاد وسرت
منهم الى غيرهم من الامم وان قل استعمالها الآن الا فى المواكب الحافلة والقضاة ومن
أهم ما يذكر فى أحوال الادارة الحكمية تنبيه الضابطية وهم الحارسون للبلدان وشدة
تنقيرهم وبحثهم ومراقبتهم حتى يتمكنوا بسهولة على الجناة ومع هاتيك المراقبة
والاحتراس الشديد يقع الاحتيال البليغ من الجناة لكى يتوصلوا الى غاياتهم وكثيرا
ما يبلغون اليها لكنهم أيضا كثيرا ما تكشف أمرهم الضابطية وتتمكن منهم فقد ذكران

أحد الصيارفة الكبار في باريس كان جالسا يوما في محله واذا برئيس ضابطية باريس قد
جاءه فاكرم مقدمه ورحب به فاخبره الرئيس انه محتاج لمبلغ وافر من المال لبعض
المصالح غير انه لا يريد افشاء ذلك ولهذا أتاه بنفسه ليقرضه لمدة قصيرة ايما الضرورة
المصلحة عاجلا مع رجوعه لمتعلقات وظيفته فاقرضه ذلك المبلغ على نحو القواعد الجارية
عندهم وكتب له خط يده فيه وانصرف فمضى الاجل ولم يأت المال لصاحبه فبعد
ثالث يوم ذهب الصيرفي بنفسه الى رئيس الضابطية ودخل عليه وبعد السلام انتظره
الرئيس فيما يقول لانه من العادات المتأكدة عندهم ان الزائر لا يؤخر الكلام في مقصد
زيارته ولا يخوض في الفضول سيما لاصحاب الوظائف لان الزمان مقسم كما انه لا يدخل
عليهم اثنان معا ليس بينهما علاقة في نازلة واحدة لكن الصيرفي اعتمد على علم الرئيس
فيما هو مطلوب فيه ولم يذكر له شيأ فلما مضت بعض دقائق سأله الرئيس ما هي حاجتك
فتعجب الصيرفي وقال انها ذلك المال الذي أتيت اليه بنفسك ولذا لم أرسل لك غيري
فاستغرب الرئيس في سره وتلطف في السؤال بقوله ذكرني النازلة لانه علم أن الصيرفي
من كبار الاغنياء المعتمدين ولا يقول كلاما مثل ذلك افتراء ويعلم من نفسه انه لم يذهب
اليه فعلم أنه لابد للامر من واقعة فبين له الصيرفي ما وقع منه الى ان قال له وكتبت خط يدك
ففكر مليا وطلب منه التمهل بعض ايام أخر من غير كشف للسر الى أن يقع الخلاص
فخرج الصيرفي أيضا مفكرا فيما رأى من الرئيس وفي نفس الجواب لان ذلك مخالف
لعادة الاقراضات ثم ان الرئيس أعمل فكره بان النازلة لابد انها وقع فيها احتيال على
الرجل من انسان مشابه للرئيس ثم دعا ضابط مركز الضابطية الذي بقرب دار الصيرفي
وسأله هل رأيتني منذ كذا يوما قدمت الى ناحيتكم فقال نعم فقال في أي وقت فبين له
الوقت وهيئة الركوب بانها على الوجه الرسمي من الابهة والملابس والعجلة فازداد تحققا
لارتكاب الحيلة ثم سأله والى اين ذهبت فاجابه بانه ذهب لدار الصيرفي الفلاني وبقي
عنده حصة كذا ثم خرج من عنده متوجها الى الجهة الفلانية فدعا الرئيس ضابط
الجهة التي عينها الضابط الاول وأخبره بمثل ذلك وانه ذهب الى جهة كذا فدعا ضابطها
أيضا وهكذا تتبع الحال الى ان أخبره الاخير بانك دخلت الدار الفلاني ثم رجعت العجلة
خاوية وبقيت أنت هناك ولم تخرج باللباس الرسمي فدعا بدفتر من سكن تلك الدار لان
كل محل سكن فيه انسان لابد وأن يقيد اسمه عند صاحب الباب أو عند صاحب منزل
المسافرين وأحضر الناس الذين سكنوا في الوقت المعين في تلك الدار فوجد بينهم رجلا

يشبه

يشبه الرئيس في الذات والوجه فدعاه منفردا وقال له أين المال الذي أخذته باسمي
وان لم تظهره بطيب نفس أظهرته منك من غير ارادتك كما أظهرتك أنت فلم يسعه الا
الاقرار به ورجع الرئيس المال الى صاحبه معلما له بانه لم يستقرض منه وانه احتيل
عليه في ذلك ولهم من أمثال هاته الاحتيالات في السرقات أمور كثيرة وساعدهم على ذلك
تيسر احضار الوسائل مثل مامر في كون السارق تيسر له لبس مثل لبس رئيس الضابطية
ووجد أيضا عجلة ذات أبهة وخدمة مثل عجلة الرئيس الى غير ذلك لان تلك الامور موجودة
بسهولة كراء وشراء ولا منع من استعمالها الا ما كان منها من مشارات الحكومة
المحلية أو غيرها فانه اذا كشف على المزور يعاقب ومع شدة الاحتراس والضبط على نحو
ما ذكرناه فانك لا تكاد تجد رجلا بل وكثير من النساء يخرج بدون حمل سلاح صغير خفي
كالحديد في وسط عصا الاتكاء وكالطبانجة ذات الطلقات المتعددة موضوعة في الجيب
الى غير ذلك وهذا جار حتى في نفس باريس وقد كنت مارا ليلة في عجلة مع أحد الوجوه
ومع زوجه ذاهبين لدعوة عند فرديناند لسبس فاتح خليج السويس فسألتني المرأة عن
نوع السلاح الذي معي فاجبتها متعجبا باني ليس معي سلاح وما الحاجة اليه وانا في وسط
باريس فقالت هي وزوجها لابد من حمل شيء فان الوقائع في باريس تحير الافكار
ولذلك لا يخلو أسبوع بل وأقل منه بدون وجود مقتولين سيما في نهر السين فانهم يجدون
في الشباك الموضوع في أسفل النهر خارج باريس كثيرا من جثث المقتولين اما بقتل
غيرهم أو بقتل أنفسهم وذلك لان كثيرا من الاهالي من يقتل نفسه لتسخط من أمر
دنيوي غير ان هذا التخوف في باريس لا يقع في الطرق الشهيرة كالشانزيلزي والبلفار
لكثرة المارة بها ومن عوائد حكمهم اغضاء النظر عن الزنى بحيث ان المومسات يتبرجن
جهرة بلا معارض ولهن ديار تجمع اعدادا وافرة وديار لابناء الزنى الذين تلقيهم امهاتهم
وأكثر التجاهر به في باريس ودونك شاهدا على تفاحشه فقد حرر عدد النفوس سنة
١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م فكان المتزايد في سائر فرانسا ٩٢٠١١٧ مولودا منهم
ابناء زنا ٦٨٢٢٠ مولودا

مطلب

﴿في المعارف﴾

(اعلم) أن المعارف الدنيوية في فرانسا قد تناهت لاعلى درجة من الاتقان والاجتهاد

وما تقدم فى أحوال باريس ومافيها من المكاتب والكتب وجمعيات الفنون والحث عليها كاف فى بيان ارتقاء تلك الفنون فى فرانسا حتى أقر لها بذلك سائر الامم فى أوروبا وصار واعيالا عليها فى كثير من الفنون ومن ذلك فن الطب ومقدماته فان المعالجة بالمعادن بمجرد اللمس التى ذكرنا طرفا منها فى الباب الاول عند ذكر معالجة مرضى كان اطلع عليها أحد الاطباء الكيمياويين من النمساء ولكنه لم تقبل منه حتى قدم الى باريس واطلع عليها الحكيم شاركو وبعد تجربته لها واعطائه الشهادة والاجازة فيها اشتهر أمرها وتعاطتها الاطباء فى سائر الاقطار ومن أسباب الترقى فى المعارف عموما صناعة الطبع وقد تقدم فيها الفرانساويون الى الذروة القصوى وعندهم من الصحف الخبرية السياسية فقط مما يطبع فى مدينة باريس وحدها يوميا ستة وخمسون صحيفة يخرج من مجموعها يوميا ١٫٩٤٣٫١١٠ نسخة وهى منقسمة الى أحزاب السياسة فمن صحيفة واحدة تسمى لبتى جرنال يطبع يوميا ٥٨٣٫٨٢٠ نسخة وما عداها أقل كل على قدر رواجه ولا تكاد تجد سائق كروسة أو عجلة حمل بدون ان تكون عنده صحيفة يومية يقرأها وقد أطنب الاطناب الحسن فى بيان تقسيم العلوم وترتيب اقراتها وافادتها العلامة رفاعة بك رحمه الله ونعمه فمن أراد الوقوف على التفصيل فعليه بمراجعة رحلة المذكور الى أوروبا والحاصل ان الفرانساويين محصلون على الدرجة العليا فى المعارف الدنيا ويقولهم اعتناء بسائر الفنون فيترجمون الى لغتهم كل كتاب فى فن غير معروف أو غريب ويدرسون اللغات الاجنبية واللغات القديمة التى لم يبق من يعرفها وتوصلوا الى معرفة خطوطها بوسائل جيدة لكن مما ينبغى علمه أن مدرسيهم فى الفنون التى يقصرون فيها يستعوضون قصورهم بمالهم براعة فيه فترى مدرس العربية مثلا يخرج بادنى مناسبة لفظية الى علم الجغرافية ثم الى علم الاقتصاد السياسى ثم التاريخ ثم الهندسة ثم الكيمياء ثم وثم الى أن ينقضى الزمان من غير ان يفيد حقيقة المقصود من بلاغة بيت شعر أو مثل مما هو موضوع البحث وتخرج تلامذته معجبين من براعة شيخهم وانه علامة العربية مع انه لا يعرف مزية تقديم المسند أو المسند اليه بل معادات الضمائر لا يحسنها فضلا عن الاعراب وذلك يوجب الجهل باصل الفن والغلط ن العموم بظن تحصيلهم حقيقة اللغة العربية وقل جدا من يحسنها مع أن فيهم المتفاخرين بعلم الترجمة بل والمدعين بالتاليف فيها ثم ان التعاليم لها مكاتب على طبقات ابتدائية ووسطى وانتهائية وعليا فالطبقة (الاولى) لا تكاد تجد قرية خالية عنها والثانية والثالثة انما توجد فى المدن الكبيرة

الكبيرة كمرسيليا (وأما الرابعة) فلا توجد الا فى باريس واليها تأوى التلامذة بعد استكمال معارفهم على ان الاثرين يؤثرون التعليم من البداية فى باريس بل ولا يختص هذا باهل فرانسا فان الكثير من ممالك المشرق وبعض غيرها يرسلون ابناءهم للتعلم بها وفضلا عن الفخر بالعلم يفتخر بالتعلم بها وهى جديرة بذلك لولا طيش فى اخلاق غالب المتعلمين بها من الغرباء سيما المسلمين فانهم يحدث لهم فساد فى اخلاقهم لخروجهم عن الطور والادب الداعى له العرض والدين وكان سبب ذلك رؤيتهم بها كثرة الخلاعة والاطلاق والنفوس مائلة الى الخبائث نسأل الله التوفيق ومن أسباب ترقى المعارف كثرة الكتب وسهولة التوصل اليها ففى فرانسا ٥٠٠ مكتبة تحتوى على ٤٫٥٩٨٫٠٠٠ كتابا من الكتب المطبوعة و ١٣٥٫٠٠٠ من كتب الخط ومكتبة الامة فى باريس هى أكبر الجميع ففيها ٣٫٠٧٨٫٠٠٠ مجلدا

مطلب

(فى الصنائع)

(الصنائع) فى فرانسا مضاهية لما فيها من المعارف والفلاحة فهى متقدمة للغاية علما وعملا بحيث ان لها مدارس عديدة تأوى اليها التلامذة من الآفاق لاخذ علومها بالتدريس والمشاهدة وكل مدرسة تحوى من آلات العمل وآلات العلوم الآلية للفلاحة كالطبيعيات جميع ما يحتاج اليه وهكذا سائر الصنائع بحيث أن مصنوعاتها متقنة طريفة للغاية يرغب فيها فى سائر الاقطار لظرفها وتحسينها ورونقها وان كانت بعض الاقطار أمتن صناعة وفرانسا جامعة لكل الصنائع المعروفة فى العالم حتى الخزف الصينى والمنسوجات الكشميرية يقلدعليها فى فرانسا ويؤتى بالمصنوع مشابها للاصل وقد برعوا فى الآلات بانواعها سيما الكهربائية وقد خصوا لها معرضا سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م لامتحان ما أثمرت من الفوائد وقد رأيت سنة ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م آلات غريبة كهربائية منها آلة يمكن بها رؤية ما فى داخل المعدة بان تؤخذ قناة جيدة من الاصطيك وطرفها زجاج وتدخل فى الحلق الى ان تصل للمعدة ويجعل فى أعلى الحلق مقابل المعدة مرآة صغيرة ومقابلها على اللسان مثلها ثم يدخل فى القناة سلك معدنى لين الى ان يصل الى الزجاج الذى فى المعدة ثم يوصل بالسلك من خارج أسلاك الكهربائية الضيقة فيضئ السلك فى المعدة من غير احراق ويرتسم خيال المعدة بما فيها فى المرآة

العلياو يرتسم مثله منها فى المرآة التى على اللسان و ينظر الطبيب بالمرآة المكبرة ما يريد وبمثل ذلك ينظر فى الرحم وداخل الاذن والحلق ورأيتهم بصدد تجربة جر الاثقال بالكهربا وارونى آلة صغيرة تغلب قوة الانسان الجيد اذا كان قابضا يديه تفتحهما والعكس باسرع وقت فلا يبعد ان تطال تلك الآلة على طريق مناسب و ينقل بها الاشياء من مكان الى آخر وان بعد ما مع تدبير حفظ الجسم من خرق الهواء فى السرعة المحرقة وقد رأيت سنة ١٢٩٨ ه‍ ١٨٨١ م سيرتل صغير للتجربة بالكهربا على وجه آخر كما ذكرنا فى أحوال ايطاليا و رأيت فى باريس أيضا مسامك مصورة باشكال حيوانات تتحرك أعضاؤها وعيونها بالكهربا مع صغر جرمها حتى يوضع المسامك من الذهب فى رأس المرأة والآلة الكهربائية تخفى فى الشعر و يرى الحيوان متحركا ومنه صورة فراش بالوانه البديعة من أحجار الزمرد والياقوت الاحمر والابيض وغير ذلك من الاحجار الكريمة المطابقة لالوان أجنحة الفراش وهو يخفق باجنحته الاربع فوق الرأس بالكهربا وهو غريب بديع جدا

مطلب

﴿فى هيئة المساكن والطرقات﴾

قد تقدم فى ايطاليا الهيئة العامة فى المساكن وهاتيك الهيئة بنفسها هى التى عليها العمل فى فرانسا غير أن باريس وحدها تزيد رونقا بما احتوت عليه من كثرة الطرقات المتسعة جدا و بكثرة التنظيف والتنوير فى الليل كما انها تختص بان بعض طرقها مستور من تبليطه أو تحصيبه بطلية بنوع صمغى يسمى اسفالت بحيث يكون بعد الجفاف رخوا فاذا مرت عليه العجلات لا تسمع لها الا همسا وتسمع قرع حوافر الخيل على الارض كالتصفيق المغطوط مع مزيد الهدو للركاب حتى كأن العجلة لا تتحرك فتلك الطرق مروحة جدا غير انها لم تعم لانها فى الصيف تفشو منها رائحة كريهة ولا نها فى الطرق الكثيرة المرور تعطب فيها العجلات المارة بسبب عدم سماع حركتها وامكان الغفلة عن العجلة هذا (وأما) عموم البلاد والقرى فان لكل منها محاسنا بلد يا دأبه التحسين والتنوير فى الليل بالبخار الغازى أو زيت النفط وهو قليل الاستعمال أو بالكهربا وهى أيضا لم يزل التنوير بها قليلا ولكنك لا تجد قرية غير منورة الطرق أو غير مصنوعتها على حسب اقتدار الاهالى فضلا عن المدن والامصار وكل طريق مسمى باسم

باسم مكتوب على مبدئه وعلى كل باب عدد خاص ثم ان طرق الحديد موجود منها كثير حتى صارت فرانسا مرتبطة جميع الاطراف والاواسط ببعضها وعلى حافتى الطريق اخشاب شاخصة مربوط بها اسلاك حديدية علامة على حرم الطريق لكى لا يجتازه الناس ولا حيواناتهم ولا زالوا مجتهدين فى تكثير هاته الطرق الحديدية ثم ان مساكن الجهات الشمالية أحكم استعدادا للبرد من الجهات الجنوبية وان كان لهاته أيضا نصيب وافر منها بحيث لا تجد بيتا فى الجميع بدون موقد اما للحطب أو للفحم المعدنى أو البخار الغازى بل و بعضهم يطبخون بهذا البخار وقد مر ان فى باريس اخترعوا التدفئة للديار من مركز عام فى البلد ثم ان سائر الديار لا يبلط منها بالرخام أو غيره من الاحجار الا الدرج والمجازات الخارجة (وأما) بقية البيوت والمقاصير فانها مبلطة بالخشب المتين وتحسينه وزخرفته تبع لحالة الدار وكل الطواقى التى هى مثل الابواب فى الارتفاع والانتهاء الى الارض لها أبواب من خشب منجور ولها أبواب نحو ثلثها الاسفل خشب وثلثيها العلويين ذوى أطباق من الزجاج وأكثر الطواقى لها مع ذلك أيضا أبواب من أضلاع الخشب المنجور مقصمة بتحرك تقصيمها وكل تلك الابواب ذو دفتين ينفتحان يمينا وشمالا (وأما الحمامات) فهى عبارة عن ديار ذات مجازات طويلة بها عدة مقاصير صغيرة كل منها يحتوى على حوض من معدن أو حجر له منفذ من أسفل يخرج منه الماء الوسخ وله أنبوبان للماء الحار والبارد وتحتوى على كرسى ومصطبة ومرآة ومشط وأرضها مفروشة بزرابى والاغتسال انما هو فى الحوض وكل الاهالى يعتنى بتنظيم مفروشات بيته على قدر سعته والاغنياء لهم ترف زائد فى الاثاث والتحف وفى المدن الكبيرة يقيمون أسواقا فى يوم خاص من كل اسبوع فى الحارات المتطرفة وحوانيته من خشب أو كتان تنصب فى الطرق الوسيعة وترفع فى يومها يباع بها أنواع الاكل من لحم و بقول وفواكه و بعض تحف وثياب يشترى منها أهل تلك الحارات كفايتهم للاسبوع

مطلب

﴿فى اللبس﴾

اللبس فى فرانسا وفى ايطاليا سواء عند الرجال والنساء وكذلك اللبس الرسمى والعسكرى الا بعض شارات والوان فى الملبوسات تختلف بينهم (أما أصل) الهيئة فواحدة وحيث كانت الرفاهية فى الفرانساويين أزيد فتجد نساءهم أكثر تبدلا فى لون اللباس وشكله

ورفعته على الجملة كما انهن أزيد أيضا فى وضع دقيق أبيض وأدهان أخرعلى وجوههن قصد التزين وان كان ذلك يورث فسادا فى البشرة وأكثر ذلك العمل فى نساء باريس وتراهن يتفاخرن بالنحول واصفرار اللون لانه كثيرا ما يحدث من كثرة السهر أو العشق وكلاهما ممدوح عندهم لان السهر ينشأ من اجتماع الاحبة والاجتماع يستدعى المصاريف فهو علامة على الغنى بالوسائط كما ان من علامة الكبرياء ان تكون خدمة البيوتات فى المحافل يذرون على رؤسهم غبارا أبيض والاصل فيه ان بعض المغنين كانوا يغنون فى موسم صان جرمان بخارج باريس وبهم قرع فبيضوا رؤسهم ليضحكوا الناس فتدرجت العادة شيأ فشيأ الى ان فشت سنة ١٦١٤ ثم فى سنة ١٧٩٠ جعلت عليه ضريبة للدولة واستمرت الى الآن

مطلب

﴿فى الاكل﴾

هيئة الاكل فى فرانسا هى الموجودة فى ايطاليا على السواء وكذلك المأكولات سواء غير ان طعام الفرانسيس أكثر أشكالا وألذ طعما لجعلهم الابزرة فى الطبخ أحسن من الطليان ولذلك تجد لطعامهم رائحة لذيذة مثل رائحة طعام العرب (وفى المدن) توجد انواع الخبز على مراتب شتى ولهم نوع يؤكل صباحا مع اللبن والزبدة جيد جدا صنعة وصفاء وطيبا وفى خصوص باريس جميع أنواع الاطعمة المتداولة بين الامم الشهيرة وان كانت بأثمان غالية فقد أخبرت فيها بوجود مطبخ خاص باطعمة الترك والعرب وأوتيت منه بصحن كبير عملوا كسكسوا بلحم الدجاج وصحن آخر بالبسامية المعروفة فى تونس بالقناوية وثمنهما مع أجرة الحمل اثنان وأربعون فرنكا وهما يكفيان لشبع ستة أنفس طبخهما الذيذ على نحو الاصل كما انك تجد فيها جميع الغلال من جميع الاقطار لاى وقت كان بل قد أتوا بعشوش نوع من الخطاف فى الهند والصين يصنع عشه بنبات بحرى ويطبخونه ويأكلونه أعنى ذات العش بما احتوى عليه من زرق افراخ الخطاف ويستلذونه ويمدحونه وأغرب من ذلك انهم يأكلون الضفادع ويستلذونها أيضا بحيث يصح ان يقال انهم يأكلون كلما يؤكل ولا يكون قتالا أو مضرا عاجلا غير ان الاكل العام هو الدقيق من القمح ولحم البقر وللفقراء لحم الخيل أيضا والضان أقل استعمالا من البقر وفى القرى وشبهها يأكلون الشعير والذرة والبطاطس والفقراء أكثر استعمالا للخنزير

من الاغنياء والاكل فى القرى والبلاد الصغيرة أسلم من المدن والامصار من الغش بالخلط للأشياء المضرة كالقهوة مثلا لا تكاد تجد قهوة فى باريس مطبوخة غير مخلوطة بالسرييس وهو نوع من البقول ثم ان أهل المدن لا يصنعون الخبز فى بيوتهم ولا يدخرون الاقوات وكل شئ يشترى من السوق يوميا الا قليلا من السكر ونحوه ويشترى اسبوعيا أو شهريا او اللحوم المشوية أو المقلية يجعلون فى نوع منها قطعا صغيرة من شحم الخنزير بحيث يشاهد عيانا كالمسامير فى اللحم وبعض الطيور يشوونها ويجعلون عليها نحو رداء من الشحم المذكور كما يجعلونه أحيانا فى بعض أنواع المرق فى ألوان الطعام الذى يكون مع اللحم شئ من المرق وكيفية الذكاة فى أوروبا عموما حسبما علمت ان البقر بعد ان يربط من قرونه يمينا وشمالا ومن ارجله أيضا حتى لا يستطيع الحراك وهو واقف يضرب على جبهته بمطرقة عظيمة من الحديد ضربة أو اثنتين حتى يغمى عليه فيذبح ويجمع دمه ليعمل منه نوع من الاكل فى المصارين وبعضهم يكتفى بالقتل بالضرب على الرأس لكنه نادر وقد أبطل فى ايطاليا منذ سنة ١٢٩٨ والزم الحكم بالذبح بحيث لا يباع غير المذبوح (وأما الغنم) وشبهها فتذبح ابتداء (وأما الطيور) فالاوز ودجاج الهند وأشباهها مما هو طويل العنق فيذبح ذبحا (وأما الدجاج) فيجذب عنقه الى ان ينقطع النخاع فيموت وينحصر الدم نحو الدماغ فيجمد ويؤكل على حدة (وأما الحمام) فالاكثر ذبحه وتارة يخنق وتارة يكسر ظهره مع قطع النخاع فيموت واذا تقرر هذا فلنذكر حكم طعامهم شرعا فطعامهم اما ان يكون من الخنزير ومثله الحيوانات المحرمة عندنا كالسباع واما ان يكون من الحيوانات المذكاة أى التى هى حلال عندنا وانما يتوقف أكلها على التذكية واما ان يكون من غير ذلك من المأكولات كالنباتات والمعادن والسمك وكل منها اما ان يتخذ لعادة كسائر المآكل المعتادة أو يتخذ لعبادة كالمتخذ لخصوص أعياد أو يتخذ لخصوص هدية لمسلم فهذه تسع صور حاصلة من ضرب ثلاث فى ثلاث وكل منها اما ان يكون محققا العين أو مشكوكا فيه فتصير ثمانى عشرة صورة وها أنا أذكرها اجمالا مع أحكامها ثم نورد أدلة الحكم

١ الخنزير وشبهه محققا العادة حرام ١ هـ	٢ هو العبادة محققا حرام ٢ هـ	٣ هو لهدية محققا حرام ٣ هـ	٤ مشكوك فيه لعبادة مكروه ١ هـ
٥ مشكوك فيه لهدية مكروه ٢ هـ	٦ مشكوك فيه لعبادة مباح ١ حـ	٧ المأكولات غير المذكاة محققة للعادة مباحة ٢ حـ	٨ هى محققة لهدية مباحة ٣ حـ
٩ هى محققة لعبادة مكروهة ٣ هـ	١٠ هى مشكوك فيها العادة مباحة ٤ حـ	١١ هى مشكوك فيها الهدية مباحة ٥ حـ	١٢ هى مشكوك فيها العبادة مكروهة ٤ هـ
١٣ اللحوم المذكاة محققة للعادة مباحة ٦ حـ	١٤ هى محققة لعبادة مكروهة ٥ هـ	١٥ هى محققة لهدية مكروهة ٦ هـ	١٦ هى مشكوكة للعادة مباحة ٧ حـ
١ ― م	١٧ هى مشكوكة لعبادة مكروهة ٧ هـ	١٨ هى مشكوكة لهدية مكروهة ٨ هـ	١ ― م

فاما

فأما الدليل على تحريم المسائل الثلاثة الاول فهو واضح لحرمة تلك الاعيان بالنص ولا حاجة الى بسطه لمعلوميته للجميع ولما كانت أحكام الشرع كلها مناطة بحكمة فما ادركناه قلنا انه معقول وما لا قلنا انه تعبدى مع العلم بانه فيه مصلحة لما لتنزه البارى تعالى عن الاحتياج وانما قصور عقولنا أوجب عدم الادراك ومهما بحثنا ودققنا النظر الازددنا خبرة وبصارة بحكم الشرع فمن ذلك القبيل ما اكتشف بالنظارات المكبرة والتحليلات الكيمياوية من ان فى لحم الخنزير حيوانات مضرة تورث أمراضا معضلة جدا وتلك الحيوانات ممتزجة فى لحمه لا تموت بالطبخ ولا بغيره فاذا أكل لحم الخنزير سرت تلك الحيوانات فى دم آكله وأضرته وأهالى اوروبا اكتشفوا ذلك واحتمى كثير منهم عن أكله (فنحمد الله) على شرعنا القويم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (واما دليل) مسائل الكراهة الثمانية وهى ٤ و ٥ و ٩ ❁ و ١٢ و ١٤ و ١٥ و ١٧ و ١٨ فاصل الحلية اما بأصل الاباحة فى غير المذكى أو باباحة طعامهم فى المذكى على ما سيأتى وانما أتت الكراهة من حيث الاشعار بالتعظيم لشعائر الكفر فى المتخذ للاعياد وكلما أشعر بذلك مكروه (أما) اذا قصد التعظيم فينتقل الحكم الى الكفر والعياذ بالله والمشكوك داخل فى ذلك كما سنوضحه والكراهة فى المذكى المتخذ للهدية جاءت من الخلاف فى حليتها حيث قال بعض العلماء ان النص دال على حلية طعامهم وما يتخذ للهدية لمسلم ليس بطعام لاهل الكتاب فلا يشمله النص وهذا القول وان لم يكن هو المعتمد عند غالب العلماء لكن مراعاته توجب كراهة التنزيه على ان لقائل ان يقول ان أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشاة المسمومة التى أهدتها له يهودية دليل على الاباحة وشمول النص للهدية فتنتفى الكراهة وهو مقتضى اطلاق النصوص الفقهية عندنا كما يأتى (وأما دليل) الاباحة ❁ للمسائل السبعة وهى ٦ و ٧ و ٨ و ١٠ و ١١ و ١٣ و ١٦ فما كان منها من غير ما يذكى فهو مباح بأصل الاباحة التامة لان كل ما لا تذكية له لا يتوقف على شئ مبيح سواء عدم المضرة والطهارة فهو من المسلم وغيره على السواء والاصل الطهارة حتى يتحقق النجاسة والشك فى كونهم لا يتحرون من النجاسة غير عامل كما كما صرح به شيخ الاسلام بيرم الرابع فى جواب سؤال عن جواز التيمم فى بلاد الحرب للشك فى مياههم واوانيهم من حيث عدم اتقاء النجاسة فقال بعد ذكر حكم التيمم وهذا كله مبنى على نجاسة مياه أولئك القوم وأنى لنا بذلك ومجرد احتمال عدم التوقى غير مقتض

الى الجزم بالنجاسة بل لابد من تحققها أو غلبة الظن بها ومن ثم جاز تناول طعام أهل الكتاب
واستعمال أوانيهم ولبس الثياب المجلوبة من بلاد الكفر بل المشتراة منهم بعد لبسهم
لها كل ذلك حملا على الاصل الذى هو الطهارة حتى يثبت ضدها الخ وفى حواشى
الدر للسيد ابن عابدين (رضى الله عنه) من كتاب الذبائح مانصه أقول وفى بلاد الدروز
كثير من النصارى فاذا جىء بالقريشة أو الجبن من بلادهم لايحكم بعدم الحل مالم يعلم أنها
معمولة بأنفحة ذبيحة درزى والا فقد تعمل بغير أنفحة وقد يذبح الذبيحة نصرانى تأمل
الخ والاصل فى هذا ماصرح به فى قواعد الاشباه من قاعدة اليقين لايزول بالشك
والمتيقن فى أصل الاشياء الطهارة فلا تزول بالشك فى المطعومات التى ليست محل للتذكية
ويوافقنا على ذلك مذهب مالك رضى الله عنه فقد نقل عنه أنه سئل عن الجبن الذى
يؤتى به من بلاد الروم وقد قيل انه يعمل بأنفحة الخنازير فقال أما أنا فلا احرم حلالا
(وأما) ان كرهه الانسان فى نفسه فلا أرى بذلك بأسا فأنت ترى تصريحه بالحلية وتبريه من
التحريم وانما جعل اجتنابه من الورع وهذا فى المذكى فما بالك بغيره ولا يرد على هذا
قاعدة اذا اختلط الحرام والحلال غلب الحرام الحلال المذكورة فى الاشتباه لان ذلك
فيما اذا تيقن وجود الحرام كاختلاط أشياء نجسة بأخرى طاهرة وكل منهما محقق الوجود
غير أنه ليس معلوما بعينه واستويا أو كان النجس أكثر فانه تغلب الحرمة للجميع أما اذا
كان الطاهر أكثر فيتحرى ويستعمل ماغلب على الظن طهره (وأما) مسئلتنا فان موضوعها
كون الذات المعينة التى أصلها الطهارة وقع الشك فيها هل طرأت عليها النجاسة أم لا (وأما
ما كان) من مسائل الاباحة مما لايحل أكله الا بالتذكية (فالدليل) على الحلية فيه
ماذكر فى الدر فى كتاب الذبائح حيث قال وشرط كون الذابح مسلما حلالا خارج الحرم
ان كان صيدا أو كتابيا ذميا أو حربيا الا اذا سمع منه عند الذبح ذكر المسيح الخ قال
محشيه السيد ابن عابدين قوله الا اذا سمع الخ فلو سمع منه ذكر الله تعالى لكنه عنى به
المسيح قالوا يؤكل الا اذا نص فقال بسم الله الذى هو ثالث ثلاثة حاشا اه لله هندية وأفاد
أنه يؤكل اذا جاء به مذبوحا عناية كما اذا ذبح بالحضور وذكر اسم الله وحده والذى
علمناه من حالهم الآن انهم لايسمون شيأ بل واللحم يوجد فى بلاد أغلب أهلها متدينون
بالنصرانية سيما فقراؤهم كالقصابين وفى مثل ذلك يحمل على حالة الجواز لما قال فى الدر
فى آخر الحظر والاباحة من قوله فعلم ان العلم بكون الذابح أهلا للذكاة ليس بشرط
الخ ويؤيده تصريح محشيه فيما نقلناه سابقا فى مسئلة القريشة والجبن بل وسيأتى
النقل

النقل بجواز مالم يسم عليه أو سمى غير الله تعالى اذا كان الذابح كتابيا وفى تنقيح
الحامدية أول الذبائح مانصه سئل فى ذبيحة الذمى الكتابى هل تحل مطلقا أو لا (الجواب)
تحل ذبيحة الكتابى لان من شرطها كون الذابح صاحب ملة التوحيد حقيقة كالمسلم أو
دعوى كالكتابى ولانه مؤمن بكتاب من كتب الله تعالى وتحل مناكحته فصار كالمسلم فى
ذلك ولا فرق فى الكتابى بين أن يكون ذميا يهوديا أو نصرانيا وحربيا أو عربيا أو تغلبيا
لاطلاق قوله تعالى وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمراد بطعامهم مذكاهم (قال
البخارى رحمه الله) فى صحيحه (قال ابن عباس) رضى الله عنهما طعامهم ذبائحهم ولان
مطلق الطعام غير المذكى يحل من أى كافر كان بالاجماع فوجب تخصيصه بالمذكى وهذا
اذا لم يسمع من الكتابى أنه سمى غير الله تعالى كالمسيح والعزير وأما لو سمع فلا تحل ذبيحته
لقوله تعالى وما أهل به لغير الله وهو كالمسلم فى ذلك وهل يشترط فى اليهودى أن يكون
اسرائيليا وفى النصرانى أن لا يعتقد ان المسيح اله مقتضى اطلاق الهداية وغيرها عدم
الاشتراط وبه أفتى الجد فى الاسرائيلى وشرط فى المستصفى لحل مناكحتهم عدم اعتقاد
النصرانى ذلك وكذا فى المبسوط فانه قال ويجب أن لا يأكلوا ذبائح أهل الكتاب ان
اعتقدوا أن المسيح اله أو أن عزيرا اله ولا يتزوجوا نساءهم لكن فى مبسوط شمس الائمة
وتحل ذبيحة النصرانى مطلقا سواء قال ثالث ثلاثة أو لا ومقتضى الدلائل واطلاق الاية
الجواز كما ذكره التمرتاشى فى فتاواه والاولى أن لا يأكل ذبيحتهم ولا يتزوج منهم الا لضرورة
كما حققه الكمال قال العلامة قاسم فى رسائله قال الامام من دان دين اليهود والنصارى
من الصابئة والسامرة أكل ذبيحته وحل نساؤه (وقد حكى) عن عمر رضى الله تعالى عنه
أنه كتب اليه فيهم أو فى أحدهم فكتب مثل ماقلنا فاذا كانوا يعترفون باليهودية
والنصرانية فقد علمنا أن النصارى فرق فلا يجوز اذا جمعت النصرانية بينهم أن نزعم
أن بعضهم تحل ذبيحته ونساؤه وبعضهم يحرم الا بخبر يلزم ولا نعلم فى هذا خبرا فمن جمعته
اليهودية والنصرانية فحكمه حكم واحد اه. وعلى هذا النحو ماذكر فى الهندية
وغيرها والسند للفقهاء فى هذا الحكم وهو قوله تعالى وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم
والذى رأيته فى الكشاف والبيضاوى وروح البيان وتفسير أبى السعود والرازى يفيد
ماذكر فى تفسير فتح البيان لسلطان بهوبال معزيا دات مفيدة فى هذا فانقتصر على ماذكر
فيه قال والحاصل ان حل الذبيحة تابع لحل المناكحة والطعام اسم لما يؤكل ومنه الذبائح
وذهب أكثر أهل العلم الى تخصيصه هنا بالذبائح ورجحه الخازن وفى هذه الآية دليل

على ان جميع طعام أهل الكتاب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين وان كانوا لايذكرون اسم الله على ذبائحهم وتكون هاته الآية مخصصة لعموم قوله تعالى ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وظاهر هذا ان ذبائح أهل الكتاب حلال وان ذكر اليهودي على ذبيحته اسم العزير واليه ذهب أبو الدرداء وعبادة ابن الصامت وابن عباس والزهري وربيعة والشعبي ومكحول وقال علي وعائشة وابن عمر اذا سمعت الكتابي يسمي غير الله فلا تأكل وهو قول طاوس والحسن وتمسكوا بقوله تعالى ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ويدل عليه أيضا وما أهل به لغير الله وقال مالك انه يكره ولا يحرم وسئل الشعبي وعطاء عنه فقالا يحل فان الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون فهذا الخلاف اذا علمنا ان أهل

❋ الكتاب ذكروا على ذبائحهم غير اسم الله وأما مع عدم العلم فقد حكى الطبري وابن كثير الاجماع على حلها لهذه الآية ولما ورد في السنة من أكله صلى الله عليه وسلم من الشاة المصلية التي أهدتها اليه اليهودية وهو في الصحيح وكذلك جراب الشحم الذي أخذه بعض الصحابة من خيبر وعلم بذلك النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الصحيح أيضا وغير ذلك الى ان قال وقال القرطبي وجمهور الائمة ان ذبيحة كل نصراني حلال سواء كان من بني تغلب أو غيرهم وكذلك اليهود قال ولا خلاف بين العلماء ان ما لا يحتاج الى الذكاة كالطعام يجوز أكله الخ فتحصل مما مر حلية المسائل السبعة المذكورة من الطعام وان الشك غير مؤثر فيها فان قلت قد ذكرت ان بعض الطيور يخنقونها ويأكلونها بلا ذبح وان بعض الاطعمة يجعل فيها شحم الخنزير فكيف الحكم في ذلك (فالجواب) أما الطعام الذي يتحقق فيه شحم الخنزير أو لحمه فهو حرام بالنص على نجاسة ذاته كما مر وطريق الوصول الى التحقق اما برؤية ذاته من الآكل فيما تتميز فيه أو بغلبة الظن في الالوان التي جرت العادة بوضعه فيها أو باخبار الطابخ أو المناول بان يسأله الآكل هل في هذا شئ من لحم الخنزير أو شحمه فان أخبره بالوجود امتنع والا حل لان خبره مقبول في المعاملات وان كان كافرا كما نص على ذلك في كتاب الحظر والاباحة من دواوين الفقه وصوروها بقول الكافر اشتريت اللحم من كتابي فيحل أو من مجوسي فيحرم وصرحوا بانه وان آل خبره الى ديانة يعمل به بخلاف ما اذا أخبر أولا عن حكم ديني كقوله هذا طاهر أو نجس أو حلال أو حرام لجهله بذلك بخلاف المعاملات وهذا السؤال انما هو على وجه الورع والا فالاصل فيما لم يتحقق فيه شئ من النجاسة هو الطهارة كما مر وينبغي ان يعلم انهم لا يقصدون الآن غش المسلم بأكله المحرم عليه كما يتوهم بعض العامة اذ عندهم الاخبار بذلك

بذلك كقولهم هو لحم دجاج أو لحم أوز ولا يعنيهم أمر الحرمة والحل عند المسلم بل جمهورهم لايدري شيأ من ذلك (وأما) مسئلة الخنق فان كان لمجرد شك فلا تأثير له كما تقدم وان كان لتحقق فلم أر حكم المسئلة مصرحا به عندنا وقياسها على تحقق تسمية غير الله انها محرمة عند الحنفية وأما عند من يرى الحل في مسئلة التسمية كما هو مذهب جمع عظيم من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين فالقياس عليها يفيد الحلية حيث خصصوا بآية وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم آية ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وآية وما أهل به لغير الله وكذلك تكون مخصصة لآية المنخنقة ويكون حكم الآيتين خاصا بفعل المسلمين والاباحة عامة في طعام أهل الكتاب اذ لا فرق بين ما أهل به لغير الله وما خنق فاذا أبيح الاول فيما يفعله أهل الكتاب كذلك الثاني وقد كنت رأيت رسالة ❋ لاحد أفاضل المالكية نص فيها على الحل وجلب النصوص من مذهبه بما ينثلج به الصدر سيما اذا كان عمل الخنق عندهم من قبيل الذكاة كما اخبر به كثير من علمائهم وان المقصود التوصل الى قتل الحيوان باسهل قتلة للتوصل الى أكله بدون فرق بين طاهر ونجس مستندين في ذلك لقول الانجيل على زعمهم فلا مرية في الحلية على هاته المذاهب فان قلت كيف يسوغ تقليد الحنفي لغير مذهبه قلت أما ان كان المقلد من أهل النظر في الادلة وقلد الحنفي عن ترجيح برهان فهذا رعما يقال انه لا يسوغ له ذلك وأما اذا كان من أهل التقليد البحت كما هو في أهل زماننا فقد نصوا على جميع الائمة بالنسبة اليه سواء والعامي لا مذهب له وانما مذهبه مذهب مفتيه وقوله انا حنفي أو مالكي كقول الجاهل انا نحوي لا يحصل له منه سوى مجرد الاسم فبأي العلماء اقتدى فهو ناج على ان الكلام وراء ذلك فقد نصوا على الجواز والوقوع بالفعل في تقليد المجتهد لغيره والكلام مبسوط في ذلك في كثير من كتب الفقه وقد حرر المبحث أبو السعود في شرح الاربعين حديثا النووية وألف في ذلك رسالة عبد الرحيم المكي فليراجعهما من اراد الوقوف على التفصيل فان قيل قد ذكرت ان الخنزير محرم وان كان من طعامهم فلماذا لا يجعل مخصصا بالحلية أيضا بهاته الآية أي آية طعامهم واذا جعلت آية تحريمه محكمة غير منسوخة فكذلك تكون المنخنقة ولماذا تقيسها على مسئلة التسمية ولا تقيسها على مسئلة الخنزير وأي مرجح لذلك (فالجواب) ان المأكولات منها ما حرم لعينه ومنها ما حرم لغيره فالخنزير وما شاكله من الحيوانات محرمة لعينها ولهذا اتفق على تحريمها في جميع أطوارها وحالاتها (وأما) متروك التسمية أو ما أهل به لغير الله والمنخنقة فان التحريم أتى فيه لعارض وهو ذلك الفعل

ثم أتى نص آخر عام فى كل طعام أهل الكتاب وانه حلال فاخرج منه محرم العين ضرورة وبالاجماع أيضا وبقى المحرم لغيره وهو مسئلتان احديهما مسئلة التسمية والثانية مسئلة المخنقة فبقيتا فى محل الشك لتجاذب كل من نصى التحريم والاباحة لهما فوجدنا احداهما وهى مسئلة التسمية وقع الخلاف فيها بين المجتهدين من الصحابة وغيرهم وذهب جمع عظيم منهم الى الاباحة وبقيت مسئلة المخنقة التى يتخذها أهل الكتاب طعاما لهم مسكوتا عنها فكان قياسها على مسئلة التسمية هو المتعين لاتحاد العلة (وأما قياسها) على مسئلة الخنزير فهو قياس مع الفارق فلا يصح اذ شرط القياس المساواة وانما اطلنا الكلام فى هذا المجال لانه مهم فى هذا الزمان وكلام الناس فيه كثير والله يؤيد الحق وهو يهدى السبيل

مطلب

﴿فى المواكب﴾

(اعلم) ان المواكب الرسمية فى أوروبا عموما متشابهة وقد تقدم ذكر حالتها فى ايطاليا فلا داعى لاعادتها هنا غير انه ربما يشكل على القارئ شئ وهو ان فرانسا ليس لها الآن ملك فمن هو مناط المواكب الرسمية فاعلم ان دعواهم فى الجمهورية انها خالية عن الملك هو أمر وهمى لان وظيفة الملك كانها أمر ضرورى لامندوحة عنه حتى وقع الخلاف بين علماء الكلام هل أن الملك واجب بالعقل أو السمع فقط واحتج القائلون بانه واجب سمعا بانا نجد أمما عائشون على وجه ما من الاستقامة بدون ملك وكل ذلك أمر وهمى ولا مجال للخلاف فى المسئلة اذ اقامة الملك أمر طبيعى لا تمكن الاستقامة بدونه وماذكره المحتج من وجود أمم الخ هو كاف فى الرد عليه لانه معترف بان تلك الامم أو القبائل تنقاد الى رؤسائها فالخلاف حينئذ انما هو فى اللقب وفى تحديد السلطة أو اطلاقها وكذلك حالة الجمهورية فى بعض الممالك الآن لان من يقيمونه رئيسا لها ماهو فى الحقيقة الا ملك عليهم لمدة معينة وتصرفه مقيد بحدود معينة فلا مندوحة لهم حينئذ عن الاقرار بوجوب الملك والانقياد اليه وغاية أمرهم هو اختلاف اللقب وزيادة الابهة والعظمة أما أصل التوقير والسمع والطاعة والانقياد له فكله موجود عندهم فرئيس الجمهورية يفعل جميع ما يحتاج فيه الى الملك من مراسم المواكب وغيرها غير انه أقل أبهة وضخامة من الملوك فى الملبس والاعوان وأما بقية المواكب الاعتيادية فهى

كما

كما مرذكره فى ايطاليا وقد دعونى فى سنة ١٢٩٢ للفرجة على موكب دفن اثنين من الجنرالات ماتا سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٧٠ م فى حرب الكومون أى الاشتراكيين فى باريس وكانت جثتهما مصبرة فى صناديق بكنيسة ليزانفاليد المدفون بها بونابارتى الاول وأعدوا لهما موكبا حافلا باحضارهم جمغفيرا من العساكر المشاة والخيالة والطبجية بمدافعهم ووقفوا فى البطحاء الكبيرة أمام الكنيسة وغصت سائر الطرقات والميادين بالخلائق المتفرجين وامتلأ داخل الكنيسة بالاعيان المدعوين وكانت فوانيسها موقودة والشموع الكثيرة مسرجة وكبار القسوس حول المعبد يرطنون بالحان ونغمات تمديدية تميل الى الحزن يتغنون واحدا فواحدا ولهم سكتات فى الوسط يضج فيها قوم من صغار القسوس جالسين فى رواشن عالية محيطة بداخل الكنيسة والمغنون ترطينهم بانغام أيضا شبه السافين وهكذا الى ختام أدعيتهم ثم حملوا الجنازتين المكسو تابوتهما بلباس أصحابهما الرسمى ووضعتا فى عجلات معدة لذلك مزينة بالازهار وتقصيب الذهب والفضة وسارت العساكر بمدافعهم فى المقدمة ومن ورائهم الجنازتان ومن ورائهما بقية المشيعين ركوبا فى كراريس سود وسرج الخيول أسود والخيل سود ولباس الركاب أسود وذهبوا الى المقبرة وكانت المدافع تطلق بعد كل خمس دقائق كل ذلك اظهار للعناية بمن نفع وطنه منهم ترغيبا لمن يسلك ذلك المسلك وعلى نحو من ذلك رأيت سنة ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م جنازة ملك الهانوفر الذى أدخلت مملكته دولة البروسيا فى مملكتها وفر هو وسكن فى باريس وهو شيخ مسن ولما مات حضرت جنازته امراء ووزراء المانيا وجعلت له دولة فرانسا أبهة على نحو ما تقدم غير انه أخرج من داره لا من الكنيسة ولقد تذكرت فى تلك الكنيسة عند ما شاهدت حركاتهم وهيئتهم قول نبينا صلى الله عليه وسلم الصادق الامين لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قلنا اليهود والنصارى يارسول الله قال ومن اهـ كما ورد ذلك فى الصحيح اذ علمت من ذلك منشأ وجود الكلات فى الجوامع وتغنى المؤذنين والمقيمين فيها واجابتهم للائمة بالحان متناسبة وتلحين الخطباء والائمة فى القراءة والدعوات الى غير ذلك من البدع التى ما أنزل الله بها من سلطان وماهى الا ضلالة وافساد وزيادة ونقصان فى العبادة ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحيث كان أعظم المواكب الاعتيادية عندهم هو رأس السنة نذكر ما وقع فى باريس فى رأس السنة الاعجمية الموافق لذى القعدة سنة ١٢٩٠ من حالة التزاور عندهم

فيهم الانهم يكتفون عن اتعاب الزيارة بارسال أوراق الاسماء فيما بين المعارف وترسل بواسطة البريد أو حمالين معدين لقضاء الحاجات يقفون فى الطرق وعلى صدر كل واحد قطعة من نحاس عليها عدد وسام من الحكومة بانه أمين مجاز له فى تلك الصناعة فوزع بواسطة البريد فقط مليون وخمسمائة وستون ألف ورقة عدا ماوزع بواسطة الحمالين وأرسلت الى أهالى باريس مكاتيب تهنئة من الخارج مليون وخمسمائة ألف وكان المرسل منهم فى يوم رأس العام من المكاتيب المضمنة فى البريد تسعة آلاف مكتوب ونسبتها الغير المضمن نسبة واحد من مائة

مطلب

﴿فى اللغة﴾

(اللغة) الفرانساوية فرع من اللغة اللاتينية ولهذا لم يزالوا يراعون فى الكتابة أصول تلك اللغة حتى يكتبون أحرفا لا ينطقون بها بل وبعضها لمجرد مراعاة الاصل بدون فائدة أخرى ولا زالت فى التهذيب والاعتناء بها ولها جمعيات علمية لتحسينها وضبطها وقد اشتهرت اشتهارا كليا فى العالم من وقت ارتقاء نابليون بونابارتى الاول الى امبراطورية فرانسا حتى وقع الاتفاق بين الدول الاروباوية على ان تكون هى اللغة المستعملة فى المحاورات والمخاطبات بين الدول وصار من لوازم أهل السياسة معرفة التكلم بها ولذلك وقع الاصطلاح فيها على ألفاظ تؤدى معانى سياسية منضبطة محررة مختصرة تحتاج فى غيرها الى تطويل وابهام وذلك الاتفاق على اجرائها فى الخطابات السياسية لم يزل جاريا الى الآن حتى ان المانيا لما غلبت فرانسا سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٧٠ م حاولت نقل هاتيك المزية الى لسانها فلم توافقها انكلاتيره وقالت (اما) ان نبقى على الاصطلاح المتعارف على اللغة الفرانساوية (واما) ان كل دولة تخاطب بلسانها فابقى الوجه الاول لان الثانى فيه من الصعوبة مالا يخفى اذ يلزم رجال السياسة تعلم لسان جميع الدول ذات السياسة ووجود مترجمين فى وزاراتهم لتلك اللغات بخلاف الاستقرار على اللغة الفرانساوية التى مر ماوقع فيها من التحرير ومن اعتنائهم بلغتهم اعتناؤهم بالفصاحة فيها وارتجال الخطب المستطيلة أعنى الخطب على النحو العربى الاصلى بارتجال الكلام مع فصاحته وانسجامه لا كما صنع الخطباء الآن من حفظهم لما ينشئونه ان كانت لهم قدرة على الانشاء أو حفظ منشآت غيرهم أو سردها من ورقة اذ هذا خلاف الاسلوب

العربى

العربى الاصلى وانما هو أى الاصلى استحضار معان مرتبة فى فكرة الخطيب والقاؤها عند الحاجة بالفاظ منسجمة فصيحة بليغة وذلك هو شأن كل أمة ترقت فى سجايا الفخار فالفرانساويون توجهوا لهذا المقصد أيضا وبلغوا فيه على حسب اصطلاح لغتهم الى المبالغ الحسنة فترى خطباءهم يقف أحدهم خطيبا يتكلم ساعتين وثلاثا بدون تلعثم أو مراجعة سوى البطاقة أحيانا مكتوب بها رؤس النوازل التى يريد الخوض فيها وينتقل من واحدة الى أخرى بربط المناسبات الى انتهاء مقصوده وقد يعترض له بعض اضداده افرادا ومجتمعين بالاستهزاء منه والسخرية من كلامه والرد عليه ولو بالصحيح وهو متثبت فى مسلكه ويجيب الراد عليه بالمناسبة لان أغلب ما تكون خطبهم فى السياسة مع تنازع الاحزاب فيها سيما فى مجالس النواب والاعيان وكثيرا ما يوضع للخطيب فوق المائدة أمام منبره كاس بالماء والسكر والزهر لعله يجف لسانه من كثرة الكلام أو الغيظ هذا أصله لكنى رأيت من يتخذ الشرب منه آلة للتفكر ومهلة للتدبير فيما يقول حتى أكثر من ذلك وصار يشرب كل ثلاث دقائق أو خمس وهو دليل عيه والحاصل ان خطبهم الآن شبه خطب أسلافنا العرب فى الصورة وشبه الدروس المتقنة فى ادائها من علمائنا الفحول الآن مثلما أدركت من دروس شيخنا العلامة محمد النيفر الاكبر قدس الله روحه اذ يستطيع الكاتب ان ينقلها من تقريره لفظيا وتصير تأليفا جيدا وخطباء القوم الآن يحضر مواطنهم كتاب عارفون باصطلاح مختصر فى الكتابة حتى يحيطوا بجميع ما يقول الخطيب وأكثر الاسهاب فى طول خطبهم هو ادماج مسائل من فنون شتى فيها سيما علم التاريخ فبأدنى مناسبة يذكر تاريخ أدنى شئ محدوث عنه وما وقع فيه من قديم الزمان وحديثه فلذلك كان فن التاريخ ضروريا لاهل السياسة وهو المعقول لان الوقائع الدهرية متشابهة متقاربة فمن أحاط علما بالتاريخ عرف الاسباب والدواعى والنتائج والتخلصات والغلطات فيتبع فى الحال الحسن ويجتنب المضر ويحترس بالتشاور واجتماع الآراء وذلك هو مقدور البشر والله يفعل ما يريد وانما اجرى سبحانه عادته بالصلاح اذا اجرى العمل على حسب التدبير والامر الالهى باتخاذ الاسباب على مقتضى حكمته لا رب سواه ومن قواعدهم فى اللغة ان يخاطبوا الانسان بدون تلقيبه بالسيادة الا الزوجة مع زوجها أو العكس والمخدوم مع خادمه ومع ابنه الصغير واذا كان المخاطب ذا وظيفة الوزارة يزاد له لفظ بمعنى المرفع أو كان ذا خطة الامارة يزاد له لفظ بمعنى المعظم أو كان ملكا يزاد له لفظ بمعنى صاحب الجلالة بحيث يتحرون فى ذلك الغاية ويكثرون من

عادته فى الخطاب مرارا وليس هناك استعمالات أخرى فى مزيد التملق والخضوع والذلة فى الخطاب والفاظ المكاتبات والتخاطب سواء وغاية الفرق هو الفرق الحاصل بين افراد المتكلمين فى البلاغة كما ان من عاداتهم تلقيب كل انسان بلقب عائلته ولا يذكر اسمه الا فى المكاتبات أو اذا كان أكبر العائلة موجودا فالصغار منها يذكر اسمهم لتمييزهم مع ذكر اللقب ولم تزل عندهم عناية بالقاب الشرف وهى (كونت) و (بارون) و (دوك) و (مركيز) و (ترنس) وغيرها لكنها قل استعمالها منذ استقرار الدولة الجمهورية وصاروا يكتفون بلفظ موسيو اى سيد لتسوية الناس فى نظر الجمهور

مطلب

في القوة الحربية المالية والتجارية فى فرانسا سنة ١٨٨٠

فرنك	
	بلغ طول سكك الحديد فيها ميلا ١٣٨٧١
٠٠٠ر٠٠٠ر٦٣٠ر٠٠	دخلها أى تلك السكك
٠٠٠ر٨٣٧ر٩٤٥ر٠٤	قيمة الداخل الى فرانسا من السلع سنة ١٨٧٩
٠٠٠ر٠٩٠ر١٦٣ر٠٣	قيمة الخارج منها فى تلك السنة
٠٢ر٧٥٢ر٧٩٤ر٨٣٠	دخل الدولة سنة ١٨٨١
٦٠٠ر٤٣٢ر٧٠٤ر٢٠	خرجها فيها
٩٨٣ر٠٣٥ر٨٦٢ر١٩	ما على الدولة من الدين
٠٥٤ر٠٠٠	عدد السفن المدرعة العاملة والاحتياطية
٢٢٥ر٠٠٠	حمولتها طونولاتو
٠٠٠ر٥٠٠ر١	عدد عساكرها وقت الحرب
٠٠٠ر١٨٠ر٠	عدد الفرسان

قد انتهى طبع هذا الجزء من صفوة الاعتبار وهو الثالث بتاريخ أوائل صفر الخير سنة ثلاث وثلثمائة وألف فى المطبعة الاعلامية لمؤلفه الامثل الاكرم الشيخ محمد أفندى بيرم وتحرر تصحيحه على يد الفقير الى الله تعالى مصطفى قشيشة الازهرى
ويليه الجزء الرابع أوله الباب الخامس فى قطر الجزائر
﴿طبع بالمطبعة الاعلاميه بمصر سنة ١٣٠٣﴾

﴿فهرست الجزء الثالث من صفوة الاعتبار﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿تمت﴾

﴿طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣﴾

الجزء الرابع من كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

تأليف الفاضل المحقق والاستاذ المدقق قدوة العلماء وصفوة الازكياء وحيد عصره وفريد دهره الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي نفعنا الله به وبعلومه آمين

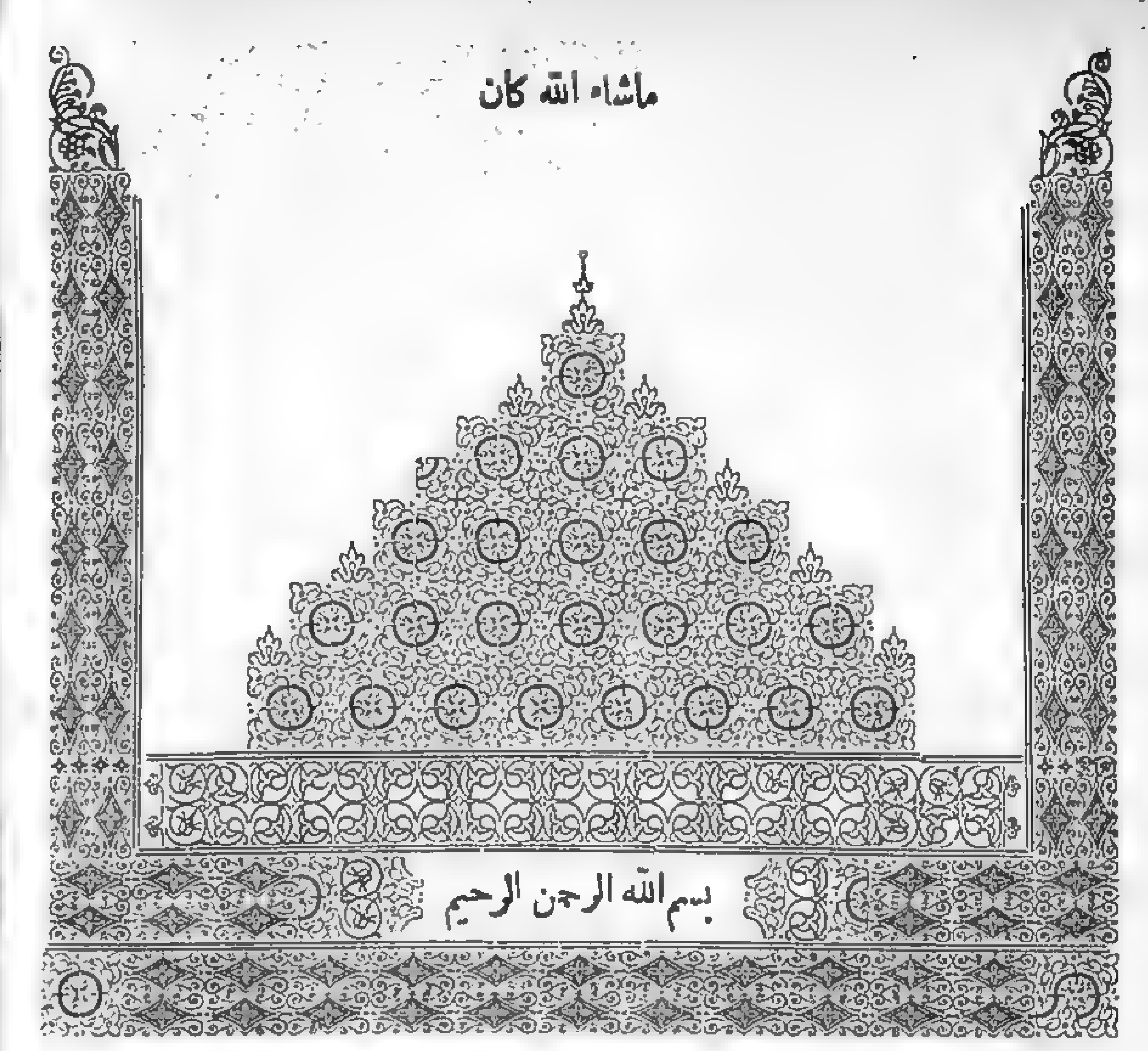


﴿ طبعة اولى ﴾

﴿ بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ هجرية ﴾



ماشاء الله كان



وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الخامس في قطر الجزائر

الفصل الاول في سفري اليه

قد تقدم انى لما رجعت المرة الاولى من فرانسا كان رجوعى بحرا مارا على بلد بونه المعروفة بعنابه وهى أحد فرض الجزائر فأرست بها الباخرة صباحا فى ميناء صناعية واسعة متينة تصل البواخر فيها الى الرصيف فى البر ويصل الرتل بطريق الحديد الى حذو فوهة هاته المرسى الصناعية لكنه رتل للسلع خاصة وبهاته المرسى كثير من السفن والبواخر منها نحو ثلاثة بواخر لشركة معدن الحديد الموجود بقرب عنابه فهذا المعدن هنالك غنى ويستخرج بكثرة ويحمل فى حوافل طريق الحديد وهى توصله الى ذات البواخر التى تحمله الى مرسيليا وفى كل يوم تخرج من المرسى باخرة مشحونة به وتدخل أخرى

خاوية وفى مرسيليا يصفى ويشتغل لانهم وجدوا ذلك أرخص مصروفا من جلب معمل لتصفيته فى محله ولما ارسينا رأينا البلاد من جهة الغرب متصاعدة فى جبل وحول المرسى أبنية حسنة من النوع الاوروباوى ثم نزلنا الى البر فوجدنا عجلات الركوب للكراء لكنها رديئة وسخة فذهبت لداخل البلد فاذا فيها قرب المرسى بطحاء وطريق متسع وحواليه أبنية جميلة وقهاوى ومنازل للمسافرين وحوانيت لبيع الحلويات والتحف الظريفة وفى وسط البطحاء حديقة صغيرة متنزه للمارة وفى وسط البلد بطحاء أخرى صغيرة يحيط بها اسرادقات تحتها حوانيت وفى هاته البطحاء الجامع الكبير فذهبت الى الحمام الذى هو قرب الجامع حيث كان فرضى التيمم فى السفينة اذ لا حمام بها ولما دخلت الى البلد وجب الحمام فاذا هو على نحو حمامات تونس وسائر بلاد المشرق غير انه غير متقن النظافة وليس فيه بيوت منفردة للتطهير للانسان وحده وانما يتطهر الانسان بعد التنظيف فى محله فيقع الحرج من التحفظ على كشف العورة أمام المغتسلين ولذلك كان أكثرهم مكشوف العورة وهى مصيبة عامة فى أغلب البلاد الاسلامية التى رأيتها على خلاف تونس فان حماماتها لها بيوت صغيرة ذات أحواض صغيرة لغرف الماء منها ولها أنابيب للماء الحار والبارد وللبيت باب يغلق وينفرد الانسان للتطهير وحده بلا مشقة ولذلك كنت أختار الحمامات الافرنجية فى أكثر اسفارى ولو فى البلاد الاسلامية لانها أبعد عن الحرم من كشف العورة وان حصل فيها تعب من جهة الاغتسال المعتاد وذلك ان هيئتها بيت صغير فيه حوض كبير يحمل الانسان وله أنابيب للماء الحار والبارد وفى البيت متكأ ومسطبة ومعلاق للثياب وأرض البيت مفروشة بزربية فلا يمكن اخراج الماء عن الحوض وانما يغطس الانسان فى الحوض ويغتسل فيه بالصابون اما بنفسه أو بخادم من الحمام ثم يجذب سلسلة من قعر الحوض بجذب سدادة فيخرج ما فيه من الماء ثم يجدد له ماء ثانيا ويأتى بمناديل من الكتان مسخنة نظيفة جدا يتنشف بها الانسان وهو منفرد وبابه مغلق لا يدخل عليه أحد الا باذنه فاذا أراد الانسان التطهير يزيل ما على بدنه من النجاسة فى بيته ان أمكنه والا عند اتيانه الى الحمام يأمر الخادم بأن لا يملأ الحوض بالماء ولما ينفرد يقف فى الحوض ويأخذ الكاس الموضوع فى البيت لاجل الشرب فيملؤه بالماء الحار والبارد من الانابيب ويزيل ما عليه من النجاسة ويغسل رجليه ويخرج من الحوض ثم يفتح له منفذ خروج الماء منه ويفتح أنابيب اندفاع الماء ويطهر أرض الحوض بالغسل ثم يسد منفذ الخروج ويملأ الحوض

ماء على قدر ما يكفيه ويغتسل ويتطهر فيه وهو سائغ على مذهبنا لان الماء لا يصير
مستعملا الا بعد انفصاله عن جميع البدن والبدن كله في الاغتسال عضو واحد (وأما)
على مذهب المالكية فهو أيسر وقد اضطررت في ذلك الحمام الى استئجار أحد خدمته
ليستر زاوية من الحمام بمسك ازار في يديه حتى تيسر لي تطهير ما تحت ازاري وهنالك
صعوبة أخرى وهي بعد الماء بحيث ان كل مغتسل يأتي اليه بنحو عشرة مما يسمى برميل
مملوءة له ليتطهر بها بعد التنظيف ثم خرجت من الحمام وأتيت الجامع واذا هو نظيف
محروس قائم الادوات مفروش بالحصير من السمار على نحو ما هو بتونس ولما كنت
لابسا النعل كالخف مما يصح المسح عليه وهو نظيف دخلت به المسجد وصليت به وكان
هنالك بعض الناس فرأيتهم ينظرون الي شزرا منكرين الدخول بالنعل الى المسجد
لكن لم يقل لي أحد منهم شيئا فلما فرغت من الصلاة خاطبني من بجنبي فقال لي أنت مسلم
ولم تدخل المسجد بنعلك فقلت له هل تعرف الفقه قال نعم قلت ما هو مذهبك قال
مالكي فانظر في مختصر الشيخ خليل في كتاب الطهارة فانك تجد فيه مسئلة المسح على
الخفين وان المسافر يمسح عليهما ولا ينزعهما ويصلي فيهما وأنا مسافر وحتى المقيم أيضا
له لبسهما والمسح عليهما والصلاة فيهما وقد فعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وهو
مذكور في كتب الحديث وكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يدخلون المسجد
بنعالهم بعد تفقدها وتطهيرها ان كان بها نجاسة فهذا جائز شرعا وليس في نعلي نجاسة
ولا وسخ فرضي بذلك وأخبر الحاضرين جهرة بأن الرجل مسافر وعارف بالحكم ثم خرجت
من هنالك وتطوفت في البلد وقد فطرت فيها في حانوت لطباخ مسلم أكلا عربيا
واستلذذته للغاية كيفما كان لاشتياقي للمعتاد سيما وقد كانت تلك السفرة هي أول
سفراتي والاشياء الغير المعتادة تصعب على النفس أولا وأحسن ما في البلد سوق الخضر
فانه على النحو المتقن في أوروبا من كونه واسعا ذا قبة من الزجاج محمولة على قطع حديد
مرفوعة على أعمدة حديد والحيطان أيضا مثل ذلك مع النظافة وحسن التقسيم ولكن
ليس فيه حوانيت وانما كل بياع يجلس في جهة ويضع مبيعه أمامه وبخارج البلد آثار
قديمة للرومان من البناء والدهاليز تقصد للتفرج وبخارجها أيضا بستان عمومي ويباع
منه الاشجار الصغيرة وليس هو بمتقن والحارات القديمة في البلد وديارها على نحو ديار
تونس وحاراتها الضيقة الطرق غير ان أبواب دور عنابه بدفة واحدة وبناء الباب مقوس
قليل الارتفاع وبخارج البلد أيضا جهة شاطئ البحر بعض من البساتين وحمامات من

الخشب

الخشب على ماء البحر تقصدها الناس في الصيف وحولها ساقية وأوى تحوي في الصيف الغث
والسمين وسافرنا من هاته البلدة بعد الغروب قاصدين تونس وعدت اليها في سنة ١٢٩٥
في سفرتي الى فرانسا ذهابا وايابا وأقمت فيها في الاياب أسبوعا وكان الزمن صيفا وهي
لصغرها وعدم وجود الحركة الكثيرة بها لا ينشرح المسافر فيها وفي هاته السنة أيضا
مررت في الاياب على مدينة الجزائر قاعدة هذا القطر وهي لها مرسى على نحو ما تقدم
في عنابه والبلد أكبر من السابقة ومنظرها من جهة المرسى أبهج وأضخم وقد انشئ بها
طريق للترمواي يخترق البلد من جهة المرسى ويذهب الى قرية تسمى مصطفى جهة
الشرق من الجزائر وأبنية البلاد على نحو ما ذكر في عنابه وهي أيضا متصاعدة في جبل
وليس بها عيون غزيرة بل الماء له خزنة في الجبل تجتمع فيها مياه الامطار من جهات
الجبل ولذلك كانت الطرق الواسعة في الصيف محتاجة الى الرش لقلة ما ترش به وبها
أربعة جوامع للخطب اثنان مالكيان واثنان حنفيان والجوامع نظيفة مستقيمة وبقية
ما كان بها من الجوامع هدمت وبدلت وبها حصون متينة وهاته البلد هي مقر الحاكم
العام لقطر الجزائر ومنظر البلد من جهة البحر جميل لكثرة الديار والبساتين في الجبل
منحوت به درج يصعد فيها من أسفل البلد الى أعلى الجبل كما ان به طرق صناعية قليلة
الانحدار يصعد بها في العجلات الى قمته وأمام دار الحاكم بطحاء صغيرة منظمة والدار
من نوع أبنية الاهالي قديما وأمامها محل لطائفة من الجند حرسا وفي خارج البلد وداخلها
مقامات للاولياء والعلماء محترمة منها مقام سيدي عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنه
خارج البلد في الجبل في مكان منشرح نزه ولضريح الشيخ مهابة ووقار قلبي وحوانيت
البلاد على نحو ما ذكرنا في تونس وبساتينها تسقى بآبار يسنى عليها بالدواليب وأغلب
القصد منها الانتفاع بالغلال وأكثر ذوي اليسار يسكنون في بساتينهم في الصيف وتنور
البلد ليلا بفوانيس الغاز وبخارجها بستان انتزاه عمومي قليل الجدوى وبقربه سبيل
قديم لا زال قائما وحذوه قهوة على النحو العربي لكنها قذرة يغنى بها بعض الناس ومنازل
المسافرين بالبلد جيدة على النحو الاوروباوي وقد أقمت بهاته البلدة ليلتين ثم سافرت
بحرا قاصدا عنابه ومنها الى تونس فمررت ببلد دلس وهي قرية صغيرة على البحر لم نستطع
الدخول اليها لشدة هيجان البحر وعدم مرسى أمينة بها ثم مررنا على بجاية ثم جيجلي
ثم اسكيكده وكلها قرى صغيرة الجديد من بنائها على النحو الاوروباوي والقديم على
عادة أهل القطر والاهالي أغلبهم فرنساويون ارتحلوا الى هنالك وأما اسكيكده فالبلاد

القديمة قد خسفت بها الارض والعياذ بالله وقد بني على شاطئ البحر قرية جديدة منتظمة الطرق واسعتها على نحو النوع الاوروباوي ولم أشاهد تفاصيل هذه القرى لان الباخرة لا ترسي فيها الا قليلا واجمال حالهم يندمج فيما يأتي ان شاء الله تعالى ومن القرى التي رأيتها قرية قالمة البعيدة عن عنابه نحو أربع ساعات في طريق الحديد في الجهة الجنوبية الشرقية منها وهي قرية مستحدثة يغلب على طبع أهلها البداوة وهي منتظمة البناء والطرق قليلة الماء وبها جامع وقاض وحاكم فرانساوي وعساكر وحصن وكنيسة وحديقة صغيرة للعامة

الفصل الثاني

﴿في التعريف بالجزائر﴾

هذا القطر واقع على شط أفريقية الشمالي ويحده جنوبا الصحراء الكبيرة وشرقا تونس وشمالا البحر الابيض وغربا مراكش وهو قطر متسع ذو جبال شاهقة وأنهر عديدة وعيون دافقة وبه معادن غنية من الحديد والفضة والآن مشتغلون باخراجها سيما المعدن الذي أصله تابع الى تونس قرب حدودها في القالة وبها معادن أخر عديدة منها المستعمل كالقصدير ومنها الذي لم يزل في زوايا الخمول وأما هواؤه وحيواناته ونباتاته فهو مثل تونس في عموم ما ذكرناه فيها والجهات الشمالية هي ذات الخصب والأشجار العظيمة والغابات ومدن هذا القطر وبلدانه أشهرها قاعدته الجزائر ثم وهران ثم تلمسان ثم قسنطينة ثم بونه وغيرها كثير لا يبلغ مبلغ ما ذكر ومراسيها المهمة هي المدن المذكورة غير قسنطينة لان هاته متوغلة في البر على قمة جبل وينقسم القطر بالنظر الى طبيعة الارض والسكان والادارة الى ثلاثة أوطان كبار (أولها) وطن الجزائر وهو في الوسط ويمتد من الشط شمالا الى الصحراء جنوبا (وثانيها) وطن وهران غربي السابق ممتد معه كذلك (وثالثها) وطن قسنطينة شرقي الاول ممتد معه كذلك ولكل وطن قاعدة هي المدينة المنسوب اليها وله فروع على حسب الاحتياج وعدد سكانه نحو مليونين وسبعمائة ألف وستون ألفا والمسلمون منهم مليونان وخمسمائة ألف والنصارى مائتا ألف ونيف واليهود نحو الثلاثين ألفا وقاعدة الجميع هي الجزائر عدد سكانها نحو خمسة وسبعين ألفا منهم ثمانية عشر ألفا مسلمون وتسعة آلاف يهود وثمانية وأربعون من النصارى من أجناس مختلفة وأكثرهم الاسبنيول والسكان المسلمون أصلهم من البربر

وهم أكثر سكان الجهات الجنوبية والجبال وباقي الجهات سكانها من نسل العرب والمختلط منهم ومن البربر وبعض من نسل الترك الذين استوطنوا هنالك وكذلك الاندلسيون الذين هاجروا بعد استيلاء الاسبنيول على بلادهم (واما النصارى) على العموم فاكثرهم فرانساويون انتقلوا الى هنالك بعد استيلاء الفرانسيس سيما بعد حرب المانيا معهم سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م وأخذها الاقليمي الالجاس واللورين فارتحل من أهالي ذينك الاقليمين نحو المائة والسبعين ألفا سكنوا الجزائر واعانتهم دولتهم باعطائها لهم الاراضي الخصبة التي أخذتها من الاهالي الاصليين عقابا لهم على الثورات وغيرها واغلب هؤلاء الفرانسيس سكنوا جهات الشطوط وانشؤا فيها قرى (وأما المسلمون) فاغلبهم على مذهب أهل السنة في العقيدة وعلى مذهب الامام مالك في الفروع ونسل الترك على مذهب الامام أبي حنيفة وبعض السكان على مذهب الاعتزال كبني مزاب ثم ان أهل السنة في المدن والقرى يكثر فيهم معرفة احوال الديانة وان حصل الآن من كثير منهم تهاون كثير بالشعائر (وأما البوادي) فيغلب عليهم الجهل بالاحكام لكنهم لا زالوا متصلبين في العقيدة الاسلامية سيما أهالي الجهات الجنوبية والوسطى

الفصل الثالث

﴿في اجمال تاريخ الجزائر﴾

﴿مطلب في التاريخ القديم﴾ اعلم ان احوال هذا القطر التاريخية في القديم كانت في الاغلب متحدة مع تونس وطرابلس والمغرب فما بيناه في احوال تونس كان شاملا لهذا القطر حتى في زمن الفتح واستقرار الحكومات الاسلامية لانه في أغلب الاعصار تابع لتونس لما كانت هي مقر الحاكم العام الاسلامي لافريقية ثم لما انفرد المغرب عن تونس كانت الجهة الغربية من الجزائر تابعة له ثم اتحد الجميع تحت دولة بني حفص وعن تقهقرها وانفراد المغرب انتشأت بعض حكومات منفردة في الجزائر كمملكة بني زيان من زناتة التي مقرها في تلمسان ثم لما اشرفت الدولة الحفصية على الاضمحلال واستولى الاسبنيول على عدة جهات من شطوط افريقية وكانت الفرق المنقسمة اليها الجزائر غير قادرة على مدافعة دولة كبيرة مثل الاسبنيول اذ ذاك وكانت الدولة العثمانية رافعة علم الحماية لاهل الاسلام واسطولها يجوب البحار تحت عدة امراء وارست فرقة من هذا الاسطول تحت امرة خير الدين بربروس باشا واخيه عروج على

شطوط الجزائر للبحث عن حالة الاندلس مع الاسبنيول ضج الى هـذا الاسطول اهالى الجزائر وطلبوا من الامراء حماية هذا القطر الاسلامى مادام فيـه رمق قبل هجوم الاسبنيول عليه وذلك أحق من تتبع الاسبنيول فى الاندلس اذ لم يبق فيها مسلم فاجابوا طلبتهم بعد نصحهم للاتفاق ومن ذلك التاريخ استقرت الحكومة للدولة العثمانية وذلك فى حدود سـنة ٩٤٠ وجرت اعمال الدولة فى الجزائر على نحو ما قررناه فى تونس لان المراد حماية البلاد الاسلامية واتحادها وجرى من الولاة الترك أولا الاستقامة والعدل ثم لما تهورت العساكر الينكشارية فى جميع الجهات حصل منهم أيضا فى الجزائر ما ضجرت منـه الاهالى وطغوا فى النصب والعزل للولاة من هولاء العساكر حسب الشهوات وقوة العصبية ولم يحسن من هولاء الولاة الامتثال لاوامر الدولة العثمانية الى ان ولى حسين باشا الذى كان سببا فى دخول الفرانساويين الى البلاد والحكم لله رب العباد

﴿مطلب فى تاريخ الجزائر الجديد﴾ اعلم ان الدولة الفرانساوية لما ترقت فى المعارف والقوات سيما فى الاعصر الاخيرة لازمها حب الظهور وعدم تحمل الهوان وكانت الدولة العثمانية فى شغلها الشاغل من اعمال الينكشارية وحروب الروسية وثورات اليونان وضم الى ذلك طغيان ولاة الاقاليم وعدم امتثالهم للاوامر وكان حسين باشا والى الجزائر مستبدا ظلوما مرتشيا قليل التدبير وحصل منه اهانة لقنسل فرانسا وذلك على ما فى تاريخ ابن الضياف أحد التجار اليهود الاغنياء بالجزائر بين الملقب ببقرى أبو جناح له خلطة مالية مع تجار من الفرانسيس وتداعوا فى خسائر من الجهتين وانتصر حسين باشا لرعيته بالالحاح على قنسل فرانسا فى انصافه وآل الامر الى صلح يدفع على مقتضاه التجار الفرانساويون الى التاجر الجزايرى مالا وافرا واضمر حسين باشا أخذ المال لنفسه لما رآه ذريعا وراجعا لرعيته وتلك عادة الفوها ولما قرب دفع المال واذا بتجار أخر فرانساويون قاموا على بقرى المذكور بدين اوقفوا عليـه المال الذى يريد قبضه فاستاء حسين باشا من ذلك وطلب من القنسل رفع الايقاف وقال ان ارباب الدين الفرانسيس الطالبين لرعيته يتبعون ذمة المدين بعد قبضـه للمال بحيث لا يكون للطالبين حق فى المال الذى يدفعـه الفرانساويون فامتنع من ذلك القنسل مستندا الى ان المال المعرقل مال المدين والغرماء لهـم حق فيه الا اذا ضمنه من يرضون بذمتـه وكان المدين نفسه مغريا بهذا التدبير خوفا على ماله من الضياع باستيلاء الباشا عليـه

فاعرض

فاعرض الباشا عن القنسل وكاتب دولة فرانسا فى غرضـه فارسلت المكتوب الى القنسل وامرته بالجواب عنه ولما قدم القنسل الى الباشا لبعض مآرب خاطبه الباشا فى استبطاء جواب مكتوبه المشار اليه الى دولة فرانسا فقال له القنسل ان المكتوب ارسلته الدولة الى وأمرتنى بالجواب عنه فسأل عن سبب عدم اجابة الدولة له فاجابه بما فهم منه احتقاره وكانت بيد الباشا منشة يطرد بها الذباب فضرب بها وجه القنسل وطرده وبقى أسفا على ما فاته من مال بقرى وتهددت فرانسا الوالى المذكور على اهانة نائبها وألحت عليه بان يطلب منها الرضى ويعترف بالخطا فابى واصر مع أمر الدولة العثمانية له بذلك ومن النصائح المتتابعة له من الدول الاجانب وخواص الاهالى وقد كانت فرانسا فى شغل من داخليتها فى ذلك الوقت حسبما مر بك فى تاريخها لان ذلك كان اثر حروب نابليون الاول وكانت أيضا متوقية المشاحنة مع العرب ومع الدولة العثمانيـة حتى رضيت فرانسا بان يكلف الباشا أى انسان كان فى باريس بطلب الترضية لكى تندفع عنها المعرة ولا تلحقه هو مذلة بارسال أحـد من موظفيه الى القنسلاتو ولا الى باريس وكان قصدها بذلك كله اجتناب الحرب بما امكن لاشتغالها بحروبها واحزابها الداخلية فاصر الوالى على رأيه وارسلت فرانسا اسطولها وحاربت بلاد الجزائر واستولت عليها وحمل ذلك الوالى الى باريس ثم مات فى اسكندرية وقد نسب المورخ المذكور منشأ اعمال الباشا المشار اليه الى كونه لا غيرة له على الوطن من حيث كونه لم يكن من ابناء ترابه ولذلك خاطر به الى ذلك الحد مع علمه بالضعف وانحلال عرى عصبيته ونفرة الاهالى من جوره الخ والحق ان مثل ذلك التعليل تأباه الشريعة على ما سيأتى ايضاحه فى الخاتمة ان شاء الله تعالى فالجنسية الاسلامية واحدة ثم المشاهدة تناقض مقاله أيضا فكم شاهدنا وسمعنا من التاريخ ما يثبت غيرة الوافدين على الاقطار ووفاءهم لها بشكر نعمائها واداء واجبات الديانة فيها من التحسين والتحصين وكم شاهدنا وسمعنا ايضا ضد ذلك من ابناء الاقليم ومن دعيين فيها فتحقيق السبب هو ان الله اذا تاذن فى امة بانحلالها فسدت أخلاق اكابرها فسقة وافيها ومن فسوقهم اسناد الامر الى غير أهله فحق عليها القول وسلط عليها ما يدمرها وذلك هو الدال عليه القرآن الكريم والحديث الشريف وهو المشاهد بالعيان والمعلوم من التواريخ فى اضمحلال الدول وتقهقرها وحذاق الناظرين فى احوال الدول ينسبون نكباتها لاصول منشأ الفساد وان طال الزمان ويكون الذى انحل بيده الامر مظهر الكامن الداء الزمن وهو مع ذلك مسؤل لله ولعباده

اذا كان يمكن له توقيف المرض فيعوض ذلك بزيادة تهيجات بحراناته فيكون أشد على الامة من وقع الصواعق اذ الجسم العليل يتأثر بما لا يتأثر منه السليم وكفاه خزيا فى الدنيا والآخرة ان كان مظهرا للشر وفداء الجزائر قد ابتدأ منذ انخرم أمر الينكشارية فى القسطنطينية التى هى مقر الدولة العامة ونشأ عنه ما نشأ من فساد الادارة والولاة الى ان اصيبت عدة جهات وباء حسين باشا فى الجزائر باتم الظلم والخراب والتهور الذى كان أعظم النكبات وانتقلت حالة الجزائر بل وحالة السياسة فى شطوط افريقية الشمالية الى طور آخر وكان مبدأ استيلاء فرانسا على الجزائر سنة ١٢٤٦ فى مدة كارلوس العاشر ملك فرانسا وتمكن الفرانسيس أولا من القاعدة وما حولها لكن بقية الجهات اصروا على الامتناع من الطاعة لفرانسا لانها انما ارادت الانتقام من الوالى حسين باشا وقد حصل فالجهات الشرقية من القطر انفرد بالحكم فيها الحاج احمد باى قسنطينة والجهات الجنوبية والغربية تشتتت تحت رؤساء القبائل ورام الفرانساويون محاولة تطويعهم بالرفق بان يتولى الامر فى وهران والى تونس بارسال أحد عائلته أو احد متوظفيه فارسل والى تونس واحدا من جهته ومعه شرذمة من الحرس فلم ينفذ امره فى مدينة وهران فضلا عن خارجها ورجع من حيث أتى ثم اجمعت الجهات الغربية والجنوبية على مبايعة الرجل الوحيد سلالة النسل المطهر الامير سيدى عبد القادر بن محى الدين الحسينى وقام لله حق القيام وصحبته النصرة الالهية فى كثير من الوقائع الى ان كان فى بعضها ما هو خارق للعادة من الكرامات كظفر فرسه الازرق به سنين عديدة وحيث احاطت به العساكر الفرانساوية كالحلقة وراموا مسكه باليد فطفر به فرسه على رؤس العساكر واسحتهم ذلك المدى ونجا راكضا الى منعته ودام محاربا لهم نحو سبع عشرة سنة واستقامت له حكومة ضرب فيها السكة باسمه وانشأ المدافع والبنادق ونفذ أمره وخشيته فرانسا ودعا الحاج احمد باى ليتحدا ويكونا يدا واحدة فامتنع تجبرا وطغيانا وخذل الامة الى ان وهن أمره واستولى الفرانساويون على ما كان تحته وبقى الامير سيدى عبد القادر مدافعا ومهاجما الى ان سولت الغاطات النفسانية المخالفة للديانة الاسلامية لسلطان المغرب الاتحاد مع الفرانسيس على محاربة الامير المشار اليه وقطع عنه سلطان المغرب خط النجاة جهات الصحراء فاضطر الامير الى التسليم للفرانسيس فاقتبلوه بالرحب والاكرام وحملوه الى باريس تحت المراقبة فيها وكان اذ ذاك نابليون الثالث مقبوضا عليه هنالك فحصلت منه مودة للامير ويقال

انه

انه وعده بالمساعدة لو يفضى ملك فرانسا اليه وعندما استقر نابليون الثالث فى منصب الامبراطورية لم تساعده رجال دولته على انجاز قصده من تولية الامير المشار اليه على الجزائر فاهدى اليه رسالة فى محاسن الشام وخيره فى انتخاب محل لاقامته فاختار الامير سيدى عبد القادر أرض الشام وقدم من فرانسا أولا الى الاستانة واكرم مقدمه السلطان عبد المجيد وأقام مدة فى بلاد الترك ثم استقر فى دمشق الشام أدام الله بركته للانام وحاطه بالامن والسلامة فى نفسه وفى آله الكرام وبعد خروج الامير المشار اليه من الجزائر خف الخطب على فرانسا لكن بقى جبل الزواوة ثائرا عليها تحت امرة كبرائه فطوعته أخيرا بمثل ما فعلته فى أغلب الجهات من انخداع الرؤساء بالمال وتسلط بعضهم على بعض كما انها حاربتها فى الجزائر أيضا دولة المغرب بجيوش كثيرة خالية عن التدبير والتدريب الحربى فلم تفد شيأ سوى ضياع ما حملوا معهم وكان البوادى المنضمين الى الفرانسيس أشد على المغاربة من نفس الفرانسيس وذلك سبب الخذلان ولا زالت تتوالى الثورات فى الجزائر على الفرانسيس منذ دخلها الى الآن تارة مشتدة وتارة خفيفة ولله عاقبة الامور

﴿ مطلب فى كيفية اجراء السياسة الداخلية فى الجزائر ﴾ اعلم ان ادارة الجزائر فى الحقيقة مناطة بارباب الامر والنهى فى باريس على ما هى قاعدة الفرانسيس من ارجاع كل الامور فى ممالكهم ومستعمراتهم الى باريس من غير التفات الى بعد المستعمرات أو قربها ولا الى الجهل بأحوالها وأخلاق أهلها وعوائدهم فيضطر أصحاب الحكومة الى اعتماد أقوال المباشر فى المستعمر المبحوث فيه فيؤل الامر الى ما تقتضيه حالة ذلك المباشر من الانصاف أو ضده مع أنه فى نفس الامر غير مسؤل عما يقع الا فى الاجراء فلا يلزمه الاحتراس اللازم للمسؤل ومع ذلك فالاحكام والادارة كلها فى الجزائر كانت استبدادية بحتة تحت الحكم العسكرى فما هى الا اجتهادات من المباشرين بلا تعقب لحكمهم لان الدولة منعت الاهالى من الحرية السياسية ومنحتهم بعض الحرية الشخصية من التصرف فى ديانتهم وأشخاصهم وأموالهم كيفما أرادوا فيما لا يضر بالدولة ولا بأحد فى نظر الحكام والدولة تنتخب حاكما عاما من أهل المناصب العالية من الفرانسيس وتولى حاكما عاما على الجزائر جميعها ويستقر فى مدينة الجزائر وهى أيضا تنتخب ثلاثة حكام اخرين كبار الفرانسيس تناط بأحدهم ولاية الجزائر وبالآخر ولاية وهران وبالآخر ولاية قسنطينة ويرجعون فى النظر لحاكم الجزائر العام وعلى كل قبيلة قائد

والاغلب ان يكون من بنى القبائل و يلقب كبراء هؤلاء القياد بالاغه و يتصرفون حسب اجتهادهم وحسب ما يلقنون به من الاوامر من الولاة وفى كل بلدة قسم من العساكر ولكبرائهم نفوذ كبير فى الاهالى وفى كل بلدة أو قرية حاكم فرنساوى والرسوم الظاهرية فى الجباية وان كانت محدودة مقوننة بأخذ الاعشار من المزروعات والزكاة على الحيوانات فكثيرا ما تمتد الايدى الى المكاسب من غير الثقات من المتوظفين على أوجه شبيهة بالسرية حيث انه ليس عليها احتساب حقيقى ثم للمتوظف مخلص عندما تقع به الشكاية بان ينسب المأخوذ منه الى الثورة أو السعى فيها او بادنى قول فى ذلك تثبت التهمة وانبناؤها وقوف على القرائن لدى الحاكم المستبد وكل من ثبت عليه شئ من ذلك يؤخذ جميع كسبه للحكومة زيادة عن عقابه البدنى الشديد ولا معقب لتلك الاحكام وقد ابتدأ ذلك العمل منذ دخلوا الجزائر فان حمدان بن عثمان خوجه الذى هو من الاعيان العلماء الاغنياء العارف بالالسن الاجنبية اتهم بانه كانت الحكومة السابقة أمنت عنده أموالا فأخذ ماله وسافر هو وشتكا الى دولة فرانسا فأحالته على مجلس شوراء الدولة المسمى كونسيل دى تا ووكل أشهر العارفين باحكامهم وعكف منتظر الحكم ثلاث سنين صارفا أوقاته فى مطالعة الكتب وتأليف كتابه باللغة الفرانساوية المسمى مرآة الجزائر الذى أودعه اخلاق القبائل وحالة سيرة حكام الترك وما آلت اليه من مظالم الفرانساويين مالم يكن يظن صدوره عن أمة متمدنة وقد قبل هذا التأليف فى فرانسا بالاعتبار لكن حكام الجزائر استاؤا منه وزادوا نكالا بكل من له علاقة بالمؤلف المذكور و بعدما مر عليه ما مر صدر الحكم من المجلس المشار اليه ان حمدان المدعى محق فى دعواه لكنها لما رفعت الى المجلس بعد صدور أمر الدولة بان لا تقبل دعاوى تلك السنة التى حصلت عليه فيها المظالم فلاحق له حينئذ فا( )واسفير الدولة العثمانية واستقر بعدها فى الاستانة وكان ابنه على باشا من أعيان رجال الدولة وعلى نحو ذلك العمل تجرى الادارة السياسية فى الجزائر الى الآن فترى فى صحيفتها الرسمية المسماة بالمبشر على الاستمرار صدر الامر بثقاف أملاك فلان وهى كذا وكذا وأملاك فلان الخ لكن منذ سنة ١٢٩٥ أدخلت المدن وبعض قرى تتبعها تحت الحكم المدنى القانونى لكنه خال عن الحرية اللازمة وانما هو أهون من الحكم العسكرى الاستبدادى لبعض أقسام الناس وأما كثير من البادية وجهال العامة فانهم يريدون الحكم السابق العسكرى ويرونه خيرا لهم لما يأتى بيانه ولمجموع ما تقدم ذكره مع التخالف فى الديانات بين الاهالى والدولة المتسلطة

دامت

دامت الثورات وتعاقبت عند كل فرصة وعذرهم على ذلك منصفوا الفرانسيس حتى سمعت من كثير منهم ساكنى الجزائر يتشكون من الادارة ومازالت صحفهم تطلب انصافهم واستقامة ادارتهم واعطاءهم الحرية المناسبة بل و يطلبون المساواة مع فرانسا فى جميع قوانينها وعلى هذا الرأى قسم وافر من أهالى فرانسا أيضا بل ان نابليون الثالث نقر عن أسباب الثورات وذهب بنفسه الى الجزائر مرتين ثانيتهما لتسكين ثورة وقعت هناك وعلم ان أعظم أسباب ذلك من سوء معاملة الاهالى من الحكام فصغى الى شكاياتهم وأزال عنهم كثيرا من المظالم وساعفهم الى مطالبهم فسكنت الثورة بدون سفك للدماء ولا تشفى فى الثائرين كما صرح بذلك الامبراطور بنفسه فى خطبته عند رجوعه الى فرانسا وكان توغل فى دواخل الجزائر وأواسط القبائل الجسيمة ذات السطوة منفردا عن الحامية الفرانساوية معتمدا على وفاء العرب وصدقهم وقد تعهدوا له بذلك وقاموا له حق القيام من عامتهم وخاصتهم وفرحوا بقدومه لهم ومالوا اليه والى انصافه وأظهروا له من الطاعة والتعظيم ما عاد به مسرورا منهم موقنا بانصاف مطالبهم ومحبا خالصا وعاطفا حنوا عليهم واختص منهم فى باريس قسما من العساكر لحراسة ذاته وأكرم مقامهم ورفع من شأنهم واتخذ قسما من الفرسان فى مصاحبته فى ركوبه بملابسهم العربية وكذلك العساكر يلبسون العمامة و يسمون بالزواف وقد حاربوا فى الدفاع عن الفرانسيس فى حرب سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م بحمية أكثر من حمية الفرانسيس أنفسهم وشهد لهم بالشجاعة والصبر والمعرفة والجرءة كل من الفرانسيس والالمان ولما وقع انكسار الفرانسيس اثناء تلك الحرب حركت الدسائس أهالى الجزائر الى الثوران فامتنعوا وفاء بعهدهم مع الامبراطور نابليون الذى أحكم معهم الصلة ووعدهم بمزيد المساعدة والنجاح قبيل تلك الحرب الى ان علموا خلع الفرانسيس له فثار بعضهم اذ ذاك لكنه لم يجد نفعا لتفرغ فرانسا من حرب خصمها ولعدم اتفاق الكلمة بين الجزائريين ولا زال أهل الجزائر يثنون على نابليون وعائلته لما شاهدوا منه من انصافهم واعتبار حرمتهم حتى قال فى خطابه الرسمى انى امبراطور الفرانسيس كما انى امبراطور العرب وكان ذلك هو الذى أوجب للكثير ترجيح الحكومة العسكرية ظنا منهم انها لا تسير الا على نحو ما تركها عليه الامبراطور بخلاف غيرها من لا يراعى لهم ذمة حتى ان العساكر مع ما مر ذكره لم يمنح لاحد ضباطهم ان ينال رتبة رفيعة فى العسكرية فذلك هو سبب الميل الذى لا يمحى من نفوس الاهالى وان جعل منهم بعض أعضاء فى المجلس

الذى يدعوه الحاكم للتشاور فى المصالح لكنهم أعضاء صورية لان أغلب الاعضاء من الفرانساويين مدافعون عن حقوق الفرانساويين المستوطنين هنالك وهؤلاء يرون أنفسهم مظلومين بالنسبة لامثالهم فى فرانسا مع عدم الداعى الى ذلك لانهم قد تحققوا ان الاهالى اذا نالوا انصافهم وتسويتهم فى الحقوق يكونون اهلا لنيل سائر المنح الجائزة لها الفرانساويون وأهالى الجزائر الآن يعتبرون انهم فى حماية الفرانسيس لان لهم الجنسية الفرانساوية والفرق بين هذين هو ان من له الجنسية ينال سائر المنح الفرانساوية وعليه ما على أفراد الفرانسيس من القوانين من الدخول فى العسكر واجراء أحكام الزواج المدنى والتوارث على مقتضى القانون الى غير ذلك وأما صاحب الحماية فيجرى أحكام ديانته فيما ذكر ولا يدخل للعسكر الا برضاه نعم يتخذ منهم نوع من العسكر الخيالة يسمون بالسبايس دون رتبة العسكر وللافراد ان يدخلوا فى الجنسية باختيارهم بحيث لاغصب فيها وقد دخل فيها كثير بعضهم للشهوات وبعضهم تملقا كاليهود وبعضهم طمعا فى الرتبة العالية العسكرية وهو وان نال شيئا منها لكنه مهان فى اعتبار النفوس لما يوجب ذلك من امتهانه لديانته فى نظر العموم ولو من الفرانسيس ولما تقدم لم يكن للاهالى المساواة فى الاعتبار بينهم وبين الفرانسيس ويظهر ذلك حتى بنظر العين فى المعاملات التكريمية والتوقير وترى اليهود أحرز للحرية فى معاملة الفرانسيس وخطابهم من المسلمين

(مطلب فى السياسة الخارجية للجزائر) ليس للجزائر سياسة خارجية اذ السياسة انما هى لفرانسا ولا ترى فى قاعدة الجزائر ولا غيرها من اعتبار أوذكر لقناصل الدول الاجنبية وما هم فيها الا كامثالهم فى احدى مدن فرانسا

الفصل * الرابع

فى بعض صفات الاهالى وعوائدهم

أغلب عوائد الاهالى وصفتهم فى الجزائر هى مثل ما فى أهالى تونس فى السلام والحياء غير ان الجيل الجديد فى المدن تخلق أغلبه باخلاق مخضرمة بين العادات الاصلية وبين عوائد الفرانساويين ومن المعلوم ان النفوس مائلة الى التشبه بالغالب غير انه أول ما تسرى اليها الاخلاق الشريرة أما المحامد فانها انما يحمل عليها العقل بالكلفة ولهذا فشت قلة الحياء فى كثير حتى سرى ذلك الى أبناء الفرانسيس الذين نشؤا هناك وقد

صاحبنى

صاحبنى فى الفابور من الجزائر الى عنابة امرأة حاكم بلاد قالمة مصاحبة لابنائها الصغار وهم ثلاثة دون البلوغ كانوا يتعلمون الفنون فى مكتب بلاد الجزائر ولما أرست البابورة على مرسى جيجلى صعد اليها نائب لجنة تلك البوابور متفقدا وكان حضر اذ ذاك وقت الفطور فجلس مع الركاب على المائدة وكان من جملة الحاضرين الابناء المذكورون وبعد الاكل أتى بالقهوة ومن عادة الافرنج الاتيان بقنينة فيها نوع من المشروبات الروحية المسمى بالكنياك ومعه كيسان صغار لمن يريد الشرب من ذلك مع القهوة فأخذ منه من أخذ وامتنع من امتنع فعمد أولئك الصبية الى المشروب وأخذ كل منهم كأسا ووضعه أمامه فتبسم كبار الحاضرين متعجبين من ذلك وأمهم فار عليها العرق من الحياء ولم تكلمهم بشئ وبعد هنيهة أخذنى نائب اللجنة الى ناحية منفردة وقال لى أرأيت ما وقع قلت ما هو فقال لا تهزء بى لو كان أولئك أبنائى لا ألقيتهم فى البحر فقلت لماذا وهو عندكم ليس بممنوع قال كلا فانه وان كان الخمر عندنا مباحا لكن انما هو ما يؤخذ منه مع الاكل من نوع ماء العنب بمقدار لا يفعل نشوة أما هذا فانه لا يستعمل الا بعد الاكل لمجرد النشوة والصغار يمنعون من ذلك بمقتضى التربية الحسنة ولكن نحن قد خرجنا عن طورنا وفسدت أخلاقنا وأفسدنا أخلاق غيرنا وهؤلاء أبناء أحد حكام البلاد على هذا النحو فما بالك بغيرهم الخ وكان منشأ هذا الفساد هو ان الحرية فى الفرانسيس قد فطروا عليها بقسميها أعنى الحرية الشخصية والحرية السياسية لكنهم تحملوهم فى بلادهم الحرية السياسية على التخلق بمحامد الاخلاق على قدر مستطاعهم وادراكهم وأما فى الجزائر فقد حرموا فى أنفسهم من الحرية السياسية وكذلك الاهالى أطلقوا لهم الحرية الشخصية وحرموهم من الاخرى فانبعثت القوات كلها الى الاولى مع ملائمة الطبائع النفسانية فأتوا على كل ما يمكنهم التوصل اليه من الفسوق وقبائح الكلام والتزوج بين كل متراضيين من غير نظر لديانة ولا صحة شرعية بل يقع حتى لبنات مسلمات الفرار من آبائهن الى رجال من الافرنج أو غيرهم ويصاحبنهم بدون زواج أو به ولا مانع عندهم من ذلك وأضف الى ما تقدم من السبب ان الحكام لما كانوا من العساكر مستبدين فتراهم يشتمون بالكلام الفاحش وكأنه هو أول ما يتعلمونه بالصدفة من لغة الاهالى ثم ان السيرة العسكرية الاستبدادية معلومة فى ان الغالب على الضباط الصغار فمن دونهم هو الميل الى الشهوات الطبيعية والانهماك فيها ولا ينفكون عنها الا بوازع الحكمى أو العادى كما فى بلدانهم فى فرانسا بالنظر للعادة وهاته العادة منتفية فى الجزائر لعدم

اعتبار عادات الأهالى حق الاعتبار فنشأ فى ذلك القسم زيادة الاطلاق وقادتهم صغار الاهالى على قاعدة الناس على مذهب أمرائهم ومع هذا فلا زال فى ذوى البيتوتات وأصحاب الاصول مكارم الاخلاق الاسلامية وفضائل الطباع العربية وان كانوا بالاصالة قليلين فى المدن وأما أهالى القبائل من البادية والمتوغلين فى الجنوب ودواخل القطر فالاكثر منهم على الطبائع والعادات الاصلية والقليل الذين لهم علاقة بالحكام والتداخل معهم تغيرت عاداتهم الى نحو ما وقع فى الكثير من أهل البلدان ومن الاخيار الذين اجتمعت بهم ومحوا فى فضائل أخلاقهم النحرير العالم الشيخ على بن الحفاف المفتى المالكى بقاعدة الجزائر وهو من تلامذة علامة القطر الافريقى الشيخ ابراهيم الرياحى كما أخبرنى بذلك عن نفسه وله فضائل كاملة وتقوى وسكينة واطلاع والمعه فى الفقه والحديث وذاكرنى فى الهجرة فذكرته بأن مثله قليل الوجود فى ذلك القطر وان بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم أنفع للعامة وله عند الله من خروجه برأسه وابقاء تلك الامة المسلمة خالية من مثله بل وربما حمل خروج غيره ممن هو على شاكلته على الخروج فتبقى العامة بلا تعلم لديانتهم وتضمحل منهم الديانة شيئا فشيئا والعياذ بالله بخلاف ما اذا بقى هو وأمثاله فانه تنتشر تعاليم العقائد والفقه وتبقى الديانة ان شاء الله محفوظة فى الاهالى وذلك هو المنصوص عليه فى كتب فقهنا حتى ان الاسارى اذا لم يمكن فداؤهم جملة فيؤخر منهم العلماء ومن الاخيار أيضا الاصيل الفهامة الشيخ أحمد أبو قندوره المفتى الحنفى بالقاعدة المشار اليها وهو ذو تبحر فى المعارف السياسية ومتقن للغة الفرانساوية وصاحب حمية فى المدافعة عن أهالى وطنه وهو عضو أيضا فى مجلس الوالى وله مشاركة فى الفقه والحديث وكل من الشيخين المومى اليهما امام وخطيب فى جامع بالقاعدة المشار اليها وقد زرت كليهما فى مقصورة جامعه ودعانى ثانيهما الوليمة اتخذها اكراما لى جازاه الله أحسن الجزاء وتوجهت معه الى بستانه فى الجبل وهو بستان ظريف جامع للشكلين العربى والاوروباوى وبناؤه ظريف نظيف على النحو العربى المتقن ومن أكارم من اجتمعت به صفوة الخيرة سيدى قدور الشريف نقيب السادة الاشراف صاحب شمائل تليق بجلالة نسبه ومنهم العالم المتفنن الشيخ على بن موسى نقيب زاوية سيدى عبد الرحمن الثعالبى رضى الله عنه وهو صاحب ورع وديانة كان ولى فى احدى المناصب الحكمية ولما لم يمكنه الامتناع تصامم واعتذر بالصمم فأعفى ومنح نقابة الزاوية المذكورة فبقى ساكنا هنالك معتكفا على العبادة والمطالعة وله

أشعار

أشعار جيدة ومنهم الوجيه السيد الشريف الصفصافى وغيرهم من الاعيان كما اجتمعت بثقات من كبار موظفى الفرانسيس كالجنرال شيريز حاكم وهران ونائب الحاكم العام فى الجزائر عند مغيبه فى وقت قدومى الى هنالك وهذا الجنرال زيادة على معارفه العسكرية التى توصل بها الى رتبة الفريق فانه منصف عاقل عارف بأحوال سياسة الوطن والسياسة الخارجية صدوق فى الكلام بدون محاباة وما رأيت سائر كبار موظفيهم هنالك مثله والذى أعانه على معرفة مصالح الاهالى هو معرفته لغتهم ومنهم أميرال البحر الكماندان دى سان اندى وهو شيخ مسن منصف فى السياسة وممن لاقيته فى غير القاعدة الفقيه النبيه الشيخ السعيد بن شتاح قاضى بلد قالمه وهو مشارك فى الفنون الآلية وله اطلاع حسن فى الفقه مع عفة واستقامة ثم ان الاهالى على العموم فى طبعهم نوع من الحدة والنشاط وذرية البربر فى لونهم شقرة وصهوبة ولهم ولوع بالفروسية والملاهى فى المدن على نحو ما فى أوروبا وفى بقية القرى والبوادى على نحو ما ذكر فى تونس

﴿مطلب فى التجارة بالجزائر﴾ التجارة مع خارج القطر أغلبها بيد الفرانسيس ثم الاسبنيول والطليان ثم غير ذلك كالبعض من الاهالى والانكليز والنادر من غيرهم وفى دواخل القطر مقسمة بين الاهالى والفرانساويين وهى على نحو التجارة بتونس اذ لم تحدث بها معامل ولا كبير حركة تجارية سوى بعض معادن كما تقدم فى معدن الحديد بعنابه ومعدن فضة فى القالمه على ان تصفيتها وصناعتها تكون فى فرانسا وأصول التجارة الجارية على نحو الاصول الفرانساوية وعلى ما فيها من المعاهدات مع الدول وأما البريد برا وبحرا فهو بيد شركات فرانساوية وفى الجزائر دار صرف تسمى بانكة الجزائر لها أوراق مالية مثل البنوك المعتبرة فى أوروبا ولتسهيل طرق التجارة وان شئت قلت لتسهيل الحركة العسكرية قد امتدت طريق الحديد بين الجزائر ووهران وتلمسان ثم أخرى بين عنابه وقالمه وسوق هراس وقسنطينه واسكيكده وهم بصدد وصلها بطريق تونس ووصل البقية ببعضها والمذاكرات جارية فى مد طريق الحديد الى دواخل افريقية والصحراء حتى تجمع بين شطوط افريقية الشمالية الشرقية من جهة الجزائر وتونس وبين شطوطها الغربية من جهة سانيغال وتمر على ممالك السودان ولا يخفى ما فى ذلك الربح الباهظ

﴿مطلب فى الاحكام بالجزائر﴾ الاحكام الشخصية منقسمة الى قسمين فما يرجع الى الوقف والنكاح والطلاق والارث عند المسلمين له قضاة مسلمون على مذهب مالك

وفى بعض المدن مفتون حنفية والقضاة معين لهم الحكم بكتاب مختصر الشيخ خليل ويجلس مع القاضى عدلان للشهادة على الخصوم وينوبه أكبرهما عند مغيبه وأما ما يرجع الى سائر المعاملات والجنايات فله مجلس مركب من ثلاثة أعضاء فرانساويين ويحضر معهم عضو مسلم وهذا المجلس على نحو مجالس الاحكام فى فرانسا غير ان القانون الذى يحكم به ممتزج بين ما ترجم من مختصر الشيخ خليل وبين القانون الفرانساوى فاذا كان الخصمان من المسلمين والدعوى من أنواع المعاملات الاختيارية فلهما الاختيار بين فصلها فى هذا المجلس أولدى القاضى المشار اليه وأما اذا كانت الدعوى من قبيل الجنايات أو بين مسلم وغيره فلا تفصل الا بالمجلس كما ان للمجلس حق التحقيق على القاضى فيما يحكم به فى نوازل المعاملات وذلك جار فى كل بلدة (واما القبائل) فحكامهم القواد والاغوات والقضاة ثم لما كان أعضاء المجالس فى الاغلب غير عارفين بلغة القوم لزم احضار مترجم مع مراقبة العضو المسلم ومع هذا فلا يحصل الانتصاف المعهود فى محاكم فرانسا الا من حيث الاعضاء الفرانساويين فانهم يتحرى فى انتخابهم استكمال الصفات والاستقامة لكن يحصل أطوارا عدم احسان الترجمة جهلا أو عمدا مع عدم جدارة العضو المسلم فلا يجرى الانصاف وأغلب ما يكون ذلك فى الحكم الذى لا يفهم المحكوم عليه وكيلا عارفا باللغة الفرانساوية ومتضلعا بمعرفة الاحكام وقد حضرت يوما متفرجا فى مجلس الحكم بعنابة الذى هو فى الهيئة على نحو ما تقدم فى باريس فأتى برجل فى دعوى جنائية وبينما هو يتم فى كلامه واذا بالمترجم تكلم للحكام كان الرجل تمم مقاله فصدر الحكم حالا بسجنه وما أخرج من بيت الحكم الا ولاقى من اللكم واللطم والسب من أعوان المجلس ما تعجبت من صدوره من فروع الامة التى كنت أشاهد فى اعتدالها فى فرانسا وأولئك الاعوان هم من الاهالى غير الثقاة ومنهم أيضا أعوان للضابطية ويتجسسون على من يقدم من خارج وربما يهيج الاعراب اذا توجه اليهم وبمجرد التهمة يسافر من البلد وهم لا يحسنون لا التجسس ولا الخطاب لعدم الاهلية فى الانتخاب وعلى هذا النحو فى عدم الجدارة جميع من قضاتهم فلا يتقون الارتشاء ولا يحسنون حفظ ناموس المنصب حتى شاهدت قاضيا فى عنابة يتلاطم ويتخانق مع الخصوم ويجلس فى حانات الاراذل بما يتنزه عنه أعضاء مجالس الحكم وكان ذلك فى أصل القصد من عدم التحرى فى الانتخاب لتنفر الاهالى من أحكام القضاة ويفضلون أحكام المجالس بل وربما أدى ذلك مع

زيادة

زيادة جهل العامة الى اعتقادهم الاختلال فى الشعائر الدينية لما يرون من سوء حالة القضاة وأحكامهم واعتدال المجالس وانصافهم

﴿مطلب فى المعارف بالجزائر﴾ المعارف فيها على قسمين الاول علوم الديانات والثانى علوم الرياضيات فالاول قسمان أيضا الاول ما هو مختص بالديانة الاسلامية وله مدرسون فى الجوامع يقرؤن النحو والفقه وفى خصوص الجزائر من هؤلاء عشرة مدرسين والفقه هو المالكى وقليل من الدروس فى الحديث أو غيره وأكثر الاجتهاد فى هاته العلوم فى بلد قسنطينة ثم تلمسان وفى الجهات الجنوبية يقرؤن العلوم فى زوايا الطرق ولاهالى هاته الجهات اعتناء بأخذ العلم فيرحلون اليه الى فاس وتونس وقليل منهم يرحل الى مصر فلذلك لم ينقطع فى تلك الجهات من له اطلاع حسن ومشاركة جيدة وقليل من يتضلع حقيقة التضلع لانه ليس فى أوطانهم علماء فحول وانما يقرؤن صغار الكتب وأكثر الانكباب فى الفقه المالكى على حفظ مختصر خليل وتفهمه ومن تمهر فى العلوم فى احدى البلاد الخارجية قلما يرجع الى وطنه وفى كل تلك العلوم مدرسون فى الجوامع لهم مرتبات من قبل الدولة الفرانساوية وهى القائمة بمصاريف اقامة الجوامع وما فيها من قراءة الاحزاب أو كتب الحديث لانها استولت على جميع الاوقاف والمساجد واقتصرت فى كل بلد على عدد مخصوص من المساجد تقوم به وغيره تصرفت فيه بما ناسبها وحرمت المستحقين من مالهم كاوقاف الحرمين والقسم الثانى ما يختص بالديانة النصرانية ولا دخل للدولة فيه وانما القسيسون لهم مدارس لتعليم ديانتهم وقد كان نوع من القسوس يعرف بالجوزويت أنشأ مدارس للتعليم حتى للعلوم الرياضية مع الديانة ولهم اتقان فى كيفية التعليم والتربية وقد كانوا فى حدود نيف وثمانين ومائتين وألف احتازوا بكثير من أولاد الاعراب وغيرهم المسلمين بناتا وأطفالا ونصروهم وذلك عند ما وقعت مجاعة شديدة بالقطر ولما بلغ مجلس النواب فى فرانسا ذلك العمل شدد قسم منه النكير على الدولة فى اطلاق القسوس على ذلك العمل لكنها لم تمنعهم وعند ما كبر البعض من أولئك الاولاد وعلموا بان أهلهم مسلمون فروا الى أهليهم ثم لما منعت الدولة الجوزويت من التعليم فى فرانسا واستولت على مدارسهم ومكاتبهم فى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م عممت ذلك فى الجزائر أيضا ونفتهم من كل ممالكها لكنها أوصت بهم نوابها فى الممالك الاسلامية بان يحموهم فى حريتهم أى اذا ارادوا بناء مدارس والتعليم فيها فليس للدولة الاسلامية منعهم وان منعوهم تعارضهم نواب فرانسا مع ان

الدولة الفرانساوية الآن جمهورية وتطلق الحرية فى كل شئ غير انها سلبت حرية الجزويت فى ممالكها ولم يتيسر لهم اجتماعهم فى ممالك أوربا الا التى اكثرها فعل بهم مثل مافعلت هى فكيف يسوغ مضادة ذلك فى الممالك الاسلامية مع اختلاف الديانة فيها وأما فى فرانسا فان ديانتهم متحدة لان الجوزويت نصارى من أتباع الكنيسة الكاتوليكية الخاضعة للبابا غير انهم لهم مذهب فى دقائق الديانة والتأويلات والفلسفة فيها جعل لهم نوع انفراد عن بقية القسوس بيد ان الدولة الفرانساوية تستند فى منعهم من التعليم بانهم يمزجون فى تعليمهم الاحوال السياسية على الاصول الاستبدادية مما لا يوافق سياستها وتخشى من فشوه فى الناس مع المكاتب التى يتخذونها تصير كالمعسكرات تحدث منها الثورة ويأوى اليها الثائرون (وأما القسم الثانى) من أصل المعارف فهو سائر المعارف الرياضية وهاته لها مكاتب من الدولة فى البلدان المتمدنة وهى على نحو المكاتب الفرنساوية غير أنها قاصرة عن العلوم العالية فبعد اتمام التلميذ فيها معارفه ينتقل الى باريس التى هى مركز سائر العلوم العالية والمكاتب بالجزائر فيها ماهو للاولدان وفيها ماهو للبنات وقد حضرت بالاستدعاء فى امتحان البنات بعنابة ووقع الامتحان فى اللغة الفرنساوية وفى الكتابة وعزف البيانو وأنشدت المديرية خطبة فى تحسين التعليم وأغلب المعلمين نساء فى هذا المكتب كما حضرت امتحان مكتب الولدان من مسلمين وغيرهم وحضر كلا من الامتحانين وجوه البلد وحكامها

﴿مطلب فى الصنائع وغيرها بالجزائر﴾ الصنائع بها أحسنها الفلاحة وقد اتقنت فى الجهات الشمالية على نحو ماهى فى فرانسا (وأما بقية الصنائع) فانها على نحو ما بتونس مع الانحطاط فى الدرجة لا فى الكمية ولا فى الكيفية عما فى تونس الا بعض أنواع من البرانس فلهم فيه مزيد اتقان كالمسمى بالعباسى (وأما هيئة المساكن والطرقات) فان الجديد على نحو ما فى فرانسا والقديم على نحو ما فى تونس لكن الطرقات معتنى بتنظيفها وتنويرها على كل حال كما فى فرانسا (وأما اللبس) فالرسمى فرانساوى وقواد الاعراب الكبار يلبسون قفطانا طويلا مطرزا بالاسلاك الفضة المذهبة وبقية لبس الاهالى على نحو لبس التونسيين سوى عموم لبس الرداء المسمى بالحرام حتى فى المدن ويجعلون العمامة فوقه وكلهم يدخلون رؤسهم فى فوهة البرنس ولباس النسوة أحسن سترة منهن فى تونس لانه متدلى وكذلك الاكل والمراكب على أنواعها فانها نحو ما فى تونس الا

الذين

الذين لهم مزيد اعتناء بتقليد الاروباويين فقلدوهم فى أشياء كثيرة وقد رأيت من العادات القديمة انهم لا يدخلون ديارهم بنعالهم بل كل من وصل الى السقيفة نزع نعله ولبس نعلا خاصا بالدار أو دخل حافيا محافظا على النظافة والطهارة ولهم أنواع ظريفة متقنة فى الاكل سيما المتخذ من رق العجين حلوا ومالحا (وأما اللغة) فهى أيضا عربية محرفة على نحو ما فى تونس غير أنهم أقل فصاحة فى النطق ببعض الاحرف مع وجود كلمات غير معروفة فى تونس كقولهم أدرولك بمعنى انظر أو ما قاربها وفى جهات ذرية البربر لم تزل لغات أسلافهم مستعملة كما فى زواوة وبنى مزاب

الباب السادس فى انكلاتيره

﴿الفصل الاول فى سفرى اليها﴾

قد تقدم انى أقمت فى باريس سنة ١٢٩٦ نحو شهر وحيث كنت عملت أغلب مافيها ولزمنى انتظار أشياء يتوقف عليها رجوعى الى تونس أحببت أن أقضى بعض أيام فى رؤية انكلاتيره لشهرتها مع قربها من باريس فركبت الرتل السريع صباحا وذلك فى رمضان الموافق لتموز الاعجمى واستمر الرتل سائحا بسرعة يقطع بها نحو الخمسة والاربعين أو الخمسين ميلا فى الساعة فرأيت من منظر شمال فرانسا مايربو عن الجهات الشرقية والجنوبية انتظاما وعمرانا الى أن وصلنا الى بلد كلى التى هى مرسى على أضيق خليج بحر المنش بين فرانسا وانكلاتيره ولها عدة أسوار وخنادق متينة حصينة للغاية ودخل الرتل بين سورين الى أن وصل الى محاذات البابورة اللاصقة بالرصيف وكنا أخذنا ورقة الكراء الى ذات لندره فانتقلنا من الرتل الى البابورة وصادفنا بابورة عجيبة الشكل اذ هى مؤتلفة من بابورتين متلاصقتين عرضا وسطحهما متحد ولكل آلة بخارية وبها بيت جلوس واسع جدا ذو اتقان بليغ وبها أيضا بيوت صغار لمن يريد الانفراد لكنه يزيد نحو عشرة فرنك فى الكراء عن الطبقة الاولى وفى البابورة جميع ما يحتاج اليه المسافر لكنه له ثمن زائد عن الكراء والداعى لجعل البابورة كذلك هو صعوبة ذلك الخليج وشدة اضطرابه لانه مضيق بين بحرين ويمر فيه التيار بسرعة فبادنى ريح يشتد اضطرابه مع تطلب الراحة للمسافر فاخترعوا ذلك النوع من البوابير لكى لا يحصل فيه الاضطراب بكثرة عرضه فلم يفد واخترعوا نوعا آخر فيه أيضا وهو أن يكون بيت الجلوس منفصلة عن البابورة من جميع الجهات ومعلقة فيها

على نحو الفوانيس بحيث اذا مالت الباخرة لا يميل البيت حيث كان معلقا فيتبع ثقل
المركز فلم يفد أيضا لانه اذا اشتد الميلان ولاطم بعض أجزاء السفينة حائط البيت
ويتبعه في الميلان فحاولوا أن يخترقوا طريقا تحت قعر البحر ووضعوا لذلك رأس مال
قدره أربعة ملايين فرنك بين الفرانسيس والانكليز للتجربة أعني تجربة معرفة الطبقة
السفلى من أرض البحر هل هي صلبة قابلة للاستمساك أم هي رخوة أما أصل امكان
النفاذ فقد جربوه تحت نهر التيمس كما سيأتي ذكره ولا زال العمل جاريا في هاته التجربة
وذكروا أنهم وجدوا الارض صلبة بان حفروا في شطئ البحر بئرين أعمق من أعمق
محل في ذلك البحر فوجدوا طبقة الارض صلبة فاجتهاد الجهتين متوال في احداث
هذا الطريق وهذا ينبئك عن عزائم الامتين في العمل والمال ولا يبعد حصول المقصود
في وقت قليل ثم أقلعت بنا الباخرة ولم تحمل الا الركاب والبريد وما خف من البضائع
ورحل الركاب وأنعم الله علينا بان كان البحر في نهاية السكون ولله الحمد فكنا في غاية
الراحة غير انا لا ننظر الا ما قرب من البحر للباخرة لكثرة الغيم في الشطين وبعد سير ساعة
وأربعين دقيقة وصلنا الى مرسى دوفر من انكلاتيره التي هي أقرب مرسى في مقابلة
مرسى كالي ووصلت الباخرة أيضا للرصيف ونزلنا الى الرتل الذي هو على أهبة السفر
بلصق الباخرة فسألني خدمة الرتل الى أين توجهي فقلت الى لندره فقالوا أي جهة
منها فتعجبت هل هؤلاء لهم عجلات يوصلونني بها الى محل نزلي مع اني لم أتخذ منزلا وانما
كنت كتبت لاحد معارفي نيم الملاقاني في المحطة فاعدت لهم اني ذاهب الى لندره الى
محطة سكة الحديد فقالوا أي محطة فتذكرت ما كتب لي المتلقي الي في المحطة من انه
ينتظرني في محطة فكتوريا وعلمت اذ ذاك فائدة تنصيصه على اسم المحطة وحينئذ
ذكرت لهم اسم المحطة فعينوا لي الحافلة التي نركبها وكان ذلك بعد تعب في التفاهم من
الجهل باللغات حتى كان الذي فرج الحال رجل يعرف الفرانساوي ثم نقل الرتل سرعان
سابحا بسرعة أزيد مما هي في فرانسا حتى لا يمكن النظر من رؤية الاشياء
القريبة وكان الرتل يطفر طفرا من تقارب مقاطع قضبان الحديد الجاري عليها
من سرعة السير اذ هو يسير ستين ميلا أو أزيد الى الثمانين في الساعة الواحدة وكنت
أرى على بساط الارض آجاما عن بعد من شجرة لدينار التي يضم ورقها الى ماء الشعير
المتخذ سكرة المعروفة بالبيرة وترى أكواما كالقرى المنثورة من الآجر المصنوع حتى
تعجبت من كثرته وكثرت معامله ولكنني عندما شاهدت بلادهم زال التعجب لان

الآجر

الآجر وحده هو مادة البناء لسائر بناء من لندره واذا ببساط الارض على نحو مد البصر
كانه شبكة صياد بقضبان طرق الحديد المتفرعة الى جميع الجهات والرتل واردة صادرة
كالنحل السائح فوصلنا الى المحطة وتلقاني المنتظر الي ونفس عني ملابكلامه العربي
وهو مستر اميوني أحد ابناء الشام انتقل الى هنالك وسكن بلندره محترفا بصناعة التعليم
للسان العربي وكان دخله من التعليم كافيا له بمنزلة اوالاسعار وكانت مدة السفر من
باريس الى لندره تسع ساعات وثلاث ارباع الساعة بين السير في البر والبحر وسكنت في
الحارة المعروفة بهيت بادك وأقمت بلندره يومين منفصلين وثلاث ليال واليوم الوسط
ذهبت فيه الى بلد ابريتن صباحا ورجعت منها مساء حيث انها على شاطئ البحر ويتخذها
أعيانهم مصيفا وهي من أعظم منتزهاتهم وابنيتها مثل أبنية لندره وأحسن ما في هاته البلد
ثلاثة أماكن (أولها) قصر الملك وبستانه فالبستان جميل اجمالا (وأما) القصر فقد بناه
ملكهم وليم الثالث المتولى سنة ١٦٨٩ الذي كان محبا بالصيد والخلاعة محبا
للانفراد فبنى قصر بريتن وكان مغرما بأحوال الصينيين فجعل بها ذلك القصر بعيدا عن
القاعدة ليهنى عيشه بالانفراد ثم أنشأ القصر على نحو قصور ملوك الصين وجلب اليه من
هناك سائر الادوات والمفروشات وغاية الفرق بين هذا البناء والبناءات المعهودة انه
لا يشتمل الا طبقتين والقباب كلها على شكل مخروط الوسط والحيوط والابواب كلها
منقوشة مزخرفة بالاشكال الصينية وألوانها وتصاويرها والدرج ذات شكل غريب
مرتاح وظاهر القصر مزخرف وعلى زواياه وأبوابه شرافات وصوامع جيدة مزركشة وقد
باعت الملكة فكتوريا المتولية الآن هذا القصر لجمعية أهلية ليبقى منتدى للعموم في
خطبهم واجتماعهم وقد انتدبوا اليه عقب شرائه من سائر أقطار انكلاتيره وما زال
هكذا مباحا للمتفرجين وقد شنعت صحف أخبارهم على شح ملكتهم وتهمتها في المال
ببيعها ذلك القصر للاهالي وكان ينبغي لها أن تهديهم اياه واظن ان الثمن لم يبلغ
المليونين فرنكا (والمكان الثاني) في البلد هو محل معرض أنواع السمك في أحواض
من الزجاج وراءها الضوء مركوزة في الحيوط ينزل اليه بدرج على الشط وحوله مطاعم
أنيقة وحدائق وفوقها قهوة وفي بيوت هذا المعرض بيوت عديدة جميع حيوطها
أحواض زجاج فيها أنواع الحيوانات البحرية ما الله به عليم ويستفيدون من ذلك كيفية
حياة الحيوانات وتوالدها (والمكان الثالث هو دكة) على البحر طولها نحو نصف ميل
مصنوعة من خشب متين مرفوعة على أعمدة متينة من الحديد عالية عن سطح البحر

وحول الدكة وفوقها مقاعد ومنازه وقهاوى وذلك هو منتدى المتنزهين واللاعبين والمتسابقين فى البحر وبقية البلد ليس فيها ما يستغرب وانما هى حسنة قليلة النظافة الطرق ولم تزل الاشغال جارية فى احداث حارات جديدة فيها ثم لما رجعت الى فرانسا بت ليلة فى مرسى دوفر لان الباخرة تسافر بالبريد مبكرة فاخترت الذهاب اليها عشية لكيلا اتعب بالركوب فى الرتل ليلا للوصول اليها وتطوفت فيها فاذا هى مرسى حربية وحشية متينة الحصون كثيرتها ومبانيها ردية وطرقها وسخة ومنزل المسافرين الذى بتنا فيه حسن متقن وطعامه ردىء وليس فى البلد ما يبسط النفس فركبنا منها بكرى الصباح ورجعنا الى فرانسا فى باخرة فرانساوية اعتيادية وكان البحر ساكنا مع الضباب الكثيف وحول شاطئ فرانسا كان الجزر حاصلا حتى خشى السفن من مصادمة الارض وكان قعر البحر يرى فى بعض الجهات

الفصل الثانى

لما كانت هاته المصر المنمصرة هى قاعدة انكلترا وفيها أنموذج سائر المملكة يلزم ان تفرد بالذكر غير انه لا يخفى ما للعادات من المعادات وقد ذكرنا من أوصاف باريس وتفاصيلها ما يغنى كثيرا منه عن اعادته فى صفة لندره فلنقتصر على ما تنفرد به هاته عن تلك وهكذا نسلك فى سائر المباحث بحيث نقتصر على ما يفيد وما يشترك فيه الجميع يعلم حاله مما سبق فى الابواب السابقة فنقول ان لندره أكبر مصر فى أوروبا وسكانها على ما تحرر سنة ١٢٩٨ ه‍ ١٨٨١ م ٣٤٨٩٠٠٠ نسمة منهم ١٦٣٣٠٠٠ ذكورا و ١٨٥٦٠٠٠ اناثا ويخترقها نهر التيمس الذى يحمل السفن الكبيرة وعليه جسور عديدة ضخمة جدا منها البناء ومنها الخشب ومنها الحديد الذى لا أعمدة له يقوم عليها فى النهر وانما طرفاه على العدوتين ووسطه معلق بقضبان وسلاسل ممتدة الى طرفيه بحيث يوجد أبنية ضخمة مرتفعة تمر فى أعلاها تلك السلاسل والقضبان ثم تنزل الى الارض بحيث تكون على شكل مثلث زاويته الوسطى قائمة فيها ذلك البناء وتلك السلاسل أربع فى كل جهة من طرفيه اثنان وبعض هاته الجسور تمر عليها طريق الحديد وبعضها عليه جسر آخر يمر عليه طريق الحديد وقد نقروا تحت النهر نفقا يمر فيه الرتل أيضا وطول النفق ألف ومائتا قدم وكان انشاؤه سنة ١٨٢٥ ثم طمى عليه الماء ثم جدد سنة ١٨٤٣ وكانت مصاريفه ١٠٣٥٠٠٠٠ فرنك بحيث ترى الطرق

عند

عند نهر التيمس فى بعض جهاته على أربع طبقات فالرتل تحت الماء والسفن على الماء والعجلات والدواب والناس على الجسر والرتل أيضا على جسر فوقهم والطرق أكثرها فى عرض عشرين ذراعا والقليل أزيد من ذلك او أقل حتى ان منها الضيق الذى لا تمر فيه عجلة والطرق قليلة النظافة حتى ان منها ما فيه الوحل من الطين بمقدار لا تستطيع معه العجلات على سير الخبب وبعض الطرقات مبلط بقطع من الخشب فى شكل الحجارة ذات الشبر التى يبلط بها وذلك لقلة الوسخ من الخشب مع قلة الدوى وفقدان قرقعة العجلات وذلك انما هو فى الطرق الكثيرة مرور العجلات (وأما غيرها) فعلى النحو المعتاد والمبانى غالبها من الآجر الا قليلا من أبنية خاصة ضخمة متخذة من الحجارة وقليل أيضا من أساسات بعض الابنية فهاته تنحت لها الحجارة على شكل مستوى جميل المنظر وكثير من الديار عند أبوابها اسطوانات من المرمر محمول عليها رواشن أو سرادق وعامة البناء ذو ثلاث طبقات والرابعة السفلى وكل دار تسكن عائلة فقط ولذلك كان منظر باريس أبهج الا بعض حارات بنيت على نحو باريس فلم يستحسنها الاهالى وبقيت منفورا من سكناها وكل دار تجد على بابها روشن خارج عن حائط الدار وفى البلاد عدة حدائق رحيبة جدا أعظم مما فى باريس منها حديقة هيت بارك ولكل حارة تقريبا حديقة صغيرة خاصة باهلها وأعظم مكان فى لندره هو الجهة المعروفة بالسيتى وهو طريق عظيم مشتمل على دار صرف الدولة وعلى دار حاكم البلد وهو مركز أشغال التجارة الكبرى ومحط ادارات أعيان التجار فترى فيه من الازدحام ودوى العواجل والحوافل والمحافل والركاب والسلع ما يحير العقل والنظر واللب مع ان أبنيته وتحسيناته ليست مما يذكر وعادة أهالى لندره ان حارات الاشغال والحوانيت والمخازن لا يسكنها الا الصنف السافل من الناس وحارات السكنى تكون خالية عن جميع ذلك حتى يتعب الساكنون فى جلب ضرورياتهم لولا التيسير الكثير فى اسباب الانتقال من مكان الى مكان على نحو ما مر فى باريس وتزيد لندره بان خط طريق الحديد يطوقها بدائرتين احداهما أوسع من الاخرى وبالجملة فقد انفردت لندره عما رأيت بوسمعت من مدن العالم بكثرة الحركة وهول الجد فى الشغل والاخذ والعطاء والسفر والرجوع ويرى أثر ذلك فى محطات طرق الحديد كما أشرنا الى ذلك سابقا من رؤية براح شبكة القضبان مبسوطة عدة أميال ويحار العقل كيف لا يغلط مسير المزجيات وحراس مفاتيح الطرق بذهاب الرتل الى غير قصده ففى لندره ثمان محطات على نحو

ماذكرنا فى محطة فكتوريا وقد أحصى فى احداها عدد الداخل والخارج من الرتل فى مدة نصف ساعة فكان اثنى عشر رتلا وليقس على ذلك وقد نظرت يوما من قصر الزجاج دخان المزجيات الصادرة والواردة جارة للرتل فاذا هى مثل الجراد المنتشر فى كل الجهات (وأما بقية) الاحوال فهى دون باريس فى نظارة الحوانيت و بهجة البناء وعدم وجود محل للبول أو كنف فى الطرقات وفى النظافة والتنظيم والتنوير ولنذكر بعض محلات لم نر مثلها فى باريس فمنها قصر الزجاج وهو قصر عظيم جدا متخذ من قضبان حديد مرصف بينها قطع الزجاج وقد انشئ أولا مركزا للمعرض العام فى لندره وهو أول معرض فى اوروبا وبعد انفضاض المعرض نقل ذلك القصر الى ربوة حذو لندره واتخذ سوقا لبيع تحف وسلع ظريفة ولوضع عجائب وآثار دهريه وصناعية للفرجة والتنزه وحوله حديقة انيقة ذات فوارات وقهاوى وعلى كل داخل ان يدفع شيأ زهيدا من المال لمجرد الدخول والفرجة وما يشترى فهو بثمنه وطريق الحديد يصل الى هذا القصر من جهتين وهو ذو ثلاث طبقات ومقسم على عدة اقسام (وفيه) ملاهى (وفيه) محل للرماية (وفيه) حديقة (وفيه) عدة فوارات (وفيه) عدة مطاعم (وفيه قسم لمثال حمراء غرناطة بالاندلس اعنى مثال بعض جهاتها الشهيرة كوسط الحمراء والبيوت الكبيرة متقن التمثيل اعنى تمثيلا مجسما بحيث يدخل الانسان الى قصرهو على شكل الحمراء فيما تقدم وفى كيفية طلى البيوت وتمويهها بالذهب وما فيها من الكتابات الانيقة بالخط الكوفى وذلك القصر هو على نحو الابنية العربية لكنه فائق الاتقان والصنعة والتأنيق والتزويق وفى القصر الزجاجى (قسم) لاحوال الصينيين وصناعاتهم وأشكال اناسهم مجسمة بتصاوير من الشمع وهيئة المكثرين منهم لاستعمال الافيون وتأثيره القبيح فى عقلهم وذاتهم (وقسم) منه لتاريخ بلاد بمبي من ايطاليا تاريخا بالمشاهدة لصورة أطوارها وقسم منه لحيوانات غريبة منها الغول المسمى بالكورا الذى هو نوع من القرد الكبير وقد مر ذكره فى باريس وأنواع أخر من القردة صغار شبيهة بالانسان الزنجى وفى القصر الزجاجى أيضا (قسم) لبيع التحف والبضائع الرقيقة وقد رأيت فيه نحو سبعة رجال من العرب من أهل الشام ومصر والمغرب متخذين محلات لبيع تحف بلدانهم والعطريات (والحاصل) ان هذا القصر الزجاجى جامع لاشتات الظرف والنزاهة (ومن الاماكن الشهيرة) فى لندره أيضا التربيعة المعروفة ترافلكر وفيها عمود دباسون المبنى من المرمر ارتفاعه ١٧٦ قدما انقليزى وعليه تمثال وحوله شرافات من النحاس اتخذت من

مدافع

مدافع أخذت من الفرانسيس وحول العمود فوارتان بالماء أمامهما صورة الملك شارلس الاول وكان نصب العمود (سنة ١٨٤٣ ومنها أعمدة) أخرى (ومنها) الملاهى المتعددة وقد شرعوا فى بناء أكبر ملهى فى أوروبا وأكثرها تأنيقا مباهاة لملهى قران لوبرة فى باريس لكنه لم يتم الى الآن وأعجب ما رأيت فى ملاهيها فى محل التشخيص من اللعب ان بنتا ترتفع فى الهواء الى السقف وتغيب فيه وتارة لما ترتفع الى نحو نصف الفضاء تذهب فى الهواء طائرة الى جهة اليمين من المتفرجين من غير أن يرى لها ماسك أو شئ تعلق به وقد خاضت صحفهم فى ذلك ولم يقفوا على قول حقيقى فى صورة ذلك غير انى شعرت بأنهم يقللون الضوء عند ارادة تلك اللعبة (ومنها) دار الامتحانات العلمية (ومنها) قصر الندوى وهو أعظم بناء فى هاته البلاد ويمكن ان يقال فى أوروبا أيضا عدا قصر الفاتكان برومه فهذا القصر بلندره يشتمل على ١٢٦ مدرجا أو ازيد للصعود اليه وأكثر من ١١٨٠ حجرة و ١٩ ايوانا (منها) ايوان الاجتماع الرسمى الرحيب و يشتمل على اسرة ومقاعد ومطاعم وقهاوى بحيث ان أعضاء الندوة اذا يحوجهم الحال الى اقامة ايام هناك فلا يحتاج أحد منهم لشئ سوى الملبوس يأتى به من محله ولما كان ليلهم طويلا و يقضون أشغالهم فيه فكان فى القصر من التنوير ما يتعجب منه الناظر وكذلك أمر تدفئته (ومنها) المتحف البريتانى الشامل للآثار العتيقة والذخائر الغريبة وعلى نحوه ودونه عدة متاحف أخر (ومنها) دار الصرف اى البنك الدولى وهو أعجب بنوك أوروبا كبرا وغناء اذ فيه من الذهب فقط عشرات آلاف الملايين مخزونة قطعا كبيرة وصغيرة للدولة ولمن يؤمن ماله فضلا عن المصوغ والفضة وللخزنة محل حصين محاط بالمياه خشية الحريق (ومنها) البورس أى محل اجتماع التجار (ومنها) مجامع التجار العديدة (ومنها) قصر الهند أى محل ادارة الهند المؤقت (ومنها) دار شيخ البلد (ومنها) الحصن العظيم المسمى توراف لندره (ومنها) منزل المسافرين المسمى ريتش مانت وهو خارج البلاد على ربوة مطل على غياض ومرج ونهر و يتنابه الناس للاكل بكثرة وللسكنى بقلة وأكله أحسن من غيره (ومنها) بستان الملك وقصره خارج لندره أيضا المسمى همبتون كورت وليس به من الغرائب الا عريشة عنب واحدة مغروسة فى بيت من الزجاج لوقايتها من البرد حيث ان شدة برد انكلاتيره يمنع من نبات العنب بها فكانت هاته الشجرة معتنى بها منذ ازيد من قرن وقد عظمت جدا حتى ملأت أغصانها جميع البيت التى طولها نحو الاربعين ذراعا وصارت تثمر آلافا من العناقيد ولا يخرج منها

عنقود الابنذكرة من عند ذات الملكة تهادى بها من تتحفه من الاقارب والاعيان وعلى
تلك الشجرة قيم خاص وخدمة وتقصد للتفرج بانفرادها (والحاصل) ان لندره لا تونس
الوارد بنظرها الاجتماعى ومحاسنها مخبئة يروق بها الاعالى من الناس ومن أكرموه منهم
حتى انه ليست بها قهاوى كما فى سائر اروبا وليس فيها الاحانات لا يدخلها الا السفهاء أو
حوانيت تبيع الحلويات لمن يدخلها اوقفا ومنها عمود مصر المسمى بالمسلة موضوع
على عدوة نهر التميس الحاوية للقصور الملكية وسائر مهمات لندره وقد صرف على
جلبه من اسكندرية أموال باهظة تجاوزت عدة ملايين من الفرنك وأنشئ لجلبها سفينة
خاصة بخارية وصاحبتها المراقبة سفينة أخرى وتلقيت عند الوصول الى لندره باحتفال
وركزت فى موضعها غيران هذا الموضع وما حوله ليس مما يذكر وبينه وبين مركز المسلة
بباريس بون بعيد وكان الانقليز انما قصدوا الاسم وضم مسلة بقاعدتهم لا انهم أرادوا
جمالها وبهاءها (ومنها تمثال) زوج الملكة الحالة المتوفى سنة ١٨٦١ فاقيم له تمثال فى غيضة
هيت بارك من أعظم الهياكل بناء ورونقا واتقانا من أنواع المرمر الملون المزخرف
بقناطير الذهب وصرف عليه عدة ملايين من الفرنك (ومنها) المكتبات العديدة
الحاوية لملايين الكتب واحداها شاملة للكتب التى غنمت من ممالك الهند التى
استولى عليها الانكليز استيلاء ابانا وهاته المكتبة ليس بها قاعات وأواوين كبيرة
كغيرها وانما هى عبارة عن قصر ضخم كقصور السكنى الكبيرة فى باريس وفيه
عدة طبقات وكل يشتمل على بيوت بها نوع من الكتب والفنون وعلى كل نوع مدير
تحته عدة قيمين والكتب المجلوبة من الهند فى أعلى طبقات القصر فى عدة بيوت ضيقة
غير مرتبة ولا نظيفة والغبار على أكثرها ووضعها فى الخزائن على ترتيب وضعها فى دفتر
قيد أسمائها وهذا الدفتر انما رتب منذ عهد قريب لان الكتب أتى بها من
الهند فى أزيد من أربعين صندوقا كبيرا وبقيت متروكة على حالها زمانا طويلا ثم لما
فتحت الصناديق وجدت ملآنة بالكتب وضعت هناك زمانا طويلا من غير ترتيب
ثم كلف بتنضيدها وكتب فهرس لها أحد المستعربين من جهات سورية فرتبها على
حسب حروف المعجم فى أسمائها من غير نظر لموضوعاتها ومعانيها فتجدها مجموعة
ولا جامع الا حروف أسمائها ولم يتمها كلها بل قيد منها ألفا وخمسين مجلدا وبقى
غيرها غير معروف ثم ان الكتب المزخرفة والاوراق المذهبة جمعت فى صناديق
من الزجاج للناظرين ففى ورقة من مصحف كريم وبازائها ورقة من تصاوير الصينيين

الى

الى غير ذلك وتشتمل هذه المكتبة على كتب غريبة قليلة الوجود أو غير
معروفة وقد طبع ما تم من فهرسها وأعطيت منه نسخة وليس هو مجرد اسم الكتاب
بل يذكر اسمه وطالعته وخاتمته ومؤلفه وكاتبه وسنته بالعربى مع الترجمة للانكليزى
ومما رأيت به نسخة من التلويح بخط جميل صحيح أظنها بخط المؤلف حيث قال فى آخرها
كتبت هذه النسخة للشاب العزيزى وأنا العبد المذنب الغريب الموسوم بسعد
التفتازانى غفر الله ذنوبه وستر عيوبه وهو المحترم المكرم صاحب المروءة والكرم علاء
الملة والدين بلغه الله أقصى ما يتمناه اه وعلى ظاهر هذه النسخة خاتم مدغم كأنه
خاتم تيمورلنك والله أعلم

الفصل الثالث

﴿فى وصف انكلاتيره﴾

يسمى هاته المملكة جزيرتان كبيرتان احداهما أكبر من الاخرى واقعتان فى البحر
الشمالى من أروبا تبتدئ من دقيقة ٥٧ ودرجة ٤٩ شمالا الى دقيقة ٥٠
ودرجة ٦٠ وفى الطول الغربى معتبرا من باريس من دقيقة ٣٤ ودرجة ١
الى دقيقة ٥٠ ودرجة ١٢ ويحدهما من ثلاثة جهات المحيط الشمالى ومن الجهة
الرابعة الخليج المسمى بالمنش الفاصل بينهما وبين فرانسا ثم يفصل بينهما فى ذاتهما
خليج ماريرس وبحر ارلانده وأكبر هاتين الجزيرتين يسمى انكلاتيره وجهاتها الشمالية
تسمى اسكوتسيا والجزيرة الصغيرة تسمى ارلانده ولهذا كانت هذه المملكة معتبرة ثلاثة
أقسام نظرا للتاريخ القديم ويسمى مجموعها الآن برنيطانيا العظمى وعلى الاجمال
فأرضها خصبة جدا ذات مزارع ومراعى واسعة الا الجهات الشمالية المسماة اسكوتسيا
فانها لشدة بردها كانت غير صالحة للزراعة وهاته المملكة أراضيها منبسطة بها ربوات
قليلة الارتفاع وكلها معمورة حسنة المنظر متقنة الصناعة (وأما الجبال) فهى منخفضة
بها الا فى اسكوتسيا فانها مرتفعة شاهقة وليس بها جبل بلكانى (وأشهر) مكان فى الجبال
جهة الشمال على البحر فى اسكوتسيا المكان المعروف بممشى الجبابرة وهو أعمدة صخرية
مركبة على بعضها الى علو ٤٠٠ قدم بغاية الاحكام خلقة فكانت نزهة للناظرين
(وأما انهرها) فكثيرة وأعظمها نهر ساورن الذى يصب فى المحيط عند مدينة بريستل
ونهر مرسى الذى يصب فى بحر ارلانده عند مدينة ليفربول ونهر التيمس الذى يحمل

السفن العظيمة الى مدينة لندره وبين هاته الانهر ترع عظيمة سهلة المواصلات وكذلك نهر شانون في ارلانده والترعة المالكية بها الموصلة بين البحرين (وأما بحيراتها) فكثيرة أيضا وهي في اسكوتسيا أبهج اما يحيط بها من المرج والجبال ولذلك كانت منتدى الاغنياء في الصيف وأشهرها بحيرة نس وبحيرة لومند طولها نحو ٣٠ ميلا وكذلك بحيرة نياغ في شمال ارلانده وبحيرة أرن فيها أيضا (وأما هواؤها) فهو على العموم بارد وفي الشمال أشد وسليم موافق للصحة لكن يكثر فيها الضباب صيفا وشتاء وكذلك المطر الذي يسقي مزروعاتهم صيفا وشتاء ويوما الصحو الذي ينظرون فيه زرقة السماء يعد من حسنات الايام لان الضباب يتكاثف أحيانا الى أن يحوج الى ابقاء النور نهارا وربما كان غير مجد الا في البيوت والمسقفات أما في الطرق فالنور ربما يقوم بنفسه ولا تخرق أشعته تكاثف الضباب وكاد المطر أن لا يفارقهم ثلاثة أيام متواليات وقد يشتد الحر في الصيف الى أشد من أقاليم خط الاستواء سيما في دواخل القارة حتى يموت الناس في الطرق وذلك لانعدام النسيم وسكون الهواء سكونا زائدا فيشتد الحر الى درجة عالية للغاية لكنه لا يدوم فاهو الا يوم أو بعض يوم وتعقبه السحب والامطار والبرد (وأما نباتاتها) فهي نباتات الاراضي الباردة والجهات الوسطى والجنوبية يخصب فيها سائر الحبوب وان كانت لا تكفي السكان وأما العنب وما شاكله من نباتات الاعتدال والحر فلا يوجد منه الا ما يجعل له بيوت خاصة معالجة بالتسخين الناري ومع ذلك فتجد الارض بهجة مخضرة بالنباتات لكثرة العلاج واتقان الفلاحة وتجرية المياه وغاباتها كثيرة بها الاشجار الضخمة الصالح خشبها لانشاء السفن العظيمة فتراها الناظر معمرة لاغلب البقاع ونباتات المراعي خصبة جدا تسمن عليها الحيوانات (وأما معادنها) فالغني منها الحديد والفحم الحجري بكثرة في أغلب الجهات وفيها الرصاص وغيره وهي أغنى ممالك أوربا في المعادن (وأما حيواناتها) ففيها كل أنواع الحيوانات الموجودة في فرانسا وايطاليا كما سبق ذكره والسباع منها منقطعة للاجتهاد في ازالتها من قديم فان وجد شيء من صغار السباع فانما هو في الجبال الشمالية وذلك كالدب والثعلب وما شاكلها وأول من اعتنى بافناء السباع من المملكة الملك أدغر المتولي سنة ٩٥٩ فقد ألزم رعيته في كل سنة بأن تأتيه بثلاثمائة ذئب واستمر ذلك الى ان فني ذلك النوع وقد كان مالكا أرضها مع خبثه الشديد لان الذئاب الشمالية كالسباع الكبيرة في الجرأة والاذاية كما يشاهد الآن في الروسية وخيلها جيدة للغاية وفيها من أجود الخيل العرابية

لشدة

لشدة العناية بجلبها وتوليدها وتربيتها حتى فاقت سائر أروبا في الخيل وكذلك غنمها أحسن أنواع الاغنام وصوفها مرغوب للاصطناعات النفيسة لانها كادت ان تكون مثل الحرير (وأما مدنها فقاعدتها لندره) وقد مر ذكرها وبقية المدن كثيرة ومن أشهرها ليفربول وهي ثانية لندره (في التجارة) واقعة على مصب نهر مرسى في بحر ارلانده وفي مرساها من السفن ما يستغرب من كثرته ثم (مدينة) مانشيستر لها من الشهرة ما ينا كب السابقة وهي شرقيها على نحو (٣٢) ميلا ثم (مدينة) بيرمنهام ثم (مدينة) وشفليد (ومدينة) كدرمنستر وفي اسكوتسيا (مدينة) ايدنبر (ومدينة) ابردين (ومدينة) دندي (ومدينة) كلاسكو وهاته أعظم اخواتها تجارة ومركزا ومعارفا وفي ارلانده أربع عظيمة (احداها) جهة الشمال وهي بلفاست (الثانية) جهة الشرق وهي دوبلين (الثالثة) جهة الجنوب وهي كورك (الرابعة) جهة الغرب وهي غلوه وكل من هاته الاربع قاعدة للقسم الذي هي فيه وهنالك مدن أخرى عديدة غير هاته (وأما مراسي) هاته المملكة فحيث كانت هي جزائر بحرية فكادت مراسيها أن لا تعد وأكثرها محصن تحصينا جسيما حتى ان كثيرا من الحصون في المراسي الحربية صارت الآن مدرعة بصفائح الحديد الثخين الذي لا يعمل فيه الكور من المدافع الجديدة وفي بعضها معامل للسفن المدرعة والخشبية ومن هاته المراسي ما هو مأمن للسفن بأصل الخلقة كأكثر مراسي ارلانده لان في شطوطها تعاريج كثيرة حسنة المنظر ومنها ما هو مأمن بالصناعة وتجيء الى هاته المراسي التجارة في السفن والبوابير من سائر الاقطار وأكثر سفن العالم انما هو للانكليز كما يأتي توضيحه ان شاء الله تعالى وقد تحرر ان لها على شطوطها المداية السفن ليلا أزيد من مائتي منارة (وأما تقاسيم المملكة) بالنظر للادارة فهي في انكلاتيره الاصلية اثنان وخمسون مقاطعة وفي اسكوتسيا ثلاثة وثلاثون مقاطعة وفي ارلانده أربع مقاطعات فالجميع تسعة وثمانون مقاطعة لكل منها ادارة على نحو ما يأتي بيانه ان شاء الله (واعلم) ان هاته المملكة تتبعها جزر أخرى صغيرة حواليها كثيرة أشهرها جزيرة مان وجزائر نورمونديا وذلك عدا المستعمرات الخارجية لان ما ذكر هو قطعة من ذات المملكة (وأما أهل المملكة) فهم اثنان وثلاثون مليونا كلهم انكليزيون وديانتهم نصرانية على مذهب البروتستانت الا البعض وهم أكثر أهل ارلانده فهؤلاء على مذهب الكاتوليك ويوجد فيهم قليل من اليهود والدهريين وأفراد من المسلمين منهم من أهل المناصب العالية والبيوتات الكبيرة الملقبين باللورد كاللورد استانلي وهو من

الصادقين في الاعتقاد الاسلامي ولله الحمد دخل اليه عن روية وبرهان نسأل الله له مزيد التوفيق والحماية وعلو الكعب والهداية ثم ان هاته المملكة لها مستعمرات واسعة في جميع اقطار الارض حتى كانت اول دولة في العالم في اتساع الممالك وثاني دولة في كثرة الرعية اذ هي تالية لدولة الصين في كثرة الرعية لكنها الاولى في اتساع المملكة وعلو الشأن في اقطار الارض جميعها فاعظم مستعمراتها هو الهند وما معه وقد مر في المقدمة تفصيل ما وصلنا اليه من أحواله ولها في آسيا ايضا جزيرة هنكونغ في الصين ومدينة عدن وباب المندب وجزيرة بريم في جزيرة العرب وجزيرة قبرس في البحر الابيض دخلتها بمعاهدة مع الدولة العثمانية سنة ١٢٩٥ وحماية على مسقط وبعض قبائل شطوط جزيرة العرب الشرقية ولها في أوروبا جزيرة الياغولاند في بحر الشمال وجزر جرسي وغرنسي في بحر المنش وجزائر صغيرة حول المنجمد الشمالي وجبل طارق الهائل التحصين في ارض اسبانيا على الخليج الموصل بين المحيط والبحر الابيض المسمى ببوغاز طارق لان طارق هذا هو الذي عبر البحر من افريقيه واستملك الجبل المذكور للمسلمين فسمي به ثم افتتح بقية الاندلس وكذلك لها في أوروبا جزيرة مالطه في البحر الابيض وسيأتي تفصيل حالها ان شاء الله ولها في افريقية شطوط من سانيغال وجبال الاسد في كينيا العليا وارض شط الذهب فيها وراس الرجا الصالح وجزائر سنتلين وموريس ولا سانيول وشطوط في جزيرة مدغسكار ولها نوع حماية او سلطة على ممالك مستقلة في افريقيا ايضا مثل الزلوس وغيرها في ارض الكفرونوذ في الزنجبار ولها في امريكا البريتانيا الجديدة في شمال امريكا وكاندا وبرنزويك وسكوسيا ولابرادور وكلها توصف بالجديدة وجزيرة الارض الجديدة واراضي أخرى غربي شمالي امريكا وجزائر المنجمد الشمالي وجزائر الانتيل الصغار وجزائر جامايك ويمنان الانقليزية وما بعلان ولها في استراليا الشط الشرقي ومعظمها من بقية الشطوط وجزائر تزمانيا وزيلاندة الجديدة ونورفولك فاذا نظر المتأمل لاتساع هاته المستعمرات وافتراقها على جميع اقسام المسكونة علم مقدار اقتدار هاته الدولة وسيأتي في فصل التاريخ ان من حسن ادارتها كانت هاتيك الممالك قوة لدولتها الاجالبة لضعفها وهذا جدول لعدد السكان

سكان انكلاتيره	٠٢٢٧٠٤١٠٨
سكان اسكوتسيا	٠٠٢٣٥٨٦١٣
سكان ايرلانده	٠٠٥٤٠٢٧٥٩
سكان الجزر التابعة لها	٠٠٠١٤٤٤٣٠
عساكر وبحرية خارجها	٠٠٠٢٠٧١٩٨
سكان ممالكها بالهند	١٦٢٠٧٢٧١٥
سكان بقية اماكن باروبا	٠٠٠١٦٠٣٦٩
سكان ممالكها بامريكا	٠٠٥١٣٣٧٢٢
سكان مستعمرات افريقيا	٠٠١٨٦٠٠٠٠
في استراليا	٠٠١٩٥٨٦٥٠
في بقية الجهات	٠٠٠٤٢٦٠٤٧
	٢٠٣٤٣٠٦١١

الفصل * الرابع

* في اجمال تاريخ انكلاتيره *

مطالب في تاريخها القديم لا يخفى ان سائر اوروبا كانت في الاعصر السالفة على جانب عظيم من التوحش فلذلك كانت تواريخها القديمة عقيمة مجهولة ومن ذلك تاريخ انكلاتيره ايضا وغاية ما يعلم من أحوالها ان قوما من الكلتيين أي قدماء الفرانسيس الذين مقرهم في فرانسا بين نهر السين ونهر غارون عبروا الى أراضي انكلاتيره بقصد توسيع التجارة فلم يجدوا لهم ممانعا واستوطنوا هنالك ثم لحق بهم فرقة من اهل البلجيك وبقوا جميعا على التوحش التام وحكمهم بايدي رؤساء القبائل بل العائلات حتى ان غيرهم ولاهم كالعبيد بايديهم وبينهم كهان لهم سلطة على الجميع بما يتعلمونه خفية من علم السيمياء والطبيعيات ليوهموا العامة بخرق العادة لهم حتى اعتبروهم كالالهة وكانوا جميعا يعبدون الاصنام حتى انهم يقربون اليها دماء الانسان بالتضحية لها وفي سنة ٥٥ قبل التاريخ المسيحي عبر الى انكلاتيره يولوس قيصر بجيوش الرومان فلم يتمكن منها لمعارضة الاهالي مع هيجان عظيم في البحر ثم عاد اليها ثانيا واستملك منها بعض الجهات لكنه لم يستقر حاله ايضا وفي سنة ٤٣ بعد التاريخ المسيحي اعاد

الرومان الكرة وافتتحوا الجزيرة وارسلوا رئيس عصبتها الى رومة أسيرا ثم تزداد الرومان تمكنا منها بما وقع من التخاذل بين أولئك الكهان الى ان ابادوهم غير انه كانت احدى القبائل مترئسة عليهم امرأة يقال لها بوديكبا فاستنهضت جميع الأهالي وقهرت الرومان وقتلت منهم (سبعين) ألفا ثم اعادوا الكرة وانتقموا من الاهالي حتى قتلوا منهم ثمانين ألفا وزادوا عليهم العذاب المعروف من الرومان ثم عدلوا فيهم وكان اخضاعهم بالعدل أحسن من السيف لكنهم شغبهم أهالي اسكوتسيا الساكنون في الجبال بغاراتهم المتتابعة فبنوا بينهم سورا ثم آخر أعظم منه طوله ثمانون ميلا وذلك في حدود سنة ١٢١ مسيحية وفي سنة ٦٨٧ استبد على الرومان احد قوادهم بميل الاهالي اليه وصار ملكا على انكلاتيره ثم عادت الى الرومان بلا حرب لتكاثر الانقسامات الداخلية ودامت ولاية رومانية الى القرن الخامس وفي مدة استيلاء الرومان التي هي أربعة قرون حصلت الاهالي على معارف جمة مما كان عند الرومان حتى كانت ذات مدن وحضارة وصنائع وتجارة لما في الاهالي من النشاط الى الكد ثم في سنة ٤٣٠ اضطر الرومانيون الى تسليم انكلاتيره لاهلها ورفع جيوشهم منها لما وقع في ايطاليا من الحروب الاهلية والخارجية فكان حفظ قاعدتهم أولى لهم من حفظ المستعمر غيران أهالي انكلاتيره وان حصلوا على حظ من التمدن بسبب المتسلط عليهم فقد فقدوا ما يوازي ذلك من الحرية والشجاعة للهوان الذي حملوهم اياه فلم يستطيعوا الاستقلال بانفسهم لمهاجمة أهل الشمال من جبال أسكوتسيا فلذلك استنجدوا قبيلة من الالمان مقرها على مصب نهر الالب من أوروبا الشمالية تسمى السكسونية لما كان بينهم من المودة والمخالطة وطلبوا منهم الاعانة على دفاع الاعداء فأنجدوهم لكنهم استأثروا عليهم بفائدة النصر فجعلوا الاهالي كالعبيد لهم وتملكوا عليهم وعندما أرادوا دفاعهم شتتوهم واستقلوا هم بالبلاد ورحلت فرقة من أهالي انكلاتيره فارة بحياتها الى أراضي فرانسا وسمي المكان الذي استعمروه منها باسم برنيطانيا نسبة اليهم حيث كانوا من أهالي برنيطانيا وكان مبدأ استملاك السكسونية من سنة ٤٤٢ ميلاديه ثم قسموا انكلاتيره الى سبع ولايات تسمى باسماء أعيانهم ولكل منها أمير ويرجع الجميع الى ملك هو أحدهم ونشأ عن ذلك منازعات في هاتيك السيادة دامت بسببها الحروب الداخلية وعندما فاز بها ملك ولاية كانت أحد السبع المذكورة دخلت في الاهالي الديانة النصرانية وذلك سنة ٥٩٦ وامتدت الهوينا فيهم الى أن عمتهم وفي سنة ٨٢٧ زال استقلال سائر الولايات بدخولها

جميعا

جميعا تحت ملك واسيكس وهو اغبرت وهو أول مستقل حقيقة بالجميع وأول ملك لانكلاتيره جميعا من العائلة السكسونية وتوارثت الولاية أولاده وفي مدتهم هجم عليهم أهالي الدانيمرك وتملكوا أولا عدة جهات ثم عمت ولايتهم لكنها لم تطل واسترجع منهم الفريد الملك الاصلي من العائلة السكسونية بعض الجهات ثم عقد معهم صلحا ومعاهدة على الذب والاقدام واشترط عليهم الدخول في النصرانية ثم التفت الى اصلاح البلاد من جهة التمدن ومن جهة القوات الحربية وأدمل جراحاتها ورقاها الى أوج حسن ومع ذلك كان منعكفا على التأليف والترجمة فافاد أمته فوائد جسيمة وفتح لهم بابا من الحرية حتى كان من جملة حكمه التي جرت عندهم مثلا الى الآن قوله يجب ان يكون الانكليز احرارا مثل أفكارهم ولمثل ذلك لقب هذا الملك بالفريد الكبير وكانت وفاته سنة ٩٠٠ ومن مشاهير ملوك هاته العائلة حفيد المذكور اثلستان الذي أتم استخلاص المملكة من بقية الدنمرك ورقى قواته الحربية الى أن رغب في موالاته غالب الملوك من أوروبا فعقد الصلح مع فرانسا وصاهر باخته ملكها وباخته الاخرى ملك المانيا ومن مشاهيرهم أيضا ادغر الذي المستولي سنة ٩٥٩ فانه أبلغ القوات البحرية الى درجة لم تعهد لهم في ذلك التاريخ حتى صارت سفنه أربعمائة سفينة وكان يتفقد بنفسه المملكة مرة في السنة وهو الذي قطع الذئاب منها كما مر آنفا ومنهم أيضا الملك اثريلد الذي كان سبب استيلاء الدنمرك على المملكة بقتله جميع من كان فيها منهم فافتتحوها بحروب ذريعة وتملك منهم على انكلاتيره ثلاثة ملوك أشهرهم الملك كانوت الذي عمم العدل والراحة حتى استطاع السفر منها الى زيارة البابا في رومية وكتب الى عماله بما نعربه اعلموا جميعا اني نذرت حياتي لله وأن لا أحكم في ممالكي الا بالعدل وأن لا افعل في كل أمر الا المستقيم فان كان صدر مني وانا في عنفوان شبيبتي وعدم مبالاتي ما يناقض ذلك فها أنا ذا قد عزمت بحول الله على تعويض ما فرط مني ولذلك أرجو وآمر كل من قلدته شيئا من الامر ويريد خلاص نفسه وبقاء طاعته لي ان لا يظلم أحدا سواء كان فقيرا أو غنيا وان يسووا بين الاشراف وغيرهم في انالة حقوقهم على مقتضى الشرائع التي يجب حفظها ولا يحولكم عن ذلك الخوف مني ولا تطلبوا رضاء الاشراف ولا الميل الى ملء خزائني المالية فاني لا أحب مالا جمع بظلم اه وبعد وفاة هذا الملك ثارت الفتن بين أعقابه وأعقاب العائلة السكسونية الى ان استولى منها اثنان في ارتباكات متوالية حتى انقرض الجميع سنة ١٠٦٦ وبينما كانت الاهالي في نزاع فيمن يملكونه عليهم واذا باحد امراء ولاية نورمندية التابعة

لفرانسا فهجم عليهم وقهرهم جميعا واستقر ملكا عاما على انكلاتيره وعلى نورمنديه
ثم انه حصلت له حروب فى انكلاتيره حملته على الانتقام بالقتل لاهاليها وافساد الزرع
حتى نشأت عنه مجاعة مات فيها نحو مائة ألف نفس ثم ثار عليه ابنه الذى خلفه فى نور
منديه وحاربه وانتصر عليه وبعد موته خلفه ذلك الابن فى كل من المملكتين مع حروب
دائمة فيه وفى خلفه حتى استولى هنرى الاول من احفاده وحاربته فرانسا فى مدة لويس
السادس عشر لاستخلاص ولاية النورمنديه وغلبها ونازع البابا فى حق اعطائه وظائف
الديانة واستقل هو بها مثل سائر الوظائف ثم تعاقبت الثورات والحروب تارة داخلية وتارة
مع الولاية النورماندية فى استخلاص نفسها ونزاع فى التملك الى ان ولى هنرى الثانى
أول العائلة البلانتاجينيه وهو اسم حشيشة كانوا يضعونها فى قلانسهم فسميت العائلة
بها وذلك سنة ١١٥٤ فاعمل هذا الملك عزمه فى ازالة تعصبات الجهات وأزال ما فيها
من الحصون وخضد شيئا من شوكة الاعيان وأجرى نوعا من التسوية فى الحقوق فهدأت
الحروب فى مدته ومن مشاهير فروعه فى الملك ريكاردوس الملقب بقلب الاسد المتولى
سنة ١١٨٩ وهو الذى اشترك فى حرب الصليب ثم أسر عند النمسا وفداه أهله وقتل وهو
محاصر لاحدى القلاع فى فرانسا فولى أخوه يوحنا الموسوم باختلال العقل حتى خسره
مستملكات الانكليز فى فرانسا وقتل ابن أخيه فثارت عليه الاعيان وألزموه بما يأتى
خبره وانتقلت حالة المملكة الى طور آخر

(مطلب فى تاريخ انكلاتيره الجديد) اعلم ان مبدأ ظهور الحرية فى جميع أوروبا
على الاصول المعروفة هى انكلاتيره ولذلك كانت هى أسبق ممالك أوروبا الى ذلك
وحصل فيها هذا الامر على نحو ما سيأتى ولهذا اعتبرنا ذلك فهو تاريخ جديد الى انكلاتيره
لانها استمرت على أصوله وزادتها ارتقاء الى الآن وان اعترت فى الاثناء توقفات
ومعارضات تارة تخضد شوكة القانون وتارة تزيلها لكن على كل حال قد نشبت أصوله
وأدركتها العقلاء ومرت منهم الى غيرهم الهوينا شأن الاصلاح فى كل شئ (وحاصل
هذا المبنى) ان الملك يوحنا وبلغتهم جان سانتيرا لما تصرف تصرفات أضرت بالمملكة
والدولة تعصب أعيان المملكة وفرضوا قانونا سموه بالشرط الكبير وألزموا الملك بقبوله
وامضائه والعمل به وذلك فى سنة ١٢١٥ فلم يسعه الا العمل بذلك وملخص هذا الشرط
الكبير هو ان الملك التزم فى حق نفسه وحق من يأتى بعده بمنح الحرية الى جميع الانكليز
وان فرض الضرائب على الامة لا يكون الا برضاء مجلس مركب من الاساقفة ورؤسائهم

وأهل

وأهل الخطط الدينية والاعيان من الامة أصحاب ألقاب البارون والكنت والموظفين
فى الدولة وان ذلك يجرى أيضا فيما اذا اقتضى الحال جعل اعانة مالية على مدينة لندره
مع بقاء حريتها القديمة وان مجلس الحكم العام لا يلزم انتقاله الى حيث ينتقل الملك وان
المكترين للاراضى لا يلزمهم العقاب المالى لاجل هفواتهم وانما يكون العقاب على
الجناية ولا يؤخذ لاجلها الا ما يزيد على القدر الضرورى للجانى وهكذا الباعة والسوقة
لا تمس رؤس أموالهم ولا تعطل حركاتهم التجارية ولو لجناية وكذلك الفلاحون الذين
تحت تسلط الملك أو أصحاب الاملاك لا توضع عليهم ضرائب العقاب عند الذنب الا بقدر
الطاقة بحيث لا تتعطل أشغالهم وان جناياتهم الملزمة لذلك لا تثبت الا بشهادة اثنى عشر
نفسا ممن يرضون للشهادة مع اليمين وان يبطل عمل التسخير بأخذ حيوانات الاهالى
وعجلاتهم لحمل اثقال الملك وان يتحد عيار الكيل والوزن والقيس فى سائر المملكة على
عيار لندره وان لا يمس حق لانسان مطلقا فى كل ما يرجع لذاته وماله وعرضه ولو من الملك
الا بمقتضى القانون وحكم المجالس به وأن لا يمنع أحد من السفر الى أى مكان اراده برا
وبحرا ولا يمنع من الرجوع متى اراد مع التزام الطاعة على مقتضى القانون (الخ) فمن
تأمل ما لخصناه من ذلك الشرط يعلم ما كانت عليه الحالة سابقا مما يناقض الشروط المشار
اليها ثم خلف ذلك الملك ابنه هنرى الثالث ودام فى الملك خمسا وخمسين سنة مع كونه غير
جدير بالتصرفات وانما عضد ابقاء العمل بذلك الشرط وزاد تأكيدا بالقانون المسمى
بتقرير اكسفورد نسبة الى البلد المنعقد بها وملخصه ان مجلس البارلمان أى مجتمع
البارونات هو الذى يعين أعيان الموظفين والحكام الذين يتبدلون فى كل سنة ويحرس
قصور الملك ويجتمع ثلاث مرار فى السنة ويبقى فى بقية السنة لجنة منه مركبة من اثنى
عشر عضوا يتفاوضون دائما مع مجلس الملك ويؤلفون فى كل مقاطعة أربعة أعضاء لقبول
الشكاية من الاعيان والموظفين ويعرضونها على البارلمان عند أول اجتماع (الخ)
ثم ولى ادوارد الاول الملقب بذى الساقين سنة ١٢٧٢ ودخلت فى مدته ايالة والس تحت
انكلاتيره وولد ابنه بها ولهذا صار لقب ولى العهد برنس والس وبرنس دى غال نسبة الى
الى المكان المولود به من الاسمين المذكورين ثم ولى ابنه ادوارد الثانى سنة ١٣٠٧ بعد
حروب طويلة فى مدة الملكين أفضت بالثانى الى الموت فى السجن واستولى بعده ابنه
ادوارد الثالث سنة ١٣٢٧ وهو ابن اثنتى عشرة سنة وهو المبتدى لحروب المائة سنة
مع فرانسا بدعوى استحقاقه تاجها لانه من ذرية البنات الاقرب من فليب غالوا ملكها

واستولى على كالى وبردو وبايون مع مستتبعاتها من فرانسا بعد حروب هائلة وفى مدته ظهر مذهب البرتيستانت الذى انتشأ فى انكلاتيره من رجل فلسفى متدين بالنصرانية ولا زال يتقوى فيهم ثم ذلك المذهب والحروب مستمرة تارة للديانة وتارة لجور الملوك الى أن استولى الملك هنرى الرابع سنة ١٤٠٠ وهو أول العائلة المسماة لانكستر نسبة الى دوك ولاية تسمى بذلك الاسم ودامت الحرب فى أيامه الى أن خلفه ابنه هنرى الخامس سنة ١٤١٣ الذى جمع تاج انكلاتيره وفرانسا بافتتاحه للثانية وعند موته تتوج ابنه فى حضن مرضعته بمدينة باريس بالتاجين معا لانه ابن تسعة أشهر ولقب بهنرى السادس غير انه ضعف أمره بانقياده لامر زوجته عند شبوبيته فانقسمت انكلاتيره الى قسمين أحدهما تابع لهذا الملك والآخر تابع من العائلة السابقة واتخذ الاهالى شعارا دالا على التبعية فأتباع الملك شعارهم وردة حمراء والآخرون شعارهم وردة بيضاء ولهذا تسمى حروبهم تلك التى دامت ثلاثين سنة بحروب الورود وخرجت فى مدتها فرانسا واستقلت وكشفت الحرب عن رجوع الملك الى العائلة السابقة عن كاندو فظائع من الملك ادورد الرابع الذى تسبب فى ذلك ولم يطل الملك فى عقبه عند وفاته سنة ١٤٨٣ وغاية انتزاعه من ابنه الصغير الذى تحت وصاية عمه فاغتنم العم الامر الى نفسه بقتل الموصى عليه وأخيه معا واستبد هو سنة ١٤٨٥ متلقبا بهنرى السابع وأشهر ما أثره تأسيس ادخال أواسط القوم فى ادارة المملكة بان ينتخب الاهالى منهم نوابا فى مجلس للمفاوضة فى مصالحهم وأن لا تشهر حرب الا بعد تعذر اطفائها ولو بتوسط أجنبى وسلم لفرانسا فيما بقى لانكلاتيره بها من ايالة برتيطانيا بعوض قدره أربعمائة ألف ليره واغتنم من الاموال خزائن عظيمة حتى قيل انه خلف فى خزائنه الخاصة عشرة ملايين ليره وارتقى الى المملكة بعده ابنه هنرى الثامن سنة ١٥٠٩ وكان شديد البطش لكنه نفع المملكة بالاصلاحات التى أجراها وهو أول متمذهب بالمذهب البرتيستانت وتعصب له حتى أمر بقتل كل من لا يقبله وفى مدته دخلت ارلانده تحت انكلاتيره وصارت مملكة واحدة وعلى عكسه ابنته المتولية بعد أخيها وهى مريم حتى لقبت بالدموية لقتلها أهل ذلك المذهب بل حرقتهم أيضا وخضدت شوكة القوانين ومجلس البارلمان بعزلها من عارضها وتوليه من يوافقها وخسرت مدينة كالى من فرانسا لمحاربتها اياها انتصارا لزوجها ملك اسبانيا ثم لما خلفتها أختها سنة ١٥٥٨ رفعت الاضطهاد الدينى وزاد مذهب البرتيستانت انتشارا ونال الاهالى من الحرية فى سائر أطوارهم وحصلوا على

درجات من التقدم بالصنائع والمعارف ممن هاجر اليهم من المانيا وفرانسا وغيرهما من أهالى المذهب البرتيستانت لما وجدوا هنالك حريتهم من القتل لهم فى أوطانهم وفى مدتها عرف الشاى عندهم وعرفت الساعات وفى سنة ١٦٠٠ تشكلت الجمعية الهندية التى تقدم بيان أعمالها فى المقدمة وحيث لم يكن لها وارث عهدت الى أحد قرابتها وهو ملك اسكوتسيا الملقب جمس استوارد وبه اتحدت المملكتان وهو أول عائلة استوارد استولى سنة ١٦٠٣ وكانت أيامه على نوع من التقدم لا نفقه من الحروب وكاد فى مدته أن يحرق مجلس البارلمان بمن فيه بدسائس البابا فوضع تحته لغما لكنهم تفطنوا له وولى بعده سنة ١٦٢٥ ابنه كارلوس الاول وتفاقم الخلاف بينه وبين الامة فى حدود سلطنته اذ أراد أن يبقى مجلس الندوة المسمى بالبارلمان صوريا وهو يتصرف كيف يشاء ويحمل المسؤلية على المجلس لاخضاع الامة وتبرئة نفسه فلما عارضه المجلس عزل أعضاءه وانتخب آخرين لكنه كان كلما انتخب اناسا كانوا على نمط سلفهم فى معارضته حتى تفاقم الخلاف واشتهرت الحرب بين الامة والملك وكان من حزبه أغلب الاعيان وكبراء البيتوتات لما نالهم من الحظ من اطلاق الملك لانه كلما أطلقت يده انطلقت أيديهم أيضا فالحظ يقتسمونه بل يكون لهم منه القسط الاوفر حيث ان كلا منهم يجتهد فى خصوص مرضات الملك وحواشيه بشئ من التملق والتعظيم الباطل الذى يسخر منه العاقل ويضيف الى ذلك جزءا من الاموال التى ينتهبها ارشاء لاولئك الافراد ثم يطلق عنان شهواته فى ملايين من الناس على حسب ارادته يستعوض منهم كلما دفعه من المال والاعمال بل وربما أنفذ أغراضه فى أقرانه لما وقع بينهم من التحاسد والتشاحن فهاهو الآن يرضى تلك الشرذمة وينتقم من ضده بالقتل على أوجه لا تحصى منها الجهرى بدعاوى من الزور وحكم مجالس صورية تلقن ما تقول من الليل ومنها السرى بالقتل بسم وغيره من أنواع الغدر أو يحصل التنكيل بدون القتل كالتغريب والسجن مع أخذ المال كل ذلك باحتيالات صورية على ظاهر الاعين ليقال انهم لم ينقضوا القوانين حتى لا تثور العامة وأما متولى كبر حزب الامة فهو البعض من الاعيان والكبراء وجمهور الاوساط والرعاع فأما الباعث لهذا الجمهور على ذلك فهو واضح لانهم هم موضوع الاغتيال الواقع فيه المنافسة وقد كانوا علموا من السابق ما كانت عليه حالتهم ثم ما آلت اليه بعد تأسيس القوانين والاحتساب عليها وأما الباعث لبعض الاعيان والكبراء فربما أشكل مع ما قررناه فى حق أغلبهم لكنه فى الواقع بين وهو ان هذا القسم

عاقل ينظر فى العواقب ولا يستغنى بالعاجل عن الآجل فعلم ان الزخرفات التى تحصل بالتسلط لا تدوم لانها ما آلها الى انقراض الامة وضعفها فتهجم عليها أمة أخرى قوية وتصير أولئك الاعيان كالسوقة (كما قال تعالى) وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وربما عاضد السوقة وهم الجمهور ذلك الهاجم للاستراحة مما هم فيه وأيضا فان تلك الزخرفة التى يحصلونها أى الاعيان بتسلطهم مع قلة مدتها هى فى نفس الامر غير هنية لعدم الامن معها وعدم الاطمئنان عليها لما أشرنا اليه من كونها موقوفة على رضاء شخص تتلاعب به أهواء حاشيته والمقربين اليه لمجرد أغراض شهوانية وبعضها معها فرصة للاضحية متى ما اراد الملك فلا يأمن المقرب من طبيعة الملك المفسدة للاخلاق فربما غضب عنه مقربه اليوم لشئ كان يرضى به عنه بالامس وأيضا لا يأمن دبيب سعايات أقرانه وحساده الغافلين عن كونها تجرى عليهم مثلما جرت على صاحبهم كما قيل (من حلقت لحية جار له فليسكب الماء على لحيته) ولهذا انضم القسم حتى عقلاء حاشية الملك والبعض من رجال الدولة اذ تيقنوا انه لا خير لهم فى نعيم لا أمن معه لا على الدم ولا العرض ولا المال ولا الحريم ولا الذرية فاى نعيم يحصل لهم وهم على شفا جرف هار وكان مقدام هذا الحزب رجلا من أعيان البيتوتات اسمه اوليفر كرومويل ذا بسطة فى المال والعقل والشجاعة وجرت حروب هائلة كشفت عن خلع الملك وحبسه ثم قتله بحكم مجلس على انه خائن للامة واستولى اوليفر رياسة الدولة بعد ان تلقب بجنرال وكان يوم دخوله بالعسكر منتصرا الى لندره تلقاه الجم الغفير بالهناء والترحيب فقيل له ألم تر هذا الاحتفال من العامة بك أيها الحامى عن انكلاتيره وجعل ذلك اقمه فقال ان هؤلاء الرعاع لا يلتفت لا الى تعظيمهم ولا الى تحقيرهم فهم تبع للغالب اذ لو كان هذا اليوم أخرجت فيه الى القتل لكانوا خرجوا الى التفرج على مثلما خرجوا الى لقائى الآن وبه يعلم ان تلك الخلة جارية فى سائر الامم على السواء اذ هاته أمة الانقليز التى قيل فى المثل فيها يجب ان تكون حرة مثل أفكارها لقد قال فيها زعيمها المذكور ما سمعت وبقيت الدولة الانقليزية جمهورية بضع سنين الى وفاة الجنرال المذكور واستيلاء ابنه من بعده واستعفائه فى مدة قليلة فارجعوا ابن الملك السابق سنة ١٦٦٠ ولقبوه بكارلوس الثانى وسار على نحو ما كان يريد أبوه وخرق سياج القانون باستبداده على البارلمان متسترا باقامة خمسة من أكابر الاعيان لتدبير الامور وانفاذها بدون مراجعة الندوة وحارب هلانده وأخذ منها مدينة نيورك من أمريكا ثم عقد معها ومع السويد محالفة على

فرانسا

فرانسا ثم اتحد مع فرانسا على هلانده ثم خضع للندوة وبقى مضطربا الى ان مات وخلفه اخوه جمس سنة ١٦٨٥ فزاد الامر ارتباكا من ايثاره للمذهب الكاثوليكى الى ان خلع ونودى باحد أمراء هولانده لتزوجه بابنة مليك انكلاتيره الاسبق ولقب بويلم الثالث سنة ١٦٨٩ فاحيا اجراء القوانين واتبع اشارة الندوة وارتاح فى نفسه حتى لقب بالصياد لاشتغاله براحته وحبه الانفراد عما عنت به السياسة وذاته والمملكة وزادت الندوة أحكاما فى شروط القوانين منها ان لا يتولى الملك الا من كان على مذهب البروتستانت واحتاجت الدولة الى اموال لاصلاح داخليتها فى ايامه فاستقرضت من الاهالى وهو اول دين على الدولة وتشكل لاجله بنك انكلاتيره أى محل اجتماع الاموال من اناس كثيرين لاجل الشركة فى التجارة بذلك المال او لاجل ان يقرض المال على شروط وذلك البنك هو المعروف الى الآن وذلك سنة ١٦٩٤ وهو دليل على اجراء القوانين بعدم غصب الاموال من الرعية وترقت المملكة فى أيامه بالصنائع والمعارف بزيادة من هاجر اليها من فرانسا لاجل ما وقع سابقا من الاضطهاد المذهبى ثم خلفه الملكة بوحنا سنة ١٧٠٢ وفى مدتها استولت انكلاتيره على جبل طارق من اسبانيا واشتدت الحرب مع فرانسا وكان معاضد الفرانسا بافيره واسبانيا ولانكلاتيره النمسا وهولانده ثم انقرضت العائلة بموت تلك الملكة اذ لم يكن فيها من تتوفر فيه الشروط فنادى الاهالى باحد قرابة العائلة وهو امير من الهانوفر من المانيا ولقبوه بجورج الاول سنة ١٧١٤ وهو أصل العائلة الموجودة الآن واستقرار امره بعد حروب مع فرانسا لارادتها تمليك ابن من العائلة السابقة كاثوليكيا وبعد استقرار جورج المذكور لم يسكن فى انكلاتيره وانما الازم بلاده والتصرف بيد الوزراء والندوة ثم خلفه ابنه جورج الثانى سنة ١٧٢٧ ونشأت فى مدته عدة حروب منها الداخلية لاجل الملك من بقايا العائلة السابقة ولم ينجحوا (ومنها) الخارجية واعظمها مع فرانسا حيث كانت الحرب قائمة بين ابروسيا والروسيا والنمسا لاجل الاستيلاء على بولونيا وكانت فرانسا ضد البروسيا معاضدة لخصمها فحالفت انكلاتيره بروسيا لاجل زيادة اشغال فرانسا فاحتاجت فرانسا لجلب قوتها من مستعمراتها بامريكا لتقوية نفسها فى اروبا وعند ذلك هجمت انكلاتيره على مال فرانسا من امريكا وضمته الى تملكاتها حتى صار لها اذ ذاك جميع مالها الآن فى امريكا مع جميع الممالك المتحدة الآن وذلك بعد حروب هائلة ثم خلفه ابنه جورج الثالث سنة ١٧٦٠ واستقلت فى مدته أمريكا أعنى الدول المتحدة وذلك لان دولة الانكليز لما امتدت املاكهم هنالك

وتكاثرت فيها الخلائق المهاجرون الراغبة فى الغنى لما فيها من الخصب واتساع الاراضى الجديدة وقسمت الدولة تلك المملكة الى ولايات وجعلت عليهم ولاة انكليز بينهم احق بانهم مستبدين فى التصرف فحش ظلمهم للاهالى فاشتكوا منهم الى الدولة و بينوا لها اعمالهم فعزلتهم واولت ولاة من الاهالى بانتخابهم غيران الانتخاب لم يكن حقيقيا بالرضى ولذلك اتفق فى هؤلاء الولاة أن راسلوا فيهم فتمكن الحقد على الدولة ثم انها زادت عليهم الضرائب لما رأت من غناهم فنفروا منها حتى منعوا بالجبر مع اظهار الاسترحام ان تجرى فيهم ضريبة الورق المختوم فى صكوك الحجج فساعدتهم الدولة لكن احتاجتهم غيرها فعقدوا جمعية سرية واعلنوا الحرب بالاستقلال تحت راية الجمهورية سنة ١٧٧٦ واعانتهم فرانسا واسبانياوهو لندة لما لهم على انكلاتيره من الضغائن الحربية ودامت الحرب الى سنة ١٧٨٣ التى عقد فيها الصلح بباريس على ان ترجع انكلاتيره الى فرانسا اراضى سانيغال بافريقيا وترجع الى اسبانيا اقليم فلوريدا فى امريكا وعلى ان تستقل الممالك المتحدة بامريكا الشمالية وتكاثرت الحروب فى مدة جورج الثالث المذكور مع فرانسا وغيرها سيما مع نابليون الاول واشتهرت اذذاك انكلاتيره بالقوة البحرية والمهارة فى حروبها البحرية لما اظهره الاميرال نيلسون من البراعة والشجاعة فى مواقعه المتجاوزة على المائة ونيف واقعة وأشهرها هجومه على حصون كوبنهاك قاعدة الدانيمرك مع ان القسم الكبير من الاسطول لم يدخل معه الى المضائق وانفرد هو بمن تحت امرته من الاسطول وعندما رآه الاميرال الكبير قد فقد الربع من سفنه أشار اليه بالرجوع وكان هو أعور فلما أخبر بالاشارة جعل النظارة على عينه العوراء وقال انى لم ار شيئا مما تقولون وزاد فى الهجوم الى ان غلب عدوه وأجرى شروطه لما اراد ومع هذا الانتصار حكم عليه المجلس الحربى بالعقاب لمخالفته الامر وقد مات ذلك الاميرال فى حرب سنة ١٨٠٥ ضد فرانسا واسبانيا وكانت سفنهما اربعين وسفنه سبعا وعشرين فاقتربت من سفينته سفينة فرانساوية وراقبوا شخصه الى ان اصابوه برصاصة نجز منها للنزع وكان ينتظر البشارة بالانتصار ويدعو ونائبه قبل الموت فسادخل عليه الا بعد قريب من ساعة مبشرا بالنصر فقال كم غنمنا من السفن قال أظن اربع عشرة او خمس عشرة لانى لم اتمالك عن القدوم اليك عند ثبوت النصر قبل عدها فقال لكنى كنت أشترط على نفسى ان تكون عشرين ثم قضى نحبه وقد دام الملك جورج الثالث فى الملك ستين سنة لكن كان فى اغلبها لا يتصرف فى شئ بل لا يدرك شيأ من مصالح الملك لاختلال فى

عقله ولذلك جعل له ابنه ولى عهده نائبا عنه فى حدود سنة ١٨٠٤ ثم توفى ذلك الملك سنة ١٨٢٠ ومع ما حصل فى مدته من خروج الممالك والحروب فان انكلاتيره تقدمت فيها خطوة وسيعة فى التمدن والاعتبار والقوة حتى وصلت الى الذروة القصوى فانها احدثت فى ظرف اربعين سنة مائة وخمسا وستين ترعة وتكاثرت فيها معامل القطن والصوف الفائقة حتى راجت سلعتها على سائر ما فى غيرها لرخصها واتقانها واكتشفت واستملكت اوستراليا وغيرها وتقدمت فيها المعارف والتآليف الى نحو ما هى عليه الآن واستفادت حكما سياسية علمتها كيف تدير مستعمراتها الواسعة فى سائر أقطار العالم وحصلت على فخر النصر على نابليون وغيره واستتبت الادارة القانونية بغير نزاع ولا دسائس ولذلك صار يضرب المثل عندهم بان حرية الانكليز انما نشوا بها فى مدة ملكهم المجنون وخلفه ابنه جورج الرابع وفى أيامه وقع الغدر فى أسطول الدولة العثمانية من اسطول انكلاتيره المترئس على أساطيل الدول فى تظاهرهم على طلب تسليم الدولة العثمانية لليونان بالاستقلال من غير اعلان بالحرب لما تخللت الاساطيل ما بين أسطولها المركب من سفنها وسفن مصر وطرابلس وتونس والجزائر وهم على اطمئنان السلم والامن وأطلقت عليهم النيران دفعة واحدة بحيث لم يبق منهم باقية غدرا وشناعة لا تمحى ومعرة لا تزال على خصوص الانكليز لانهم هم الذين بيدهم أمرة جميع الاساطيل الدولية وعندما سمعت الندوة الانكليزية بفظاعة الواقعة هاجوا وماجوا وطلبوا محاكمة رئيس الاساطيل وحكم عليه مجلس حربى بالقتل مع دفاع وزير البحر عنه بكل ما أمكن من الاعتذار وتلفيق دعوى بان احدى السفن العثمانية أطلقت النار عليهم ولم يجد كل ذلك شيئا وعندما تحقق الرئيس الحكم عليه بالقتل أسر الى وزير البحر بان التذكرة التى بخطه فى الامر باحراق الاسطول العثمانى قد نسى أن يحرقها معه مثل ما أمر (وحينئذ) تحول المجلس الى جلسة سرية ثم أطلق الرئيس وسيأتى فى الكلام على الدولة العثمانية الباعث على ذلك التحامل على المسلمين وما له الديانة وان سياسة الدول الكبيرة فى الخارج ليست كسياستهم فى الداخلية ثم ورث الملك وليم الرابع سنة ١٨٣٠ وزاد القانون فى أيامه تحديدا ونفوذا واول سكة حديدية أنشئت فى اول سنة من ولايته والزمت الدولة عتق العبيد فى الهند وعوضت أصحابهم بأثمانهم وكانت نحو عشرين مليون ليره واحتسبت انكلاتيره على عتق العبيد فى سائر الاقطار ترغيبا وترهيبا لاهلها ولا زالت على ذلك الى الآن ثم

ورثته المملكة فيكتوريا سنة ١٨٣٧ وهى المملكة الحالية وأعانت الدولة العثمانية على اخضاع مصر واسترجاع الشام منها وعلى حرب القريم فحاربت الروسيا وآلت الحرب الى معاهدة باريس وحاربت الصين بالاتحاد مع فرانسا وأخضعت الهند من الثورة الهائلة بمعاضدة افغانستان وخرج الهند من وقتئذ من تحت الشركة التجارية الى الحكومة السياسية كما مر فى المقدمة وتلقبت بامبراطورة الهند ثم استولت على الافغانستان ثم جعلتها مستقلة تحت نظارتها بعد أخذ أجزاء منها وحاربت الزلوس من بلاد الكفر بافريقيا ثم صارت تلك المملكة تحت نظارتها وتداخلت فى حرب الروسيا مع الدولة العثمانية عند عقد الصلح الى أن أفضى الى معاهدة برلين مع زيادة التقدم والغنى فى داخلية المملكة الانكليزية

﴿مطلب فى السياسة الداخلية بانكلاتيرة﴾ (اعلم) أن السياسة المستقرة الآن كان استتبابها سنة ١٨٣٢ وأما أصولها فقديمة حسبما أشرنا اليه فى التاريخ وهاته السياسية مبنية على اعتبار تسلط الملك ونفوذ الاعيان واحتساب الاواسط من الناس فكل من السلطات الثلاثة مرتبطة ببعضها وينتج منها ادارة المملكة مما يرضى الجميع ولا يتجاوز كل منهم حدوده مما يضر بغيره ولهذا كانت قوانين الانكليز على نوع مغاير لبقية ادارات الاروباويين من حيث الاشتراك فى السلطة وعدم التساوى بين طبقات الرعية فى الاعتبار ونيل الرتب مع انالة الرعية غاية الحرية والامن وتفصيل هاته الادارة ومحل ارتباطها وانفرادها قد تكفل به كتاب أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك لخير الدين باشا التونسى بما يفيد عجائب أطوارهم واصطلاحهم فليرجع اليه من أراد البيان وانما نقتصر هنا على الالمام بكليات الادارة (فنقول أما القسم الاول) من ذوى السلطة فهو الملك وله حدود مضبوطة بقوانين من أهمها ان الملك وارثى فى ذرية الملك الذى هو من عائلة الهانوفر من الكبر الى بكره والانثى تستحق ذلك على شرط أن لا يوجد لها أخ ذكر والا فهو أحق بالتقديم وان كان أصغر منها (ومنها) التزام مذهب البروتستانت (ومنها) اذا اقتضى هذا التورات ان حاز التاج الانكليزى من له ملك أو أرض بمملكة أخرى فان الامة لا يلزمها الدفاع عن ذلك مثل ما يلزمها عما يرجع الى انكلاتيرة مالم ترض بذلك الندوة (ومنها) ان رياسة الديانة للملك بحيث يوظف مناصبها مثل ما يوظف المناصب السياسية (ومنها) رياسة سائر القوات والصلح والحرب الى غير ذلك مما مر فى ملك ايطاليا (ومنها) تلقبه بملك برنيطانيا العظمى وامبراطور الهند حتى يقول فى

طالعة

طالعة مكاتيبه الرسمية ما صورته فلان بنعمة الله ملك المملكة المتحدة من برنيطانيا العظمى وارلانده وامبراطور الهند محاميا عن العقيدة الخ والتلقيب بامبراطور الهند حدث سنة ١٢٩٢ بالتفاق المجالس وقوله محاميا عن العقيدة اشارة الى رياسته الدينية (ومنها) ان اجراء كل حق للملك فى التصرف انما يكون بواسطة رؤساء موظفيه وهم رؤساء الاساقفة والوزراء (وأما القسم الثانى) وهو سلطة الاعيان فهؤلاء الاعيان هم الملقبون باللوردات وبالقرناء وسيأتى فى مبحث العوائد خصوصياتهم وامتيازاتهم والذى يتعلق بهم هنا انه يتركب منهم مجلس اللوردات المشتمل (على) رؤساء الديانة (وعلى) عائلة الملك (وعلى) سائر لوردات انكلاتيرة (وعلى) ستة عشر لوردا من لوردات اسكوتسيا (وعلى) أربعة لوردات من لوردات ارلانده ولوردات المملكتين الاخيرتين ينتخبان من أمثالهم فى أقاليمهم لذلك المجلس لمدة حياتهم وبيد هذا المجلس سائر الاحتساب على التصرفات وانشاء القوانين وتغيير العادات والحكم فى المتوظفين بحيث لا يصدر عن الدولة شئ الا برضائه وليس لاعضاء هذا المجلس مرتب وعددهم غير محصور وربما قد يبلغون زهاء خمسمائة ولاعضائه اعطاء الرأى فيه بالمباشرة أو بارساله مع أحد أمثالهم كتابة والوزراء ينتخبون من هذا المجلس ومن مجلس النواب والملك انما ينتخب رئيسهم فقط وهو ينتخب بقية الوزراء كما فى بقية أروبا وعدد الوزراء تسعة الرئيس وهو وزير المال فى الاغلب ووزير الخارجية ووزير الداخلية ووزير الهند ووزير المستعمرات ووزير رياسة المجلس الخاص ووزير الحرب ولورد قاضى القضاة وهو رئيس مجلس اللوردات وموظف الحكام القانونية ولورد المحاسبات وهؤلاء الوزراء هم المباشرون لسائر أعمال الدولة بعد اذن الملك وليس له مخالفتهم الا اذا وافقته أغلبية الندوة فحينئذ يستبدلهم بغيرهم وهؤلاء الوزراء يضم اليهم الملك أعضاء من بقية اللوردات فيتشكل منهم مجلس الملك الخاص ورؤساء ادارات الوزارات ولا يزيد مرتب الوزير عن مائتين وخمسين ألف فرنك فى السنة (ومنهم) من له خمس ذلك فقط ووظيفة هذا المجلس الخاص التدبير فى اجرآت الاعمال كما ان من حقوق الاعيان ان يكونوا هم حكام الولايات كل ولاية حاكمها من لورداتها وليس للملك عزل أحد منهم من مرتبته اللردوية (ومنهم) أيضا أعضاء المجالس العليا فى الولايات التى لها التصرف الكلى

﴿وأما القسم الثالث وهو سلطة الاواسط﴾ فهى بانتخاب الاهالى منهم نوابا عنهم

مجلس النواب للاحتساب على تصرفات الدولة وحماية حقوق السكان وما يستقر عليه رأيهم يجري اذا وافقهم مجلس اللوردات كما أنه يسوغ للملك أن ينتخب من هذا المجلس رئيس الوزراء ولهذا انتخاب بعض الوزراء من بقية أعضاء هذا المجلس ومدة انتخابهم لاعضاء المجلس سبع سنين وشرط العضو أن يكون وجيها غير محكوم عليه بما يشين العرض ذا دخل من أملاك في المملكة غير منقولة يبلغ مائتين وخمسين فرنكا أو صاحب معارف له اجازة فيها من المدارس العلمية ولهذا اختص هذا الاحتساب بأواسط الناس ولم يكن للأسافل فيه حظ وعدد أعضاء هذا المجلس بحساب واحد على العشرين ألف نسمة من السكان فكان عددهم يتردد في زهاء سبعمائة ومجموع هذا المجلس مع مجلس الاعيان هو المسمى بالقمرة أي الندوة وعليها مدار سائر الاعمال في الداخلية والخارجية ومن أصولها أن ميزان المال ليس بجمود على حالة واحدة دائما بمعنى أنه اذا كان الدخل الموضوع يوفي بمصاريفها لاسنة ويفضل منه يبقى الفاضل في الخزنة أو يشترى به من ديون الدولة واذا كان لا يوفي يزاد في الضرائب الى أن يقع التسديد كما هو جار في الدول الاخرى بل ان قاعدة الانكليز هي جعل الميزان في كل عام بحسبه فينظر الى مقدار اللازم من المصاريف وعلى مقتضاه يجعل الدخل بحيث لا يكون للدولة فاضل ومن الاصول أيضا اعطاء الحرية لكل فرد وجماعة في مملكتهم بان يتكلموا في السياسة العامة والخاصة وتصرفات المتوطنين مطلقا واعلان آرائهم بالقدح أو بالمدح في الصحف وفي مجامع الناس ولهم الاستدعاء الى الاجتماع ولو اجتمع ملايين من الخلق من غير أن يتعرض لهم أحد بشيء ومن الاصول أيضا التي استقرت الآن أنه انتشأ في الامة حزبان (أحدهما) يسمى حزب المحافظين يعني أنه يريد التحفظ على القوانين الموجودة والجري عليها في الداخلية والمساعدة على كل ما ساعدها في الخارجية وأن لا يتغير شيء الا ما تدعو اليه الضرورة (والحزب الثاني) يسمى بحزب الحرية يعني أنه يريد زيادة اطلاق الحرية في الداخلية وفي كل الممالك ويساعد على قطع عوائق الحرية في أي جهة كانت بما يقتضيه حال الانكليز ولكل من الحزبين زعماء مشهورون بما يقولون ويكتبون للاشتهار وتشتمل عليهم الندوة ومهما مالت أكثريتها لافكار أحد الحزبين وجب أن تكون الوزارة مركبة من أعضاء ذلك الحزب فلا تزال تتداول الدولة بينهم ومن لازمها أنه كلما تغيرت الوزارة يتغير معها سائر المأمورين الذين عليهم مدار الاعمال ولو من علائق ذات الملك فان كاتب

سره وحواشيه الذين يخدمونه فيما يتعلق بتصرفات الدولة يلزم تبدلهم أيضا مع الوزارة خشية من افشاء أسرارها لضدها ومن الوشاية أو التراخي من جهة ما يتعلق بالملك مما يضر بالاجراء وينشأ عن هذا عدم ثبات السياسة الخارجية على طريق واحد داعي في الاجراء لتبدل المذهب بتبدل الوزارة وان كانت كل وزارة تولت تراعي أصل ما أسسته سابقتها لكنها تضربه ضربا لا يلائمها فلا يحسن الاعتماد عليه من الخارج ومن الاصول أيضا أن الخدمة العسكرية لا يدخل اليها بالغصب أو بالقرعة وانما هي بالاختيار ان رغب فيها ولهذا تجد في عساكر الانكليز في الحرب كثيرا من الاجانب الراغبين في المال الذي يبذل اليهم هذا اذا كانت الحرب خارج المملكة أما اذا هاجم العدو المملكة فيجب على كل الاهالي الدخول في سلك العسكرية على قانون لهم في ذلك حتى ان النساء أراد بعضهن الدخول في ذلك والفن فرقا للتعلم وكذلك العساكر اللازمة لحراسة المملكة يدخل اليها بالاختيار وهي عدا الضابطية التي تلزم أهالي كل جهة ومن أهم أصولها أن لا ينتخب اليها الا العفيف المرضي الشهادة حتى يكون كلامه حجة على الجاني وذلك من الاصول العامة في أوروبا وبها تيسر استقرار الراحة لان حراسة الضابطية ونفوذهم من أهم الوسائط الفعالة فهي أهم ما يعتنى بها ومن أصول الانكليز أن لا يتولى المراتب السامية في الدولة الا من كان على مذهب الكنيسة البروتستانت فتأمل في هذا مع ما يأتي ان شاء الله في أحوال تداخلهم في بلاد الاسلام بدعوى الحرية ومن عاداتهم قبول جاه العلية منهم والاعيان في توظيف معارفهم وأقربائهم اذا كان فيه شيء من الاهلية مع اهمال غيره وان كان أحق من المقدم ومن ذلك الرتب العسكرية لا تنال الا للاعيان والعلية والافراد العسكرية لا يستحقون ذلك مهما فعلوا غير انه قد حال منذ سنة ١٢٨٩ هـ ١٧٧١ م ابطال اشتراء الرتب العسكرية من ملازم الى أميرالاي بامر من الملكة حيث أن أصل انشاء ذلك كان بامر من الملك لا بقانون واغتاظ لذلك كثير من ندوتهم لكن المصلحة غلبت فصارت الرتب العسكرية مطلقا لا تنال الا بالاستحقاق في المعرفة وبهذا التغيير العسكري يعلم ما للملك من السلطة وان خالفته الندوة بناء على حق قديم له مع موافقة الوزارة اليه

﴿مبحث ادارة الولايات﴾ قد تقدم في صفة برينطانيا أنها تنقسم الى تسعة وثمانين ولاية وفي هذه الولايات فيها مدن ذات خصوصية بالامتياز بالشرف حسب عوائد قديمة ومدن كبيرة استحقت بكثرة سكانها ان تسمى عضوا أو أكثر في الندوة ومدن يسكنها مطران

من كبراء بلادهم ومدن وقرى خالية عن الامتيازات المذكورة (فاما) الانواع الثلاثة الاول فان لها ادارة خاصة لا تدخل فى عموم الولايات التى هى بها (وأما) النوع الرابع فهو مشمول بادارة عموم الولاية (والحاصل) فى ادارة عموم الولاية هو انها راجعة الى الوالى العام على الولاية وهو احد لوردات المحصل على عضوية الندوة وينتخبه الملك لذلك وليس له مرتب على هاته الوظيفة وهو ينتخب اثنين من اهل ولايته الاعيان أيضا لاعانته ويوظفهم له الوزير الملقب بقاضى القضاة وليس لهما مرتب أيضا ومدار أعمالهم حفظ الراحة ورياسة العساكر المحافظة والنظر فى الاعمال العسكرية ولهم أيضا مرجع الاحكام الشخصية والنظر فى مصالح الولاية الادارية وحفظ الطرق وانشائها الى غير ذلك من المصالح كما تنفرد البلاد الممتازة من الاصناف الثلاثة المشار اليها سابقا (ومنها) مدينة لندرة بان يكون لها شيخ وهو رئيس المجلس البلدى الذى أعضاؤه من الاهالى المنتخبين منهم والمجلس ينتخب رئيسه من أحد اعضائه كل سنة ولا مرتب له ولهاته المجالس البلدية مرجع جميع المصالح المتعلقة بالبلد ومنها ادارة الضابطية ولا دخل للدولة فيها بشئ وعلى رؤساء هاته المجالس ايضا الاحتساب على كيفية انتخاب أعضاء مجلس النواب فيما تحت نظرهم لكى يكون الانتخاب موافقا للاصول وهو الذى يرأس جمعية الانتخاب ويتصرف فى الاحكام الشخصية كتصرف قضاة الصلح الآتى بيانهم ويوم توليته رئيس هذا المجلس المسمى بشيخ البلد يكون فى لندرة موكب حافل من أعظم المواكب وله من الاحترام والتوقير كالاحد الملوك ثم ان متوظفى الديانة فى كل الجهات هم مرجع عدد من يزداد أو يموت وهم المكلفون بحفظ الكنائس والمقابر والفقراء والطرقات أيضا واعانة الضابطية عند الحاجة هذا (وأما) الاحكام الشخصية فان لها ادارة مخصوصة رئيسها اللورد قاضى القضاة الذى هو رئيس ندوة اللوردات ثم نائبه ثم اللوردات قضاة المجالس العليا فى الجهات الكبرى ثم حكام مجالس الولايات ومجالس الضابطية وكل هؤلاء لهم مرتب وهنالك حكام الصلح لكنهم لا مرتب لهم وكذلك حكام الجرى على نحو الممالك التى تقدم ذكرها غير ان الامر الذى انفردت به انكلاتيره هو ان احكامها لا تستند الى قانون خاص فشريعتها أصعب الشرائع لانها تستند الى مجموع أشياء وهى ما يوجد من القوانين فى بعض أمور وما يوجد فى احكام سابقة صدرت من مجالس الاحكام القديمة وما فى احكام الرومان وما يقع عليه اجتهاد أصحاب الاجتهاد وهم

اللوردات أهل المجالس العليا وقاضى القضاة وقرنائه وعلماء الاحكام وهم المسمون بالابوكاتية ولذلك كان علماء الاحكام من أشهر الناس وأوجههم ومن غريب عادات المملكة انه اذا وجدت نازلة ووجد حكمها فى احدى تلك الاصول لكن أصحاب اجتهادهم ظهر لهم ان المصلحة الوقتية تقتضى بخلاف تلك الاحكام لاختلاف الزمان فانهم يجرون اجتهادهم لكنهم لا يجعلون ناسخا للسابق بل يبقى السابق ويبقى المحدث حتى تكون الاصول متناقضة ويبقى لاهل الاختيار عندهم الخيار وبذلك يعلم مقدار النفوذ والسلطة للطبقة العليا من الناس عندهم لانهم هم الذين يكون منهم أهل الاختيار كما يعلم به فساد اعتراض بعضهم على أحكام المسلمين بانها مشتتة باختلاف الاقوال فى كتب الفقه مع خيار القاضى فى القضاء بها مما يوجب لهم التحرز من الدخول تحتها لانها غير معلومة للمحكوم عليه لان ذلك الاعتراض على فرض تسليمه كاهو فهو عندهم أعظم مما يعترضون به علينا ثم ان الاحكام المذكورة لها ترتب فى تحقيقها من مجالس ووراء مجالس الحكم باعتبار الخفيف منها والثقيل وما يرجع الى المعاملات وما يرجع الى الجنايات فالخفيف لا يستحق التحقيق الا اذا حصل ظلم فيقع فيه الاحتساب العام وأما الثقيل فينتقل الى مجالس تحققه الى ان ينتهى الى المجلس الاعلى بالتحت وحيث كانت الحرية مطلقة والاحتساب فى رفع الظلم سائغ الى كل احد برفعه الى مجالس الاحتساب ولو كان فى حق غيره مع اباحة نشر النوازل والافكار فى الصحف الخبرية وفى اعلانات ومطبوعات تنشر متى ما اراد الناشر وفى مجامع عمومية علنية كان التعدى على الحقوق من أصعب الامور عندهم

(مبحث ادارة مستعمرات الانكليز) اعلم ان الانكليز اغا تيسر لهم اتساع مستعمراتهم فى مشارق الارض ومغاربها بشيئين (أحدهما) نفس انتظامهم فى داخليتهم المثمر للغنى المثير للقوة الحربية (وثانيهما) حسن الادارة لما يتملكون عليه بالنسبة لغيرهم من الدول سيما بعد خروج امريكا عنهم واستفادتهم من ذلك للاسباب والبواعث الموجبة للنفرة منهم فاستقر أمرهم انهم فى كل جهة من المستعمرات يجعلون مركز الوجود قوة مركزية لهم ويجعلون فيها نائبا من ثقات اعيانهم مقيد التصرف بالشورى مع اعضاء منهم ومن أهالى المستعمر ويرجع الى هذا النائب الذى هو الحاكم فى تلك الجهة الامور الكلية من الادارة السياسية وأما بقية الجزئيات والاحكام والسيرة فانها تفوض للاهالى يجرون على حسب عقائدهم وعاداتهم وأحكامهم وكذلك الاداء المرتب

للحكومة وكيفية استخلاصه وتوزيعه الى غير ذلك من غير تداخل الانكليز معهم فى شئ سوى انهم يشترطون عليهم ابطال المظالم والتعدى على بعضهم وابطال بعض العوائد القبيحة بالعقل الراجعة الى ظلم الغير كاحراق الاحياء تبعا لمن يموت من قرابتهم أو وأد بناتهم وكتغريق الناس لمثل ذلك أو ذبحهم مما يحمد الخلاص منه جمهور الاهالى ويبقى الحاكم الانكليزى بجانبه مراقبا لتلك الملكيات ولمنافع الانكليز والاهالى حتى ان اعظم مستعمراتهم الآن وهو الهند له حكومة مخصوصة كما تقدم فى المقدمة وأعظم الوظائف فيه هو الحاكم العام وهو انكليزى لكن ثانى رتبة منه وهو قاضى القضاة هو مسلم من العلماء الاعيان وجميع أحكام الهند راجعة اليه ومرتبه سنويا أربعة وعشرون الف ليرة انكليزية وعلى ذلك المنوال بقية الامور ودخل تلك الحكومة خاص بها لا تأخذ منه الدولة الانكليزية شيئا ومصاريفها كلها راجعة الى حكومة الهند وربما اذا حدث حرب بجوار الهند مع حكومتها اعانتها الدولة الانكليزية على مصروف الحرب لعود النفع اليها بواسطة بل ربما تحمل أكثر المصروف عليها كما وقع منذ قريب فى حرب الافغانستان كما ان انكلاتيره تستفيد من عساكر الهند بدخولهم فى أمرها عند الحاجة اذا عقدت حربا مع دولة أخرى وكثيرا ما تبقى الممالك على حالتها بملوكها وامرائها واعمالها عليهم مجرد المراقبة والحماية وتلزم الملوك باجراء العدل فى ممالكهم واجراء الشورى وبذلك يحصل ميل العموم اليها (فان قيل) اذا كان الامر كما ذكر فاى فائدة للانكليز فى هاته المستعمرات سوى تشويش البال وخسائر الاموال فى الحماية او الثورات (فالجواب) ان فائدتهم عظيمة من وجوه (أولها) وهو لاهم رواج التجارة الانكليزية فان مائتى مليون من الخلق لا يحولون الا فى السلع والبضائع الانكليزية له من الاهمية ما لا يخفى و بضائع بقية الممالك اما ان تمنع بما يوظف عليها من عظيم القمرق فى تلك المستعمرات أو يدخل منها ما لا وجود له عند الانكليز مما هو حاجى فاما البضائع الانكليزية فتدخل معفاة من الاداء فان تبور لهم بضاعة ولا تقفل لهم معامل فما ينتجه ثلاثون مليونا من الانكليز من الصنائع يكونون مطمئنين على رواجه فى مستعمراتهم كل على قدر احتياجه زيادة عن الممالك الاجنبية وكفى بذلك غنى للامة الانكليزية وأى فائدة أعظم لها من ذلك ودونك مثالا لهذا فان مستعمر الهند وحده كانت قيمة التجارة الصادرة والواردة اليه فى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ثلاثة آلاف وخمسمائة مليون فرنك يخص الانكليز وحدهم منها ألفان اثنان مليونا والباقى مع سائر الممالك وأغلبها

الصين

الصين فهذا مستعمر الهند وحده راجت تجارتهم فيه بذلك المقدار وليقس عليه غيره (وثانى الفوائد) أشغال معلميهم فى الفنون والصنائع فى تلك المستعمرات الواسعة الكثيرة السكان بما يحدثونه للاهالى على وجه الارشاد والتعليم والتمدين عن طيب نفس منهم من المكاتب والمعامل وطرق الحديد وغير ذلك (وثالث الفوائد) حوز الاراضى الخالية عن الممالك والتعمير لها باهالى انكلاتيره الذين ضاقت بهم جزائرهم فصاروا يهاجرون منها الى كل الآفاق التى تتيسر لهم بها المعيشة والعمل فيهاجرون الى مستعمراتهم أولى لهم حتى تنتشئ منهم دولة جديدة كما وقع بالفعل فى دول امريكا المتحدة اذ غالب أهلها أصلهم انكليز وكذلك ما هو حاصل الآن فى استراليا (ومن أعظم فوائدهم) القوة الحربية التى تتصرف فيها انكلاتيره من عساكر ذلك المستعمر مع ان المصاريف على العساكر من دخل المستعمر فاعظم بذلك من قوة للانكليز حتى ان عساكر الهند الذين تحت أمرها أضعاف عساكرها المستديمة فهاته الفوائد أعظم وأنجع لامة الانكليز من أخذهم ضريبة على سكان المستعمرات تحوجهم الى الحقد والثورة عليهم كما وقع فى أمريكا وأفيد لهم أيضا من جهة السياسة فان النفوذ والرهبة والوقار الحاصل للانكليز فى جميع جهات المسكونة ليس بحاصل لاى دولة كانت أوروباوية وذلك أفيد للانكليز من ان يفيدوا ألفا أو عشرة آلاف منهم باطلاق التصرف فى أحد المستعمرات فيكون أهلها تحت قبضتهم ويديرون فيهم قانون الانكليز بلندره ويوظفون فيهم من قضاتهم ويغيرون عوائدهم وشرائعهم لما يلزم لذلك من مصاريف تكثير القوات وكمون الحقد فى المستعبدين حتى ينتهزوا الفرصة لفك قيودهم متى ما سنحت الفرصة وبمثل هاته السياسة ومجاراة الاهالى فى مقاصدهم وعاداتهم وأحكامهم وكبرائهم ودياناتهم تيسر لها امتداد المستعمرات واتساعها وطول بقائها هانية بدون كثرة مصاريف فان الهند الذى هو أعظم المستعمرات وفيه من السكان ما ينيف عن مائة وستين مليونا انما تضبطه دولة الانكليز بعشرين ألف عسكرى انكليزى فقط وان كانت حكومة الهند لها نحو ثلاثمائة ألف من العساكر تحت السلاح لكنهم كلهم من الاهالى ما عدا العشرين ألفا المذكورة وذلك ما خلا ما للملوك والامراء المستقلين بالادارة فى الهند من العساكر والقوات وما ذاك الا بمجاراة الاهالى بما لا ينفرهم مع اجراء العدل فيهم والزام أمرائهم وملوكهم بذلك وحريتهم فى سائر أطوارهم حتى انها تعظم لهم شعائرهم الدينية كما يعظمونها فى أنفسهم فالمسلمون مثلا

تطلق لهم المدافع فى أعيادهم وتعفيهم من الاشغال فى المواسم وتعزف الموسيقى العسكرية فى أعيادهم وكذلك تفعل مع المجوس وتصرف على الجميع أموالا باهظة فى المعابد وأهل الديانة من دخل الهند وفى عيد القاء جوز الكوكو فى نهر الهند يحضر أهل الامر والحكم من الانكليز ويأخذون ذلك الجوز من أيدى الكهنة ويلقونه فى النهر مجاراة للاهالى (وحينئذ) تنشر الرايات وتطلق المدافع من الابراج والسفن هذا فالبلاد التى تحت ادارتها ابتداء فضلا عن البلاد المستقلة بالادارة فالاهالى يوازنون بينما فاتهم من حالة الاستقلال وما هم عليه من المنافع التى لم تكن حاصلة اليهم مع موازنة المشقات والاهوال الحاصلة من اعلان الثورة لان الانكليز أيضا قساة وقلوبهم فظة غليظة عند الثورة يجازون بالفظائع التى تقشعر منها جلود السامعين ويقول القائل أين التمدن ورحمة الانسانية والشفقة التى تملى صحفهم بالتنويه بها وما هى الا سواد على بياض يأمرون بها غيرهم ولا يرون منها شيئا سيما بما يستعملونه من الغدر باغراء أقسام الاهالى للانقسام وبذل الاموال العظيمة فى ذلك فاذا حصل الانقسام وقع الانتقام من الكل على التدريج وربما حصل من بعض الاقسام لبعض أشد مما يحصل من نفس الانكليز فلذلك آثرت أهالى المستعمرات السكون والرضى بما هو عليه مستغنمى ثمرة ذلك بقدر الامكان بل ان بعضهم مكنتهم دولة الانكليز من الاستقلال وأعلنت لهم بذلك ورفضوا قبوله خوفا من تسلط غيرها عليهم لضعفهم وربما يعاملهم المتسلط بما لم يعاملهم به الانكليزيون مثل ما وقع فى جهة من استراليا منذ نحو من خمس سنين ومع ما مر فقل ما يخلو وقت عن حدوث ثورة فى احدى الجهات من المستعمرات المذكورة وفى الاغلب بعد حصول الراحة بالقوة أو باللين وهو الاغلب تزيح الدولة البواعث على الثورة حتى تعود المصافاة مع الاهالى على وجه كأنه راسخ وانما قلنا ان اللين هو الاغلب لانا رأيناها لا تستعمل القوة الا بعد انفلال حدود اللين حتى انها فى نفس حروبها مع الثائرين لا توجه عليهم قوة كبيرة من أول وهلة بل ترسل مقدارا غير كاف لاخماد النار اذا كانت مستعمرة بهيجان قوى وكثيرا ما تنكسر قوتها أولا وثانيا وثالثا لكنها لا تنكص على عقبيها الا بعد بلوغ أربها اما بمداومة الحرب على النحو السابق مع تزييد القوة شيئا فشيئا الى أن تغلب أو بوقوع الصلح على ما يرضيها وترضى به الثائر على نوع ما كان ذلك لعدم وجود قوة عسكرية تحت السلاح ولا حاضرة للدعوى متى أرادت الدولة لما مر من ان الانكليز لا يدخلون العساكر الا بالرضى وليس لهم الا مقدار لحفظ الراحة فاذا ثارت

جهة

جهة لزم الدولة احضار العساكر برضاهم وذلك لا يتأتى عاجلا مثل ما يأتى للدول المرتبة العساكر وأيضا بعد حضورهم تلزمهم مدة التدريب ثم ان العساكر عندهم تلزمهم المصاريف أكثر من عساكر بقية الدول لان من قانونهم ان العسكرى لا يخدم شيئا سوى الحركات الحربية فيلزمهم من الخدمة وحمل الاثقال ما هو أضعاف عددهم ولا يخفى ما فى ذلك من المصاريف والكلفة المحوجة الى الوقت حتى ان عساكرها الذين وجهتهم على الحبشة منذ نحو عشرين سنة لزمها أن تجهز لهم طريقا حديدية وقنوات لجلب المياه كلها موقتة وكان خادمو العسكر ضعفى عدد العساكر وهكذا أيضا فى حروبها وبناء على اتساع المستعمرات وافتراقها وبعدها عن مركز الدولة وكون الطرق اليها بحرية مع ان نفس مركز المملكة جزيرة لزم أن تكون دولة الانكليز هى اقوى دولة فى البحر من حيث السفن الحربية ومن حيث كثرة السفن التجارية ووجود البواخر والعارفين بفن البحر

﴿مطلب فى السياسة الخارجية للانكليز﴾ اعلم ان ما تقدم من الاحوال العامة فى الخارجية للدول العظيمة مما تقدم ذكره فى ايطاليا وفرانسا وهو أيضا جار فى انكلاتيره مثل وجود السفراء والمراقبة لجهات المنافع الخ فالذى يخص انكلاتيره هنا هو بيان محلات اهتمامها فى الخارج وحيث قد تقدم ان لها مستعمرات فى جميع أقسام الكرة المعروفة كانت عنايتها فى الخارج أوسع من غيرها من بقية دول أوروبا لكن ليست الجهات كلها سواء فى الرتبة بل هى متدرجة ففى أوروبا ليس لها من النفوذ فى داخلية دولها شئ سواء كانت الدول كبيرة أو صغيرة لابتناء اداراتهم على قواعد راسخة مسلمة بين جميعهم مقررة بمعاهدات فلن ترى حاكما انكليزيا ذا سلطة فى برلين قاعدة المانيا ولا فى موناكو التى هى دولة مستقلة فى بلدة محاطة بايطاليا عدد سكانها نحو أربعة آلاف نسمة والكل فى الدخول تحت أحكامهم من رعية الانكليز سواء وانما نواب الدولة يراقبون الاحوال السياسية لا الاحكام الشخصية نعم لدولة الانكليز زيادة اعتبار فى خصوص مملكة البلجيك لما اقتضته معاهدة سنة ١٨١٥ من استقلال هاته المملكة عند سقوط نابليون الاول وجعلها تحت حماية كبار الدول غير ان المراقب لتلك الحماية هى دولة الانكليز فهذا هو وجه زيادة اعتبارها هنالك ومثل ذلك حاصل فى دولة البرتغال لما تسبب عن حروب سالفة مع اسبانيا وفرانسا (وأما) بقية الدول فلا فضل عندهم لانكلاتيره على موناكو فى أحوالهم سوى ما تجر اليه السياسة الآتى ايضاحها (وأما) امريكا فهى أيضا على ذلك المنوال (وأما) آسيا وافريقية فعلى وجه

آخر مع دولها من حيثيتين (الاولى) سوء المعاهدات القديمة معهم التي لم يراع فيها
الا الحالة الراهنة اذ ذاك مع عدم تقييد المعاهدات بمدة محدودة فتغير الزمان وتغيرت
الحالات وبقيت أحكام المعاهدات على ماهي عليه فلزم منها ان تكون لدولة الانكليز
شبه دولة مستقلة في كل من هاته الممالك بحيث ان رعاياها غير داخلين تحت الاحكام
مثل الاهالي بل يحكم في المخصومات قناصلهم وحدهم أو بحضورهم أو حضور أحد
من سفارتهم مع حاكم البلد وله الاعتراض على الحاكم في الحكم وفي بعض الممالك اذ كان
الحكم في جناية فانما ينفذ في احدى ممالك الانكليز الى غير ذلك مما يتعسر معه للاهالي الوصول
الى الحق ويحصل منه شبه حكومة مستقلة في وسط المملكة وليس ذلك يختص بالانكليز
بل عام في جميع دول أوروبا مع تلك الممالك وغاية الخلاف هو زيادة التظاهر والتظلم من
أحكام البلاد من الدول القوية ذات الغرض في النفوذ في تلك المملكة وفقد ذلك ممن
ليس له قوة أو ليس له غرض (وثانية) الحيثيتين هو أن مستعمرات الانكليزة دمران
أهمها هو الهند فكانت منقطة خاشية من كل ما يوهن قوتها فيه اما بواسطة أو قصدا حتى
صارت تحافظ على الطرق الموصلة اليه فكانت قبل فتح خليج السويس تتوصل اليه
من المحيط الجنوبي وراء افريقية فاستملكت عدة مراكز في افريقية الغربية
والجنوبية والشرقية مع عدن في آسيا كل ذلك لتكون لها قوات ومراكز تلتجأ اليها عند
الحاجة وبه يعلم ان ثمرة المستعمرات ليست خاصة بالاوجه التي أشرنا اليها بل منها أيضا
أهمية المستعمر من جهة كونه مركزا حربيا فقط وذلك مثل جبل الطارق ومثل مالطة
وغير ذلك فبناء على ما شرحناه صارت سياستها الخارجية مع كل الدول القريبة من الهند
والتي هي في طريقه والتي لها مصالح أو مطمح نظر اليه على نوع آخر من المشاحنة مع
القوي والنفوذ مع الضعيف وتستعمل لذلك كلا من الترغيب والترهيب فالدول التي
لها معهم دائما زيادة محاورات سياسية هي دولة الروسيا من حيث انها امتدت في دواخل
آسيا حتى اقتربت من الافغانستان الذي هو في حدود الهند ومن حيث طموح نظرها
الى الاستيلاء على الممالك العثمانية التي يهمها بقاؤها كما يأتي ايضاحه والدولة الثانية
التي لها معها زيادة عناية سياسية هي الدولة العثمانية وذلك من وجهين (اولهما) انها
لا تريد زيادة نخوتها وقوتها خوفا من امتدادها الى المشرق وارتباط المسلمين هناك
بها حتى يلتحم بها مسلموا الهند ويعود الهند لما كان عليه من اللحاق بالخلافة
الاسلامية (وثانيهما) الخوف عليها من الضعف المفرط حتى تلتقمها الدول المجاورة لها

فيكون

فيكون لمن يحوز موقعها الجغرافي النفوذ والسطوة التي تخشى منها انكلاتيره على فقد
قوتها واعتبارها المادي والمعنوي وبناء على هذا صار لها تداخل كلي في سياسة
الدولة العثمانية الخارجية وحملها على ذلك التداخل مع بقية الدول الكبيرة الستة
لما لهم من المساس بتلك السياسة سواء كانت قصدا أو بواسطة واضطرار ذلك
انكلاتيره الى جانب ملاينة فرانسا لانها دولة بحرية قوية فمسالمتها وموالاتها أولى لها
بمقاصدها سيما مع ابتناء سياستها على مجانبة الحرب مهما امكن كما تقدم وذلك
تستعمله حتى في الحرب مع الخارج حتى تستعين بكل الوسائل لقطع اسبابه مع التحفظ
على حقوقها كما وقع منها أخيرا سنة ١٢٩٤ من التوسل بالسلطان العثماني لامير
افغانستان بارساله له رسولا لكي يلاين انكلاتيره ويقطع معها المشاحنة الداعية
للحرب من عدم قبوله لسفير مقيم عنده في كابل وغير ذلك مما بعث عليه اغراء الروسيا ولم
يقبل التوسط حتى وقع في الحرب كما تقدمت الاشارة اليه في محله فذلك الباعث دعاها الى
ملاينة فرانسا كما تقدم في سياستها الخارجية طمعا في التسليم لها في السلطة على مصر
أو في الاقل على تعاضدهما معا على ازدياد نفوذهما في مصر حتى تسنح الفرصة
لانكلاتيره في الحاقها بها حيث كانت الآن هي أقرب الطرق الى الهند بعد فتح خليج
السويس مع ما في ذات مصر من الاهمية الكبرى فتبين (حينئذ) وجه زيادة اشتغال
انكلاتيره باحوال الدولة العثمانية وعلى الخصوص أحوال مصر وما يجرها من ذلك
الى بقية الدول الكبيرة ومع بقية الدول التي تجاور مستعمراتها على حسبها في القوة
والضعف ثم اعلم ان سياسة الانكليز لما كانت مبنية في التصرف على مذهب الحزبين
الذين مر ذكرهما في السياسة الداخلية وهما حزب المحافظة وحزب الاطلاق الحرية
كانت تختلف في الخارج على حسب مقاصد الحزب الذي يتولى ادارة المملكة فيؤثر ذلك
في السياسة الخارجية أيضا تأثيرا بينا فترى تغير السياسة يتعاقب على توالي الحزبين حتى
يكاد ان لا تثق دولة بالاعتماد على سياسة الانكليز في والاتها لانه بينما يكون حزب
المحافظة جانحا الى الاحتراس على مملكة يهمهم بقاؤها وتعتمد هي على معاضدتهم واذا
بحزب الاطلاق قد جلب أفكار العامة اليه فيصعد الى تخت الادارة وينقض غزل
سابقه ويخذل من اعتمد عليه وسياسة كل من الحزبين وان لم تكن مباينة دفعة واحدة
لسياسة الآخر حتى لا يتيسر له ابطال حرب معهودة أو نقض صلح ابرم لكنه يسعى بقدر
الطاقة في انهاء كل ما وجده وعدم اثماره حتى يبرهن الخارج على فساد ما سعى فيه

سلفه من غير أن يثبت عليه انه هو الذى كان سببا فى الفساد ولهذا صار كل من الحزبين يجهد مستطاعته فى عدم الدخول فى حرب مع دولة أخرى لا يجد ضدها بابا للتشنيع به عليه لان عاقبة الحرب مع الدول الكبيرة مجهولة وانبنى على هذا وسم دولة الانكليز من سائر الامم المستقلة انها دولة تجارية انما تبحث على زيادة غنى أهاليها من غير بحث عن الشرف والجاه لدى الامم الكبيرة القوية وعند دخولى الى انكلاتيره وجدت رئيس الوزارة هو رئيس حزب المحافظين وهو اللورد بكنسفليد وانما حاز تلك اللقب عند معاهدة برلين سنة ١٢٩٥ حيث نجح سعيه فى تغيير معاهدة صان استيفانوس بتلك المعاهدة واستولت انكلاتيره على قبرس وكان هذا الرجل من نسل اليهود فلما ترقى فى السياسة غير دينه لدين الدولة حتى يمكن له الترقى للمناصب العالية واشتهر بتآليفه وأفكاره وخطبه حتى سلمت له رياسة حزب المحافظين وولى الوزارة مرارا (وأما رئيس حزب الاطلاق) حينئذ فهو مستر كلادستون وليس له لقب شرف لكنه باتساع معارفه حاز تلك الرتبة واستولى الوزارة مرارا

﴿فصل فى بعض عوائد الانكليز وصفاتهم﴾ اعلم أن كتاب كشف المخبا عن فنون أوروبا للبليغ اللغوى أحمد فارس قد اشتمل على تفاصيل فى عوائد القوم يعز وجودها فى غيره فمن رام الاطلاع على جزئياتها فليرجع اليه وانما نلم هنا بشئ كاف فى التعريف بذلك (وحاصله) أن أصل الاهالى كما تقدم من قبيلة من قدماء الفرانسيس اختلطت مع قوم قدماء فى الشمال وتناسل منهم هذا الجيل وهم أقوياء بيض ناصع حمر من الدم يغلب فيهم الطول وشقورة الشعر نساؤهم جميلات نباهتهم رزينة فمع اطلاق الحرية فيهم لا يطيشون عن حدود الاستقامة والانقياد الى الحكم حتى اذا تجمع منهم الجم الغفير البالغ لعدة مئات من الالوف وتكلموا فى السياسة وهاجوا واضطربوا ووقع بينهم خلاف فى تلك المجامع أحوجت الى الخروج من القول الى الفعل فما هو الا أن يصعد حاكم ذلك الصقع على مكان مرتفع ويقول سيد نا وحا كمنا الملك يأمر كل فرد منكم أيها المجتمعون بالتفرق حالا وأن يدخل كل منكم مسكنه أو محل صناعته تحت قيد الحكم الصادر فى أول سنة فى دولة الملك جورج فى قطع الهرج والغوغاء والله يحرس الملك فحينئذ يتفرق الجمع الا ماندر فيحتاج الى اعمال القوة من الضابطية والحرس والعساكر بل وعلى كل مار اعانة الحرس الا أصحاب رتبة اللورد فانهم غير مكلفين بذلك ومن النادر القليل وجود حالة مثل تلك بل الافراد والجناة يخضعون للحكم وينقادون الى أمر أعوان الحكم بمجرد

القول

القول وعلى فرض الامتناع فيخرج له العون عصية على رأسها صورة تاج الملك فيطاطى رأسه وينقاد وان لم يفعل وجب على كل من رآه اعانة العون على جبره فاعانت هاته الخلة على اطلاق الحرية واطمئنان الدولة من الهرج وقد تقدم أن عدد السكان نحو اثنين وثلاثين مليونا ودياناتهم الغالبة بروتستانت وقليل من الكاتوليك ثم اليهود ثم الدهرية ثم الموحدين أى الذين يوحدون الله ويعترفون بالرسالة والعبودية والبشرية لعيسى ويصدقون بالكتب فهم أقرب الى الاسلام ولا زال يكثر عددهم سيما فى المانيا وأمازيكا كما يوجد النادر من المسلمين ثم ان عوائد الاهالى لا يمكن اطلاقها على الجميع سواء بل بين طبقاتهم البون البعيد فهم على خمسة أصناف (الاولى) العلية ولهم امتيازات تقدم بعضها فى السياسة ومن خاصيتهم أن لا يدخلوا فى الاعمال البدنية التى تجب على العموم ويتنزهون عن مخالطة غيرهم بحيث يكون كل منهم فى داره عنده سائر ما يحتاج اليه ولا يحتاج فى الخارج الا لمجرد المشى فى الطريق لمكان نزهته أو صاحبه الذى هو من نوعه وعلى نحوهم نساؤهم وهؤلاء هم أصحاب لقب اللورد وغيره من ألقاب الشرف كالمركيز والسير وغيره من الالقاب الوراثية والتى يعطيها الملك بموافقة مجلسه الخاص ومثل هؤلاء الامراء والوزراء وأصحاب المناصب السامية والاساقفة الكبار (الثانية) هم الاعيان الذين لهم أملاك تغنيهم عن معاطاة شغل أو حرفة مع تنعم العيش والرفاهية والاسراف لكنهم ليس لهم لقب مثل الاولى (الثالثة) العلماء والمتشرعون والقسوس والتجار الكبار (الرابعة) التجار وأصحاب العمل النبيه مثل الكتبة (الخامسة) بقية الناس المتعيشين من كد أبدانهم فالاولى والاخيرة بينهما التباين والثلاثة الباقية لكل منها جهة تناسب بها من فوقها وجهة تناسب بها من تحتها ويمكن على حسب التقريب ان يقال ان الثلاثة الوسطى فى عاداتهم واطوارهم على نحو ما تقدم فى فرانسا وايطاليا وأما الطبقة العليا فليس لها مثيل فى تينك المملكتين ومحصل حالهم انهم على نوع من صفات ملوك الاستبداد فى العظمة والكبرياء والفخر والمباهاة باللعب واللهو والتكاثر فى الاموال والاولاد والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث فترى للواحد من ملاك الارض مسيرة يوم للراجل ويملك الفرس باربعمائة ألف فرنك ويعد دخله بالدقيقة فيكون له فى الدقيقة ألف ليرة أو ليرة أو نحو ذلك ويفرش بيته بصنائع أهل المشرق والمغرب والمنسوجات التى قيمة ذراعها بخمسمائة فرنك ونحوها الى غير ذلك من الاطوار التى لا يعلمها الا هو وعائلته أو من

كان من طبقته وبينهم مودة أو من يتفضلون عليه بالمعرفة وهى انما تحصل للغريب
اذا كانت له وصاية من أحد قرابة أولئك العلية قد تعرف به فى أحد الاقاليم
وحينئذ يرى من اكرامهم وتنعيمهم له باشتراكه معهم فيما هم عليه ما يقرب
منها من القنص واللهو واللعب والمراكب والمآكل والمشارب والمنازه حتى يكون
لبعض هؤلاء العلية مراكب خاصة فى طريق الحديد محتوية على سائر اللوازم يسيرون
بها الى حيث أرادوا ويولونه أى الضيف من ملاطفة نسائهم واكرامهن له باعطاء قدح
الشاى من يد كبيرتهن ما يكون به على يقين من الصداقة لان ذلك من غاية الاكرام
وان لزم الضيف من العناء ما هو عنه فى غناء من المحافظة على الآداب والقواعد المعروفة
لديهم كعدم التموع ولا حك جهة من بدنه ولا التدخين ومن عجيب أطوارهم فيه
التناقض التام فبعض نسوتهم يكرهون شم أثره على الثياب وبعضهن يدخن كالرجال
وان ترى من واحد من هؤلاء ذوى الملايين او آلاف الملايين يتكرم بشئ ذى قيمة
ونهاية التوادد بالهدية هى صورته أو ماشاكلها مما قيمته اذا تناهت تبلغ ألف فرنك
بل كاد ان لا يوجد من يتصدق منهم على الفقراء الا أن يكون رياء أو سمعة فلو مر أحدهم
على فقير يتضوع جوعا لما رأى له من داع الى مرحمته حيث انه يعلم انه يعطى سنويا
الى ديار الفقراء مقدارا من المال فلا يهمه ان يكون ذلك الفقير الذى يراه فى حالة النزع
من البرد أو الحر أو الجوع انه لم يمكن له الوصول الى تلك الدار أو انها لم يكن فيها سعة
لقبوله وأقول ان هاته الخلة كادت ان تكون عامة فى أوروبا الا قليلا منهم فانهم يجرون
على حسب مكارم الاخلاق وأما أطوار الطبقة السفلى فهى أشنع مما مر ذكره فى همج
الفرانسيس سواء كان من جهة الاعتقاد أو من جهة السيرة والحركات فيتطيرون
من أشياء كادت ان لا تحصى وينقادون الى السحرة والدجالين بما يخرج عن
حد المعقول وكاد التعلم ان يكون عندهم مجهول الاسم فضلا عن المسمى سوى ما يرطن
لهم القسوس فى الكنائس ومن هذا القبيل اعتقاد عامة اهل ارلانده ان انقطاع
الحيات من جزيرتهم بسبب قسيس مع انها افقدها الثلج والبرد مع عدم الاتصال بالقارة
حتى يخلفها غيرها ولهم فى ذلك خرافات والحاصل ان صفة الانكليز على الاجمال هى
السكون والرزانة والتجافى عن الغريب الا بواسطة فى التعرف حتى لو بقى بين أظهرهم
سنين لا يكاد ان يقول له واحد أسعد الله صباحك كما ان من طبعهم الاقبال على الشغل
والجد فيه وعدم الايمان بالقدر حتى اذا يئس أحدهم من المال قتل نفسه فكثيرا

ما

ما نسمع بذلك وبقتل الآباء لاولادهم وكذلك الامهات والعكس ومما يحصل عندهم
من الوقاحة أحيانا مضاجعة الاب ابنته والاخ أخته لكنه لم يسمع بمضاجعة الابن امه
ومنها أيضا بيع الزوج زوجته لمن يحبها ويمضى لهم الحكم ذلك فالعجب لقوم يحتسبون
على بيع الرقيق فى الآفاق ويحكمون بصحة بيع الزوجة بفلس أو فلسين لان الطلاق
عندهم له شروط وهى ثبوت الفاحشة من الزوجة لدى الحكم ومن غريب الوقائع فى هذا
الصدد ما وقع منذ عهد قريب ونشر فى سائر صحفهم وغيرها من ان زوجة أحد اللوردات
ولدت وعندما بشرت بانها ولدت ذكرا قالت من الفرح هو ابن ولى العهد وكانت قرابة
زوجها يعلمون ذلك فثار عجاج النازلة الى أن رفعت لدى مجلس الحكم لكى يستطيع
الرجل طلاقها وادعى وكيلها انها اعتراها جنون من النفاس حتى صارت تقول ما لا أصل
له وادعى وكيل الزوج ان الخلطة حاصلة من قبل مع ولى العهد وكانوا يتزاورون
ويتنزهون معا فقضى الحال باستدعاء الشهود ومنهم ولى العهد وعند حضورهم فى
المجلس الذى هو علنى وحاضر فيه كتاب الاخبار وغيرهم قال القاضى علما ينبغى ان
لا يسئل الانسان عما يستهجن أو يشين العرض وينبغى للشاهد ان لا يجيب اذا سئل عما
يشين عرضه ثم دعى بولى العهد فسأله عن معرفة المرأة فاجاب بمعرفتها ثم سئل عن
اجتماعه بها فاجاب الى ان قال انهما اجتمعا فى منزل من المنتزهات للطعام فشربا وأكلا
وبقيا حصة بعد الاكل فى محل خاص ثم رجع كل منهما الى محله بعد قضاء التنزه فقال
له القاضى الذى نبه بما سمعته أسألك هل واقعت هاته المرأة عند الخلوة فرفع ولى العهد
صوته قائلا لا فضج المجلس له بالتصفيق وحكم القاضى ببراءة المرأة وبقاء الزوجية وانما
الاعيان يتحاشون عن بيع الزوجات لكنه شائع فى السوقة وصحفهم تنشر منه شيئا كثيرا
ومن عاداتهم اللكام وهو انه كلما عرض لاحدهم حنق على صاحبه الا تبادر بضرب جمع
الكف وعندما يغلب أحدهما كثيرا ما يصافح صاحبه ويتراضيا ولا حكم فى ذلك
ولا يحصل هذا بين الاعيان وانما يتعاوضون عنه بالمقاتلة كما هو جار فى الممالك الاخرى
من أوروبا وهى انه اذا اشتد الغضب بين اثنين على شرط التكافؤ فى العرض يرمى أحدهما
لصاحبه بقفازيه أو شئ من متاعه ثم يرسل له شاهدين يطلب منه التقاتل فيعين الآخر
شاهدين ويتفق الشهود على آلة التقاتل ومكانه وزمانه بعد أعمال وجوه التراضى
واسقاط الطلب فان لم يجد أحضروا طبيبا وحضر المتقاتلان والشهود والطبيب وتقاتلوا
على الصفة المتفق بها فاما ان يموت أحدهما أو يسلما أو يحصل عطب فيعالجه الطبيب

وينفصل الامرفان لم يجب أحدهما للقتال صار ذليلا أمام الناس وصاحبه وقد يصاحبه
مهما لاقاه ان يهينه ويبادله وهذا التقاتل وان لم يكن مباحا بالاحكام لكن الحكومات
غاضة النظر عنه بمعنى انها لا تحتسب عليه وان أضاع واحد شرفه بالشكاية فيه حكم له
لكنه يهان فهو وان كان فيه ماينبئ عن علو الهمة والشجاعة غير انه من أعمال الهمج
لان الحكومات انما أقيمت لدفع التعديات والغاء الاغراض الشخصية المضرة بالغير
فعسى ان يقل هاته العادة في أوروبا بل والعجب من ازديادها تدريجا ومن عادة الانكليز
التطير بأشياء كثيرة منها صياح المرأة الحولاء مالم تتكلم ومن الجهل العام لاسيما في
عامتهم الى أقوال المتكهنين وأصحاب الحدثان وانزعاجهم من أخبارهم حتى يقتلون
أنفسهم وكثيرا ما يقتلون أنفسهم وأولادهم خشية الاملاق وكثيرا ما تلد المرأة أربعة أولاد
في بطن واحد وتكاثر الخلق عندهم في ازدياد حتى لا يجدون شغلا في بلادهم فترى مئات
الالوف يهاجرون سنويا الى الآفاق لتحصيل الكسب ومع ذلك فعددهم في مملكتهم
لازال يزداد ودونك برهانا على ذلك في أقرب وقت وهو ان عدد أهل انكلاتيره أي
المملكة الاصلية من الجزيرة الكبيرة وحدها كان في سنة ١٨٥١ لا يصل الى سبعة
عشر مليونا ونصف والآن وهو سنة ١٨٨٢ أعني في ثلاثين سنة صار عددهم يناهز
ثلاثة وعشرين مليونا فازداد واخمسة ملايين أو تزيد مع كثرة من هاجر منهم الى ممالك
أخر مما يقرب من ذلك العدد ولجموعهم تغال في عقائدهم فمن ذلك محافظتهم على يوم
الاحد بحيث لا يفتح فيه محل عمل سوى الاكل والشرب ومن فتح حانوته عوقب ولو لم يكن
من مذهبهم وهو غاية التناقض مع ما يطلقونه من الحرية ولملكتهم الحالية زيادة توغل
في ذلك حتى حكى عنها الشيخ أحمد فارس انها عرض عليها أحد وزرائها أوراقا مهمة
للامضاء في ليلة الاحد لكنه تلطف لها بامكان تأخيرها للاصباح فقالت كيف وهو
يوم الاحد فقال هي مهمة للحكم فقالت اذا بعد الكنيسة فقال نعم ولما رجعت من
الكنيسة وكان الوزير مصاحبا لها أعلمته بأن الخطبة التي أعجبته هي بايعازها الى
القسيس في المحافظة على يوم الاحد وبناء على ذلك فليأتها صبيحة يوم الاثنين ولو في
الساعة الثالثة قبل الظهر لتمضي له أوراقه وتلك الساعة عندهم من العجيب مباشرة
الاشغال فيها لانها مبكرة جدا حسب عوائدهم ومن عاداتهم التزحلق على الجليد ولهم
مهارة في ذلك وقلدهم الفرانسيس وكثيرا ما يحصل العطب بانكسار الجليد وتغرق
من عليه في النهر أو البركة أو البحيرة والحاصل ان اخلاق الانكليز غيورة ولا يلتحمون

بالاجنبي مثل ما يقع من الفرانسيس غير انهم اذا ود أحدهم أحدا بجمال من عاداتهم فانه
يحافظ عهده ويدوم على ولائه ويحمون ذماره ولهم ولوع بالخيل وتربيتها وتنسيلها
وغناؤهم بالنسبة للطليان والفرانسيس ردئ لتقطع أصواتهم وحصرها وبقية الصفات
هم فيها مثل من تقدم ذكره من الممالك ثم يوجد في انكلاتيره نوع من البشر يسمون
عند أهل تونس بالزمازية وفي الاستانة جينكاله وبالفرنساوي بالبوهيمية وهم في
الحقيقة موجودون في أغلب الاقطار شراذم وفي كل جهة محافظون على عوائدهم
وأهمها الجهل وعدم مخالطة الناس وتعاطي علم الغيب وسكنى الخيام وتعاطي
الصنائع البسيطة الرذيلة مع الفقر ولهم لغة تخصهم ومن عادات أواسط الانكليز
وعليتهم حسن تربية الام لاولادها بحيث ينشؤن على التهذيب والتفطن الى التعليم من
غير تعب حتى انهم كثيرا ما يتعلمون الاحرف ومبدأ القراءة بمجرد التربية في ايدي
الام أو المربية للصغير مع النظافة والابتعاد عن الاخلاق الذميمة وكل أوربا على هذا
النحو لما لهم في النساء من التعليم الحسن

﴿مطلب في التجارة بانكلاتيره﴾ اعلم ان الاصول المتجرية التي مر ذكرها في الممالك
السابقة هي جارية كذلك في انكلاتيره لكن لهؤلاء زيادة بسطة وغنى على سائر الممالك
بما يروج من تجارتهم في مستعمراتهم وغيرها حتى أحصى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م
مال الانكليز من المنقولات التي لها دخل مثل اسهام سكك الحديد وديون الدول وغيرها
فكان سبعة وثمانين مليارد فرنك والمليارد ألف مليون ودخل ذلك في السنة أربعة
مليارات فلو قسم على نسبة عدد أنفسهم أصاب لكل انكليزي (١١٠) فرنك منها ٥٠
من خارج المملكة وذلك كاف في بيان مقدار غنى هؤلاء القوم وحركة تجارتهم فان
بريدهم يصل الى جميع جهات المسكونة وبواخرهم مالئة للبحر وأعظم البضائع الخارجة
من مملكتهم هو الفحم الحجري فقد أخرج من مقاطعه سنة ١٨٦٦ ما يزيد على الفي
مليون قنطارا والمقاطع الموجودة في انكلاتيره من هذا الفحم ثلاثة آلاف ومائتان
واحدى وثلاثون مقطعا وهو سبب عظيم لثروتهم من حيث البيع منه للخارج واستعماله
في الداخل ومن حيث توقف الاشغال الصناعية عليه لكثرة المعامل البخارية ولذلك
اشتدت عنايتهم به حتى انه كان كثير من علماء الاقتصاد عندهم يبحث عن أحوال فراغ
ذلك المعدن وما يتسبب عنه من الرزية للانكليز وفي سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م اشتد
البحث في هذا الامر وعينت الدولة لجنة لتحقيق الامر وبعد مدة وأبحاث استقر رأيهم على

أنه يمكن بقاء هذا المعدن عندهم الى مدة ثلاثمائة وخمسين سنة ثم يفرغ نظرا للكمية
مايستخرج منه سنويا ونظرا لصعوبة استخراجه فيما سفل من طبقات الارض وكثرة
المصاريف عليه حينئذ ومن تلك السنة ارتفع عنه نظر الاقتصاد فى استخراجه ولازال
البحث عما يعوضهم عنه من القوات أو وجود غيره فى مستعمراتهم ومن موارد تجارتهم
الواسعة أيضا مايخرج منهم من الحديد وأغلب المجلوب لهم الحبوب لان مايخرج منها
عندهم غير كاف لهم وتجد فى أفراد الانكليز الغنى الذى لايوجد فى غيرهم كما يوجد فيهم
الفقر المدقع بكثرته وقد انعقدت فى خصوص لندره شركات للتجارة والزراعة ٢١٢٥
شركة أقاص منها ٤١٢ شركة رأس مالها ٥٠٠ مليون فرنك وذلك فى خصوص سنة
واحدة وهى سنة ١٨٨١

﴿مطلب فى الاحكام بانكلاتيره﴾ قد مرت أصول الاحكام الشخصية عندهم فى مبحث
السياسة الداخلية وانما نقول هنا أن قضاة الانكليز يضرب بهم المثل فى أروبا فى العفة
وعدم الميل الى الاغراض ووفى متعلقات دولتهم وهناك مدن يقيم فيها القاضى ومدن
تذهب اليها القضاة فى أوقات معلومة من السنة فتعرض عليهم النوازل المهيآت لهم من
حكام الجهات والاحكام الثقيلة انما تصدر من القضاة بحضر الجورى وقد تقدم
الكلام عليه غير أن جورى الانكليز يختص بانه على قسمين فالاحكام الخطيرة جوريها
يتألف من فقهائهم وأعيانهم ولكل منهم ليرة على كل نازلة والاحكام الحقيرة جوريها
من السوقة وأصحاب الحرف مثل فرانسا ويزيد جورى الانكليز بجور عظيم على نفس
الجورى فان للقاضى توقيفهم فى محل منفرد بمكان الحكم حتى يقع اجماعهم على رأى
واحد من غير أكل ولا شرب واذا وجد مع أحدهم شيئا من مواد المعاش غرم مالا وهذا
من عجائب الاحكام اذ كيف يلزم اتفاق آراء عديدة على قول واحد دائما أو ينصبون
على ذلك فعوضا أن يكون ذلك وسيلة للعدل ربما كان واسطة للجور كما أنهم صاروا
يستحسنون تعويض الحكم بالاعمال الشاقة عن القتل مهما أمكن وذلك جالب لزيادة
الشر كما صرحت به صحفهم المنصفة وكذلك صاروا لايحكمون بحبس المدين وانما على
الدائن اثبات ماله والحكم يوصله به ومن أحكامهم المبنية على العادات القديمة
تغريقهم للوطى فى وعاء من العذرة الى أن يموت وهو من أشد الشناعات عندهم ومع
ذلك فهو فاش فى كثير منهم سيما العساكر البحرية وقد وقع عندهم منذ عهد قريب
أن أحد الملاهى وجد فيه لاعبات جميلات جدا فدعاهن مترفوهم واختلوا بهن وبعد

مدة مديدة اكتشفت الحرس على أنهن فى الواقع غلمان وشدد البحث عن حالهم
فوجدوا بحكم الاطباء انهم مفعول بهم كثيرا لكن حكم فيهم أشد حكم ولم تتبع الجزئيات
لكى لايقع الافتضاح لبعض العلية وقد ابتنى على عدم حصر أحكامهم فى مرجع واحد
طول مدة الحكم وكثرة المصاريف عليها أزيد مما يوجد من الطول فى محاكم أوروبا التى
تطول فيها النوازل جدا ومن أحكامهم اباحة الزنى بالتراضى مثل ما فى غيرهم لكن يمكن
أن يقال نساء عامتهم أعف من غيرهن فى الممالك الاخرى ونساء أواسط الفرانسيس على
ذلك النحو وما عدا هؤلاء فلا ترد احداهن تعريضا الا ما قل بل وربما فاتحت هى
الرجل

﴿مطلب فى المعارف بانكلاتيره﴾ لاخفاء أن امتداد الثروة مبنى على كل من العدل
والعلم فعلى قدر ارتقاء ذلك تنمو الثروة وما تقدم من اجمال حال ثروتهم دال على حالة
المعارف عندهم وأصول المعارف هى الموجودة بغيرها من الممالك السابقة وتنقسم
تعاليمها الى التقاسيم الموجودة فى فرانسا وأعظم المدن التى توقد اليها مزجيات الارتحال
لاقامة التلامذة بمدارسها هى مدينة كمبريج واكسفورد وأكثر أبناء الاغنياء
يقيمون بهاته المدارس ولهذا كان كل من البلدين غالى الاسعار اذ أغلب التلامذة يقضون
أوقاتهم فى التلهى والتفاخر والوسيلة اسم التعلم وقل ما يبرع أبناء الاغنياء فى العلوم
لكن على كل حال لايوجد فيهم الجهل المطبق ومما اختصت به انكلاتيره وجود
جمعية ديانية لنشر مذهبهم البروتستانتى وانفاق النفقات الباهظة على ارسال الرسل
لتنصير الناس فى أقسام الارض وحماية دولتهم وراءهم فيغرون الناس بالمال وبالمباحثات
الدينية وبفتح المدارس لتعليم العلوم ودرس العقائد فيها وقد بذلوا استطاعتهم فى الهند
لتبديل عقائد أهله وحصلت مع المسلمين مباحثات شهيرة وكان الانتصار فيها ولله الحمد
للمسلمين حتى انه أسلم بسببها كثير من المجوس بل فى هاته المدة أسلم أربعة قسوس من
الذين تصدوا للنزاع والجدل بسبب صدق الديانة الاسلامية ورسوخ العلماء هنالك
وتبحرهم فى العلوم ثم ان أسباب تيسير نشر المعارف فى انكلاتيره كثيرة سهلة المتناولة
فقد حرروا فى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م انه يوجد بلندره وحدها ٨٧١ مطبعة
و ١٦ معملا لصنع المكابس التى تشغلها الايدى فضلا عن معامل مكابس البخار
(وتسعة) معامل لآلات اعطاء الحبر للحروف و ٣٢ معملا لصنع مكابس المطابع
البخارية و ٢٣ معملا لسبك الاحرف ولوازمها وكل مدينة فيها من المطابع والمكاتب

مايناسبها وعدد المكتبات التى بانكلاتيره ٢٠٠ مكتبة فيها من الكتب المطبوعة ٢٨٧١٤٨٣ ومن الكتب التى بالخط ٣٦٠٠٠ وأعظم هاته المكاتب مكتبة لندرة الكبرى وهى ثانية لمكتبة الامة فى باريس ومن أهم وسائط المعارف والتجارة والحرية عندهم الصحف الخبرية وهى على أنواع فى الموضوع فمنها الخاص ببعض فنون علمية كالطب والكيميا وغيرها والبعض عام فى الفنون والبعض جامع للسياسة والفنون والتجارة وأهم صحيفة من هذا النوع صحيفة التيمس وكان أول انتشارها غرة كانون ثانى سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٨ م وكانت لرجل خاص ثم صارت ذات سهم للمشتركين ولم يزل حفيده نشيء الله حصص منها وصارت لها آلة تطبع منها ستين ألف نسخة فى الساعة الواحدة مع طبعها على نحو كتاب ذى ثمان صفحات أو ستة عشرة صفحة والورق الذى تطبع عليه يؤتى به ملفوفا على نحو اسطوانة فتلقمه الآلة وتخرجه مطبوعا مطويا وطول كل قطعة من الكاغد قدر ثلاثة أميال انكليزية ويوضع لها من تلك القطع من الثلاثين الى الاربعين قطعة بحيث لو وصلت ببعضها ممتدة تبلغ مسافة مائة وعشرين ميلا هذا فى طبعة الصباح وحدها وتارة تطبع ثانيا وثالثا ورابعا اذا تكاثرت الاخبار ولها خدمة للطبع والانشاء وغيره أربعمائة عامل نصفهم لخدمة النهار والنصف لخدمة الليل ورئيس المنشئين مرتبه مائة ألف فرنك فى السنة وزيادة على المنشئين الرسميين بالمرتبات كل من أتى بمقالة فى اى موضوع كان وحسنت عند المدير فانه يعطى صاحبها أجرا عليها يبلغ الى الالفى فرنك على المقالة الواحدة وله فى سائر الاقطار مكاتبون بمرتبات وافرة ولهم أعوان وكتاب وادارة مثل سفارة لدولة من الدول ولهم اذن فى صرف كل مايلزمهم لاخذ الاخبار وايصالها للادارة زيادة على مصاريفهم الخاصة فيصرفون احيانا على مجرد خبر واحد بسلك الكهرباء ثلاثة آلاف فرنك وازيد بل ويرشون من يرتشى من متوظفى الدول لاعطائهم الاخبار السرية وقد حصلوا فى بعض الدول المهملة على لوائح رسمية قبل وصولها الى السفراء برشوة آلاف من الفرنك وهؤلاء المكاتبون تقبلهم الوزراء والامراء مثل متوظفين ويحاورونهم فى المواد السياسية وعند وقوع حرب فللادارة الصحيفة مكاتبون حاضرون ترسلهم الى ميادين الحرب فى المعسكرين حتى يخبروا بما يكون وتقبلهم رؤساء الحرب بالرحب غير انهم يشترطون عليهم ان لايخبروا الا بما يوافقهم فيحصل من الاخبار من الشقين مايستنتج منه صحة الخبر وينال هؤلاء المكاتبين من الاخطار ماهو معلوم فى الحرب غير انهم يتباعدون عن مواقع

الرمى وكثيرا مايكونون بقرب رئيس المعسكر ومن المعلوم ان لايخاطر احدهم بذلك الا لكثرة المال فادارة التيمس لها من الدخل والخرج السنوى مايضاهى دولة من الدول الثانوية مع ان كل نسخة منه لاتباع الا بثلاثين صانتيما أى ثلاثين من مائة من الفرنك الواحد ولو اشترى الورق وحده أبيض لكان أغلى من ذلك لان ورقه هو من معمل خاص به فالربح العظيم انما هو من كثرة الخرج مع كثرة الاعلانات وعدد نسخ كل دفعة نحو من السبعين ألف نسخة وعلى نحو منه فى أصول الادارة صحف أروبا الشهيرة كلها

﴿مطلب فى الصنائع فى انكلاتيره﴾ اما الفلاحة فهى مترقية للغاية وأكثر ماستنبت هو القمح والشعير والبطاطس وشجرة لدينار التى تستعمل منها السكركة أى البيرة وكل المستنبتات لاتكفى حاجة الاهالى فيجلبون من الخارج كثيرا الاشجرة الدينار وبقية الصنائع فاعظمها اعمال آلات الحديد بانواعها والسفن والمنسوجات القطنية ولهم فيها مهارة على سائر الممالك حتى صارت أرخص عندهم من غيرهم ثم المنسوجات الصوفية لاسيما المستخرجة من صوفهم الرفيعة المشابهة للحرير وبقية الصنائع هى دون مافى فرانسا فى الحسن والرونق لكن جميع مصنوعاتهم متينة

﴿مطلب فى هيئة المساكن فى انكلاتيره﴾ المساكن فى انكلاتيره على خلاف الممالك المتقدم ذكرها فان هيئة البناء من خارج على نحو مافى الاستانة من خروج جهات من الدار ودخول أخرى وكذلك الطواقى تنفتح أبوابها بالرفع الى فوق مع كونها غير كبيرة مثل مافى بقية أروبا وكذلك الديار كل منها لايسكن الا عائلة واحدة ولا تزيد طبقاتها على ثلاث والبناء كله من الآجر والسقوف والدرج من خشب متقن الصنعة والالصاق ببعضه ومن أحسن ماعندهم هيئة الكنف واتساعها ونظافتها وان كانوا يجلسون عليها جلوسا فما تقدم فى الابنية هو الغالب والقليل مثل بقية ابنية الممالك السابقة ثم ان منازل المسافرين هى أيضا مثل الممالك السابقة غير ان أكثر الواردين انما يسكنون فى ديار منفردة يجدها الانسان حاضرة بجميع لوازمها وينفق فى أكله على حسب ارادته والذى يقوم له بلوازمه هو صاحب المحل فيسأله عن مقدار مايريد يصرف يوميا وعن اجمال وقت أكله وماهو مشتهاه منه فيصرف له على نحو مايريد وتخدمه خوادم المحل الذين هم فى الاغلب من البنات الجميلات ومن أراد كراء بيت واحد فله ذلك وهذا الطريق أرفق بكثير من المكنى فى منازل المسافرين لانها فى انكلاتيره غالية جدا كانها

معدة لارباب الترف خاصة ثم ان حارات السكنى لا تجد فيها حوانيت للسمان أو غيرها من اللوازم بل ذلك من عيب المسكن عندهم والطرق التى بها الاسواق وحوانيت الباعة لا تسكن الا للاراذل بحيث يصح ان يقال ان عاداتهم فى المسكن قريبة كثيرا من عادات المسلمين فى انفراد العائلات وحمايه الديار من التطرق وشدة النظافة فى داخل الديار تنظيمها كل على قدر سعته أما الفرش والاثاث فهو على نحو ما تقدم فى الممالك السابقة من أوربا ومواقد الانكليز فى البيوت أتقن من غيرهم وتلزمهم نفقة تضاهى نفقات المعيشة لشدة البرد وطول مدته ولما رأيت ان بلدانهم كادت أن تكون كلها من الآجر زال تعجبى مما رأيته من كثرة معامله فى الطريق (أما الطرق) فى انكلاتيره فهى دون غيرها من ممالك اوربا المتقدمة فى الذكر من جهة النظافة والاعتناء بتنظيمها حتى انى رأيت فى ذات لندره طريقا لا يسع الا عجلة واحدة لا تكاد العجلة تتحرك فيه من كثرة ما فيه من الوحل والطين مع كونه كثير المرور فيه (وهكذا) سائر الطرقات كثيرة الوحل قليلة النظافة سيما وقت نزول المطر الذى لا يكاد ينقطع ولهذا شرعوا فى عمل تبليط الطرق بقطع الخشب لانها أنظف (وأما تنوير الطرق) فهو على نحو ما فى سائر أوربا لكن القرى الصغيرة فى بلاد الانكليز هى اسوء حالا من غيرها اذ كثير منها لا تجد فيه حانوتا لبيع شئ الا نادرا من بيع ما لا بد منه عوزه كفى بما ذكره الشيخ أحمد فارس فى صفتهم فى هذا الصدد حتى يكادوا يلحقوا بالوحشيين نعم ان طرق الحديد والترع والسفن هى هنا أكثر وأمتن من غيرها ومن الابنية المعتنى بها السجن فهو عندهم بل وعند سائر أوربا منقسم على أنواع على حسب الجنايات وحسب الايقاف والحكم فمحل الايقاف للمتهم حتى يثبت عليه الحكم أشبه بمنزه منه بسجن ثم يتدرج الامر الى الجنايات الشديدة فيحبس الجانى فى بيت منفرد يدخل له الضوء من أعلى ويتجدد به الهواء ويعطى شغلا عملا وفراشا نظيفا يدفع الحر والبرد وأكلا سليما من طعام واحد ويخرج فى وقت معلوم للتمشى فى البستان الذى حول السجن لكنه يمنع من الكلام مع غيره مطلقا فان خالف الاوامر سجن فى محل مظلم بطال واذا مرض عولج بالطبيب والدواء فهو نهم سجن لا معتقل

﴿مطلب فى اللبس فى انكلاتيره﴾ لبس الانكليز مثل لبس الفرانسيس بل والشابات المترفات عيال فى التقليد على الفرانساويات وهم يؤثرون مصنوعات الفرنساويين عن مصنوعاتهم فى اللبس ولبس العساكر أحسن من لبس عساكر غيرهم

نظافة وشكلا وان كان على نحو واحد ولما كانت الابخرة والدخان والضباب فى انكلاتيره متكاثر جدا كانت الثياب البيض كالقمصان تحتاج الى التغيير بكثرة تحفظا على النظافة فاحتاجوا الى جعل رقبة القميص ورؤس يديه وصدره مفصولة عن القميص وتمسك به بواسطة زرر حتى لا يلزم تغيير جميع القميص لمجرد وسخ ما يظهر منه عدة مرار فى اليوم وهذا وان كان موجودا فى سائر أوربا على السواء عند أواسط الناس لكن الذى خصت به انكلاتيره هو جعل تلك القطع من ورق ثخين أبيض حيث وجدوا ثمنه وان كان لا يصلح لازيد من لبسة واحدة أرفق من ثمن الكتان مع دوامه لما يحتاج اليه من كثرة غسل الصابون والنشاء والتمليس بالحديد المحمى

﴿مطلب فى الاكل فى انكلاتيره﴾ الانكليز أكثر أكلات من غيرهم حتى ان المقل منهم لعددها يأكل أربع مرات فى اليوم صباحا وقبل الظهر وفى الساعة السادسة بعد الظهر وقبل النوم والاخيرة هى الخالية عن المطبوخ ومنهم من يأكل ثمان مرات فى اليوم وأكلهم على العموم بسيط اذ هو شوربة ولحم خالص مقلى أو مشوى أو مسلوق وبطاطس مسلوقة فى الماء ليس الا ولا يضعون فى الطعام شيئا من التوابل بل يأتون بها فى أوانى أمام الآكل يأخذ منها اخضة بدون طبخ بل حتى الملح كذلك عند بعضهم ومن هاته التوابل الحريفة كثيرا كالفلفل وغيره مما يستعمله الهنود ويأتون الى موائدهم بقطع كبيرة من الجبن وهو ألذ جبن رأيته كما ان اللحم أيضا يأتون به قطعا كبيرة جدا بحيث يأتون بفخذ بقرة صغيرة كله قطعة واحدة كما انهم أكثر أكلا للخنزير من غيرهم ممن رأيت والمترفون منهم والمطاعم الشهيرة العامة يأتون بطباخين فرانساويين وقد رأيت باحدى المطاعم بلندره (قسما) لا كل الانكليز (وقسما) لا كل المشرقيين (وقسما) لا كل الفرنساويين فيختار الآكل الجهة التى يريدها وكان الداعى لبساطة أكلهم ولو عند الاغنياء كثرة الغش فى المأكولات بحيث لا تكاد تجد خبزا من دقيق الحنطة حقيقة بل هو فيه أنواع شتى تركب باتقان حتى لا يفرق بينها وبين الاصل الا بعمليات كيمياوية وكذلك الزبدة فما هى الا شحم حيوانات تركب مع اجزاء بأعمال كيمياوية حتى تصير مثل الزبدة (وهكذا) سائر الاشياء الا اللحم وقد ذكر فى كشف المخبا ما يتعجب منه من خلط المأكولات وغشها وجهل العموم بانواع الطبخ وهم كثيرو الشرب للمسكرات الروحية وكذلك السكر كة أى البيرة لشدة البرود وقلة الخمر وغلائه حيث لا ينبت بأرضهم العنب ويخلطون البيرة بورق التبغ حتى تصير شديدة التأثير ويكثرون

منها حتى يغمى عليهم بل ان أيام الاحد ترى النساء والرجال سكرى على الطرق ملقون ويتفوهون بالفحش وبعضهم احيانا يموت من كثرة السكر وأهل اليسار يشربون الشاى بكثرة سيما فى السمر ليلا ويدعوا الاحبة بعضهم اليه ويختلفون لشربه ويجعلون فى أقداح الشرب قطعا من الليمون الحامض أو يخلطونه بشئ من اللبن ويأكلون معه شيئا من الخبز والزبدة وغير ذلك من المآكل الخفيفة لكنهم لا يضعون فيه العنبر أو غيره مما تصنعه المغاربة والمشارقة وأكثر طبخهم فى الاوانى من الحديد لا النحاس لانه اذا لم يبيض دائما ينشأ منه الصدء القتال ولذا صار أغلب أروبا انما يطبخ فى أوانى الحديد أو النحاس التى يجعل داخلها مطليا بنوع من الخزف بحيث لا يمس النحاس الطعام ومن

❁ عاداتهم فى الاكل أكل اللحم النتن سيما فى بعض الطيور حتى يصير الطير يكاد يتحرك من الدود الذى نشأ فيه واذا أدخل الى بيت الاكل زكمت أنوف حتى الكلاب من قبح نتن رائحته وهم يستلذونه على ذلك مثل سودان افريقية ومن القواعد الجارية فى عموم أروبا ان لحم البقر لا يؤكل الا بعد يوم من ذبحه فى الاقل ومثله الطيور ولعمرى ان هذا يحسن من جهة تليين اللحم وقابليته للطبخ واللذة سيما فى البلاد الباردة لكن لا يصل الحد به الى حدوث أدنى رائحة به فان هذا مضر بالصحة فضلا عن استقذاره (أما لحم الغنم) وماشاكله فيؤكل فى يومه وهو لذيذ لكنهم ممنوعون من لذة أكل الخروف الصغير اذ الحكم يمنع ذبح الشاة دون سن العامين لاجل الاقتصاد بكثرة اللحم لان الشاة اذا كبر حجمها كفت أضعاف أضعافها وهى صغيرة نعم من اراد ذلك فله ذبح خروف لخصوصه ويؤدى عليه أداء زائدا للحكومة بحيث لا يوجد الا بالاعتناء

❁ ﴿مطلب فى المواكب فى انكلاتيره﴾ المواكب عند الانكليز هى رأس السنة والاعياد الدينية واجتماعها مثل ما تقدم فى غيرهم غير انهم عند تمتهم للملكة يلبس الكبراء ذلك الشعر الابيض العارية ويقبلون يدها على ظهر الكف ومنهم من يقعد عند ذلك على ركبة ورجل وتقبيل يد الملكات جار عند غيرهم أيضا وزوجة الملك تعامل معاملة الملكة فى ذلك بل وبعض الممالك مثل المانيا والنمسا كرفيها يقبلون يد الملك أيضا ومن المواكب الشهيرة فى لندره يوم دخول صاحب الملك المدينة رسميا متوجها الكنيسة مار بولس متشكرا على ظفر أو لافتتاح بناء مهم عام فحينئذ يأتى راكبا الى البلاد ولا يدخل الا من باب تنبل بار وهو فى أول طريق السيتى الشهير فيغلق الباب فى وجهه شيخ المدينة فيقدم الملك الى أن يصل للباب فينفخ أحد كبراء

أتباعه

أتباعه فى بوق ويدق آخر الباب وتقع مخاطبة بينه وبين شيخ المدينة ثم يفتح الشيخ الباب ويقدم للملك سيف البلاد فيأخذه منه ثم يرجعه عليه ثم يسير الشيخ فى ركابه الى أن يصل الى مقصده مع الاحتفال التام وكمال الازدحام ومن المواكب المشهورة يوم تولية شيخ المدينة فى كل سنة فى شهر تشرين ثانى فانه يجعل فى الطرق حواجز لمنع مرور العجلات وتغص الطرق بالخلق فيخرج الشيخ من قصر كلدهال فى موكب حافل ويركب عجلة مؤنقة ذات قيمة بليغة تجرها أفراس ويركب معه قاضى القضاة والكل باللباس الرسمى وتوضع أمامه آلات الحرث على عجلة مزينة علامة لخدمة الارض وعلى عجلة أخرى سفينة ذات شراع تجرها ستة أفراس أيضا وتنتشر فى الطرق الشرط وتمشى أمامه وتقف حول طريقه فرق عديدة منهم بعضها يعزف بآلات الطرب وبعضها ينفخ فى ابواق وبعضها يحمل رايات مختلفة الالوان وبعضهم متدرع بالدروع العتيقة وفى موكبه جميع أصحاب الرتب العالية وشيخ المدينة المعزول ويلاقيه فى الطريق وزراء الدولة وأعضاء المجالس والندوة وسفراء الدول وعند استقراره بالقصر الخاص به يدعو جميع الاعيان لوليمة فاخرة تشتمل على ٢٦٣٧ صحن مع زينة المائدة باوانى الذهب والفضة ويجعل أمامه صحن به سمك صغير من سمك نهر التميس ويكون ذلك اليوم يوما مشهودا وذلك الشيخ من أعظم رجال الدولة مع أنه يمكن ان يكون سوقيا أو نفرا عسكريا على حسب ما ينتخبه المجلس البلدى وبقاؤه سنة فقط ومرتبه نحو عشرة آلاف ليرة لا يستنفع منها لذاته بشئ اذ كلها تصرف فى أهبة المنصب ولائمه

❁ ﴿مطلب فى اللغة فى انكلاتيره﴾ اللغة الانكليزية مستحدثة متولدة من اللسان التودسكى القديم وهى لغة ضيقة سهلة التعلم يؤدون المعانى كلها بالتركيب وقد اشتهرت جدا فى أمريكا والهند حتى صار عدد من يتكلم بها ثمانون مليونا عدا من يعرفها وليس يستعمل لها لغة له وكأنها لغة حلقية لان أغلب أحرفها حلقى ولا تساعد على انشاد الشعر والغناء الا بكلفة كبيرة

﴿مطلب فى القوة الحربية والبحرية والمالية والتجارية﴾

فرنك	
٢ ٧٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠	دخل الدولة الانكليزية عدا حكومة الهند والخرج مثله سنة ١٨٨١ نحو
١ ٦٣٠ ٠٠٠ ٠٠	دخل حكومة الهند والخرج مثله
٠ ١٦٠ ٠٠٠	عساكر برية تحت السلاح
٠ ٣٥٠ ٠٠٠	عساكر الهند تحت السلاح
٠ ٠٦ ٠٦٥ ٠٠٠	عساكر بحرية وليس لاهل الهند منها شئ في وقت الحرب فى الخارج تحضر بالاجرة كما تريد وعند الهجوم عليها فاهلها كلهم محاربون
١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	قوة التجارة المالية نحوا
٥٣٨ ٠٢٠	عدد السفن الشراعية الحاملة للراية الانكليزية
٠٢٧ ٠٠٥	عدد البوابور الحاملة للراية الانكليزية
٣٩٤ ٠٠٧	عدد المعامل ذوات الآلات لسائر المصنوعات فى برنيطانية
٠١٨ ٠٠٠	امتداد سكك الحديد أميالا ماتحملت من الركاب فى سنة واحدة ستة ملايين
٠٦١ ٠٠٠	عدد البوابور المدرعة العاملة والاحتياطية
٣٦٠ ٠٠٠	حمولتها طونولاته وكل طونولاته عشرون قنطارا ومدافعها على حساب المعدل الواحد طونولاته ٣٧

الباب السابع ❀ فى جزيرة مالطه

﴿ الفصل الاول فى سفرى اليها ﴾

لما رجعت من فرانسا الى تونس فى أواسط رمضان سنة ١٢٩٦ ووجدت انقلاب الاحوال فيها باستيلاء فرانسا عليها قد نشم ولم تفد نصائحى الى وزير تونس مصطفى بن اسماعيل بل رأيته أضمر لى الشر حتى أوعز الى بعض الصادقين بعزمه على البطش بى ولو أفضى الى القتل معتضدا برستان قنسل فرانسا اذ ذاك خشية من فشو ما اطلعت عليه من عزمهم وحصول التعطيل لهم حسبما سبقت الاشارة الى طرف منه فى ذيل تسلط فرانسا على تونس وفى اسباب سفرى ولم نجد مخلصا الا التخلص برأسى وطلبت من ذلك

الوزير

الوزير كتابة اعفائى من الوظيف منه لا بحالة بدنى فاجابنى كتابة بالمنع فطلبت الاذن بالتوجه الى الحج فمنعنى أولا فاستجرت اليه بمن لم يسعه الا قبول جاهه فاذن لى قائلا بالاستراحة منى وشافهنى الوالى عند وداعه بما يشف عن غيظه الذى ملأ به وزيره صدره فانقذنى الله من شرهم وأخذت ورقة الجواز وسافرت أواسط شوال من تلك السنة الى الحج على طريق مالطة بحرا فوصلت اليها بعد سير الباخرة البريدية نحوا من يوم فاذا هى جبال قحلة ترى فيها حيطان من الحجر مرصوفا منتشرة على تلك الجبال ومرساها من أعظم مراسى البحر الابيض اتقانا وصناعة وتحصينا واقعة على الجهة الشرقية من شاطئ بلاد فاليتا التى هى قاعدة الجزيرة فصعدت الى الباخرة السماسرة لمنازل المسافرين واتفقت مع سمسار المنزل المسمى أوتيل دى باريس على أن يكون سعر اليوم والليلة فيه عشرة فرنكات سكنا وأكلا لى ولتابعى والسكنى فى حجرتين والاكل مرتين لانهم يسألون عن كمية الاكلات لما تأذوا به من كثرة أكلات الانكليز فدخلنا الى البلاد ولم يطلب الكمرك الا الاداء على المأكولات وذلك لان السفر الى الحرمين يلزم فيه قطع برارى ليس فيها مرافق فاحضرت معى من المأكولات التى تدخر مالا نجده فى البلدان التى نمر عليها ومع ذلك كنت خففت ما استطعت ولم نعمل باشارة بعض الاحباء من حمل كثير من اللوازم ظنا منى انى أجدها فى البلدان التى بها هناك وكان الامر على ما قالوا كما سيأتى فى محله ان شاء الله ولما كانت مالطة مرسى حرة لما يأتى فى سياستها لم يكن فيها اداء على شئ سوى المأكولات التى تؤدى الى المجلس البلدى لصالح البلاد وحيث كنت لا احتاج الى تلك الاشياء فى مالطة أبقيتها مأمونة فى الكمرك وأخذت فيها حجة لكى لا نؤدى عليها شيأ وبعد الاستراحة بالمنزل نظرت فاذا بالطبقة السفلى ملآنة بصناديق مكسوة بالجلد الجميل ومسامير النحاس ومعها بعض خدم وحشم والطبقة العليا فيها عائلة من المسلمين ومعهم رجل ممن اتخذ السخرية صناعة له فقدم الى وحادثنى بكلمات بعضها عربى وبعضها تركى ولم أكن اذ ذاك أفهم التركى فاعلمته بانى لم أفهم فعدل الى العربى وأعلمنى انه من حاشية أحد الكتبة بطرابلس الغرب من موظفى الترك وانه أرسل الى الاتيان بعائلته من الاستانة فصحبها مع بقية الخدم وذكر فى حديثه مقدار مرتب متبوعه فظننت انه هازل فحقق لى المقدار فاذا هو لا يبلغ مائتى فرنك فى الشهر فتعجبت من الامر كيف يكون صاحب تلك الابهة مكتفيا بذلك المرتب ويتعب لاجله من الاستانة الى طرابلس الغرب مع شدة التباين فى الهواء بالحر والبرد مع خلو الوظيفة عن مقام عال حتى يحصل لصاحبها رغبة فى

الصيت فدل على وجود بحر آخر على غير الوجه الرسمي مما يضر بالمملكة والله لطيف حفيظ (وهاته) البلاد أعني فاليتا قاعدة مالطة متصاعدة في جبل حتى ان أغلب طرقها يصعد فيها بدرج وبها طرق رحيبة للعجلات أحسنها واحد يمر من الشمال الى الجنوب خارق البلاد الى طرفيها وبعضه مبلط بالخشب لمجرد تقليد بلاد لندره والافلا باعث عليه لا من جهة الوسخ المتسبب عن عدم انقطاع الامطار ولا من جهة قرقعة العجلات المتكاثرة ولا من جهة رخص الاخشاب اذ مالطة على خلاف ذلك كله وهي على نوع البلاد الاوروباوية المتوسطة في الكبر والحسن غير انها متقنة نظافة الطرقات وان كان أهلها يبولون بالبلاقي الطرقات لكنهم يغسلون محلات البول كل يوم وبها قصر الحاكم وفيه آثار عتيقة على قدر حالة البلاد وليس منها ما يذكر الا مدافع من أول نوع اخترع وهي ورقات من نحاس معصبة بحبال ثم ملفوف عليها جلد غليظ مطلي بالقطران طول كل مدفع ثمانية أشبار وقطر داخله سبع عقد وبقية ما في البلاد ليس منه ما يفرد بالذكر غير انها حاوية لانموذج ما في المدن الحسنة مما يرجع الى التحسين على نحو ما في أوروبا فلا نطيل باعادته (أما في التحصين) فهي من أول أقسام المراسي والبلدان الحصينة بما حولها من الحصون المعمرة بالمدافع الضخام جدا مع الكثرة وجعلها طبقة فوق أخرى لما ساعد على ذلك من الجبل فهي حصون منحوتة فيه لا تخربها القنابر ولو من أعظم المدافع بحيث يصح أن يقال انها لا يمكن للهاجم اقتحامها أو أخذها الا بالحصار لاحتياجها الى القوت من خارج نعم يلزم طول مدة الحصار لانها مركز متوسط في البحر الابيض فتجئ اليها التجارة من البحر الاسود وغيره ويخزن فيها من الحبوب وغيرها ما يكفي أهلها عدة سنين كما انها تشتمل مرساها على معمل مهم للسفن واصلاحها محتوية خزائنه على كل المواد اللازمة لها وبها مرسى أخرى تسمى مرسى موشيطو كانها منحرفة عن مرسى الشط وهي مرسى الكرنتينة أي مكان اقامة الواردين من البلاد المصابة بالامراض المستوبية وهي دون الاولى وحولها مساكن مقسمة على أقسام على وجه يمكن به الاحتراس من مخالطة السكان بعضهم ببعض وهي مساكن لا بأس بها كما يوجد خارج البلاد مقبرة اسلامية محوطة بسور ولها باب مغلق مفتاحه عند امام الجامع وهو جامع ظريف والامام يقيم هنالك والقائم بالجميع الدولة العثمانية لكثرة ورود المسلمين الى هنالك حجاجا وتجارا من المشرق والمغرب فاقيم ذلك الامام للصلاة بالجامع وعلى من يموت لكنه عوضا عن سلوكه مسالك الديانة كان مقيما على الخنا والجامع معطل ولله عاقبة

الامور

الامور وعند مروري على حوانيتها وجدت بها أسرة من حديد صغارا خفيفة تطاق حتى يصير الواحد في طول ذراع وغلظ سبع عقد ويلف في الكتان المتخن الذي يفرش على ظهره للنوم عليه فاخذت منها اثنين للرحلة في الحجاز وفتشت على معمل صغير يمكن حمله بسهولة للثلج فلم أجده هنالك ولا وجدت شيئا يحتمل أني لا أجده في غيرها فاكتفيت بذلك وسافرت منها بعد الاقامة بها ثلاثة أيام راكبا باخرة تجارية انكليزية متوجها الى اسكندرية

الفصل * الثاني

﴿ في التعريف بمالطة ﴾

مسمى هذا الاسم ثلاث جزر واقعة في البحر الابيض على دقيقة ٤٥ درجة ٣٥ من العرض الشمالي ودقيقة ٤٤ درجة ٣٢ من الطول الشرقي الجزيرة الاولى تسمى فاليتا وبها خمسة عشر قرية أكبرها فاليتا التي هي القاعدة والجزيرة الثانية تسمى (أدوج) بها ستة عشر قرية والجزيرة الثالثة تسمى كمونة وبقربها أخرى تسمى فلفلة صغيرتان ليس بهما سكان وانما يقدم اليهما أهل الجزيرتين الاخريين للفلاحة بهما واختلف الجغرافيون في الحاق مالطة فمنهم من جعلها من أفريقية ومنهم من جعلها من أوروبا لقربها لكل منهما (وكل هاته) الجزائر جبال صخرية غير ان حجرها لين سهل النحت فاذا جف بالشمس تصلب نوعا ما فارضها غير جيدة لكن لشدة العمل والمعالجة صارت صالحة لزراعة كل النباتات التي بالبلاد الحارة (وأما جبالها) فليست بمرتفعة وليس بها بالكاني وليس بها نهر الا ما يحدث عند المطر من السيول وليس بها بحيرة (وأما عيونها) فتوجد بها عينان ضعيفتان (احداهما) بالجزيرة الاولى (والثانية) بالثانية ماؤهما عذب مشوب بشيء يسير من الملوحة وأكثر شرب أهلها من ماء المطر المخزون في دهاليز وجوار (وأما هواؤها) فهو أميل للحرارة لقربها من المنطقة الحارة وتحدث فيها الاسحبة فجأة بامطار كافواه القرب مع رعود وبروق هائلة ثم تنكشف بسرعة ويحدث ذلك بها ولو صيفا الا انه بقلة فيه وأما في الخريف والشتاء فهو كثير والهواء حريف مضر بالصدر كثير الندى حتى يفسد المأكولات وغيرها المخزونة في أماكن قابلة لتغير الهواء (وأما نباتاتها) فينبت بها سائر البقول وهي جيدة والقمح والشعير وغيرهما من الحبوب ويحصل فيها خصب متوسط كما ينبت بها القطن والعنب والرمان والليمون وغير

ذلك من الاشجار التى تتحمل الحر ولا تحتاج الى كثرة الماء ولذلك لم يكن بها غابات وما ينبت فيها من الشجر لا يرتفع على وجه الارض الا يسيرا فترى الخرنوب الذى يكون فى تونس الواحدة منه مثل غيضة شاهقة هو فى مالطة لاصق بالارض لا يكاد يبين (وهكذا) سائر الاشجار ويعظم بها الصبار جدا (واما حيواناتها) ففيها المعز الحسن كثير الحلب وبقية النعم يجلب لها من خارج ويعلف علفا الا قليلا من الرعى لعدم المرعى بها الحمير بكثرة والبغال والخيل بقلة (أما الحيوانات) الوحشية فليس بها الا الارانب ومنها نوع انسى يعظم ويربى والسباع منقطعة والطيور الانسية كالدجاج باقية عندهم ويوجد بكثرة العصفور الاصفر الحسن الصوت المسمى بالكنالو والبرية قليلة الا بعض الرحالة كالسمان (وأما المعادن) فليس بها الا الحجر ويصنعون الملح عند شاطئ البحر بعملية صناعية (وأما مدنها) فهى قاعدتها المسماة بفاليتا والبقية قرى مجموعها أحدى وثلاثون قرية أهم ما فيها الكنائس (وأما مراسيها) فقد تقدم ان بها مرستين عظيمتين جدا وما عداها فانما هو مراسى طبيعية حول القرى للقوارب وماشاكلها (وأما أهلها) فعددهم مائة وخمسون الفا كلهم مالطيون وبينهم قليل من الطليان تجارا ومن الانكليز عسكرا وبعض متوظفين ومن العرب افرادا تجارا أو مجتازين وأصل الاهالى على غالب الظن من بربر تونس وديانتهم نصرانية على مذهب الكاتوليك ولهم غلو شديد وانهماك فى اعتقاد خرافات

الفصل * الثالث

﴿ فى تاريخ مالطه ﴾

﴿مطلب فى التاريخ القديم﴾ أول من سكن هاته الجزيرة الفنيقيون وسموها اجاجية ثم عمرها اليونانيون وسموها مالينة واشتهرت بذلك من قبل التاريخ المسيحى سنة ٨٢٢ ولم تزل ولايات المستولين على ايطاليا تتوالى عليها ثم ملكها القرطاجنيون ثم رجعت للرومان ثم ألحقت بالدولة الشرقية ولما ظلموا الاهالى واشتدت وطأتهم استغاثوا بالمسلمين فافتتحها المسلمون بعبورهم البحر من تونس اليها والى صقلية فى المائة الثالثة هجرية ولاقوا من أهلها أحيانا ثورات شديدة الى ان تم الاستيلاء عليها ونقلوا اسمها الى مالطة المعروف الآن وكأنه مصحف من الاسم اليونانى السابق وبقيت بأيدى المسلمين نيفا ومائتى سنة ثم لحقت بصقلية تحت تلك عائلة النورمان ثم التحقت بمملكة

النمسا

النمسا الملقبة اذذاك امبراطورية جرمانيا ثم الحقت بفرانسا ثم بنابلى ثم استولى عليها نابليون الاول والحقها بفرانسا ثم عند حرب الدولة العثمانية لفرانسا فى مصر وتحزب انكلاتيرة للدولة العثمانية استولت انكلاتيرة على مالطة

﴿مطلب فى تاريخ مالطة الجديد﴾ لما أساء الفرنساويون الى أهل الجزيرة بانتهاك عوائدهم وكنائسهم ثاروا عليهم ثورة شديدة واستنجدوا الانكليز فاعانوهم وسلموا الحكم اليهم وكان ذلك فى سنة ١٨٠٠ ولم تزل حكومة الانكليز مستقرة هنالك وأغلب الاهالى مائلون اليهم عن طيب نفس

﴿مطلب فى سياسة مالطة الداخلية﴾ الحكومة انكليزية بمعنى ان الحصون والقشل بيد عساكر انكليزية والحاكم العام انكليزى مراع للاهالى وعوائدهم حتى انه يتحرى لهم أحيانا ويرسل لهم حاكما على مذهب الكاتوليك من اهالى ارلاندة وقد وقع ذلك مرة عندما تعرض أحد الحكام البروتستانت لعادة لهم فى أحد أعيادهم فاشتكوا منه وعزلته دولة انكلاتيرة حالا وعوضته بكاتوليكى ولا تزال تراعى لهم ذلك وهو عندها احدى الكبر لما مر بك من قانونهم وعوائدهم حتى فى التعصب لمذهب البروتستانت وذلك الحاكم يبقى فى وظيفته خمس سنين ثم يبدل بغيره الا أن تطالب الاهالى ابقاءه ثم ان تصرفه مقيد بشورة عشرة من أعيان المالطيين فى كل ما يعود على مصالحهم وحالة بلادهم وكل المتوظفين فى السياسة والاحكام هم من أهل مالطة الا الكاتب الاول للحاكم العام وجميع دخل الحكومة لا تأخذ منه دولة الانكليز ولا دانقا واحدا بل كله يصرف فى مصالح الاهالى وعساكر الدولة تصرف عليهم من خزينتها الا من دخل مالطة والاحكام الجارية هى أصول القانون الانكليزى ممتزجا بما يصلح بالاهالى ومطابقا لعاداتهم حتى ان احترام يوم الاحد الذى يلزم فى انكلاتيرة غلق جميع الدكاكين فيه لا ترى منه فى مالطة شيئا فتلخص ان الحكومة شورية قانونية والاحكام الشخصية منفردة عن الادارة العرفية واسم الحكومة الانكليزية وحقيقتها أهلية غير ان أكثر الواردين من الانكليز سواء كانوا متوظفين أو غيرهم يتكبرون كبرا عظيما على الاهالى لاستحقار عاداتهم وبلادهم فأورث لك كره رعاع الاهالى لهم وان لم يقدر واحد من الانكليز على ظلم احقر الاهالى

﴿مطلب فى السياسة الخارجية بمالطه﴾ ليس فى مالطة من سياسة خارجية تعتبر اذ هى لاحقة بانكلاتيرة وانما فى قاعدتها قناسل لكل الدول الكبيرة مراعاة لكونها

ماوى متوسط بين المشرق والمغرب فتأوى اليها السفن المارة لكلا الطرفين وليس لاولئك القناسل من شئ سوى قضاء ما يحتاج اليه اتباع دولهم اذ الحكم فى البلاد جار على الجميع سواء من دون دخل لقنسل فالقناسل أشبه بوكلاء تجارية نعم لهم فائدة فى الاعلام بالحوادث السياسية ان حصلت هنالك ولذلك كانت أغلب القناسل هنالك أصحاب وظائف شرف لا وظائف عمل فكثيرهم لا مرتب له وانما يكون من ذوى الثروة يقنع برسم اشارة الحكومة المنسوب اليها على باب داره لمجرد الفخر اذ الافرنج مطلقا سواء كانوا من أهل مالطة أم من غيرهم لهم ولوع زائد بحب الفخر فتراهم يتهافتون على نياشين الافتخار وعلامات الامتياز ولو من دولة صان مارينو التى هى عبارة عن أربعة آلاف نسمة ليزينوا بها صدورهم فى المواكب أو يثبتوا فى ستراتهم غرزات على شكل الوردة ذات ألوان مشيرة الى ما عندهم من علامات الامتياز فاذا دخل الزائر مقلدا بتلك الوردة نال من المزور زيادة المراعاة ولو من جبابرة لندره وطغاة باريس ومن سخافة عقول بعضهم أن يتخذ تلك الاشارات وسيلة للتدجيل على النساء حتى تعشقه للزواج أو غيره بناء على انه من علية الناس وقد نشأ عن هاته الرغبة فى النياشين ان بعض الدول صار لا يعطيها الا بثمن لذات النيشان الذى هو أزيد من قيمته زيادة على ذلك صار بعض الدول يعين لسفرائه فى الخارج عددا مخصوصا من كل طبقة من النيشان ليبيعه ويستعوض بثمنه عن أخذ مرتب له من دولته وكذلك مرتب اتباع السفارة مع ما يحصل له من رعيته اذا كان مقيما فى مملكة يسوغ فيها تداخل السفراء والقناسل فى الاحكام

﴿مطلب فى بقية عادات المالطيين وأحوالهم﴾ لما تقدم لنا الكلام فى الممالك السابقة على بيان أطوار الاروباويين وعاداتهم فلا داعى الى الاطالة بالاعادة على غير فائدة لان مالطة قطعة من ملحقات أروبا واجمال أطوار أهلها على العموم مثل أطوار سفلة الطاليان والاعيان منهم مثل أعيان أروبا سوى انهم يزيدون عليها بكثرة لبس الخواتيم فى الاصابع ونساؤهم جميعا اذا خرجن فى الطرق يجعلن على رؤسهن رداء أسود مدلى جهة اليسار ويمسكن طرفه الايمن باليمين

وكذلك لغتهم مخالفة لغيرها لانها عربية محرفة

جدا مدخول فيها كثير من الالفاظ

والاصطلاحات

الطليانية

الباب الثامن فى الاقطار المصريه

﴿الفصل الاول فى سفرى اليها﴾

بعد أن أقمت بمالطه ثلاثة أيام انتظر سفر باخرة توا الى الاسكندرية حيث لم يكن بينهما بواخر بريدية توا وانما البريد يسافر الى ايطاليا أو غيرها من جهات المشرق ثم يذهب الى الاسكندرية ويلزم طول مدة السفر فلذلك أتيت باخرة تجارية من بواخر الانكليز التى تتوجه الى هنالك بكثرة فوجدنا واحدة مشحونة بالفحم الحجرى أنزلت منه ما أنزلت فى مالطه وحملت الباقى الى الاسكندرية والكراء فيها وفى أمثالها أرخص من بواخر البريد لانه راجع الى السفن حيث ان أصحابها ليس لهم الا محمولات التجارة التى هى موضوع تشغيل السفينة فلم يكن بها الا الطبقة العليا والاخيرة للركاب وليس بها المتوسطة وهما مثل طبقات البريد فركبنا الليلا لان الباخرة عند تمام افراغ شحنها تسافر من غير تأخير ولكنها لم تسافر الا صباحا بعد الشروق وأسفت من ركوبها لما رأيت بها من الوسخ سوى داخل البيت الكبير فانه نظيف ومثله حجرات النوم ومن المعلوم أن الجلوس به دائما مقلق لكنه مامضى من وقت السفر أربع ساعات الا وقد غسل ظاهر الباخرة غسلا محكما ونشف فصارت من أنظف البواخر والحق أن يقال ان بواخر الانكليز مطلقا أشد نظافة مما يماثلها من غيرها أعنى كل نوع بالنسبة الى نوعه وذلك انى كنت رأيت بواخرهم الحربية مجتمعة مع غيرها من البواخر الحربية للدول الكبيرة عند قدومها الى تونس سنة ١٢٨٠ فى الثورة العامة فاذا بواخر الانكليز أتقنها نظافة وكذلك البريدية والتجارية ويليهم فى ذلك الفرانساويون ثم استمر السير والبحر فى غاية السكون وكان معنا من الركاب فى الطبقة الاولى اثنان انكليزيان لهما معرفة بالتصوير فكدنا أن لا نمر بشئ الا وصوراه من طير أو سحاب أو سفينة بل وكل من فى الباخرة حتى كان فيها فى الطبقة الاخيرة على ظهر السفينة أناس من المغرب وآخرون من صفاقس كلهم متوجهون الى الحج وفى كل يوم عند ارادة غسل ظاهر الباخرة يؤمرون بالانتقال من مكان الى آخر مع حمل رحالهم فيكونون فى أشد التعب مع الدوار الحاصل لبعضهم بمرض البحر فصورهم على تلك المشقة والجهد الجهيد ولما نظرت الى حالة هؤلاء الحجاج شاهدت مصداق قول الفقهاء بعدم وجوب الحج على تلك الصورة لانهم لا يصلون وصلاة واحدة مثل فريضة الحج وتركهم للصلاة يأتى من نجاسة أبدانهم من تغوطهم بلا

استنجاء ومن المياه الملقاة عليهم بغسل السفينة ومن عدم وجود مكان للصلاة لانهم يمنعون
من تجاوز مكان جلوسهم ومع ذلك يعاملون معاملة الحيوانات العجم من الخرقيين
بالاهانة والسب الى غير ذلك وأيضا يعتري بعضهم الدوار البحري فيبقى في مكانه بل
منهم من يتغوط و يبول فيه وتصل نجاسته لمن بجنبه فلما رأيتهم في سوء تلك الحالة
ذهبت اليهم وأعلمتهم بالحكم الشرعي في وجوب الحج وشروط الاستطاعة فيه وسألتهم
لماذا يعدلون عن ركوب الطبقة الوسطى في بواخر البريد أو في العليا مثلا مع أنها ليست
بغالية و بعضهم تظهر عليه آثار الثروة فأجابوا بان ذلك العذاب لا ضير فيه لانه مدخول
عليه في السفر الى بيت الله بل مهما ازداد كان ثوابه أكثر وأصروا على ذلك منكرين
على قولي فعدلت عن ذلك ولاطفتهم في المحافظة على الصلاة فقالوا كيف نصلي ونحن على
هاته الحالة وأين نصلي فقلت لهم انكم مالكية ومذهبكم يرى صحة الصلاة ولو على ما أنتم
عليه لان ازالة النجاسة تجب وقيل تستحب فقط مع القدرة والتذكر فقال لي واحد منهم
اني أصلي كما رأيتني قلت نعم رأيتك تصلي والآخرون قالوا لو نجد مكانا ويتركوننا نتطهر
فاننا نصلي فتلطفت لرئيس الباخرة الى أن أذن لهم في التفسح واستعمال الماء في
المرحاض فقط لكن أغلبهم مع ذلك لم يصل وقد سألتهم أيضا عن موجب كثرة رحالهم
حتى ان بعضهم رافع جرة كبرى ملفوفة بشرطان الحلفاء للماء وقربة منه للادام والقديد
الى غير ذلك فقالوا ذلك لقوتنا فقلت انكم متوجهون الى مدن ان لم تكن أكبر من
مدنكم فهي نحوها ولا بد أن يكون لاهلها ما يكفيهم فهلا وسعكم ما وسعهم و زاد الطريق
في البراري يؤخذ من أقرب مدينة اليه فقالوا يلزم لذلك الثمن وهذا الذي عندنا انما هو
من بيوتنا فقلت لو بعتم هذا وأضفتم عليه كراء حمله بحرا وبرا لكان أرخص عليكم من
شراء الزاد من الاماكن اللازمة فقالوا تلك بلاد لا نعرف أحوالها والاولى التزود من
أماكننا وهكذا جرت العادة فعلمت ان تأثير العوائد أمر صعب جدا وفي غروب اليوم الرابع
وصلنا الى الاسكندرية ولم يظهر لنا منها شيء لان أرضها منخفضة ولا جبال بها حتى يمكن
رؤيتها من بعد وحيث كان وصولنا بعد الغروب ومن الرسوم ان لا تدخل السفن اليها
الا بهاد يهديها الطريق حيث كان قرب مرساها صخرات لا تتبين من البحر وتضر بالسفن
اذا صادمتها لزم حضور أولئك الهداة ليدلوا السفن على الطريق ولهم على ذلك أداء
معين فلزم الباخرة ان تكون طول الليل غادية رائحة في نحو ميلين ولم يظهر لنا من البلد
سوى منارة هداية السفن وقرب الشروق ظهر الهادي في قارب قادما للباخرة فاعرض

عنه السفن محتقرا له وابتدأت مشاهد في تعاظم الافرنج على المصريين وتبين ان السفن
كان عالما بالطريق لكنه انما توقف عن الدخول لمجرد الرسم فدخلنا المرسى فاذا هي
ذات أمن وذات مرسى صناعية فيها من بواخر الحكومة المنحازة الى جهة خاصة ثمانية
بواخر كبار كلها خشب وفيها من البواخر التجارية الاجنبية أزيد من عشرين وفيها
باخرة حربية أجنبية وبعد تمام الارساء وأخذ الاجازة للباخرة من مأموري الصحة في
انزال ساكنيها وركابها أذن للركاب بالنزول وذلك لان من القوانين العامة ان كل سفينة
تسافر من مكان يلزمها أن تأخذ من مأموري الصحة به الذين لهم ديوان خاص صكا
منصوصا به حالة البلاد التي سافرت منها من جهة الامراض العامة ومقدار ما في السفينة
من الركاب وأنواع البضاعة التي بها فاذا وصلت الى مرسى مقصودة لها أول ما يتلقاها
مأمورو الصحة فيطالعون ذلك الصك و يبحثون عن صحة الركاب وعددهم فان لم يوجد
ما يخشى منه أذنت بافراغ ما تريد في تلك المرسى فأحاطت بالباخرة القوارب الصغيرة وثار
عجاج الصياح من أصحابها المختلطين من أهالي وافرنج في النزاع على حمل الاثقال
والركاب ولما رأيت الامر تفاقم اضم لي خريتوا الباخرة عندقات رحلي وجلست
حارسا لها في زاوية لان أصحاب القوارب كادوا يختطفون الرحال شاء صاحبها أم أبى
من غير مساومة للاجرة وتلك عادة فيهم في أي بلد كانوا ثم بعد الوصول يطلبون الاجرة اضعافا
مضاعفة ولما نزل جميع الركاب مع رحالهم ولم يبق حول الباخرة الا قوارب السلع التي
عهدتها على الكمرك دعوت قاربا واتفقت معه على أجرة معين وأعانني على ذلك ابن
وكيل حكومة تونس الحاج علي الفيزاني رحمه الله حيث تلقاني في الباخرة بعد ان ورد
تابعه سائلا عني وظننته أحد أولئك القاربيين تلقط خبري لان حركاته لا تميزه منهم ثم
لما وصلنا الى الكمرك طلبوا ورقة الجواز وكادت ان تحصل لنا اتعاب بمنع الدخول الى
الاسكندرية حيث كانوا يمنعون دخول من يريد الحج وان لم يجعلوا لهم خارج البلاد مكانا
محاطا بالعساكر بحيث لا يسوغ للوارد الا الركوب في البحر أو طريق الحديد توا الى
السويس وكان سبب ذلك كثرة من كان يرد من الاقطار الغربية للحج بلا مال ولا زاد
فيتكاثرون بمصر و يحملون حكومتها وأهاليها أعباء ثقيلة مما لا داعي اليه لا شرعا
ولا عقلا لان أصل فرض الحج معلق على الاستطاعة بنص القرآن الكريم فلا يسوغ
الاقدام على السفر بدون شروطه نعم اذا وقع لعارض فقد المسافر لمال يقوم به في
الرجوع لوطنه أو لمحل ماله او اقامته ففي بيت مال المسلمين قسم معين بنص الكتاب لابناء

السبيل فيعطون حاجتهم الى بلوغ مكانهم ولو كان ابن السبيل غنيا لكنه فى ذلك الطريق لا مال له فتداركنا الله بلطفه واذننا المكلف بالدخول للبلد فنظروا الى رحالنا وأرادوا التشديد فى تفتيشها وقلب عاليها على سافلها متطلبين الاحسان اليهم فلم يسعنى الا التخلص من الظلم بدفع شئ من المال ارتكابا لاخف الضررين من الخوف من تشتيت رحلى والسرقة منه مع التعب ثم قصدت منزل المسافرين الافرنجى المسمى أوتيل دى روب فى أكبر بطحاء البلاد بعد مشقة فى التخلص من النزول عند وكيل تونس الذى لا داعى اليه سوى تحميله الكلفة بالضيف والمصروف عليه مع تكليفى بلزوم مراعاة أحواله وعاداته مما عساه لا يوافق حالتى وعاداتى اذ لم تكن لى معرفة به قط مع ما أنا عليه من المرض الملازم الذى اشتد منذ رجوعى الى تونس بسبب الانفعالات النفسانية فيلزمنى المساعدة لمزاجى فى الاكل والنوم وغير ذلك مما يحصل مضيقى مشقات أو يضربى تركه فاكتريت فى ذلك المنزل بيتا واسترحت به على ما ساعدنى واغتسلت فى حمامه وأكلت وغت ثم اكتريت عجلة وقصدت أخى فى الله الصفوة الخيرة عالى الاخلاق والاعراق سيدى ابراهيم السنوسى الحسينى وهو المحدث البليغ المتفنن فى علوم المنقول والمعقول والسياسة صاحب الاخلاق المطابقة لانتسابه العالى نشأ من بيته الاصيل بمدينة فاس البيضاء قاعدة مملكة المغرب وحصل من العلوم ما استكمل به فخره ثم رحل الى تونس وأقام بها بضع سنين وامتزجت به أفاضلها وأعيانها تمام امتزاج لعلمه وأدبه وكاد أن يتخذها قرارا لولا المحنة التى وقعت بها من سنة ١٢٨٠ الى سنة ١٢٨٦ فارتحل عنها على ما دعت اليه مقتضيات الاحوال من فساد الحكومة واستقر بالاسكندرية مشتملا على كماله وفضله وعفافه واتسعت نعم الله عليه لا زال أهلا لكل فضيلة فلاقيته فى الطريق وألزمنى بالاستقرار فى مقره وحيث كانت الاسباب المشار اليها آنفا فى التخلص من الضيافة مفقودة مع أخى الفاضل المومى اليه لا من جهتى ولا جهته ساعفت مراده وأقمت عنده سبعة أيام ولاقيت أيضا أخى فى الله التقى النقى الكامل رستم باشا التونسى وهو الفاضل العفيف النصوح المؤتمن نشأ فى بلاد الجراكسة من جبال القوقاس ووفد على تونس دون سن العشر فأدخل الى مكتب الحرب وحصل على القرآن العظيم ونصيب كاف من العقائد والعبادات والتجويد والنحو والحساب والهندسة وغيرها من الفنون الرياضية والحربية مع تحصيل اللغة الفرانساوية ومعرفة اللغة التركية وثنا فى علم التصوف ثم تقلد الوظائف السامية فى حكومة تونس فولى أمير لواء حراسة الامير ثم مستشار الداخلية

ثم

ثم وزيرا فيها وعضوا فى المجلس الخاص والمجلس الاكبر وكان من أشد المحامين عن العدل والشورى ولما وقعت النكبة العامة لتونس سنة ١٢٨٠ وما نشأ عنها من المظالم سافر المشار اليه الى أروبا ثم رجع الى تونس سنة ١٢٨٦ باستدعاء الحكومة وقلد وزارة الحرب مع توظفه فى كل من المدتين بولايته عاملا على أعمال نديهة بجربة والاعراض وغيرها وسافر مرارا أميرا على العسكرات لاقرار الراحة والامن فى الولاية وفى كل ما تقلد به كان مستقيم السيرة والسريرة مثنى عليه بالسن الخاص والعام ولما ابتدأت النكبة الكبرى الاخيرة لتونس ورأى مباديها ترخص من الوالى السفر للتداوى فأقام فى أروبا مدة ثم أقام بالاسكندرية فلاقيته بها فى احدى المنازه الكائنة بالرملة وانهملت من الكل الدموع لما توقعناه للوطن العزيز ولا حول ولا قوة الا بالله وهاته البلاد أعنى اسكندرية هى ثانى مدينة فى القطر المصرى وهى مناخ تجارته مع سائر الممالك التى على البحر الابيض والمحيط الغربى وبها حصون حصينة وقشلات للعساكر ومكاتب عديدة لسائر الفنون وقصر للخديوى بقرب المرسى أنيق فاخر ومنتزه عام خارجها بالمكان المسمى بالمحمودية وهو منتزه به جدا تتناوبه الموسيقى الرسمية فى العشية ولكن أكثر من يرد اليه اغلبهم الاجانب وفى المحمودية طريق وسيع صناعى حوله الاشجار العظيمة يتماشى فيه المترفون بعجلاتهم ويقرب به فرع من النيل وعليه آلات بخارية لرفع الماء وتصفيته وتقسيمه صافيا على البلاد فى قنوات وأغلب طرق البلاد مبلطة بالحجارة حسنة المنظر سيما حارات الافرنج التى يوسطها البطحاء الكبرى ذات الجنينة والفوارات وحولها القصور الشاهقة ومن تحتها الحوانيت المزخرفة ويوسطها صورة محمد على باشا مجسمة ضخمة كأنه راكب جواده وأغلب طرق البلاد فى حارات المسلمين ضيق وما عداها فهو متسع وبها من الجوامع الشهيرة جامع الامام البوصيرى رحمه الله وهاته المدينة بناها اسكندر المقدونى وهو الرومى اليونانى الذى نشأ فى مقدونية المعروفة الآن بالروميلى فى بلاد فلبه وهو تلميذ أرسطو الذى أشار عليه بتفريق ممالك الفرس عند تغلبه عليها سنة ٩٣٥ قبل الهجرة وقال له الحكمة المأثورة الى الآن وهى اقسم تحكم قال فى الاقيانوس وليس اسكندر هذا بانى سد يأجوج فان ذلك من الملوك المعروفين بالاذواء من قبائل حمير ببلاد اليمن واسمه الصعب ولقبه ذو القرنين ولقى ابراهيم الخليل وعانقه كما فى الصحيحين واطال فى ذلك فليرجع اليه من أراده وهذا مما يؤيد ما قلناه فى الكلام على سور الصين فى المقدمة ولله

الحدود وقد سماها الاسكندر هاته البلدة بالاسكندرية باسمه وكانت هي قاعدة الاقطار
المصرية الى الفتح الاسلامي وكان تجاهها جزيرة يقال لها جزيرة فارس فاتصلت بالبر
برصيف بناه بطليموس وهي الآن جهة رأس التين وفي الشمال الشرقي منها بنى المذكور
منارة الاسكندرية الشهيرة وكان ارتفاعها اكثر من ١٥٠ قامة وأحد جوانبها يزيد
عن ٥٠٠ ذراعا وكان أنشأ عليها أحمد ابن طولون قبة من خشب فأخذتها الرياح ثم
أصلح المنارة لتداعيها الملك الظاهر بيبرس وبنى عليها مسجدا انهدم بزلزلة ثم جدد ثم
انهدم الجميع وبنى بمحلها الفنار الموجودة الآن من آثار محمد على باشا وقد كان أسس
بها بطليموس الاول خزانة كتب تعد اذ ذاك من عجائب الزمان تحتوى على ٧٠٠ ٠٠٠
مجلدا وزعم بعض المفترين من المؤرخين ان أمير المؤمنين سيدنا عمر أمر بحرقها مع انها
احترقت قبل الاسلام بمدة مديدة لان الذى أحرقها هو بولس قيصر الرومان عندما كان
محاصرا بالاسكندرية ورامت أعداؤه الاستيلاء على سفنه فأضرم فيها النار وكانت
بقرب من القصر الملكى المحتوى على الخزانة المذكورة فاحترق الجميع كذا في جغرافية
مصر الفكرى قال ومن المحقق انه بعد مدة من الزمن كان انطوان الرومانى أهدى
الى الملكة كليوبطرة من كتبخانة برجام ٣٠٠ الف أو ٤٠٠ الف كتاب فتجدد
بذلك خزنة كتب عظيمة وان كانت دون الاولى فأصابها الحريق مرتين ثم دمرت
بالتمام بواسطة المتعصبين للديانة النصرانية لازالة أفكار عبدة الاوثان في مدة حكم
تيودوس قبل الاسلام اه باختصار وسكان هاته المدينة الآن نحو من ٣٠٠ ألف نسمة
وبها ازيد من ٣٠ ألف محل ما بين كبير وصغير وتشتمل على معمل فاخر للسفن واصلاحها
ومن غرائب البلدة المسلة الواقعة قرب محطة سكة الحديد الموصلة للرملة وهاته
المسلة على نحو المسلة التى ذكرناها في باريس ولندره اذ الجميع نقل من مملكة مصر ولم
يبق بها الا هاته فقط وطولها ٦٤ قدما في قطعة واحدة من حجر عليها كتابة قديمة
عملت مدة الملك موريس الثالث سنة ١٧٣٦ قبل الميلاد ومثلها اغرابة عمود السوارى
الشهير الواقع جهة مينة البصل وهو عمود على قاعدة عظيمة فوق تل عال ارتفاعه مع
تاجه أكثر من ٣٠ مترو ومحيطه نحو ٢٨ قدما يقال انه عمل مدة قياصرة الروم وبعد
اقامتى بهاته البلدة سبعة أيام وتزودى منها ما يلزم لطريق الحجاز غير الخيام والقرب فانى
أخذتها من مصر لانها هنالك أرخص ثمنا وارسالي جميع ذلك الى السويس مع الطباخ
والخادم اللذين استأجرتهما من الاسكندرية توجهت حينئذ الى مصر القاهرة راكبا قافلة

طريق الحديد ولم نجد بها مخدعا خاصا ذا فرش ومرافق مثل ما يوجد في اروبا وكان
ركوبى بعد العصر فسار الرتل سيرا وسطا ولم يقف الا ببعض بلدان كبيرة وكان منظر
الارض قرب اسكندرية ليس بهجا وانما توجد براحات وسيعة بها الماء راكدا ومزروع
بها الارز لكن تغير المنظر بحسن النبات والزراعة بعد حصة ولم يطل بنا ذلك المنظر
الجميل لارخاء الظلام سدوله فوصلنا الى القاهرة بعد سير أربع ساعات ونصف فتلاقاني
في الموقف النجيب الوجيه الحاج على الشماخى وكيل تونس واعتذرت اليه عن الاقامة
بمنزله بعامر ونزلت في منزل المسافرين المسمى الخمارة الكبيرة مواجه الروضة
الازبكيه وأسعار هاته المنازل نحو من أسعار اروبا

الفصل * الثانى

(في صفة مدينة مصر القاهرة)

هاته المدينة هي قاعدة الاقاليم المصرية منذ الفتح الاسلامي غير انها اختلفت اسماؤها
وبقاعها على حسب اختلاف الدول والاعصار وان كان مركز جميعها واحدا فبعضها
محاذ لبعض فاول ما اختطه الصحابة رضوان الله عليهم مدينة الفسطاط حيث ضرب
سيدنا عمرو بن العاص فسطاطه في الفتح وعند ارادته للتقدم جهة الاسكندرية التى
هي القاعدة اذ ذاك وجد يماما قد فرخ على عمود فسطاطه فاجاره وأبقى الفسطاط
الى أن رجع الجيش بعد الفتح واختط المدينة حول الفسطاط فسميت به ثم لما تغلب
المعز الفاطمى على مصر على يد قائده جوهر اختط القاهرة وصارت هي دار الامارة
وهي مدينة رحيبة بمر النيل بحذائها وعليه آلات بخارية لرفع الماء وتصفيته وارساله
في قنوات تفرق على جميع المدينة وعليه جسر حديد طوله مترو ٥٠٠ وعرضه يمر
عليه ستة عجلات وعلى حافتيه طريقان للمشاة وقد صنع سنة ١٢٧١ وعلى حدودها جبل
شاهق عليه قلعة حصينة وكانت مستقر الامراء وهي ذات حصون متينة صناعية مشحونة
بالمدافع من الطرز الجديد الضخم زيادة على تحصينها الطبيعي وتنظر منها سائر المدينة
وأريافها فترى عظم اتساعها وبهاته القلعة جامع ضخم ذو قبة شاهقة جدا ومنائر جميلة
مرتفعة وبه اسطوانات من المرمر الملون ذات بهجة وارتفاع عظيم وبصحنه الرحيب متوضأ
أنيق جميل وبنى هذا الجامع محمد على باشا كما انه اتقن قصر الحكم بها وهو ذو بيوت وسيعة
وأواوين رحيبة مشتملة على جميع الفرش ولا زال هو القصر الرسمى للمواكب المهمة

وان لم يكن فاخر امثال القصور المحدثة التي يقيم بها الخديوى وبالقلعة أيضا معسكر وديوان نظارة الحرب وبها بئر عميق جدا يدعى الجهال انه جب يوسف عليه السلام وكان الحامل لهم على ذلك غرابة وجود بئر فى ذلك الارتفاع فعدوه معجزة وبالقاهرة أسواق كثيرة جدا بل انى لم أر بلدا أكثر منها حوانيتا فى سائر الجهات وأهم طرقها القديمة هو الطريق الموصل من الازبكية الى جامع سيدنا الحسين ويسمى بالموسكى فهو متسع فى بعض جهاته نحو ثمانية أو عشرة أمتار وفى بعضها نحو الخمسة امتار وأما بقية الطرق القديمة فأكثرها لا تمر به العجلات وبعضها تمر به عجلة واحدة نعم ان الطرق الجديدة التى افتتحها اسماعيل باشا فى عشرة الثمانين والمائتين وألف فى الحارة المنسوبة اليه المسماة بالاسماعيلية هى على نحو الطرق الاوروباوية اتساعا واستقامة وهاته الحارة كلها محدثة ملحقة بمصر ومن محاسن القاهرة حديقة الازبكية الجميلة الانيقة المحاطة بسياج من قضبان الحديد الجميلة وبها أبواب من كل الجهات على الطرقات المحاطة بها وهى ذات مماش ورياض واشجار وانوار ومقاعد وقهاوى تلتذ بها الموسيقى الرسمية كل يوم عشية لكنها لا يحضرها غالبا الا الافرنج وقصور الخديوى وأقاربه وحواشيه مالئة الحارات الجديدة مبهجة لها برونقها وأهمها قصر عابدين أما القصور التى له حول القاهرة فهى كثيرة مضاهية أو فائقة على قصور ملوك أروباو جمعت بين ما للاروباويين من التحسين وما للشرقيين من التزويق والاسراف ولكل منها حدائق وعيون وحيوانات غريبة ومن هاته بستان شوبرة وقصره ذو البركة الرحيبة الذى أنشأه محمد على بعيدا عن القاهرة نحو ثلاثة أميال وله طريق جميل هو منتدى أهل التمشى والتنزه بعجلاتهم وخيلهم لما له من البهجة بالاشجار العظيمة ومن ورائها البساتين والقصور المونقة لاهل الترف والمدنية من الاروباويين والامراء والوزراء وعلى جانبه ترعة من النيل وهكذا حارات الافرنج والحارات الجديدة فى تأنيق البناء والقصور وبهجتها من الظاهر فضلا عن الداخل لكن ديار الاهالى ليس منظرها من الخارج مما يسر الناظر أما ما اشتملت عليه القاهرة من المقامات والاماكن المعظمة فأولها مقام سيدنا الحسين رضى الله عنه وارضاه وذلك انه بعد الشنيعة الشنعاء بكربلاء أيام يزيد سنة ٦١ حمل الرأس الشريف المكرم ويقال انه دفن بعسقلان الى ان نقله الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الفاطميين سنة ٥٤٨ الى القاهرة فى موكب عظيم ودفن بالمقام المشار اليه ثم عملت عليه المقصورة من النحاس الموجودة الآن سنة ١١٧٥ وبنى حوله المسجد

الرحيب وقد تشرفت بزيارة هذا المقام الشريف وصليت الجمعة وغيرها فى مسجده ولله الحمد وقد صلى الخديوى محمد توفيق تلك الجمعة هنالك فلم يكن له من الابهة والفخامة الكبريائية ما ينكر وانما معه بعض خدم وأعوان ومن المشاهد أيضا مشهد سيدتنا زينب شقيقة السبطين رضى الله تعالى عنهم ومنها مشهد سيدتنا رقية ابنة سيدنا على بن أبى طالب ومشهد سيدتنا سكينة بنت الحسين السبط ومنها مشهد سيدتنا نفيسة الطاهرة من ذرية سيدنا الحسن الشهيرة بالزهد والصلاح والمناقب المأثورة ومشهد الامام الشافعى خارج القاهرة فى القرافة وغير ذلك من المشاهد والمقامات التى لا تكاد تحصى رضى الله تعالى عنهم أجمعين وذلك لان مصر محط رحال الصحابة والتابعين والعلماء والمصنفين رحمهم الله أجمعين وكذلك الجوامع التى بها تكاد تفوق العد وأول مسجد بنى بها هو الجامع العتيق ويسمى الآن جامع عمرو وأسس سنة ٢١ عند الفتح الاسلامى ثم زاد فيه مسلمة بن مخلد الانصارى سنة ٥٣ وزوقه وقيل انه بنى به اربع منائر باركانه الاربع بأمر سيدنا معاوية وهو أول اختراع فى ذلك وفيها يقول عابد بن هشام الازدى

وكم لك من مناقب صالحات * واجدر بالصوامع للاذان
كان تجاوب الاصوات فيها * اذا ما الليل القى بالجران
كصوت الرعد خالطه دوى * وأرعب كل مختطف الجنان

ثم الجامع الازهر وهو أول جامع أسس بالقاهرة بعد الفسطاط أسسه جوهر القائد سنة ٣٦١ وجدد اتساعه مرارا وهو ينقسم الى بيت وسيع ذى تقاسيم مرفوع سقفه على أعمدة والى صحن وسيع محاط به اروقة يقيم بها جماعات من الطلبة المجاورين لاخذ العلم وهذا الجامع هو مدرسة العلم الجامعة فى الاقطار المشرقية وفى القاهرة جوامع أخر عديدة ذات بناآت ضخمة أشهرها بمتانة البناء وضخامته وارتفاعه واتقانه جامع السلطان حسن بن قلاون ابتدأ فى عمارته سنة ٧٥٧ وأتمه فى ثلاث سنين ومقدار ما صرف عليه بسكة الوقت نحو ثلاثة عشر مليونا فرنكا فهذه هى أشهر الاماكن بقاهرة مصر ومنها مدارس العلوم الرياضية وقد جمع بها خزائن الكتب التى كانت متفرقة وتشتمل على نحو مائة الف مجلد منها ثلاثون الف مجلد بخط اليد وفيها من نفائس الكتب تأليفا وخطا ما لا يوجد بغيرها ومنها مصحف كريم يقال انه بخط سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ومصاحف أخر عديدة عظيمة الحجم مزوقة بالذهب الى غير ذلك من الكتب العتيقة والنفيسة وذلك بقية ما فات الفرانسيس من الكتب التى نقلها الى باريس عند احتلالهم :

على مصر مدة نابليون بونابارتى وكذلك المارستانات أى المستشفيات الجامعة للتداوى وتعليم فنون الطب وقد شاهدت أحدها فاذا هو جامع لسائر أدوات الكيميا والطبيعيات والاجسام المصبرة والمشرحة من بنى آدم وغيره غير انى كانت مشاهدتى لهاته الآثار وهى على شفا جرف من الاضمحلال لما سيأتى خبره مما اعترى مصر أواخر مدة خديويها اسماعيل باشا ومن مهمات مايذكر فى القاهرة الاهرام التى بقربها فى المكان المسمى بالجيزة وقد ذهبت اليها راكبا حمارا الان العجلات لا تصل اليها الا بكلفة حيث ان الارض حولها مرملة ولم تتصل الطرق الصناعية بها والاهرام بارض مصر كثيرة جدا منها ما هو باق الى الآن وعدها بعضهم فقال انها ٢٧ هرما ومنها ما اندثر بالهدم وصروف الايام واكبر الموجود منها أهرام الجيزة المذكورة وهى ثلاثة أهرام أكبرها أوسطها ويعرف بابى هرميس وأشهر الاقوال فى بانيه هو فرعون كيوس أحد فراعنة العائلة الرابعة من فراعنة مصر وعلى ما حرره المؤرخون ان تلك العائلة لها الآن نحو ستة آلاف سنة وكانت مدة ذلك الملك فى الملك ٥٠ سنة وتم بناء هرمه فى ٣٠ سنة وكان المشتغلون فى بنائه ٣٦٦ الف نفس كل تلك المدة كأنه جعل بحساب كل يوم من السنة الف نسمة للشغل وسلك فى بنائه طريقا عجيبا حتى صبر على تقلبات الزمن فقد وضع على شكل مخروط قاعدته مربعة وينتهى بنقطة ومن خواصه أنه يتساند على نفسه اذ مركز ثقله فى وسطه ويتحامل على نفسه وليس له ما يتساقط عليه وقويات زواياه يهاب الرياح كى لا تؤثر فيه لانها تتكسر سورتها بصادمة الزاوية بخلاف ما لو لاقت السطح وفى داخل هذا الهرم عدة محلات يدخل اليها المتفرجون وان كنت فى نفسى لم أستطع الدخول اليه لان المدخل ضيق مظلم يدخله الانسان حبوا ويدخل أمامه أحد السكان هناك بنور شمعة وأنا قائم بى ذلك المرض الذى يصحبه ضيق الصدر فلم أدخله ونقلت الكلام فيه من جغرافية مصر للفاضل محمد أمين فكرى وكذلك نقلت منها جملة مهمات تتعلق بالاقطار المصرية فلعمرى انه كتاب جامع الفوائد قلما توجد بغيره مجموعة مع حسن السبك والافادة والاختصار ومما قال فى هذا الهرم ان بوسطه حجرة تسمى حجرة الملك فيها حوض بديع الصنعة من قطعة واحدة وأخرى تعرف بحجرة الملكة ويرى الناظر فى داخله ما يبهر العقل من كمال احكام تركيب تلك الاحجار الهائلة حتى قيل ان مقدار الواحدة منها اثنا قدم مكعب وجميعها يرى كأنه قطعة واحدة وينتهى أعلاه من داخل بسطح نحو عشرة أمتار ويقال انه سقطت منه حجرة وارتفاع أعلى الهرم على سطح ارضه

١٤٦ أما طول سطح أحد جهاته فهو ١٨٤ وطول كل ضلع من قاعدته ٢٣٠ ميترو والاهرام الاخر أصغر من هذا وقد اختلفت الاقوال فى الغرض من بناء الاهرام حتى قال عمارة اليمنى

تنزه طرفى فى بديع بنائها * ولم يتنزه فى المراد بها فكرى

اه باقتصار وأظهر الاقوال انها قبور لاصحابها وبقرب هاته الاهرام صورة أسد جاثم نحتا فى الحجارة ورأسه رأس آدمى مسدول الشعر وهى أضخم ما يكون من الصور وأصله من أعمال الفراعنة الاقدمين يسمى أبا الهول وبقربها اطلال بناءات هائلة سطا عليها الرمل ثم كشفت منها بيوت حائط كل بيت منها فى قطعة واحدة من الحجر وسقفها كذلك حجرة واحدة يندهل الرائى منها وكيف أمكن نقلها ووضعها بمحلها وحول هاته الجهات أناس سكان كأنهم لا صناعة لهم سوى التفتيش على الاشياء العتيقة من تحت الارض وبيعها للسواح والتطوف معهم لاراءتهم غرائب تلك الآثار القديمة مع ان الحكومة المصرية اعتنت كثيرا بجمع الآثار العتيقة التى يمكن نقلها وحفظها فى محل خاص بها هو من أهم امثاله فى الدنيا مباح لكل قاصد بما أثبتك خانه وفى سائر الجهات المصرية عجائب من صنائع الاقدمين مما يدل على تقدمهم التام فى المعارف والصنائع ومنها ما اندثر علمه الآن مثل الاقتدار على جر الاثقال وحفظ أجسام الاموات على حالها المسماة بالمومية المصرية التى نقل منها لسائر أقطار التمدن ونسج المنسوجات من مواد حجرية المسماة وغير ذلك وأغلب ما يوجد من أمثال هاته الاشياء فى أقاليم الصعيد حيث كانت مقر تخوت ممالك الفراعنة وبعض اليونان والحاصل انه يوجد بمصر من غرائب الآثار القديمة ما لا يوجد بغيرها وكل ما يمكن أن ينقل ولم تمتد عليه أيدى الدول الاجنبية فقد جمع فى القاهرة فى ديوان الآثار والغرائب حتى ذكر ان بعض دول اروبا رضيت بشراء جميع ما فى ذلك الديوان بما على الحكومة المصرية من الديون وعلى تقدير عدم صحة ذلك القول فانه ينبئ عما لتلك الآثار من الغرابة والعناية حتى صح أن يقال فيها مثل ما ذكر وقد اجتمعت فى القاهرة باجلاء من فضلائها وأعيانها فقد زرت العلامة الشهير شيخ المشايخ الشيخ ابراهيم السقا وهو طريح الفراش بمرض الفالج الذى لم يبق له من حراك سوى الكلام والنظر وثبات العقل وهو على جلالة علمه وفضله والتمكن من أمره على جانب عظيم من التواضع ولين الجانب وحسن الاخلاق فاخبرنى

انه من تلامذة الشيخ سيدى ابراهيم الرياحى التونسى وانه أخذ عليه واجازه عند اجتيازه بمصر للحج وسألنى عن ذريته وعالهم بخير وأعجبه التشوق من اتبيع التونسى ودعالى وللمسلمين بسائر جو من الله قبوله وأظن ان سنه نحو الثمانين سنة وكذلك حضرت تبركا بدرس العلامة النحرير الشيخ محمد عليش صاحب التآليف الشهيرة ووجدته يقرأ فى شرحه على مختصر خليل فى الفقه المالكى اثناء كتاب العتاق بمسجد قرب جامع سيدنا الحسين رضى الله عنه لانه لم يستطع الاقراء بالجامع حيث تكثر فيه الاصوات من المدرسين وهو لكبر سنه البالغ نحو الثمانين وضعف بدنه كان يخفض الصوت حتى انى لم أتمكن من سماع تقريره كما ينبغى لانخفاض صوته مع مزيد السكون فى المسجد ومع ذلك قد أطال الدرس حسب معتاد المصريين فكانت فيه ساعة ونصف وانصرفت وهو لا زال بصدد الاقراء وعليه من مهابة العلم والصلاح ما يؤيد صيته الشهير وكذلك اجتمعت بالفاضل الصفوة الخيرة سيدى عمر السنوسى أخى صديقى سيدى ابراهيم السنوسى المتقدم ذكره فى الاسكندرية وهو ذو اخلاق مطابقة لما له من مجد الاعراق وغير هؤلاء من بعض الاعيان من الاهالى والمستوطنين من أهالى الاقاليم الاسلامية كالفاضل الحسيب محمد الاحبابى من أعيان تجار أهل المغرب ذوى الثروة وكالشهم الهمام الزبير باشا الذى كان مالكا على قسم من مملكة دارفور من السودان ودخل طوعا تحت الخديوية المصرية رغبة فى اتحاد كلمة الاسلام ثم عزله اسماعيل باشا وبقى مقيما بالقاهرة وهو رجل ذو فضائل جمة يتعجب مجالسه من كمالاته مع انه من أهالى السودان وان كان أصله من نسل العرب الكرام فهو مهذب الاخلاق عارف بالسياسة والحروب وبجغرافية دواخل افريقية وشطوطها الشمالية غيور على الملة كثر الله من أمثاله وقد دعت المقتضيات الى الاجتماع بحضرة الخديوى محمد توفيق باشا توجهت اليه وأحضرت أبياتا تضمنت تاريخى ولايته اذ كان اذ ذاك قد ولى منذ بضعة أشهر وتلقاها منى بسرور فبيت التاريخ الهجرى هو قولى

فى سماء الملك ارخ * لاح توفيق الخديوى

وبيت التاريخ الميلادى هو قولى ١٢٩٦

فانشد التاريخ صاح * قرة ويج الخديوى

١٨٧٩

والصاد بعدد تسعين لان ذلك هو حساب المشارقة فيها وأما المغاربة فهى عندهم بستين

وذلك لان حروف أبجد بحساب الجمل وقع فى اعداد بعضها خلاف بين المشارقة والمغاربة وهاته الحروف نذكرها هنا تتميما للفائدة حيث رأيت كثيرا من أهالى القطرين يجهلون ما عند اخوانهم حتى انهم ربما حملوهم على الخطأ فى العدد مع ان ذلك مبنى على الاصطلاح الذى لا مشاحة فيه ودونك حساب الاحرف والذى فيه الخلاف نضع حساب المشرق عن يمينه والمغرب عن شماله وباقيها نضع له عددا واحدا ا ١ ب ٢ ج ٣ د ٤ ه ٥ و ٦ ز ٧ ح ٨ ط ٩ ى ١٠ ك ٢٠ ل ٣٠ م ٤٠ ن ٥٠ ٩٠ ص ٦٠ ع ٧٠ ف ٨٠ ٨٠٠ ض ٩٠ ق ١٠٠ ر ٢٠٠ ٦٠ س ٣٠٠ ٣٠٠ ت ٤٠٠ ث ٥٠٠ ٥٠٠ خ ٦٠٠ ذ ٧٠٠ ٩٠ ظ ٨٠٠ ٨٠٠ غ ١٠٠٠ ٩٠٠ ٣٠٠ ش ١٠٠٠ وحيث كنت قائلا للابيات فى المشرق راعيت قاعدتهم فاجتمعت بالخديوى فى قصر عابدين ولم يكن معنا أحد وهو متواضع دين متفنن متبصر وبعد اقامتى بالقاهرة بضع أيام واشترائى منها القرب لحمل الماء فى الطريق واشتراء الخيام اللازمة لذلك سافرت الى بلدة السويس فى طريق الحديد وكان العمران قرب القاهرة جليلا لكننا ما تجاوزنا عن خط النيل الا وكانت الارض صحراء خاوية لا نبات بها ولا أنيس سوى بعض شجر القصب على حافتى الترعة الذاهبة الى السويس وبها أفراد من القوارب الصغيرة الحاملة كل منها الانسان أو اثنين مع بعض بضائع فوصلنا الى السويس بعد الغروب وكان السير من القاهرة اليها نحو ثمان ساعات فتلقانا الخبير العفيف وكيل المغاربة بتلك البلدة ونزلنا بأحد منازل المسافرين على نحو ما مر فى غيرها فاذا هى قرية بها بعض الاجانب وبها حاكم يلقب بالمحافظ وضابطية وعساكر واهم ما فيها مرساها الصناعية وبقربها من الشرق فوهة الخليج الجامع بين البحرين الابيض والاحمر وحول المرسى محل للتحفظ المسمى بالكرنتينة وعليه عساكر محافظون وفى البلد شجرات وشبه جنينات حول ديار بعض الافرنج وما وراء ذلك فهو صحراء خالية وان كانت الارض قابلة للاصلاح لكن تشديد الحكومة فى اعلاء سعرها أبقاها خرابا وجميع المنازل التى تخدمه خليج السويس لها بعض تحسين ومياه النيل واصلة اليها

الفصل * الثالث

(فى التعريف بمصر)

هاته المملكة صارت الآن مؤلفة من عدة ممالك عظيمة فى افريقية فحدها شمالا البحر

الابيض ويبتدئ الحد الشرقي منه مارا على خط موهوم بين الشام ومصر ثم على
شاطئ البحر الاحمر الغربي شاملا بلاد النوبة الى أن يصل لمملكة الحبش التي يفصل
بينهما جبال هناك فينعطف الحد معها شرقا محيطا بها مارا للجنوب مارا مع البحر الاحمر
فيمر أيضا معه الى أن يجاوز باب المندب ومملكة الحبش حينئذ داخلة في الحد لكنها
لا تصل للبحر لما ملكته مصر من شطوطه ثم يمر الحد مع البحر ويشمل مملكة
عادل المسماة بزيلع فيمر على شاطئ افريقية الشرقي على المحيط الشرقي الى أن يصل الى
حدود مملكة زنجبار ثم يبتدى الحد الجنوبي فيمر من الشاطئ مغربا الى دواخل افريقية
السودانية وينعطف الى الجنوب حتى يصل الى حد الدرجة الثالثة جنوبا وراء خط
الاستواء ويشمل مملكة دارفور ويصل الى حدود مملكة وداي ويمتد الحد الغربي مع
مملكة وداي الى أن يصل الى الصحراء الكبيرة فينعطف معها ذاهبا الى الشمال من غير
تعيين لخط معين حيث ان الامر مهمل فلا حصر فيه وهكذا في الجهات السودانية
الى أن يصل الى طرابلس ويمر معها الى أن يصل الى البحر الابيض حيث ابتداء
التحديد وحيث كانت على ما علمت من الاتساع والكبر لاجرم ان كانت صفة
أرضها مختلفة جدا (فأما مصر) الاصلية فالمعمور منها هو عبارة عن واد بين سلسلتين
من الجبال مارة من الجنوب الى الشمال يضيق تارة الى ثلاثة أميال ويتسع أخرى الى
نيف وعشرين ميلا كلها يسقيها نهر النيل وذلك كله في غاية الخصب والنضارة تتجدد
أرضه سنويا بفيضان النيل ويخرج الله منها بركاتها ما جعل به مصر غنية عامرة وما عدا
هذا الوادي فهو عبارة عن جبال قحلة لا نبات بها وأراضي يابسة مرملة لا ترى فيها
الا الحصا (وأما) بلاد النوبة الداخلة في مملكة مصر وهي المحادة لها من الجنوب فهي
ذات صحاري وجبال خصبة وأراضي خصبة وبقية الممالك وهي وداي ودارفور
وزيلع وغيرها فكلها ذات جبال وآجام وخصب (وأما جبال) ممالك مصر فهي كثيرة
ليس منها جبل بركاني ولا منها الزائد في الارتفاع وأعلاها هو الفاصل بينها وبين
الحبشة (وأما أنهرها) فأولها نهر النيل وما أدراك ما النيل وهو نهر يحمل السفن الصغيرة
الى أول شلالاته عند الخرطوم وهو عندهم ينقسم الى ثلاثة أقسام (أحدها) يسمى
نيل السودان وذلك من منبعه الى الخرطوم (الثاني) منها الى فيلة وهي جزيرة في وسطه
قرب مدينة اسوان (الثالث) منها الى البحر الابيض فالقسم الاول يتكون من نهرين
يسمى أحدهما البحر الابيض والآخر البحر الازرق عبارة عن عظمهما حتى ألحقا
بالبحر والبحر الابيض كأنه هو الاصل للنيل وهو يجتمع من عدة أنهر في أواسط افريقية

وهو

وهو أعظمها وأبعدها منبعا لانه منبعث من بحيرة أوكيريقي المعروفة بفيكتوريا
على ظن آخر الجغرافيين الآن وان كان التحقيق انه مجهول حيث تبين ان تلك البحيرة
تستمد من بحيرة أخرى ولكن الوصول الى اكتشافها صعب ولعله تحدث أسباب
لذلك وطوله الى حيث يجتمع بأخيه قرب الخرطوم ٢٣٠٠ كيلومترو أي نحو
ألفي ميل (وأما) الازرق فحجمه نحو الثلث من السابق ومنبعه من بحيرة دمبيه في بلاد
الحبشة ويمر على عدة شلالات ثم يجتمع بأخيه ويصير حينئذ القسم الاوسط فتصب
فيه عدة أنهار غير معتبرة وذلك في بلاد النوبة فاذا وصل الى أصوان حدثت منه الشلالة
الاخيرة التي تمنع زيادة صعود السفن عنها لانها متكونة من ارتفاع الارض في المجرى
الاعلى وانخفاضها في المجرى الاسفل مع صخور مرتفعة فيكون له خرير كالرعد القاصف
يسمع من بعد بعيد فاذا وصل النيل الى أسفل القاهرة انقسم الى فرعين شرقي وغربي
فالشرقي يصب في البحر الابيض عند دمياط والغربي يصب في البحر المذكور عند
رشيد وأحدثت من النيل ترع عديدة حتى صار يصب في البحر الاحمر وخليج
السويس والاسكندرية وغير ذلك وصنعة الترع في مصر كانت معروفة في مصر بأحسن
مما هي عليه الآن حتى كانت تروي سائر رباها بل وجبالها أيضا ويرشد الى ذلك
قوله تعالى حكاية عن فرعون وهذه الانهار تجري من تحتي فكانت أرض مصر كلها
عامرة بالانهار وهاته الترع تحمل القوارب وتقع بها المواصلات وتبين عمران في مصر
أنهارا عديدة عظيمة سيما في السودان ويجتمع الجميع في النيل ولولا عظمة المياه
لتلاشت في الصحاري التي تمر عليها ومن غرائب النيل أنه يفيض في وقت معين من كل
سنة وهو وقت الانقلاب الصيفي ويستمر على ذلك الى الاعتدال الخريفي فيأخذ في
النقصان الى الانقلاب الشتوي فيحد في مجراه الى السنة القابلة ويختلف فيضانه
بالزيادة والنقصان واعتداله المطلوب للسكان هو أن يرتفع على المجرى الاعتيادي سبعة
أمتار فان زاد أهلك بالغرق وان نقص أجحف الناس بالقحط ولهذا الفيضان كانت
مصر الاصلية لها مناظر عجيبة ففي الربيع الذي هو شباب الزمان في سائر البقاع
تكون مصر عموما أقل بهجة من نفسها في وقت آخر وفي الصيف الذي تجف فيه المياه
في المعروف تكون مصر بحرا من الماء العذب راسبة فيه قرى ومدن وأمصار يسلك
من بعضها البعض في القوارب وفي الخريف الذي تبتدئ فيه في غيرها ذبول النبات
تكون هي قد شب نباتها وازدخرفت وربت وفي الشتاء تنتشر أزهارها وتغرد أطيارها

ويحصد زرعها وتدخر أقواتها وتفيض على العالم محصولاتها فانفردت بذلك عن غيرها وليس هناك ما يشبهها الا نهر السند المار على بلوجستان فانه يقرب من ذلك من حيث فيضانه فى الصيف ولما أحدثت الآلات البخارية لرفع الماء من النيل زمن نزوله قل ضرره من القحط اذ لم يعهد أنه جف ماؤه الا سنة ١٢٧٨ وكان كربها شديدا (أما ضرر) تفاقم فيضانه فقد اعان على تخفيفه الاخبار بالسلك الكهربائية حيث يأتى الخبر بتفاقمه مع بعض السودان ومصر العليا فتفتح له أفواه الخلجان وترتفع الناس عن الاراضى المنخفضه ومع ذلك يحصل منه ضرر عظيم أحيانا وقد اختلفت الاقوال فى أسباب فيضانه وأظهرها انه مركب من شيئين أحدهما ذوبان الثلج المتراكم على جبال الحبشة الشاهقة وعلى جبال أواسط افريقية بحر أواخر الربيع فتسيل مياهها ويطموا بها النهر الازرق وغيره واطول امتداد الانهر ما يصل ماؤها الى مصر الا فى الانقلاب الصيفى (وثانيهما) ان جنوب خط الاستواء فصوله على عكس فصول شماله فالربيع عندنا هو الخريف عندهم والصيف عندنا هو الشتاء عندهم وقد علمنا ان النهر الابيض منبعث من جنوب خط الاستواء بعدة درجات وان الامطار فى الاقاليم الحارة تتراكم دفعة سيما وقت الخريف والخريف فى الجنوب هو ربيع فى الشمال فما يصل ماؤه الا فى الصيف فى الشمال فيحدث من ذلك طمو النهر الابيض أيضا ويلتقى بأخيه وهما طاميان فيحدث فيضان النيل زمن الصيف فى مصر (أما) بقية الانهر فى ممالك مصر ففى النوبة والسودان كثير من الانهار والجداول منها ما يصب فى النيل ومنها ما يجف فى الصحارى وليس منها ما يهم سوى النهر الابيض والازرق المتقدمى الذكر وفى أرض مصر من صعيدها الى بحريها لا يوجد نهر أصلى سوى النيل لكن أحدثت منه أنهار عديدة عظيمة تسمى بالترع حتى صارت أغلب الاراضى المصرية مخترقة بتلك الانهر الصناعية ومنها الكبير الذى يحمل السفن النهرية ومنها الصغير ومنها الدائم الامتلاء بالمياه ومنها ما يجف عند انتهاء انخفاض النيل والموجود الآن من هاته الترع يزيد عن السمائة وأحد عشر نهرا أطولها الابراهيمية فانها تقرب من مائتى ميل ولا زال الاعتناء بكثير الترع المستلزم لتكثير أراضى الزراعة حتى بلغت الآن الى ما يقرب من خمسة ملايين فدانا مسقية مزروعة والفدان عبارة عن مساحة ٥٩٢٩ متر مربع وهذا المقدار وان كان كثيرا فى ذاته لكنه لم يبلغ الى ما كانت عليه الترع فى مصر قديما حيث كانت زمن الفراعنة تصعد مياه النيل الى أعالى رباها وجبالها وتسقى جميع أراضيها حسبما نص

عليه فى التاريخ ويشهد له قوله تعالى حكاية عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى فجمع الانهار والافتخار بها بل والتعاظم الى حد دعوى الالوهية قاض بانها كثيرة جدا وبالغة الى حد خارج عن المعتاد فى الكيفية كصعودها الى الاعالى والواسطة فى ذلك اما ان تكون بواسطة آلات تحمل الماء من أسفل الى أعلى بكثرة حتى يجرى فى الانهار ثم من هاته يحمل كذلك الى ما فوقها الى أن تجرى ومن هذه أيضا الى ما فوقها وهكذا الى نهاية الارتفاع والآلات اما ان يديرها الماء نفسه أو قوة أخرى جهات الآن فيما اندرس من علوم الاقدمين أو تكون الواسطة هى تفريع الترع من أعالى النيل قبل الوصول الى الشلالات بأن يؤتى لاول شلالة قبل انحدار الماء منها فتفتح له فروع ذاهبة مع ارتفاع الاراضى بكيفية هندسية وبناء قناطر وحنايا المرور الماء من الاعالى الى الاعالى ثم من شلالة أخرى يفعل هكذا وح تجرى الانهار فى الارتفاعات كما تجرى فى الانخفاضات ويحصل منها النباتات الجبلية ومناظرها البهيجة (وأما) بحيرات مصر فهى عشرة أربعة كبيرة وأكبرها بحيرة المنزلة ومحيطها نحو من مائتين وخمسين ميلا وتسير بها السفن الصغيرة وبها السمك دائما وموقعها شرقى مدينة دمياط ويخترقها خليج السويس والبقية أغلبها أيضا مع الخليج وليس لها فائدة معتبرة سوى استخراج الملح من بعضها عند جفاف حافاته صيفا وبعضها يجف تماما أما ممالك السودان ففيها بحيرات مهمة مثل بحيرات منبع النيل وغيرها ولكنها قليلة الجدوى بالنسبة للمنافع مثل بقية ذخائر السودان (وأما) هواء مصر وما يتبعها فهو على العموم حار وغاية الفرق ان الجهات الشمالية على شاطئ البحر الابيض يلطف حرها صيفا سيما عند ازدياد النيل (وأما) الجنوب وسائر السودان فهو حار جدا حتى انى كنت فى مدينة مصر فى شهر تنبر بعد فيضان النيل ولم أكن أستطيع النوم بالغطاء باللحاف الكتان ولكنى لا أستطيع أيضا فتح الطيقان لكثرة الندى المضر ورأيت مثل ذلك فى اسكندرية أيضا التى هى مهرب السكان من الحر مع انى كنت بها فى ذلك الشهر أيضا (أما) السويس والصعيد فلا تسأل عن شدة حرها نعم هى بعد الانقلاب الشتوى يحصل بها البرد الى درجة طلب التدثر والتدفى فيكون الهواء عموما معتدلا مع ابتهاج الارض بالنبات (وأما) نباتاتها مع سودانها وجباله فيصح أن يقال ان فيها كلما يوجد من نبات الدنيا الا ما ندر حتى الاشجار التى تكون فى الاراضى الباردة فانها توجد فى الجبال الشاهقة فى دواخل السودان ذات الثلج الدائم وفى السودان غابات عظيمة صالحة

أخشاب البناء والسفن والديار وللأعمال الجيدة أيضا مثل الابنوس وغيره لكن أرض
مصر الاصلية ليس بها من غابات طبيعية وغاية ماله بها منظر الغابات هو النخيل فالحاصل
ان ممالكها مشتملة على كل ما يحتاج اليه من المزروعات الحبوبية والاشجار ذات الثمار
وغيرها (وأما حيواناتها) ففيها الخيل بقلة بالنسبة لذاتها لكن يوجد في السودان نوع
منها جليل يعرف بالكحيل والبغال قليلة والحمير كثيرة ويركبها حتى الاعيان ولها اعتبار
ويحلقون شعرها وتصير بالتربية تفهم قصد صاحبها حتى اذا قال الحمار حميره صخرة
ظلامت وصارت تمشى على ثلاث مادام الشرطى ينظر اليها خوفا من تحديدها للحكومة
بلا أجر والابل كثيرة جدا ومنها نوع الهجين وهو نوعان فى السير أحدهما متعب
لراكبه وهو الذى اذا سار رفع رأسه وعنقه والثانى لين لراكبه وهو الذى اذا سار دلى
رأسه الى الارض ومد عنقه الى أمام وكلاهما من الابل المعتادة غير ان أصحابها يختارون
الجيد الاطراف الخفيف فى الحركة ثم يمرنونه من الصغر على مداومة سرعة السير فيتربى
عليها ويبقى ناحلا فيكون عدة لاصحابه للوصول الى الامد البعيد فى الزمن القريب
وكان عند الاقدمين عوضا عن طريق الحديد الآن غير انه لا يحمل الاثقال الكثيرة
ولقد رأيت من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ما يزيد القلب ايمانا وذلك فى الحديث
الذى رواه الامام مسلم فى صحيحه فى الكلام على سيدنا عيسى عليه السلام وانه يترك
القلاص أى الابل بمعنى انه لا يستعملها وخاضت الشراح فى تطبيق ذلك والحق ما بينته
المشاهدة من الاستغناء عنها بالرتل وطريق الحديد والله أعلم انه سيعم جزيرة العرب
ويصل الى مكة والمدينة حيث ان سيدنا عيسى عليه السلام ينزل هناك والله أعلم والبقر
قليل وهو نوع ضخم والجاموس كثير والفلاح من العامة الذى له بقرة منه تغنيه عن كثير
من الاشياء فيشرب ويبيع من لبنها ويأتدم ويبيع من سمنها ويحرث عليها ويوقد
بجلتها ويستنتج أولادها ولذلك صارت البقرة عنده أعز شئ عليه فى الدنيا (وأما) الغنم
فهى كثيرة فى السودان والحيوانات الوحشية يوجد منها فى السودان كل الانواع التى
تألف البلاد الحارة كالاسد والنمر والفيل والزرافة وغيرها (وأما) الطيور ففيه يوجد سائر
الطيور الاليفة (وأما) الوحشية فانما يوجد منها بعض الرحالة كالعقبان والخطاف
والحداة كثيرة وكذلك الغراب ولقد شاهدت منه نوعا غريبا الان لونه أبلق وعليه
فتكون الصفة فى قوله تعالى وغرابيب سود هى صفة كاشفة لا مؤكدة حيث يوجد فى
الغراب الاسود والابلق بعضه أسود وبعضه أبيض كما يوجد فى السودان أنواع شتى من

الطيور

الطيور الغريبة كالببغاوات الالوان البهية المذهبة والمفضضة وغير ذلك من أنواع الطيور
(وأما) معادن مصر ففيها أكثر أنواع المعادن المعروفة فالذهب يوجد بكثرة فى عدة أماكن
من السودان فمنه ماهو فى معدنه ومنه التبر الذى يوجد فى الرمال من سيول المياه وأشهر
معادنه فى سنار حتى يعرف بالذهب السنارى وكذلك يوجد الفحم الحجرى الغنى فى بلاد
النوبة ويوجد أنواع المرمر والرخام الابيض والازرق فى جهات من الصعيد وكذلك
الملح فى عدة سباخ والجص والسيمان والرصاص فى موضعين حوالى شط البحر الاحمر
والنحاس فى عدة أماكن والحديد بكثرة فى عدة جهات والكبريت حتى انه يوجد جبل
يسمى به (وأما) الفضة فهى قليلة وتوجد أحجار ثمينة وأهمها الزمرد لكنه قليل ويوجد
الفيروزج والعقيق والذى يحق به الاعتناء هو حجر البلور اذ هو كثير وفى يضاهى ما فى
بوهيمية النمساوية كثرة وصفاء وأكثر هاته المعادن متروك اما لعدم العناية به
أو لصعوبة نقله حتى رأيتهم يأتون بالحجارة لبلاط الطرق فى الاسكندرية من بلد تريست
فى مملكة النمسا مع ما فى البلاد من الحجارة التى صنع منها القدماء تلك الاهرام والهياكل
والعواميد التى تنقل ذخائر فى قواعد الدنيا ولا شك ان العناية لو توجهت الى استخراج
منافع السودان لسهل نقل تلك الحجارة وسائر المعادن بأخذ الفحم الحجرى للطرق
الحديدية التى تسهل ايصال الاثقال ومواصلة الاقطار اذ فى السودان كنوز لا يحصيها
الا خالقها وأعظم بكثير غاباتها وأخشابها المرغوبة كالشمشير والابنوس وغيرها حتى
لا يحتاجون لجلب أخشاب البناء وغيره من خارج المملكة فانهم يأتون حتى بحطب الوقد
وفحمه من الخارج وذلك ضعف للبلاد (وأما) مدن مصر ففى مصر من القرى والمدن
ما يتجاوز الثلاثة آلاف بلدة وأشهرها قاعدتها وقد تقدمت صفتها ثم الاسكندرية
ومر ذكرها ثم طنطا ورشيد ودسوق وأشمون والابيض على وزن محمد قاعدة كردفان
وأبوحراز وتندلتى قاعدة دارفور سابقا وتسمى فاشر وغير ذلك وقد كانت بها مدن هائلة
فى الصعيد تحتوى على بناآت عجيبة وصنائع غريبة وقد دثرت تلك المدن ولم يبق لها
من اعتبار سوى ان بعضها صار بمحله قريات ليست بذات أهمية وتلك الهياكل القديمة
قد اكتشف عنها وتسمى بالبرابى وتقصدها السواح للاطلاع على ما احتوت
عليه من الاعاجيب والصنائع المندثرة ومن هاته البرابى واحدة فى بلد ادفو التابعة
لمديرية اسنى أخبرنى الرحالة محمد برادة أنه رأى به ايوانا كبيرا منقوشا فى الصخر على
حيطانه صور جميع المصنوعات المعلومة اذ ذاك وأنه رأى فيه بين رأسه صورة طريق

الحديد بقضبان ممتدة وعليها حوافل ذات عجلات لكنها بدون مزجية أعنى الآلة الجارة كما رأى فيه صورة السلك الكهربائى يعنى صورة أعمدة عليها أسلاك ممتدة منتهية الى آلة ورأى صورة سفينة ذات عجلات وصاعد من مدخنتها صورة الدخان وسمعت من غيره أنه يوجد فى جملة البرابى بيتان عظيمان أحدهما يحتوى على صور جميع الحيوانات والآخر على صور جميع المصنوعات وان منها ماتقدم وكله نقش فى الحجر ورأيت فى جغرافيه فكرى ذكر تلك البرابى واحتوائها على النقوش والصور لكنه لم يذكر خصوص ماتقدم ذكره (وأما) مراسى مصر فأولها الاسكندرية ثم برت سعيد ودمياط ورشيد فى البحر الابيض والاسماعيلية والسويس فى الخليج ومصوع والقصير وسواكن فى البحر الاحمر وزيلع وغيرها فى المحيط الشرقى وأما أهاليها فهم على قسمين الاول أهالى مصر وهم نحو ستة ملايين بعضهم من ذرية القبط أبناء المصريين القدماء وبعضهم أبناء العرب الفاتحين واختلط نسل من أسلم من القدماء بالثانى وصاروا جميعا مصريين وتكاثر عددهم فى هذا القرن أعنى حيث كانوا فى أول دولة محمد على باشا لايبلغون الاربعة ملايين ولما امتد فيهم التهذيب والتحفظ على الصحة بتحسين الهواء والعلاج عافاهم الله من مصيبة الوباء والجدرى اللذين كانا دائمين فيهم فبلغ عددهم الآن الى ماذكرنا والقسم الثانى منهم هم السودان وهم أيضا على قسمين الاول أهالى النوبة وكانت قاعدتهم سنار وهم من الزنج وذرية الكوش من العرب ثم تسلطت عليهم قبيلة الفنج ودخلت فى الاسلام وبقيت هى الحاكمة الى أن افتتحها محمد على سنة ٢٣٦ : وثانى أقسامها هو قسم دارفور وعدد سكانه خمسة ملايين وهم من نوع سودانى يسمى فور وسميت البلاد بهم وديانتهم الاسلام ومنهم نوع يسمى السبعات ولكثرة اختلاط الجميع بالعرب ودخول قبائل منهم فيهم حتى كانت عائلة الملك عربية صار الجميع يتكلمون بالعربية وتلخص مما مر أن الاهالى على العموم أكثرهم عرب واللغة الغالبة والرسمية عربية وتوجد لغات أخرى سودانية وعدد الجميع بالمضافات ستة عشر مليونا والديانة الغالبة هى الاسلام وتوجد النصرانية على مذاهب شتى ومنها المختلطة بشئ من شعار اليهود وشئ من شعار الوثنيين كما يوجد كل من ذينك الديانتين (وأما) صفتهم على العموم فأهالى المدن الكبيرة يكثر فيهم النبهاء والعارفون بالمصالح العامة المشتركة والباقى على الاطلاق هم على السذاجة والجهل بالمنافع الخاصة فضلا عن المشتركة واللون الغالب أسمر وأسود وأهل السودان والعرب

من

من أصل المصريين سمحان (وأما) فلاحو مصر فلما طال عليهم الاستيلاء الاستبدادى ضعفت فيهم الشجاعة بالمرة وكادوا أن يفقدوا الغيرة كما حكاه المقريزى

الفصل * الرابع

﴿ فى اجمال تاريخ مصر وملحقاتها ﴾

﴿مطلب فى تاريخها القديم﴾ اعلم أن مصر أشهر بقاع العالم بمعرفة أصول تاريخها القديم لكنه فى الواقع غير محرر ولا موثوق به وقد أطنب العلماء الاسلاميون وغيرهم فى تواريخ مصر وعلومها وتجدنها دفعا له ما نستطيع هنا الغاه والالمام باشارات الى أنموذج ذلك معرضين عما لبعضهم من المبالغات والخرافات ويدعى بعض المتأخرين ان المحقق عندهم فى علم مبدأ التاريخ فيها المحقق هو قبل الميلاد بالفى ومائتى سنة والحق أنه غير محرر لان استمدادهم فى ذلك الغاه والتوراة التى بين أيديهم وهى كما علمت سابقا غير صحيحة سيما فى محل التاريخ وقد أقر بعض متدينيهم بالغلط الفاحش فى ذلك المحل سيما فيما يرجع الى التاريخ العام وانه مخالف للموجود من الكتابات المنقوشة على الاحجار العتيقة جدا وغيرها من القرائن الواضحة وتعلل فى تصحيح التوراة بان موسى عليه السلام لم يقصد تاريخا عموميا للخليقة وانما قصد ذكر عمود نسبه ولا يخفى ان هذا غير معقول اذ كيف يذكر عمود نسبه فى تواريخ مخالفة لنفس الامر لانه يلزم ان يكون قائلا بان فلانا مثلا بعد الطوفان بكذا ثم فلان بعده بكذا وفى زمن الملك الفلانى المتسلطن فى تاريخ كذا مع ان ذلك الوقت ليس مطابقا لذلك التاريخ فما هو الا عين الكذب أو الغلط المنزه عنه كلام البارى تعالى والمعصوم منه الرسول فلا محيص عن القول بالتحريف فى التوراة التى بين أيديهم واذا أضفت الى ذلك الميزان المعقول فى حساب العمران وكمية التناسل من البشر بعد الطوفان ولو على القول بعدم عمومه فى سائر الكورة ونظرت الى المدة التى ذكران ابراهيم عليه السلام أرسل فيها وما كان عامرا من الجهات التى لانزاع ان الطوفان عمها وهى محل اقامة ابراهيم عليه السلام وقومه ومن كان معاصرا له من الامم الذين طغوا فى البلاد وتجبروا بمالهم من القوة والعدد والعدد والعلوم لاشك انه يستحيل عندك انهم كلهم نشؤا فى مدة مائتى سنة من نسل أربعة من أولاد نوح عليه السلام وأيضا يستحيل ان تمحى وتفقد ثم معجزة الطوفان الهائلة من عقول أمة فى قرنين اذ يمكن ان يكون بعض من

أدركه من أدركها لم يزل بقيد الحياة فكيف مع ذلك ينسى توحيد الله ويعبد اله غيره ولا يتأتى ذلك الا بطول الزمان ونسيان المعجزات وانقراض العلماء ومن عاصرهم في مدة مديدة ولذلك لا نعتمد حينئذ على تعيين أوقات ما نتعرض له من الدول القديمة

✿ وانما نقول ان مصر قبل بعثة موسى عليه السلام كانت قامت فيها دول عظيمة ذات شان وقوة وعمران وملوكها يسمون بالفراعنة جمع فرعون وهي عبارة مصرية معناها نور الشمس وأول من يعرف الآن من فراعنتها هو منتز (أو) مصرايم الذى حول مجرى النيل وبنى مدينة منفيس ثم زادها اخلافه بهجة واتقانا حتى كانت أعظم مدن الدنيا واتخذتها الفراعنة تختا لهم ولو بعد انقراض عائلة فرعون المذكور وفي مدة أحفاد المشار اليه نشأت دول اخرى صغيرة في أراضي مصر وانقسمت على ثلاثة أقسام بقي أحدها تحت العائلة المذكورة والاخريان تحت عائلتين أخريين الى ان تغلبت على الجميع العائلة الرابعة من الفراعنة ومنها فرعون الباني للهرم الكبير الذى بالجيزة ومرذكره ثم انقسمت الى عدة أقسام كان منها العائلة الخامسة وتولى منها عدة ملوك أحدهم باني الهرم الثاني بالجيزة أيضا وكذلك العائلة السادسة وغيرها الى الثانية عشر كلهم متفرقون على جهات من مصر الى ان قهر الجميع تحت حكم فرعون أوسيرطاسن (أو) سيزوستريس ثالث ملوك العائلة الثانية عشر وضم الى ممالكه بلاد الحبشة وغيرها من السودان وانقرضت عائلته بعده بقليل وغاية ما يعلم انه تداول مصر بعد ذلك عائلتان وهما الثالثة عشر والرابعة عشر وكان حوادثهما ليست مهمة فلم يوجد لهما وقائع شهيرة (وأما) الخامسة عشر والسادسة عشر فلهما اخبار من جهة قوة الملك والترقي في الصنائع والمعارف وفي آخر الاخيرة ابتدأ تسلط الملوك

✿ الرعاة على مصر وتم استيلاؤهم على قسم عظيم منها أو عليها كلها لكن بقي للاهالي جهة من أعالي الصعيد ملكوا عليها العائلة السابعة عشر من الفراعنة ولم يكن لها اهمية في جنب مملكة الرعاة وهؤلاء الرعاة يغلب على ظن محققي المؤرخين انهم من العرب اجتازوا الى مصر وبقوا فيها مدة طويلة ذوي شأن وسلطان مهيب قوي وقال بعض الاخباريين ان دخول يوسف الى مصر كان في دولة هؤلاء الرعاة ولما قضى على تلك الدولة بالانقراض كان الذي باشر قهرها فرعون أموسيس وانتشأت العائلة الثامنة عشر ولهاعدة آثار باقية الى الآن من المباني والصور الدالة على قوة الملك والتمدن كالمسلتين الموجودتين بالاسكندرية والقسطنطينية وكذلك الموجودة برومه

وقال

وقال بعض المؤرخين ان دخول يوسف عليه السلام انما كان في هاته الدولة ويستدل من الآثار ان عبادة الاصنام تفاحشت في مدة تلك العائلة ثم استولت العائلة التاسعة عشر من الفراعنة وكان منها فرعون سيزوستريس المشهور عند اليونان

✿ بذلك الاسم وامتدت مملكته من نهر الطونة في اروبا الى نهر الكنك في الهند وانشأ في كل مملكة افتتحها آثارا تدل عليه وارتقت مصر في مدته الى غاية كبرى من المعارف والغنى حتى قيل انه أول من رسم خريطة اصورة ممالكه الواسعة وزادت ارتقاء ونفرا وانتهت في معارف الطبيعيات والهندسة والسحر في مدة حفيده فرعون زمن موسى عليه السلام حتى ادعى بملكه ومعارفه الالوهية وكان من قصته ما هو مذكور في القرآن العظيم ومن غريب ما يستحق الذكر ان مؤرخي مصر القدماء لم يذكروا حادثة غرق فرعون ونجاة موسى عليه السلام ببني اسرائيل بانفلاق البحر مع انها حادثة كبرى وبناء على اهمالها أنكرها من لا دين له من متشدقي هذا العصر وأضافوا الى ذلك في الاستدلال ان قبر فرعون المذكور واسمه منفطا الثاني موجود بين قبور الفراعنة في الصعيد بالمكان المعروف بباب الملوك فلو كان غرق لما كان له قبر وأجاب عن هذا بعض النصارى بان وجود القبر لا يدل على وجود المقبور كما ان وجوده يمكن ان يكون قبل موت فرعون على عادة أسلافه من احضار قبورهم ضخمة مزخرفة وهو قد هيأ ذلك وان لم يدفن فيه ويحتمل ان يكون ايجاد القبر تعصبا من المصريين وعنادا

✿ في اخفاء الامر الذى احاط بهم دفعا للعار عنهم في الاجيال المستقبلة واستدل المجيب المذكور على ان فرعون موسى هو منفطا المذكور بان الذى ولي الملك بعده ابنته وتصرف بالنيابة عنها زوجها الا انه لم يكن له ولد سواها وابن صغير قاصر فدل ذلك على حدوث أمر عظيم انقرضت به عائلة الملك حتى سلموه الى امرأة وزوجها مع ان جدهم القريب سيزوستريس المار ذكره قد ترك من الاولاد نحو عشرين فهذا الحادث الذى انقرضت به العائلة ليس هو الا ذلك الغرق لفرعون وملائه اهـ ولا يخفى ان كلا من الجواب والاستدلال غير مسلم (اما) الجواب فان وجود القبر الاصل فيه أن يكون فيه مقبوره سيما اذا كانت عليه كتابة اسمه التي بها عرف انه قبره وتاريخ موته فانه الاثر من الابعد وضع صاحبه فيه واحتمال ان المصريين أقاموا ذلك القبر على تلك الكيفية قصد الاخفاء الواقعة في الاجيال القادمة احتمال بعيد كسابقه لا يؤثر مع الباحث سيما وواقعة غرق فرعون مع ملائه ونجاة موسى ببني اسرائيل بانفلاق البحر من المعجزات

الباهرة التى لا يبقى معها للمصريين عناد بعد مشاهدتها وهلاك ملكهم الذى كانوا
يعبدونه فلا تبقى فيهم بقية يفكرون بها عن الاجيال المستقبلة وأين هم من هذا مع
افتضاحهم لانفسهم ولجميع معاصريهم ومن هو تحت مملكتهم من الامم المائلين لما بين
الطونة والكنك فهم أشغل بانفسهم والانقياد الى الحق أو الى تدارك أمرهم الدنياوى فقط
فى الاقل بين أعين الامم الذين ينظرون الى هلاك مدعى الالوهية مع امرائه ووزرائه
وجيوشه فكيف يخطر لهم فى تلك الحالة التعمية على أجيال مستقبلة مع ان سائر
معاصريهم ينقلون خلاف ذلك (وأما) الاستدلال فهو غير منتج اذ لا يلزم من تولية البنت
انقراض عائلة الملك كيف ذلك ونحن نرى فى التاريخ بل وفى خصوص تاريخ
المصريين عدة نسوة صرن ملكات مع وجود العائلة بل ولم يزل ذلك جاريا فى جهات من
الارض الى الآن فلم لا تكون ولاية البنت لان قاعدتهم كانت وراثة الملك لاكبر أولاد
الملك الاناث والذكور سواء وتصرف زوجها حينئذ نيابة عنها باختيارها لا لانقراض
العائلة وكأنى أرى هاتيك التمحلات فى الجواب مبنية على اهمال علم السند والرواية أما
لو كانوا يعرفون ذلك وجرت عليه اعمال ديانتهم لما استحقوا مثل ذلك ولتخلصوا من
مهاو ومهلكة مع ان علم السند والرواية أمر ضرورى بل طبيعى لاخذ الاخبار الغائبة
عن المشاهدة واذا بنيت عليه الاحكام استقام الامر وخلص من الغلط والغش والكذب
وبناء على اعتبار ذلك فنحن المسلمون نقول ان الذى نقطع بوجوده هو غرق فرعون
مصر مع ملائه ونجاة موسى عليه السلام ببنى اسرائيل بانفلاق البحر معجزة له أما كون
فرعون المذكور اسمه منفطا أو غيره وكون مدته الى الآن كم هى فلا علم لنا بها ولا دليل
لنا عليها وذلك العلم حصل لنا بالنقل المتواتر فى القرآن من نبينا سيدنا محمد عليه الصلاة
والسلام الذى ثبتت نبوته وصدقه بالمعجزات المتكاثرة فاخباره لا شك فى صدقه
ويوافقنا على ذلك النقل المتواتر من أمة بنى اسرائيل منذ حصول الحادثة ممن شاهدها
منهم وهم أمة عديدة يستحيل تواطؤهم على الكذب الى من بعدهم منهم ومن غيرهم نقلا
منهم جيلا بعد جيل على تلك الصفة الى الآن وعدم ذكر الواقعة فى تواريخ علماء ذلك
العصر لا ينفى وقوعها لان السكوت عن الشئ ليس بنفى له وهناك حامل على عدم الذكر
لان المؤرخ انما يكون من علمائهم الذين هم أشد مضادة للديانة واذا شاهدوا مثل
ذلك ولم يجدوا وجها للقدح فيه وتخريجه على ما يلائم منهجهم يسكتون عنه على انه
مندمج فى زمرة ما نسبوه الى اعمال القادحين فيه التى ينسبونها الى نوع من الباطل عنادا

أو جهلا والعياذ بالله وانى لا أعجب من انكار ذلك من غير ذوى الديانات من أهل العصر
وانما أعجب من انكار النصارى واليهود الآن معجزة لنبينا محمد رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهى انشقاق القمر مستدلين على انكارهم بمثل ما استدل عليهم فى انكار ✽
واقعة الغرق من عدم ذكرها فى التواريخ مع انهم يجيبون بمثل ما تقدم ونحن نقول ان
معجزة انشقاق القمر ثبوتها أبين وأمرها أوضح وذلك انها وقعت ليلا بعد مضى حصة منه
لان القمر كان ليلة البدر أى الرابعة عشر وهو فى كبد السماء كما تشير اليه روايات
البخارى من ان نصفه بقى ظاهرا فوق الجبل ونصفه غاب وراءه والروايات وان اختلف
لفظها فهذا مدار معناها ثم ان الحصة فى انشقاقه لم تطل وعاد لما كان عليه ولا ريب ان
حوادث السماء لا يشتغل بها العموم دائما الا اذا احدث العلم من قبل بها فتلتفت اليها
الانظار أو تقع بحسب الصدفة سيما الامر الذى لا يطول زمانه مثل بعض الشهب المؤثرة
للضوء القوى أو غيرها مما لا يطلع عليه الا افراد صدفة ولا يعلم بخبره فى جميع الجهات
والآفاق وان ذكره بعض الناس فلا يثبت عند علمائهم المؤرخين لعدم تيقنه عندهم
لعدم ثقتهم باخبار الافراد القليلين فلا يكون سكوتهم دليلا على عدم الوجود على ان
وراء ذلك ما هو أوضح وهو ان الممالك المتمدنة اذ ذاك الحاوية للعلماء المؤرخين الذين
يمكن لهم رؤية القمر عند استقامته فى كبد السماء فى مكة المكرمة انما هم سكان ما بين
شطوط المغرب الى مبادى جبال هملاى أما أهالى أوروبا فلم يكونوا اذ ذاك من أهل المعارف
والتدوين سوى جهاتها الجنوبية من بقايا الرومان (وأما) الصين وشمال آسيا الشرقية
فلا يرون القمر اذ ذاك لغروبه عندهم أو قرب غروبه فى ضوء النهار فهم وان كانوا
اذ ذاك متمدنين وعلماء لكن ذلك غير مرئى لديهم ثم ان الممالك المذكورة التى يمكن لهم
رؤية القمر اذ ذاك هم فى أنفسهم مختلفون فى الوقت فيكون الوقت اذ ذاك عند
الهنود بعد نصف الليل وعند المغربيين عند غروب الشمس أو ما قارب ذلك فى كل
من المكانين وهاتيك الاقطار ما مضى عليها من وقت انشقاق القمر نيف وعشرون سنة
الا وقد أدخل خالد بن سنان قائد جيش المسلمين فى المغرب قوائم فرسه فى المحيط الغربى ✽
وقال ليس لى وراء هذا ما أفتحه وقد بلغت فتوح الجيوش الاسلامية فى الشرق الى
بخارى وسمرقند وأفغانستان وسائر تلك الجهات فعلماء هاته الاقطار عند الفتح الذى
كان بقرب انشقاق القمر لان الانشقاق كان فى السنة الخامسة قبل الهجرة والفتح تم
فى مبدأ خلافة سيدنا عثمان كانوا على قسمين منهم من آمن وهو الاغلب ومنهم من

بقى على دينه (فأما) من آمن وألف فقد روى مثل سائر المسلمين الانشقاق اما رؤيته أو رؤية أحد ممن يثق به من أهل وطنه مع التأييد بالرواية المستفيضة والتواتر القطعى من الصحابة الذين شاهدوا ذلك وعلموه ونقلوه بالكلام الذى يتعبدون بتلاوته ولا يرتابون فى حرف منه وكذلك صار نقل كل من آمن من سائر تلك الاقطار ولهذا تواتر النقل بغير ذكر سند واقتصر ذكره على كيفية الوقوع وهو أيضا بالغ مبلغ التواتر مع ان الاصل ثابت بغير احتياج لسند كما فى سائر التواترات لانه اذا قال قائل ان الكعبة فى مكة المشرفة فلا يقال له عمن تروى هذا لانه قطعى معلوم بالضرورة وكذلك نقل الانشقاق لانه متواتر بالقرآن فى قوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر (وأما) القسم الثانى من علماء تلك الاقطار الذين لم يؤمنوا فانهم لا تحقق عندهم ماتقدم عند المسلمين فمن ثبت ذلك عنده منهم من قبل لاشك انه يضرب عن ذكره فى تاريخه لانه يكون حجة عليه وهو يتأول فى وقوعه بما تشير له الآية الكريمة فهو حريص على عدم اثباته بالمرة لكنه لما عارضه النقل القطعى سكت عنه ولم يتعرض له بنفى ولا اثبات والافما بالهم لم يذكر أحد منهم ان ذلك الزمان قد كان فلان وفلان يرصدون القمر أو السماء ولم يروا ذلك الحادث مع انهم حريصون على ذكر كل قادح فى الدين فكان سكوتهم فى الحقيقة هو نفس الاقرار بالوقوع ولا يتخيل مع ماذكرناه ان مجرد السكوت عنه حجة فى عدم الوقوع والحال ماذكرناه ويؤيد هذا بالممالك التى بقيت لم تفتح وكان فيها بقية من التمدن وهى يمكن منها رؤية الانشقاق مثل بقية مملكة الرومان الشرقية والغربية فانهم لما تقلص ظلهم فى تلك المدة القريبة بدولة ذلك النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان من معجزاته انشقاق القمر وهم على دين النصرانية وثبت ذلك عندهم قطعيا ممن فتحوا أقطارهم وعلموا ان ذلك الانشقاق حجة لخصمائهم فعلى تقدير ان يكونوا رأوه واثبتوه فى بعض توار يخهم عند وقوعه فلا يبعد ان أضربوا عنه بعد بلوغ قصته اليهم لكى لا يكون حجة عليهم ولا يبعد اثباته عند من يأتى من قومهم سيما والملوك اذذاك تحت الانقياد للقسوس وكبراء الديانة فربما انهم منعوا من ذكره كما يمنعون سائر مايضر بديانتهم فهاهنا يأتى مثل هذا التعليل الذى مر ذكره عن بعض النصارى فى شأن غرق فرعون وهو هنا على نحو ما أوضحناه أبين وأمكن فلذلك قلنا باشتداد عجبنا من انكارهم له ولا يقال لعلهم أنكروه واستندوا الى عدم ذكره فى التواريخ من حيث وقوع الخلاف فى وقوعه حتى

عند

عند المسلمين لان رواية أحاديثه لاتخرج عن الافراد والآية المارة قد قال بعض المفسرين فيها ان الفعل الماضى وضع موضع المستقبل تحقيقا لما سيقع فلا يكون هناك النقل بالتواتر للوقوع بالفعل والوجه فى سقوط ذلك بديهى عند من تضلع بالفنون الشرعية وبيانه انا قدمنا ان الاحاديث المروية فى الصحاح انما هى فى بيان الكيفية والاسباب أما أصل ثبوت الواقعة فانه منقول تواترا محققا لان مدار جميع الروايات البالغة حد التواتر على اثبات الوقوع فليس هى من الآحاد وكذلك صريح القرآن قطعى فيه وماذكره بعض المفسرين ليس هو من كلام أحد من الامة اذ لاخلاف عندنا فى ذلك وانما هو من كلام بعض الملحدة والمريدين لادخال الشبهة كيفما كان الحال على المسلمين وان نسب القول بذلك لاحد الامة فانما هو من التزوير والبهتان حيث لم يثبت بطريق الرواية الصحيحة عن الثقاة نسبة قول ذلك لاحد علماء الامة ولذلك لاترى كل من نقل ذلك من المفسرين الا وقال أثره ويرده قوله تعالى وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر الآية فانه اذا كان المعنى سينشق القمر لا يكون لقوله يعرضوا الخ من معنى لان ذلك الزمن الآتى ليس فيه من مدع المعجزة حتى ينسبوها الى السحر وأيضا قوله تعالى وكذبوا نص صريح فى تكذيبهم بأن انشقاق القمر معجزة وانما نسبوه الى السحر وقد جاءت قراءة وقد انشق القمر بزيادة التأكيد للماضى ولهذا نقل الاجماع غير واحد على ان الانشقاق قد وقع وانه لاخلاف بين المفسرين فى ذلك وكذلك الروايات فى الوقوع قد قال الواقدى انها متواترة بالقطع وبه صرح القاضى عياض وغيره من ممارسى الرواية والحديث وقال القاضى عياض أيضا ما معناه ان من يدعى عدم التواتر فى ذلك انما هو الجاهل كمن يغمض بصره ويقول مالى لا أرى الضوء وكذلك هذا فان المعرضين عن الاطلاع على الحديث والسير هم الذين لا يعرفون تواتر الرواية فى ذلك زيادة عما قدمنا من صراحة القرآن فيه واجماع الامة على تفسيره بما لا يحتمل تأويلا ولا شبهة ولم يقل أحد خلافه سوى دسيسة الملحدة المذكورة بما لا يروج على عالم وكان نقل كثير من المفسرين لها للرد عليها هو الذى صيرها ذكرا والحق ان كثيرا من المتأخرين الذين فسروا لم يراعوا حق القرآن فى تنزيه تفسيره عن سفاسف الاقوال مما هو مردود بالبداهة وأصول العقائد والاجماع كما وقع فى هاته الآية مما جعل للقول ذكرا وان لم يكن له من أساس ولا سند ولا عجب لالحاد الملحدين ودسائسهم فى المعانى بما استطاعوا بل انهم طمعوا حتى فى

الالفاظ وأرادوا أن يدخلوا عليها الشك والتحريف مع العلم القطعى بتواتر كل حرف من القرآن فى محله ومرور ألف وثلاثمائة سنة وعشر سنين عليه ولم يقع الشك فيه ولا راج التشكيك على أحد من الامة من عامتها فضلا عن علمائها ومن هذا القبيل ما رأيته عند كتبى لهذا المحل فى تأليف جديد للغوى أحمد فارس سماه بالجاسوس على القاموس فهو وان كان فى بابه من جهة اللغة حسن الموضوع لكن لما كان صاحبه غير متضلع بالعلوم الشرعية اغتر وراج عليه ما يذكر فى بعض كتب أدبية لذوى مجون متمخرقين بذكر ما يرونه من الطرف والظرائف لتقضية الوقت والتزلف لدى جهال الامراء حتى قالوا ان بعض كلمات القرآن الكريم وقع فيها التحريف واختلاف الرواية فى القراءة بسبب عدم وجود الشكل والنقط فى الاحرف العربية فى الزمن القديم وعدوا من ذلك جملة الفاظ حتى قال ان منها اناناً قرئ أوثاناً وقضى قرئ وصى ويئس قرئ يتبين وعباد الرحمن قرئ عند الخ ولولا التحامل المقصود لهؤلاء لما صح لهم ذكر ذلك والا فأى ذى عقل يقول ان أحرف الكلمات المذكورة يشتبه بعضها ببعض حتى يقرأ على ما ذكر فمن أين أتت الواو فى اناثا حتى صارت اوثانا وكيف يشتبه القاف بالواو فى وصى ومن أين أتت الالف فى عند حتى صارت عباد وهذا كاف فى بيان التمشدق والا فالحقيقة ان القراآت السبع كلها متواترة باجماع أهل الملة والدين كما نص على ذلك علماء أصول الفقه وأصول الدين وسائر القراء واذا قال أحد مدعى العلم فى عصرنا ان التواتر يحصل به العلم العام فانى لم يحصل لى حتى الظن بذلك فضلا عن العلم فنقول ان ذلك من الجهل المركب وذلك لان المراد بكون التواتر يحصل العلم انما هو عند من علم التواتر وعند أهله أى أهل موضوع التواتر لا عند جميع الخلق ومثاله سهل جدا فانك اذا سألت أحد أهل السياسة وعلماء الجغرافية عن وجود بلد تسمى استكهولم اجابك حالا بانها موجودة قطعا وانها تحت مملكة السويد وانه لا يرتاب فى ذلك مثل ما لا يرتاب فى وجود نفسه فاذا أتيت لجمهور علماء الجامع الازهر وعلماء جامع الزيتونة وعلماء جامع القرويين وغيرهم من عمد علماء الدين وسألتهم عن تلك البلاد لا تجد عند أحد منهم شعورا بها ولا يجيبك الا بانى لا أعلم لهذا الاسم من موضوع فهل يكون عدم معرفة الجمهور العظيم من علماء الشريعة قادحا فى وجود تلك البلاد أو فى خروجها عن كونها تحت تلك المملكة بثبوت التواتر لمن لم يشاهدها من أهل العلم بذلك كلا فكذلك لا يكون جهل جميع الجاهلين قادحا فى وجود التواتر بالقراآت السبع بل قال جمع من الاصوليين

ان

ان القراآت العشرة متواترة فضلا عن السبع واذا كان كذلك فلم يبق محل لدعوى التصحيف أو التحريف فى تلك الكلمات واشباهها مما ثبتت به القراءة وانما جاء ذلك من التشديق الذى لا اعتبار له سوى التسويد فى الكتب ليتقل عنه من يرى ان العلم كاف فيه وجوده فى كتاب مسود وسيأتى لهذا الموضوع مزيد بيان فى الخاتمة ان شاء الله تعالى ولنرجع الى تاريخ مصر فنقول انه من عهد منفطاوا بتة لم يوجد فى التاريخ شئ معتبر من أحوال مصر سوى استيلاء عائلات أخرى للملك الى ان الملك آل الى العائلة الثانية والعشرين فكان منها فرعون شيشق الاول الذى حارب ملك الشام وهو ابن سيدنا سليمان عليه السلام وفتح مملكته وبقيت تحت حكمه وصور فتوحه على هيكل الكرنك وكتب عليه بالنقش بحروفهم مملكة يهوذا فى قبضتى ثم خرجت عليه الشام وحاربها ابنه وانكسر ثم لم يكن لوقائع مصر من أهمية الى ان استولت عليها العائلة الخامسة والعشرون وهى من ملوك الحبشة وأولها فرعون سباكون وصارت من هاته العائلة عدة ملوك وحاربوا ملوك أشور التى كانت مملكتهم بين الفرس والشام وعظمت مملكة مصر فى أيام تلك العائلة حتى اتحدت بالحبشة وغالب أفريقية وصار فيها تمدن عظيم حسبما دلت عليه الآثار ثم انقرضت الدولة وانقسمت المملكة المصرية الى اثنى عشر قسما ثم اتحدت تحت العائلة السادسة والعشرين وأولها فرعون أبساميس وترقت المملكة فى أيامه وكان فيها ابتداء استعمال الحروف الابجدية فى الكتابة عوضا عن الكتابة بالصور التى كانت مستعملة سابقا كل صورة علامة على كلمة ومن مدته ابتدأ التثبت فى التاريخ المصرى وانجلى حاله نوعا عما كان من قبل فى اثبات الزمن فكانت ولاية المذكور سنة ٦٦٤ قبل الميلاد وكان خلط بمعارفهم معارف اليونان وكثرت بينهم المخالطة ثم استولى ابنه وفتح بعض آسيا ومنها بابل وأراد وصل النيل بالبحر الاحمر ولم يتمه وخرج عنه أيضا بعض ما فتحه فى آسيا كملك الشام ثم استولى عدة من ذريته الى أن فتح مصر بخت نصر وقتل فرعونها وأولى عليها أحد أعيانها فخالف عليه فحاربته مملكة فارس وتغلبت على جميع البلاد وصارت مصر ولاية فارسية حدثت فيها عدة ثورات من الاهالى لانقاذ أنفسهم من الفرس ولم تغن شيأ ونهاية خروج مصر من يد أهلها كان فى حدود سنة ٣٥٨ قبل الميلاد ولم يتولاها أحد منهم الى الآن بل كانت سائر دولها من المتسلطين من خارج ثم بقى بعد تلك الثورات استقرار ملك فارس الى ان ظهر اسكندر المقدونى اليونانى

وشرع فى الفتوح فافتتح مصر وجعل قاعدتها الاسكندرية كما مر وكان فتوحه سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ثم استولى عليها بطليموس الاول من اليونان أحد قواد الاسكندر عند اقتسام ممالكه بعد موته وانشأت الدولة البطليموسية التى تحفظت على ما امكن لها معرفته من علوم قدماء المصريين وزادت بمعارف اليونان وقد فتح بطليموس المذكور الشام وجعله ولاية مصرية وأهلك من اليهود ما أبقاه بخت نصر حتى لم يبق منهم الا القليل النادر من الرعاع ثم لما تولى ابنه أعتق من وجده منهم وردهم الى بيت المقدس مكرمين وهو الذى أمر بترجمة التوراة من سبعين رجلا من اليهود العارفين باللغة اليونانية فترجمها كل منهم بانفراده وقوبلت التراجم مع بعضها واستخرج من الجميع نسخة واحدة وهى المعروفة الآن بالسبعينية ومع ذلك فهى مخالفة الآن للعبرانية والسامرية وكأن السبعينية أقل تحريفا للاتفاق عليها اذ ذاك وكان تحت مصر اذ ذاك تونس وطرابلس وكثير من جزيرة العرب والشام وكثير من جزائر اليونان ثم تولى بطليموس الثالث وزاد فى الفتوح الى ان دخل أواسط آسيا ثم تولى الرابع وقتل اليهود فى سائر ممالكه شر قتلة وكان بطاشا وتولى بعده ذريته ولكنهم لم يكن لهم من تقدم اجدادهم سوى اسم الملك أما الاعمال فهى قهرية استبدادية شهوية سنة الله فى انقراض الدول حتى استولت منهم امرأة ذات جمال فائق واسمها كليوباترة فعاثت فى البلاد والعباد وضعف ملكها فقصدها أمبراطور الرومان بالحرب وأرسل لها جيشا ولكنها لما اجتمعت برئيس جيوشه شغفته حبا حتى تزوجها بعد ان كانت تزوجت أخويها واحدا بعد آخر ثم أقام معها رئيس الجيوش الى ان أرسل اليه جيش آخر وقتل فى المعركة ولما أيست الملكة من النجاة مكنت حية قتالة من ثديها فنهشتها وماتت وقد رأيت صورتها فى عدة اماكن من أوربا والحية فى ثديها وكان بذلك انقراض دولة اليونان عن مصر وابتداء استيلاء الرومان عليها فلم تزل ولاية رومانية يلقب واليها بالمقوقس له الاستقلال فى التصرف الى ان جاءت البعثة وخاطب النبى صلى الله عليه وسلم الملوك بالدعوة الى الاسلام فكان من الملوك المخاطبين منه عليه الصلاة والسلام المقوقس ونص الكتاب الذى بعثه اليه بسم الله الرحمن الرحيم من (محمد) عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فانى أدعوك بداعية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك اثم القبط يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا

بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون اه فاجابه بالعربية بما نصه بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت ان نبيا قد بقى وكنت أظن ان يخرج من الشام وقد أكرمت رسولك وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام فلم يكن فيه اجابة ولا انكار وانما هو يومى الى قرب الاجابة ثم فتحت مصر فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه سنة ٢٠ على يد عامله سيدنا عمرو بن العاص فى جيش عدده ثمانية آلاف وامده الخليفة باربعة من أسود الصحابة قال ان الواحد منهم فى مقام ألف فتلك اثنا عشر ألفا ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة وتمادى الفتح منها لبقية أفريقية وحيث كانت أخبارها الى العائلة المحمدية العلوية مبسوطة فى التواريخ لا يمكن استيعابها نقتصر هنا على ذكر الدول وسنيها وملاحظات فى صفتها فى جدول خاص هذا وأما بقية الملحقات السودانية وهى القسم الجنوبى من النوبة وما يليه جنوبا من بقية السودان وقاعدة ملكهم تسمى سنار باسم المملكة فغاية ما يعلم من أحوالها انها قبل الهجرة بنحو ٣٧٣٥ سنة كان يسكنها قوم من الزنج لا تعرف أحوالهم ثم وردت عليهم طائفة الكوش من العرب وحصلت بينهم وبين المصريين وقائع اضطرت المصريين الى اقامة قلاع فى الحدود وتقاص ظلهم عما كان لهم فى النوبة من النفوذ ثم تسلط أهل سنار العرب على مصر وهم الرعاة ثم خرجت عنهم كما سبق ذكره ثم دخلت فى أهالى سنار وغيرهم الديانة النصرانية فى القرن الرابع من الميلاد ثم فى القرن الاول الهجرى افتتح العرب هاتيك الجهات وبقيت على الاستقلال بادارتها سوى التبعية الدينية للخلافة الى سنة ٨٨٩ فاقبلت قبيلة تسمى الفنج (أو) الفون ولا يعرف من أين أتت فتغلبت على تلك الجهات وتملكتها وكانت على الديانة الوثنية ثم أسلمت وصار منها علماء أجلة فى عدة مدن وارتحل منها طوائف الى قواعد الاسلام لاخذ العلوم فبرعت منهم فحول وكان ملكهم من أقوم ملوك الاسلام الى أن حدث فيهم التنافر الداخلى والانقسام وتماروا فيما بينهم فجعلوا بذلك وسيلة لجارهم فى التسلط عليهم فاغتنمها محمد على باشا فرصة واستولى على جميع سنار بعد استيلائه على النوبة سنة ١٢٣٦ أما شطوط النوبة الشرقية أعنى ما كان منها على البحر الاحمر فانه كان فى أغلب الاوقات تابعا لمصر حتى بعد الفتح الاسلامى وعند ما افتتحت الدولة العثمانية مصر بقيت هاته الجهة تحت ادارة خاصة بها تابعة للدولة

الى سنة ١٢٤٣ ففوضت ادارتها الى محمد على وجعلت جزأ من الممالك المصرية والحقت بها أيضا بالمدة أنصبا ومحلقاتها التى كانت تابعة للعبشة فاستولت عليها مصر شيأ فشيأ (وأما) دارفور فغاية ما علمت من تاريخها انها كانت من الممالك الاسلامية القديمة وأهلها من اخلاط السودان والعرب وآخر عائلة من ملوكها عربية سودانية يسمى أولهم السلطان عبد الرحمن توفى سنة ١٢١٨ وانتقل الملك فى أبنائه الى ان تغلب على المملكة اسماعيل باشا سنة ١٢٩١ (وأما) زيلع وغيرها من بقية جهات السودان على شطوط أفريقية الشرقية فحاصل ما بلغت اليه انهم قوم من العرب اجتازوا الى هنالك من قبل الاسلام ثم أسلموا فى صدر الاسلام ولما استولت الدولة العثمانية على اليمن وغيره من جزيرة العرب وأفريقية دخلت تلك الممالك أيضا طوعا فى طاعة الدولة ولم تزل مجرية لهم عوائدهم ولها الحكم السياسى الى أن ألحقت ذلك بمصر بمقتضى فرمان منحة الى اسماعيل باشا وورثته وذلك سنة ١٢٩٢ (وأما) بلاد النوبة فكانت قديما مشمولة بما ذكرناه فى سنار الى أن استقر الاسلام بمصر فبقى أهل النوبة على الشرك حتى انه فى زمن المأمون لما قدم الى مصر اشتكى اليه ملك النوبة من عامل اسوان وأهلها بانهم ملكوا أراضى فى بلاده بالشراء من أناس والحال انهم أى البائعين عبيده فأحال فصلهم على قاضى اسوان ولم يقر البائعون بالرق فضغن عليهم ملك النوبة وبطش بهم ثم صار التعدى متواليا من النوبيين على أهالى مصر وكلما أغاروا وجه لهم حاكم مصر رادعا فيذعنون ثم يعودون الى زمن صلاح الدين بن أيوب فالتجأ اليه ابن أخ ملك النوبة مستنصرا على عمه فأعانه وأولاه ملك النوبة وضرب عليه خراجا والحق بمصر نحو الربع من النوبة ثم لما ملكت الدولة العثمانية استقلت النوبة وكانت حدودها عند مصر مأوى للامراء أصحاب الفتن فيلجؤن اليها الى أن استولى محمد على فاستولى على جميع النوبة وغيرها وصار أغلب أهلها مسلمين ودونك جدول حكومات مصر منذ الفتح الاسلامى

جدول حكومات مصر

التاريخ من الهجرة	أسماء الحكومات	ملاحظات
٢٠	سيدنا عمرو بن العاص وخلفاؤه	عمال للخليفة من الخلفاء الراشدين ثم الامويين ثم العباسيين
٢٦٤	أحمد بن طولون وذريته	سلطان مستقل بالادارة خاضع الى الخليفة العباسى تدينا
٢٩٢	عمال العباسيين	مثل سائر العمال
٢٩٣	الدولة الاخشيدية ومنها كافور الاخشيدى	سلطان مستقل يدين بالتبعية للخلافة العباسية
٣٥٨	الدولة الفاطمية أولها المعز بن المهدى	خلافة مستقلة على مصر وسائر المغرب
٥٦٧	الدولة الايوبية وأولهم استقلالا صلاح الدين وآخرهم شجرة الدر	مستقلين وتملكوا الشام وغيره وصلاح الدين هو فاتح بيت المقدس من أيدى الافرنج وصاحب الوقائع الشهيرة فى حرب الصليب وفى مدتهم انتقل الخليفة العباسى الى مصر سنة ٦٥٩ وهو صورى فقط
٧٨٤	دولة الجراكسة أولهم المعز ايبك زوج شجرة الدر المذكورة	مستقلين خاضعين لخليفة عباسى بالاسم
٩٢٢	الدولة العثمانية وعمالها ومنهم المماليك	عمال لآل عثمان لهم ادارة مختارة فوضى
١٢١٣	الفرنساويون	تغلب نابليون الاول وبقى الى أن أخرج بسيف الدولة العثمانية واعانة الانكليز

﴿مطلب فى تاريخ مصر الجديد﴾ لما استولى الفرانسيس على مصر وكان قاصدا التوصل
من هنالك الى افتكاك الهند من الانكليز لما كان بينهم من الحروب والعداوة بل وكانت
سائر أوروبا اذ ذاك ضد الفرانسا وبحسب ما تقدم ذلك فى محله فحينئذ عاضدت انكلاتيره
الدولة العثمانية على حرب فرانسا وأخرجاها من مصر ١٢١٦ وبعد استقرار أمرها
للدولة استولى على امارتها محمد على باشا الذى أصله من الارناؤط وقدم عسكر تابع
عساكر الترك لاخذ مصر من الفرانسيس وكان كامل الاوصاف للرياسه فتقدم اليها
بنفسه على بنى جنسه وانقاد له الجميع وقررت ولايته الدولة على دفع خراج معلوم سنويا
وذلك سنة ١٢١٩ فوجد مصر فى نهاية درجة الفقر والبربرية والجهل بل حتى ان
الامراض الوبائية من الطاعون قد تمكنت فيها وصارت عادية تفنى من الناس سنويا
خلقا كثيرا حتى قل العمران ولم يبق من مآثر تقدم المصريين سوى الاسم فى التواريخ
نعم وجد للعلوم الشرعية بقية آثار فى الجامع الازهر من العلماء وذلك كله لما مر عليها
من تقلبات الدهر والظلم والجور والاستبداد والحروب فى الايام الخالية فشمر عن
ساعد الجد ووافقه البخت وفتح لمصر عصرا جديدا فنظم فيها جيشا نظاميا من أهلها
ورتب الاداء على الاهالى على قانون غير مجحف وألزمهم بتعمير الارض وفتح الترع وانشأ
المدارس العلمية للعلوم الرياضية والحربية واحضر المعلمين من أوروبا وأحيى المارستانات
وألزم الاهالى بالنظافة وتوسيع الطرقات والمنا آت وأرسل التلامذة الى أوروبا للتعلم
الفنون واحيى عو العلوم الشرعية وسهل أبواب التجارة وانشأ معامل السلاح والسفن
وترجمت ح الكتب النافعة فى فنون شتى من لغات شتى الى العربية فنشأ فى مصر جيل
جديد وعصر جديد سطعت فيه طرق العمران والتمدن والقوة فى مدة يسيرة فافتتح النوبة
وسنار واستولى على الشام والحجاز وافتكه من الوهابى بل امتد بالاستيلاء الى قرب
الآستانة فى الاناطولى وخشيت شوكته من عصيانه على الدولة العثمانية فتعصب
الانكليز الى الدولة فى الظاهر لتوطيد أركانها وفى الباطن خشية من انشاء دولة
اسلامية شابة ذات قوة مثل تلك ومركزها مصر فتخشى ان تمتد من هنالك الى الهند الذى
هو روح قوة الانكليز سيما اذا عاضدته احدى الدول الاوروباوية مثل فرانسا فلذلك
حاربته مع الدولة العثمانية التى هى اذ ذاك على ضعف شديد من حرب الروسيا
والثورات الداخلية واستقلال اليونان وغير ذلك فقهروا محمد على ولكن لاتمام مقصد
انكلاتيره لم تسمح للدولة بالاستيلاء التام على مصر لمراعاة المقاصد المشار اليها أيضا

فكان الاوفق لها ابقاء مصر على شبه استقلال لضعف كل من الجهتين وبقى محمد على
واليا على مصر على أن تكون الولاية فى ذريته من أكبر الى أكبر ويؤدى خراجا سنويا
للدولة ويعينها عند وقوع حرب منها بالعساكر الذين يبلغ عددهم الاربعين ألفا
وكذلك يعينها بالسفن وان الرتب العالية فى مصر يعين هو أصحابها وتوابعهم الدولة
والسكة والخطبة تكون باسم السلطان العثمانى والعلم عثمانى أيضا وخرج الحجاز عنه
الى الدولة وكذلك الشام وبقى على ذلك الى أن ضعف بالسن فتنازل عن الولاية لابنه
الاكبر وهو رئيس جيوشه وحروبه ابراهيم باشا سنة ١٢٦٥ وكان على قدم أبيه
وتوفى تلك السنة فتولى بعده ابن أخيه عباس باشا بن طوسون بن محمد على سنة ١٢٦٥
فاخذ عنفوان التمدن فى شىء من الانحطاط لصرف المداخيل فى الشهوات لكنه أحدث
شيئا من المنافع كبعض طرق الحديد والسلك الكهربائى وأحكم الصلة مع الدولة
العثمانية ثم توفى سنة ١٢٧١ وولى بعده سعيد بن محمد على فزاد انحطاط التمدن
واتسع خرق الاسراف ومنح لجمعية لسبس الفرانساوية فتح خليج السويس وكثر الدين
على الحكومة ثم توفى سنة ١٢٨٠ وولى اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا فاعاد عصر
التمدن والمعارف واتساع القوات البرية والبحرية وشدد الالتحام بفرانسا وانكلاتيره
مماجلة آخذا طريق الاستقلال بالمرة عن الدولة العثمانية وصادف ان كان فى أيام
ولايته حصلت حرب أمريكا المتحدة فى بعض سنيها فانقطع منها جلب القطن الى انكلاتيره
واشتد طلبه من مصر وحصلت فيها ثروة لم تعهد مع امتداد طرق الحديد الى جهات
شتى والى السودان ثم تم فتح خليج السويس فى مدته ودعى له ملوك أوروبا فحضر له كثير منهم
كامبراطور أوستريا وامبراطورة الفرانسيس زوجة الامبراطور نابليون الثالث
من غير توسط الدولة العثمانية مما زاد الشبهة فى دعوى الاستقلال لكنه كانه تحقق
من زائريه ان المقصد لا يتم له فتغيرت سيرته من وقتئذ وعاد لمصافاة الدولة العثمانية
وقد قدم اليه السلطان عبد العزيز بنفسه الى مصر والى مقره فى الآستانة وحصل منه
على فرمان امتياز بانحصار الوراثة فى خصوص بنيه من أكبرهم الى ابنه الاكبر
وهكذا وزاد فى الخراج للدولة واخذ منها مملكة زيلع وفتح دارفور وكردفان وغيرها
من السودان وزادت المعارف كلها شعشعة فى أيامه وانشأ المحاكم المختلطة بمصر لمنع
حكم القناصل وانشأ مجلس النواب من الامة لكنه صورى وكذلك مجلس الوزراء
الا ان الكل تحت أمره وحده لكن ازداد الدين على الحكومة بكثرة المصاريف

الداخلية فى انشاء القصور وغيرها كالترع والطرق وبكثرة المصاريف للدول لتحصيل
مطلوبه منهم مما ذكرناه وافتقر الاهالى من الظلم وأخذ أموالهم بالضرب وغيره
لحد غير معلوم ومع ذلك لم تقدر الحكومة على الوفاء بفائض الديون الاوروباوية
وجعلت تزيد فى القرض الى أن توقف المقرضون عنها فتداخلت الدول فى حفظ
أموال رعاياهم وأنشأوا وزارة فيها وزير انكليزى للمال ووزير فرانساوى
للاشغال العامة وتحرش الوزراء غير الاجنبيين حينئذ فى عدم الاذعان لمجرد
ارادة اسماعيل باشا وتقلب مرارا فى تغيير الوزراء فلم يفده الى أن ثار الجيش بالاغراء
متفقا مع مجلس النواب وأهانوا الوزارة المختلطة كلها بدعوى انها نقصت من مصاريف
الجيش وعدده لكن المعاملة مع الوزير الفرانساوى كانت لينة وهو مغض عنهم حتى كان
لسان الحال يدل على ان لفرانسا باطنا نوع اتفاق مع الخديوى يوافق قصده فى التباعد
من انكلاتيره حتى تفطنت لذلك وأرسلت له رسولا خاصا ليبلغه نصيحة شديدة مآلها
ان النافع لذاته هو الرفق بالرعية والكف عن الاسراف وان ركونه الى غيرها لا يفيده
عند تمحص الحق فأجاب بالتخلص مما رمى به واشتد حنقه من التداخل الاجنبى الى أن
حصلت تلك الامور من العساكر فعزل الخديوى الوزارة فثار غيظ فرانسا وانكلاتيره
وطلبوا من الخديوى أن ينعزل عن الخديوية فأبى وألحوا الى أن كادوا أن يباشروه
بالحرب وكانت الدولة العثمانية اذ ذاك أثخنوا جرحها من حرب الروسيا التى قسمت بها
كثيرا من ممالك الدولة فارادت الدولة أولا أن تحمى الخديوى لكنها لما علمت أن
لا مناص من عزله جعلتها كما قيل بيدى لا بيد عمرو حفظا للناموس واطمأنت بارسال
أمر بسلك الكهربا الى اسماعيل باشا تعلمه بعزله وأمر آخر الى ابنه الخديوى الحالى محمد
توفيق تأمره بالولاية وتسلم زمام الامور وذلك سنة ١٢٩٦ ثم سافر اسماعيل الى ايطاليا بحريمه
وأبنائه وبقى ساكنا فى نابلى بقصر لحكومة ايطاليا وتصرف الخديوى توفيق فى مصر
بواسطة الوزراء وجعل رئيس الوزارة مصطفى رياض باشا وجعل لكل من انكلاتيره
وفرانسا مراقبا ماليا يحضر مجلس الوزراء وله صوت فيه بحيث لا يمضى شئ الا ما وافق
عليه المراقبان وقسمت مداخيل الحكومة على قسمين أحدهما لفائض الديون وقدر
تلك الديون نحو ألفى مليون فرنك ومقدار ما عين لفائضها واستهلاك أصلها نحو مائة
وستين مليونا فرنكا سنويا والباقى من مداخيل الحكومة يدفع منه خراج الدولة
العثمانية وبقية مصاريف الحكومة وجرى التصرف للوزارة بدون مجلس النواب

مع وعد الخديوى عند ولايته بفتحه واجراء مقتضاه الى أن ظهر للوزارة ان تحدث قانونا فى
رتب العسكر كان من مقتضاه ان أبناء مصر العارفين بالكتابة والقراءة لا يتجاوزون رتبة
رئيس الالاف أى بين باشى والذى لا يعرف ذلك لا يستولى الا رتبة رئيس عشرة وبقية
الرتب يتولاها الدخيلون فى مصر كالترك والافرنج فامتنع من الامضاء على القانون فى
وزارة الحرب عدة من أمراء الالايات معلنين بان ذلك خلاف الانصاف فسجنهم وزير
الحرب فثارت العساكر وأخرجوهم من السجن وأحاطوا بقصر الخديوى طالبين عزل وزير
الحرب فعزل وحصلت (حينئذ) فطنة لاتحاد العساكر وانصافهم وحماة المصريين
ونشأ فى الامة حزب يسمى الحزب الوطنى زعيمه فى الكلام رجل يسمى عبد الله نديم
فصيح اللسان عارف بطرق الكلام وكثرت منه الخطب فى المجامع والمواكب ومن غيره أيضا
فى الحث على الاتحاد وأخذ الاشغال لابناء الوطن وكذلك الوظائف والخروج من وطأة
الاجانب الذين اشتد احتقارهم للاهالى واستبدادهم عليهم بالمرتبات الباهظة حتى انى
لما مررت بمصر كنت أسمع دوى غليان الاهالى من التشكى من كثرة توظيف الاجانب
الذين بلغ عددهم نحو ألف ومائتى موظف يأخذون سنويا نحو أحد عشر مليونا
فرنكا مع اقتدار الاهالى على الوفاء بتلك الوظائف ونقصان مرتبهم عن ذلك بكثير ثم بدا
للوزارة لزوم التنقيص من عدد العساكر فثار الجند وأحدقوا بقصر الخديوى متسلحين
حتى بالمدافع بعد أن أرسلوا الى نواب الدول بالامن عليهم وعلى رعاياهم والاعلام
بمقاصدهم وكان رئيس ذلك الاتحاد رجل من أهل مصر فى رتبة أميرالاى فصيح اللسان
ثبت الجنان اسمه أحمد عرابى فطلب هو ورؤساء الجيش الاجتماع بالخديوى فلما تيقن
الخديوى جد طلبهم بواسطة خطاب قنسل الانكليز معهم تلقاهم فأعلموه بأن مطلبهم هو
عزل الوزارة وولاية رئاستها لشريف باشا وجمع مجلس النواب واجراء قراره حقيقة وان
تكون له الحرية اللازمة لمثله وانه لا يمس حقوق الاجانب وتعهدات الحكومة معهم
فلم يسع الحال الا القبول لجميع المطالب واجرائها فعلا وازداد عرابى نفوذا وانطلقت
الالسن بالحرية فلما اجتمع مجلس النواب ألف قانونه الذى تبتنى عليه أعماله وكان من
جملته انه له الحق فى الاطلاع على حساب الحكومة فى الحال وله الرأى فيه مع ان ذلك من
خواص مأمورية المراقبة الفرانساوية الانكليزية فامتنعت وزارة شريف باشا من قبول
ذلك لما تعلم من تداخل الدولتين فى الامتناع حتى يفضى الى التداخل فى السياسة
فأصر المجلس على طلبه وأظهرت العساكر التعصب الى المجلس فاستعفى شريف ووزارته

ومن هنا نتجت الاعمال من القصد الجميل لما يوقعها في الزوال لان العاقل ينظر لجميع
مقتضيات الحال ونسبة قوة الدول فيتباعد عن موجبات الفساد ولا تطلب النهايات في
البدايات كما هو القاعدة الشهيرة القائلة من طلب الشئ قبل أوانه عوقب بحرمانه وما
بالعهد من قدم قدروا وتداخل الدولتين في عزل الخديوي السابق حتى تم مرادهم
فكيف يفتح لهم باب التداخل وهم بالمرصاد منهم لكن سبق القدر فلم يتدبروا
واستعجلوا فاصروا على طلبهم ففوض الخديوي انتخاب الوزارة الى المجلس مع انه من
حقوقه تطييبا لخاطر الاهالي فاستولى رئاسة الوزارة محمود سامي واستولى وزارة الحرب
عرابي وابتدأ أيضا من هنا الاعتراض عليه من العقلاء في قبول الوزارة لان مقامه من
الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يحجب بتلك الولاية ويصير له غرض خاص به من
الارتقاء الى المناصب العالية سيما بعد ان رقي من كان معه من رؤساء العساكر الى رتبة اللواء
وقبل هو من الخديوي تلك الرتبة بعد الالحاح عليه فوافقت هاته الوزارة رأي المجلس
وكانت اذ ذاك ألسن الاهالي وصحفهم بذية مطلقة بالقدح في الاروباويين والتجهيم بما
هم عليه مما أسف منه عقلاء المسلمين فهاجت ضدهم صحف أروبا جميعا وأشدهم
الفرانساويون والانكليزيون حتى أبرقت وأرعدت دولتاهم متهددين بالحرب طالبين
نفي عرابي وبعضا من رؤساء العسكر الذين رقوا الى رتبة اللواء وارجاع وزارة شريف
ودحض مطلب مجلس النواب في التداخل في أمر المراقبة فوقع اضطراب وهيجان ظهرت
فيه دعوى على بعض من العساكر الجراكسة بانهم قصدوا قتل عرابي باغراآت سرية
منها المنسوب الى طلعت باشا أحد علائق اسماعيل باشا فنفي أولئك الجراكسة الى
الآستانة وبقوا فيها تحت الحفظ مكرمين في أحد المباآت السلطانية الى أن رجعوا
بعد الحرب الآتي ذكرها فلما أصرت الدولتان على ذلك أعلن الخديوي بعزل الوزارة
فثارت الاهالي والعساكر وألزموا الخديوي بارجاع عرابي الى وزارته وقدم اذ ذاك
مرخص عثماني وهو المشير درويش باشا ومعه عدة رجال لاقرار الراحة في مصر بالوجه
السياسي لان الاهالي أيضا أكثروا من التنويه بانتمائهم للدولة العثمانية ووردت منها
افرادا على الوجه الخصوصي من قبل لاراحة الاهالي وكان الخلاف بين عرابي والخديوي
عند قدوم درويش باشا مشتدا حتى ظهر الخبر بأن الاهالي قدموا مضبطة بطلب عزل
الخديوي بل جرى الطمع حتى الى اخراج الخديوية عن عائلة محمد على بالمرة وطلب أن
تكون مصر مثل البلغار في امتيازاتها التي منها اختيار الوالي وأن لا تتداخل فيهم الدولة
العثمانية

العثمانية بشئ في ادارتهم بل ربما تحرشت صحفهم بانها لو ترسل عساكر ضدهم فانهم
يقاتلونهم كما يقاتلون سائر الدول وحينئذ أعلنت كل من فرانسا وانكلتيره بلزوم ابقاء
الخديوي ونفوذه وقطع مضادته بالقوة الجبرية غير ان فرانسا تطلب أن تكون قوتها
وقوة انكلاتيره هي الفعالة ولا تسمح للدولة العثمانية بذلك وانكلاتيره على ضدها
فتطلب مبادرة عساكر الدولة العثمانية لذلك فرأت الدولة العثمانية ان فصل النازلة
يتم بدون احتياج الى قوة وأرسلت درويش باشا ومن معه لذلك وحصل من قدومه
ما أغاظ كثيرا من الاروباويين لانقياد العساكر المصرية والاهالي للسلطان
وامتثال أمره وابتدأ السكون والتوافق والرضى بالحصول شيئا فشيئا لكنه حدث في
اسكندرية التي كانت اذ ذاك مراساها غاصة بأساطيل الدول الاروباوية حادثة شنيعة
وهي قتال بين المسلمين والنصارى السكان بسبب مشاجرة عادية فطبل الاروباويون
بذلك وزمروا حتى توجه الخديوي ودرويش باشا وعرابي الى الاسكندرية لاقرار
الراحة وأقر الدول ان الواقعة عادية لا دخل لها في السياسة غير ان أصل المسئلة من
اصرار الدولتين على مطالبهم وامتناع أهالي مصر لا زال على ما كان وفرانسا أشد اقداما
وتهديدا باعلان الحرب وطالبت انكلاتيره عقد مؤتمر في الآستانة لما يجب من العمل
فامتنعت الدولة العثمانية من التداخل فيه لما لها من حق السيادة وحدها على مصر
فرأت ان ذلك من باب تداخل الدول في داخليتها لكنهم عقدوه ودخلت فيه الدولة
العثمانية أخيرا وبينما هو في التفاوض كانت العساكر المصرية تصلح في حصون
الاسكندرية حيث انها خربة ولا استعداد فيها لان الدولة العثمانية كانت حجرت على
اسماعيل باشا تحصينها عندما أحكم حصن أبوقير جوار الاسكندرية وحصون دمياط
وغيرها لما سبقت الاشارة اليه في أخبار اسماعيل باشا ولما رأت أساطيل الدولتين
ذلك التحصين ادعوا انه تهديد لهم وطلبوا الاقلاع عنه فامرت الدولة العثمانية بالكف
من التحصين وادعى المصريون الامتثال وادعى رئيس أسطول الانكليز عدمه وطلب
دخول عساكره الى الحصون فتفاقم الخلاف وأطلقت النيران من الاسطول الانكليزي
على الاسكندرية فخربتها في نحو عشر ساعات وتضررت بعض مدرعاته وانحازت
العساكر المصرية الى مكان يسمى كفر الدوار وجيشوا هنالك واستولت العساكر الانكليزية
على الاسكندرية وبقي الخديوي فيها وانكشف الغطاء على مخالفة العساكر للخديوي
وكان معه درويش باشا المذكور فرجع الى الآستانة وبقي مع الخديوي الكاتب الثاني

للسلطان واشتد الحاح انكلاتيره على الدولة فى ارسال العسكر ولم ترسل الدولة الى أن
وقعت عدة محاربات برية كان النصر فيها للمصريين واستولت انكلاتيره على برت
سعيد وسائر خليج السويس وكان أكبر المعسكرات المصرية فى التل الكبير بين
القاهرة والاسماعلية وتضايق الانكليز فى لزوم قوة كبيرة لهم لاتمام قصدهم لان
فرانسا لما فتح مجلس نوابها الاستشارة فى حرب مصر انكر ذلك أشد الانكار فسحبت
أسطولها وبقيت على الحيادة والدولة العثمانية وان وافقت أخيرا فى ارسال عسكرها
لكن تشدد الانكليز فى جعله تحت أمرهم وأن لا يتصرف الا على نحو اشارتهم وأن يخرج
متى ما أمروه بالخروج ألزم تأخر ارساله وكان تصرف العساكر المصرية بغاية الاحتراز من
الافعال البربرية سوى ما صدر من افراد من العربان والفلاحين فى جهات قليلة وبينما
الامر على ذلك واذا بالدولة العثمانية نشرت اعلانا حسب طلب انكلاتيره بان عرابى
وكل من انحاز الى حزبه عصاة فلم يمض على ذلك بضع أيام الا وقد انحلت عرى التعصب
المصرى ودخلت العساكر الانكليزية الى القاهرة راكبة فى الرتل بدون أدنى حرب
ولا معارضة مع ان الجيش المصرى ومن انضم اليه من العربان وغيرهم المتجاوزون المائة
ألف والخمسين ألف محارب بأتم قوات الاستعداد فتفرقوا جميعا أيدى سبا فى بضع ساعات
وسلم عرابى نفسه أسيرا الى الانكليز فرجع الخديوى الى مصر وأقيم وكيل مدافع
انكليزى عن رؤساء العساكر المصرية وآل الامر حسب ارادة انكلاتيره ان حكم
بعقاب عرابى لكن الخديوى عفا عنه لانه لم يفعل شيئا الا عن وفاق من يقبع وأبقى له مرتبا
للقيام بنفسه ونفى هو وكبراء الرؤساء الى جزيرة سيلان فى الهند وذلك هو التعليل
الباطنى مع ان خزبا عظيما من الانكليز يرون ان جناية أولئك العساكر سياسية
لا توجب القتل فلذلك حكم عليهم المجلس الحربى بالقتل لكن الخديوى عفا عنهم
وأبدل القتل بالنفى ولم تزل العساكر الانكليزية مقيمة بمصر ورجالهم السياسيون هم
مرجع الامر والنهى والوزارة تحت رآسة شريف باشا وناظر الداخلية الذى له كمال
النفوذ رياض باشا وانكلاتيره بصدد ترتيب حالة جديدة للسيرة السياسية داخلية
وخارجية لمصر مع اعلانها بان مصر تحت سيادة الدولة العثمانية على امتيازاتها المقررة
بالفرامانات السلطانية وان الترتيب التى هى بصددها لا تمس شيئا من حقوق الدولة
ولا معاهدات الدول الاجنبية وتقاص نفوذ فرانسا فى مصر ولم تزل غير مسلمة رسميا
لانكلاتيره بمرادها وللروسية ميل الى معاضدة فرانسا هذا ما وقع الى الآن وهو المحرم

سنة

سنة ١٣٠٠ وبه يعلم صحة ما كنا ذكرناه فى استيلاء فرانسا على تونس وكتبناه سنة
١٢٩٨ والله يفعل ما يشاء ويختار وله عاقبة الامور

﴿مطلب فى السياسة الداخلية المصرية﴾ اعلم ان مصر مملكة عثمانية لها امتيازات
خاصة بينها الفرمان الصادر فى ولاية الخديوى محمد توفيق باشا وهذا نصه

الدستور الاكرم المعظم الخديوى الافخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الامم مدبر امور
الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال
مشيد أركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة
العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوى مصر الحائز لرتبة الصدارة
الجليلة فعلا والحامل لنيشاننا الهمايونى المرصع العثمانى ولنيشاننا المرصع المجيدى
وزيرى سمير المعالى توفيق باشا أدام الله تعالى اجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره واقباله
انه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم انه بناء على انفصال اسماعيل
باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ وحسن خدمتكم
وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا بان
لكم وقوفا ومعلومات تامة فى خصوص الاحوال المصرية وانكم كفؤ لتسوية بعض
الاحوال الغير المرضية التى ظهرت بمصر منذ مدة ولاصلاحها وجهنا الى عهدتكم
الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضى المنضمة اليها المعطاة
الى ادارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالى الصادر فى ١٣ محرم سنة ١٢٨٣
المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى أكبر الاولاد وحيث انكم أكبر اولاد الباشا
المشار اليه وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية
المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة
لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر أن بعض أحكام الفرمان العالى الشأن
المبنى على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيه الامتيازات الحائزة لها الخديوية
المصرية قد نشأ منه الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة صار تثبيت المواد التى لا
يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضى تبديلها
وتعديلها واصلاحها لما تقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية وهى ان كافة واردات
الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث ان أهالى مصر
أيضا من تبعة دولتنا العلية والخديوية المصرية ملزومة بادارة أمور المملكة الملكية

والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعد فى وقت من الاوقات
فخديوى مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها
بصورة عادلة وأيضا يكون مأذونا بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الاجنبية
فى خصوص الكمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لاجل ترقى الحرف والصنائع
والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب أو
الاهالى والاجانب مع أمور ضابطة الاجانب بشرط عدم وقوع خلل فى معاهدات
دولتنا العلية السياسية وفى حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية
المشارطات التى تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالى وأيضا يكون
حائزا التصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من
الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع
المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا
فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها وحيث ان الامتيازات التى أعطيت الى
مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت
لديه الا يجوز لاى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة
أرض من الاراضى المصرية الى الغير مطلقا ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية
الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه كذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر
تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ١٨ ألفا لان هذا القدر
كاف لمحافظة أمنية ايالة مصر الداخلية فى وقت الصلح وانما حيث ان قوة مصر البرية
والبحرية هى مرتبة من أجل دولتنا العلية يجوز أن يزاد مقدار عساكر بالصورة التى
تستنسب حالة كون دولتنا العلية محاربة وتكون رايات العساكر البحرية والبرية
والعلامة المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم ويباح لخديوى
مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية رتبا الى غاية رتبة أمير الالاى والملكية الى
الرتبة الثانية ولا يرخص لخديوى مصر أن ينشئ سفنا مدرعة الا بعد الاذن وحصول
رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة
الذكر والاجتناب من وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد
السابق ذكرها قد أصدرنا أمرنا هذا جليل القدر الموشح أعلاه بخطنا الهمايونى وهو
مرسل مصحبة افتخار الاعالى والاعاظم ومختار الاكابر والافاخم على فؤاد بك باشكاتب
المابين الهمايونى ومن أعاظم رجال دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية
والمجيدية

والمجيدية ذات الشأن والشرف حرر فى تاسع عشر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ من
هجرة صاحب العز والشرف

وبهذا تعلم أصول الحالة التى عليها حكومة مصر (أما) كيفية الادارة فلما قدمناه فى
التاريخ لا يتيسر لنا التصريح بالحقيقة التى يرمى عليها الحال لانها غير مستقرة كما علمت
وانما نقول انها الآن للخديوى يتصرف بواسطة الوزراء على نحو القاعدة الاروباوية
وما عدا هذا فهو موقوف الى الآن وهو سنة ١٣٠٠ ومن العجب ان بقى الحال
هكذا على غير استقرار وكل حين يسمع انهم يريدون ان ينشئوا أساسات للادارة ولم
تظهر للوجود مع شدة التشكى من الاهالى من الحالة الراهنة التى ما لها عدم العلم
بمرجع الامر وعدم تعين المتصرف رسميا وفعلا فان القوة الحربية بيد الانكليز وهم
أصحاب النفوذ لكنهم مصرحون بانهم لا يتصرفون فى الادارة وانها راجعة الى
الخديوى وحكومته وهؤلاء أيديهم قصيرة اذ كل شئ مرجعه صاحب القوة لاسيما بعد
ان استعفت وزارة شريف باشا وتولية وزارة نوبار باشا الذى علم ان لا مناص عن مجاراة
القوى مع تفاقم الثورة فى السودان التى كانت ابتدأت أواخر مدة اسمعيل باشا بسبب
تعدى المأمورين على رجل منسوب للصلاح يسمى محمد أحمد كان شيخ طريقة وله
اتباع ففارت منهم أتباع طريقة أخرى فاغروا بهم عامل تلك الجهة وهى دارفور فارسل
اليهم بعض اتباعه فخالفوهم وقهروهم وتكرر ذلك وكلما أرسل اليهم قوة كسروها
فحصل لمحمد أحمد شهرة الى أن ادعى المهدوية وكانت الاعيان والامراء من السودان
فى حرج من ادارة المصريين فانضموا اليه بتدبيرهم وأموالهم الى ان استولوا على أغلب
السودان المصرى وكسروا المصريين عدة جيوش عظام أحدها يشتمل أزيد من عشرة
آلاف قتلوهم عن آخرهم واستولوا على مهماتهم وفى أثناء ذلك دخل عسكر
الانكليز الى مصر فاعلنت انكلاتيره بفصل السودان عن مصر واستقلالهم بامرهم
متعللة بانهم لا نفع فيهم للحكومة مع ضيق ماليتها عن الوفاء بمصاريفهم وكان ذلك سبب استعفاء
وزارة شريف باشا متمسكا بان ذلك لا يصح بدون أمر الدولة العثمانية المسلم لها
السيادة ولضرره بمصر أيضا لكن انكلاتيره أصرت على رأيها وأولت نوبار باشا
وفائدتها من ذلك هى تضعيف مصر واستقالة السودان بموافقتهم اليها لكنهم كانوا أشد
عليها عما كانوا مع المصريين فارسلت اليهم انكليزيا كان مباشرا لهم يسمى غردون
كان متوليا حاكما عاما عليهم مدة اسمعيل باشا فحاول تسكين ثورتهم فلم يقبلوا منه صرفا

ولابد لافتحن بلاد الخرطوم وطلب القوة من دولته وكانت الوزارة اذ ذاك بيد حزب الحرية فاظهروا من التناقض في القول والعمل ما يتعجب منه في ارسال القوة وأمرها بالتقدم تارة وبالتأخر أخرى الى أن فتح السودانيون الخرطوم وتم لهم جميع أمر السودان وحصل من مجموع الامور الحالة الراهنة في تخضرم الامور وكثرة التشكي من الادارة التي هي على غير أساس فعقدت انكلاتيرة التي زمامها حينئذ بيد حزب المحافظين اتفاقا مع الدولة العثمانية هذا نص تعريبه (أولا) ترسل كل من الدولة العثمانية وانكلترا مندوبا عاليا الى مصر (ثانيا) يتدبر المندوب العالي العثماني متفقا مع جناب الخديوي أو مع من يعينه لهذا الغرض المبين في الوسائط النافعة لتسكين السودان ويتفاوض المأموران والخديوي في جميع التدبرات التي يمكن بها تعديل الاحوال المصرية عموما ويكون اجراؤها برضاء الجميع (ثالثا) يباشر المندوبان العاليان ومعهما الخديوي اصلاح وترتيب العساكر المصرية (رابعا) ينظر المندوبان العاليان مع الخديوي في جميع فروع الحكومة المصرية ويمكن لهم أن يدخلوا التعديلات التي يرونها لازمة في كل ما هو داخل في دائرة الفرامين السلطانية (خامسا) يقع الاعتراف من طرف السلطنة العثمانية بجميع المعاهدات العمومية الاجنبية التي عقدت مع الحضرة الخديوية وذلك اذا لم تكن مخالفة للامتيازات المضمنة في الفرامين السلطانية (سادسا) عند ما يرى المندوبان العاليان ان هناء الحدود استقر وصارت سيرة الحكومة المصرية مستحسنة وأمرها راجحا يقدم كل منهما تقريرا الى دولته لعقد الاتفاق باخلاء العساكر الانكليزية البلاد المصرية في وقت مرضي (سابعا) يقع امضاء هاته المعاهدة في ظرف خمسة عشر يوما وتكون مبادلتها ممضية في القسطنطينية اه وقدم المرخصان المشار اليهما في الاتفاق وعند وصول المرخص العثماني وهو مختار باشا احتفلت به الحكومة أزيد من احتفالها بالمرخص الانكليزي الذي كان سبق صاحبه (وأما) الاهالي فاحتفلوا بالثاني فقط وعند ملاقاتي معه للسلام مع جمع من الاعيان أنشدته هذين التاريخين أولهما

الى الخليفة تهدي دام منتصرا * قد احتفلنا هنا أرخ بمختار كم

وثانيهما بشرى الهنا العموم أهل المصر اذ * اصلاحها أرخ بمختار نجز

وبقي المرخصان بمصر وهما مباشران الآن للنظر في الاصلاح وتأسيس الادارة على أصول راسخة فهذا ما وقع الى تاريخ طبع هذا المحل وهو ربيع الثاني سنة ١٣٠٣

مطلب

﴿مطلب في السياسة الخارجية﴾ الاسباب التي بيناها في السياسة الداخلية هي بعينها جارية في الخارجية والامور بيد الانكليز وجميع الدول مسلمة بذلك الا فرانسا فمصرحة بالاعتراض وبمقتضى ما ذكرنا في سلطة فرانسا على تونس يظهر أن رجحان الانكليز يتم في مصر سيما وهم يتخذون طريقتهم في جلب الاهالي اليهم قلبا وقالبا بمراعاة حريتهم وسائر عوائدهم وأصولهم كما هو ديدنهم في الممالك التي لهم فيها النفوذ لكن الاهالي مصرون على النفور لان التصرف الانكليزي كان في مصر على صورة لم تعهد من أحد قط لانهم في الرسم معلنون بانهم لا يأخذون مصر ولا يجعلونها تحت حمايتهم وفي نفس الامر القوة بيدهم ولا يصدر شيء الا عن ارادتهم الى أن حصلوا على الاتفاق المار ذكره في المطلب السابق مع الدولة العلية فحينئذ صار لهم حق المداخلة برضاء صاحب الحق اقناعا للدول لان بعضهم وهي المانيا أشارت بالتعريض مرارا على انكلتيره بتصريحها بالاستيلاء على مصر والتماس موافقتها وايطاليا كذلك مع مزيد التحام بانكلتيره في المساعدة حتى أدخلت عساكرها الى مرسى مصوع وأعلنت بالاستيلاء عليها لكنها لا تمس حقوق الدولة العثمانية وهو كلام لا يعقل ولا مفهوم له الا عدم التصريح بالاستخفاف وأغرب من ذلك ان الدول أجابوا الدولة العثمانية لما طلبت منهم التداخل مع ايطاليا في خرقها حقوق الدول بانهم لا يتداخلون حيث صرحت ايطاليا بمراعاة حقوق الدولة (وأما) الروسيا فلم تبد ممانعة ولا موافقة (وأما) فرانسا فكانت ممانعة للانكليز لكنها منذ رأت الدول الكبيرة موافقة على نحو ما رأيت وقد تكفلوا بان تكون عليهم جميعا كفالة قرض الى مصر قدره تسعة ملايين ليرة ومع ذلك كله فان الانكليز امتنعوا من الاستيلاء الرسمي أو وضع الحماية كذلك بل حتى من كفالة القرض المذكور وحدهم لخوفهم من كونهم اذا فعلوا ذلك فتحوا بابا للدول في اضرار بالدولة العثمانية ويرجع ذلك الى عدم معرفة ما تأخذه كل دولة وترجح به ميزانها فربما رجحوا على انكلتيره ولذلك مالت الى ذلك الوجه من التراضي مع صاحب البلاد وكان لها وحدها حق برضاه لعلها تتخلص من اضرار الدول بالدولة العثمانية الآيل عليها بالضرر أيضا لكن الاساغة الى الطليان في الاستيلاء على مصوع مع تلك الدعوى التي أقرت الدول بانها كافية في اقناع الدولة العثمانية هل يبقى معه الدواء الذي ارادته انكلتيره وهو ان تداخلها لم يكن الا بالرضى الظاهري فان كل دولة يسوغ لها ان تستولي على بلاد الاخرى وتقول لها انها لا تمس حقوقها والكلام وحده سهل فالحاصل ان السياسة التي

وقعت من الدول فى مصر وبالخصوص من الانكليز أمرها عجيب واختراعها غريب
ولله فيهم علم غيب هم صائرون اليه

﴿مطلب فى بعض صفات وعوائد المصريين﴾ أما أهل مصر الاصلية فهم مختلطون من
العرب الفاتحين وأبناء القدماء المعروفين بالقبط وأبناء الروم الذين امتلكوا مصر نحو
الستمائة سنة ولون الجميع أسمر الا قليلا من أبناء الترك والمغاربة وغيرهم من الوافدين
الى هنالك ولهم حسن أخلاق وظرافة وبشاشة فى الخطاب واذا احتدت نفوس الرعاع
للخصام تراهم بذيئى اللسان لهم مهارة فى أصناف السب حتى اذا بلغوا الى حد التضارب
قال أحدهما لصاحبه (ما عليه شئ) فتسامحوا وعادا الى المصافاة ومن أخلاقهم حب
السماع لكنهم اختصوا بكثرة اظهار استحسانه بالتأوه مع رفع الصوت ولا يتحاشى من
ذلك حتى بعض أعيانهم بل انهم يستأجرون أناسا معدين لذلك لكى يصرخوا بالتأوه حتى
تحجب أصواتهم صوت الموسيقى والمغنى وتمضى الحصة كلها هكذا ومن عاداتهم
احضار قراء القرآن فى بيوتهم ليلا للتلاوة بالانغام ويعطونهم أجورا على ذلك بل من
الغريب ان بعض القبط أيضا يفعلون ذلك ومن عاداتهم فى السلام انه اذا دخل الداخل
يقف له جميع الحاضرين فيشير بيده للسلام هاويا بها نحو الارض ويرفعها الى رأسه
فيحيونه بنحو ذلك ولا يقع منهم التقبيل الا لليد العالم على ظهرها أو القادم من سفر يقبل
فى كتفيه وسلامهم مع الامراء والكبراء هو بالاشارة أيضا لكنه فيه تعظيم كبير بان يدخل
الداخل قابضا يديه الى صدره ويقرب خطاه منكسا رأسه متمهلا بالخطا حتى اذا لصق
بالرئيس هوى الى الارض كانه يريد تقبيل رجله أو ذيل سترته ويمسك الذيل ثم يجعل
يده على فيه ثم جبينه والمتواضع من الكبراء المسلم عليهم يضم ذيله اليه كانه يمتنع من
ذلك ويقول أستغفر الله وغيرهم لا يفعل ذلك لكن أكثرهم متواضع وكلهم
يقفون للداخل كبيرا كان أو صغيرا الا الحقير بالمرة مع العظيم جدا ويتكرر الوقوف
الى الداخل مهما تكرر دخوله الا اذا كان خادما أو صاحب شغل وأكثر ركوب
المصريين على الحمير الا العرب فالخيل وتوجد فى المدن العجلات للركوب على أنواع شتى
وسائقوها أسوأ أخلاقا من أمثالهم فى سائر البلاد وان كانوا فى الجميع غير مستقيمين واذا
ركب أحد الاعيان عجلته جعل أمامه رجلا يركض وهو لابس لباسا مزركشا وبيده
عصا طويلة وهو حافى الرجل ويصيح بالمارين ليستيقظوا للعجلة وما أصبرهم على الجرى
وما أجراهم حتى اذا خرجوا من البلاد وقفوا وذهبت العجلة فاذا رجعت الى البلاد رجع
جاريا

جاريا أمامها والمصريون أهل جد وكد فى أشغالهم لا يميلون الى البطالة بل يقبلون على
أشغالهم من غير فتور ويوجد عندهم السؤال الملحون الملحفون حتى انهم اذا رأوا من
أعطى سائلا يكادون أن يسلبوه ثيابه غصبا من الالحاح بل ربما أضروه فى بدنه
فالاصلح بالانسان ان لا يعطى الا من يعلمه حقيقة محتاجا اذ السؤال صار صناعة لتلك
الفرقة ولهم رؤساء وعليهم أداء مقدر ولهم وقائع عجيبة فى الغنى وكتمانه فقد ذكر لى
ثقة انه فى حدود عشرة السبعين من القرن الثالث عشر كان أحد الشحاذين مارا فى الطريق
فسقط منه كيس وكان بمرأى من أحد الضابطة فالتقطه لذلك فلما علم به انه ضابطى انكر
ان يكون الكيس له فالح عليه الضابطى وآل الامر الى المشاحنة حتى بلغ الى رئيس
الضابطية فامر الشحات باخذ كيسه الذى وجد به عدد كثير من الابرات الذهب فامتنع
وأنكر ان يكون له حتى جلده رئيس الضابطية جلدا وجيعا وهو مصر على انكاره فاطلق
سبيله وحمله شيخ الشحاتين وداواه من ضربه وشكر صنعه كل بنى جنسه وأدوا له جميع
ما خسره فى الكيس وزيادة لانه لم يظهر عليهم أثر الغنى لكى لا يحصل عليهم ضرر
ولكى لا تقسى عليهم القلوب ولهم وقائع كثيرة من هذا القبيل مع أياد وصنوف فى الالحاح
والتضرع تفتت القلوب ولم أر فى البلاد مثلهم قط ويغلب على الجميع الوسخ فى الثياب وفى
البيوت والديار الا بعض الاعيان ومن نحا النحو الافرنجى وأكثر ذلك فى الفلاحين وأصحاب
القرى بل ان هؤلاء لا يستحيون من كشف العورة نساء ورجالا (وأما) أهل النوبة وبقية
السودان والعرب فقد تقدم فى التاريخ أصلهم وأما عاداتهم فالسودان وان كانوا قريبى
الطبع من الهمج لكنهم أحذق أنواع السودان وأقربهم للتمدن سيما من خالطوا العرب
فكانوا مثلهم وأما العرب فهم على نحو الصفات التى ذكرناها فى عرب تونس ومن عادات
الجميع ان مبدأ توقيت الساعات عند الغروب فيجعلون اذ ذاك عقارب الساعات فى
الساعة الثانية عشرة وهى مبدأ الحساب عندهم وما يقابلها من الاثنى عشر ليس لها
وقت معين بل هى على حسب ما يصادف وهذا أول رؤيتى لذلك وعليه عمل جميع الجهات
الشرقية (أما) جميع الاقطار التى مر ذكرها كلها فانها تعدل على الزوال أى الزوال هو
الساعة الثانية عشرة وتنتهى الى نصف الليل فتبتدئ الساعات الاثنتا عشرة التى هى تمام
الاربعة والعشرين ساعة المقسم عليها الليل والنهار ولا شك ان اعتبار الزوال أصح فى
التأقيت لانه لا يختلف عن زمنه سواء طال النهار أو قصر بخلاف الغروب وذلك لان
الزوال عبارة عن توسط الشمس فى قوس النهار وخط نصف النهار يقسم جميع أقواس

النهار بالسواء أعنى أقواس طوله وقصره فلا يختلف الزوال عن وقته بخلاف الشروق والغروب لان الشمس تنتقل عن محلاتها كل يوم وبذلك يكبر قوس النهار أو يصغر فتجد الغروب دائما اما متقدما عن زمنه بالامس أو متأخرا عنه حسب سير الشمس فى طول النهار وقصره بحيث انك اذا حررت الحساب تجد من زوال يومك الى زوال غده أربعة وعشرين ساعة تامة واذا حررته من الغروب الى الغروب القادم تجدها أربعة وعشرين ساعة الا دقائق فى أوقات زيادة النهار فى القصر أو أربعة وعشرين ساعة ودقائق زائدة فى وقت زيادة طوله لكن كان عدول الشرقيين عن التأقيت الذى لا يختلف هو محاذاة الشرع فى اعتبار مبدأ اليوم من الغروب وان لم يكن بينهما تلازم

﴿مطلب فى الاحكام بمصر﴾ الاحكام بها الآن على ثلاثة أنواع (النوع) الاول الشرعى الاسلامى وهو فى كل ما يرجع الى الزواج والطلاق والوقف وغيره مما يرجع الى أحوال الديانة فى المعاملات وهذا له قضاة ومفتون على المنهاج الشرعى وان أحدث فيه مصاريف يأخذها القاضى على الدعاوى مع بعض عوائد تجحف بالخصوم مما أوجب التشكى من ذلك والنوع الثانى بقية المعاملات بين سائر الاهالى ولها مجالس سياسية (ومنها) الضابطة تحكم بحسب قوانين سياسية موافقة للشرع غالبا وتارة يحكم الحاكم باجتهاده كما فى سائر الاقطار السودانية والنوع الثالث المعاملات التى بين الاهالى والاجانب فلها مجالس مختلطة من سائر الاجانب يحكمون بقانون على ملائم لعادات القطر وعلى الاجمال فاهل مصر لهم الحرية الشخصية فيما يرجع الى الديانة وشعائرها حتى صارت المنكرات جهرا ولا يقدر الاب على منع ابنته من مثل ذلك بالحكم اذا بلغت سن الحلم أما بقية الحرية الشخصية وهى أمن الانسان على نفسه وماله وعرضه الا بحق فهذا كانه موجود فى العموم لكن اذا أراد الحاكم المخالفة فالحيل ممكنة وأما الحرية السياسية وهى مشاركة العامة للحكومة فى الرأى فالتحقيق انه غير موجود وان كانت الصحف تتكلم فى السياسة لكنها مخصوصة بالسياسة الاجنبية أما القدح فى تصرفات الحكومة فهو ممنوع نعم لبعض الصحف المستند أصحابها على خصوصيات عينية القدح فى سيرة بعض افراد لمنفعة خاصة والامر موقوف على ما يستقر عليه الحال من الترتيب السابق ذكره فى أحوال السياسة

﴿مطلب فى تجارة مصر﴾ التجارة بها متسع جدا فى السلع الوطنية والهندية والسودانية والاوروباوية وأغلب الاوروباوية فى يد الاجانب (فاما) غيرها ففى يد الاهالى

ولهم براعة فى الاكتساب ولكنهم قليلوا الاسفار فلا تكاد تجد منهم خارج عمالكهم الا النادر وكل من أقام بمصر من الغرباء ربح الربح الحسن من التجارة لان محصولات الاقطار كثيرة فيخرج منها أنواع كالقمح والشعير والفول والتمر والعدس والذرة والارز والسكر وهو جيد كثيرا وقصبه والصمغ وفيه أنواع شتى والنطرون والصوف والافيون والعصفر والجلود والحصر والقطن وهو الغالب وفيه أنواع جيدة وبزره وكذلك سن الفيل وريش النعام والمنسوجات الكتانية وغيرها وهذا كله يصدر منها أما الداخل اليها فاهمه الجوخ أى الملف والحرير والشاشية والزرابى على أنواع والاخشاب للبناء والوقد والعنبر والنقل كالفزدق والجوز والاشربة والبن والصابون والدخان والورق والشمع والزجاج والنحاس وغيره من المعادن مصنوع وغير مصنوع والفرش الصوفية وغيرها بحيث ان مصر مسابقة لاروبا فى الغنى بالتجارة وأنواعها مختلفة منها ما هو على النحو الاوروباوى كالتجارة فى الرقاع الدولية والتجارية ولها مرسى عظيم فى الاسكندرية وكذلك البريد فيها على غاية الانتظام برا وبحرا خاص بالحكومة وتأتى اليها أيضا برد أجنبية بحيث لا يخلو يوم من ورود بريد اليها من الاقطار مع السفن التجارية الكثيرة ومنها ما هو على النحو البربرى من التجارة فى القوافل الى دواخل السودان والصحراء واهمها القوافل السنوية وهى قافلة دارفور وقافلة الحبش وقافلة فزان ولكل منها عند وروده يوم حافل وكل منها تأتى بتجارة ما والاها من دواخل افريقية ولو زاد تسهيل الطرق والاعتناء بما فى السودان لاستغنت عن الخارج وزادت ثروتها للنهاية فان فى السودان كنوزا مكتومة ودونك قيمة قوة التجارة مع الممالك الخارجية لتعلم منه ما يفضل سنويا من المال فى المملكة

٣٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠ قيمة السلع الخارجة فيها
١٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠ قيمة السلع الداخلة سنة ١٢٨٩ نحو فرنك
٢٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ الفاضل

فلولا فائض الدين الاجنبى الذى يخرج سنويا الى أروبا حيث كان أغلبه بيد الاجانب لكان يبقى سنويا فى مصر مائتا مليون فرنكا ولكن مع ذلك أيضا فلا أقل أن يبقى فيها خمسون مليونا كل سنة هذا فضلا عن حركة التجارة فى داخل المملكة وبين أقسامها

﴿مطلب فى الصنائع بمصر﴾ عنصر الصنائع منحط بالنسبة لتقدمها وان كان بها بعض المنسوجات الحريرية والقطنية وغيرها كالفخار والنجارة حتى فى السودان لكنها متأخرة

مما يحب لها ثم ان الفلاحة من الصعيد الى نهاية بحر الروم هى فى غاية التقدم وللفلاحين معرفة جيدة بكيفية رى الارض حتى بالآلات البخارية الرافعة للماء من النيل والترع وبكيفية اثارة الارض وتعميرها فلهم اليد الطولى فى ذلك وترى الفلاح بنسائه وبناته يشتغل آناء الليل وأطراف النهار وأصحاب الفلاحة من الاعيان لهم منازل فى أراضيهم لمباشرتهم الاعمال ولهم ثروة عظيمة من ذلك أما أنواع الفلاحة فهى زراعة القمح والشعير والفول والعدس والحمص والترمس الذى يتخذ منه الاشنان والكتان وخس الزيت والسلجم لما فيهما من الزيت والبرسيم والجلبان والبلة والحلبة والقرطم وهو حب العصفر والخشخاش والخردل وغير ذلك من الخضروات والحبوب والقطن على أنواع لذاته ولبزره ليخرج منه الزيت للصابون والتسريج وكذلك قصب السكر الرفيع ويزرع أيضا التبغ المستعمل للتدخين والفول السنارى فى كل من السودان ومصر وهو صالح للاكل ويستخرج منه زيت جيد لذيذ لا رائحة له ولا طعم واذا اشعل ليس له دخان مثل غيره (وأما) الاشجار فلا يكثر عندهم الا النخل فى جميع الجهات والزيتون استنبت لكنه ردىء الزيت لكنهم لهم حبوب أخرى زيتية كالسمسم والخروع غنية جدا (وأما) البرتقان والليمون فهو قليل والموز كثير غير لذيذ وعندهم شجر الدوم الشبيه بالنخل وكذلك الاهليلج ويزرعون الزهور الطيبة مثل الورد والياسمين وغيرها والاشجار الغير المثمرة قليلة كما تقدم تفصيله فى التعريف بمصر وأيضا قد وجد اعتناء بأنواع من الصنائع سيما التى تمس اليها حاجة الحكومة فتقدم فيها الاهالى كصناعة الاسلحة والبوابور وتوجد معامل للحكومة منها نحو عشرين للسكر متقنة ومعمل آخر لسبك أحرف الطبع وتجليد الكتب ومعمل للسلاح وآخر للسفن وحوض لها وآخر للجوخ وآخر للدبغ وآخر للورق وكلها على النحو الاروباوى المتقن ويمكن أن تقوم بنفسها من الاهالى حتى فى صنع المدافع والبنادق من الطرز الجديد وللاهالى أيضا عدة معامل فى صنوف شتى (وأما) الجهات السودانية فكثير من أراضيها وان كانت صالحة للزراعة لكنهم يباهلون بها فلا يوجد منها الا القليل حول المدن واشتغالهم انما هو برعى الغنم والخيل والابل وصيد الوحوش النافعة للتجارة كسن الفيل وريش النعام وجلد الاسد والنمر وتحصيل الذهب من معدنه الملقى بالطبع كالتبر من سنار والصحراء وغيرها

(مطلب فى المعارف بمصر) العلوم الشرعية كلها نافقة فى القاهرة وكفى بالجامع الازهر

مدرسة

مدرسة للعلوم عامة فقد دخلت اليه ووجدته يزدحم بالدروس والتلامذة ولهم طريقة حسنة فى سرعة ختم الكتب اقراء بحيث ان كل كتاب لهم فيه مدة معينة لا يسوغ مجاوزتها ولا يخرجون فى التقرير عن الشارح والحاشية المعينة للقراءة ووجدت عندهم اعتناء فى الاقراء بالحواشى بحيث لا يقرأ كتاب بلا حاشية معينة يتفق عليها الشيخ والطلبة ولهم اصطلاح فى الاوقات للعلوم مثلا الصباح كله الى الزوال للعلوم النقلية كالفقه والحديث الخ والمساء للعلوم العقلية كالنحو والبيان الخ ويقرأ فقه المذاهب الاربعة وللازهر شيخ هو مثل شيخ الاسلام له النظر على سائر العلماء وتوظيفهم وكثير من التلامذة يقيمون بالازهر فى رواقات خاصة وتجد صحن المسجد ملآن بالتلامذة المطالعين والحافظين للمتون وغيرها وفى كل من الاسكندرية ودمياط وطنطا جوامع حافلة بالعلوم الشرعية وفى بعض مدن السودان أيضا مثل سنار وبربر كذلك ومن عاداتهم جميعا فى الدروس التطويل حتى يبلغ الدرس الى ثلاث ساعات ولا أقل من ساعة ولذلك كان للتلامذة الاطلاق فى هيئة الجلوس بل حتى يتكئون على جنوبهم ووجوههم ويأكلون وينامون وهم فى الدرس (وأما) العلوم الرياضية فلها مدارس عديدة منها للابتدائيين ومنها للانتهائيين جامعة لتعلم اللغات كالتركية والفارسية والانكليزية والفرانساوية ولتعلم الطبيعيات والفلاحة والهندسة والحساب والجبر والهيئة والفلك والطب والتشريح العلمى والعملى والكيمياء وتركيب الادوية وسائر العلوم ومعلموهم من الاجانب والاهالى وفى المدارس سائر الآلات والكتب المحتاج اليها ومنها ما هو مجانا ومنها ما هو بالاجر من التلميذ ومنهم المقيم ومنهم المتعلم فقط وكذلك المدارس الحربية وهذا كله خاص بالقاهرة وتليها الاسكندرية (أما) بقية البلدان فلا يوجد بها الا المدارس الابتدائية فى بعض مدن والبقية انما يوجد بها مكاتب للقرآن والخط وبعض من العلوم الشرعية فى بعض من الجوامع لكن لا توجد بلدة ولو قرية صغيرة بدون مكتب وقد أخذت هاته المكاتب الابتدائية فى التحسين حتى شملت تعلم مبادى الحساب والعبادات والعقائد ورأيت فى جغرافية فكرى احصاء فى سنة ١٢٩٣ لاحوال المعارف دونك خلاصته

تلامذة	مكاتب ومدارس	معلمين
١٤٠ر٩٧٧	٤٨١٧	٦٠٤٦

ولا شك ان العدد تزايد من ذلك التاريخ فلا شك انها فى غنى عظيم بالمعارف والعلوم

النهائيـة الرياضية يكملون تحصيلها فى الممالك الاروباوية ورأيت من تلامذتهم فى باريس ولندره وجنيف وغيرها ورأيت فى مصر وبواخرها سائر العاملين والرؤساء من الاهالى والاجنبيون متوظفون لا للضرورة بل لدواع أخر ولهذا وقع التشكى المشار اليه فى مبحث التاريخ ۰ وقد كثرت المطابع وطبعت فيها الكتب بما جعل سائر المسلمين ممنونين لهم وكذلك كثرت الصحف الخبرية يومية وأسبوعية لكنها فى الحرية على حسب حالة الحكومة

﴿مطلب فى هيئة المساكن﴾ البناء الجديد كله على النحو الاروباوى ظاهرا وباطنا سيما محلات الحكومة ورجالها (وأما) الابنية القديمة والمعتادة للاهالى فليست بجميلة الظاهر بل انه لما كان الطين الذى يبنون به مسودا من أصل لون التراب ولا يضعون فيه الجير الا قليلا حيث كان غاليا ولا حاجة اليه لقلة المطر أو انعدامها عندهم ثم انهم لا يطلون ظاهر البناء على الطرق ولا يبيضونه فصار منظره بشعا وان كانوا يتأنقون فى الرواشن الخشب بالنقش والهيئة لكنهم أيضا لا يصبغونه فيكون لونه مكدرا وصورة عموم الديار ان يكون فيها دهليز ووسط غير مسقوف يحتوى على بعض بيوت لجلوس الرجال والضيوف ووضع بعض المرافق ومحل لغسل الثياب والطبخ محجوز للنساء كل ذلك فى الطبقة السفلية ثم باب ودرج فى الغالب غير حسنة يتوصل منها للطبقة العليا فتجد فيها عدة بيوت أغلبها مائل الى التربيع ويكل منها طواقى للضوء والنظر وتشمل أيضا كنيفا بالوعته مكشوفة وغالبا تحصل منه رائحة كريهة وغالبا تكون البيوت والدرج غير مبلطة ويستعوضون عن ذلك بفرش الحصر والزرابى فى البيوت ويجعلون عليها للجلوس اما مساطب من خشب أو تبن وعليها مقاعد محشوة قطنا وعلى الابواب ستارات ليست بانيقة وانما هى من منسوجات القطن وحول المقاعد متكئات يابسة محشوة تبنا وعليها أنوظر يفة من القطن ولا يزيد البناء على طبقتين غالبا وأما الاعيان فتكون ديارهم على ذلك النحو لكنها أكبر وأنظم وأنظف وربما زادت طبقة ثالثة الى السابعة فى القديم والمفروشات تكون حريرية وصوفية جميلة مع تزيين البيوت بالمرايات والساعات والادوات الصدفية والذهبية والفضية على حسب الرفاهية ويكون فى الطبقة السفلى التى للرجال دواوين كبرى وفى أطرافها دكة من البناء عريضة للجلوس عليها والجميع مبلط بنحو الرخام والكذال وعند الجميع فرش النوم عدة فرش محشوة قطنا أو صوفا خفيفة يوضع بعضها فوق بعض من اثنين الى ثلاثة توضع ليلا عند النوم وتسوى بالوسادات واللحف

وتارة يوضع عليها ناموسية ثم يرفع جميع ذلك صباحا ويوضع فى خزائن فى البيت معدة لذلك ويبقى البيت للجلوس فليس لهم فرش دائمة ولا مكان خاص بالنوم وخدمتهم من ذلك فى تعب كبير وتلك العادة جارية عند جميع المشرقيين فيما رأيت من البلدان لكن من اتخذ تقليد الاروباويين صارت بيوتهم وديارهم ومفروشاتهم ونومهم كلها على نحو ماذكرنا فى بلاد أروبا ومما تعجبت منه فى مصر رؤيتى للزرابى مفروشة وغير ذلك مما ذكرناه مما يزيد فى الحر مع ان قطرهم حار وكان الاولى به الرخام والزلز وغير ذلك مما يبرد المكان ويروق هواءه لكنى لما تذكرت قاعدة الناس على مذهب أمرائهم زال عنى التعجب وذلك ان أمراء مصر منذ مدة طويلة وهم من الترك وهؤلاء بلادهم باردة فجروا فى مفروشاتهم على ما اعتادوه فى بلادهم وقلدتهم الاهالى وحتى العائلة الخديوية الآن لم تزل ناهجة منهج شارة الترك واصطلاحهم بحيث لا يشك الرائى انها قسم من الدولة التركية لما يرى من أسلوب جميع حركاتهم وهيئتهم هذا (وأما) الطرقات فالجديد منها متسع تمر فيه العجلات والقديم فى ضيق عظيم لا يكاد يتخلله الهواء وكلها غير مبلطة الا اسكندرية لان المطر قليل النزول عندهم أو مفقود الا فى اسكندرية وفى كل بلد نظارة لنظافة الطرق والتنوير ليلا ولتحسين البلاد على حسب التيسير اذ لم يزل العمل متماديا فى توسيع الطرق ومصيبة ضيق الطريق عامة فى سائر بلدان المشرق التى رأيتها وكان ذلك فى الاقاليم الحارة لشدة الحر فاذا ضاق الطريق لا تنزل الشمس الى الارض لارتفاع الابنية فيقل الحر نوعا ما لكن ذلك مضر بالصحة لصعوبة تخلل الهواء وكثرة الندى ومخالف للشرع أيضا لان المشروع فى الطرق ان يكون عرض المعتاد منها سبعة أذرع والطريق العام اثنى عشر ذراعا والبطحاآت التى من المشروع أيضا ان تكون أمام المسجد تكون ستين فى ستين كما نص على ذلك فى الفقه والسير وصرح به مكتوب الخليفة الثانى سيدنا عمر رضى الله عنه الآمر برسم الكوفة ومما ذكره ان لا تزيد طبقات دورها عن طبقتين والوجه فى ذلك هو ان الدار اذا اشتملت على أكثر من طبقتين سكن بها أزيد ممن يسكن فى طبقتين فتصغر البلد مع انها بلاد اسلامية منشأة فى وجه العدو فالاصلح تكبيرها وأيضا فساد الهواء من كثرة الاجتماع فى محل واحد ضيق المساحة اذا كان ذا طبقات كثيرة وأيضا تعب الساكن بكثرة الصعود وأيضا كثرة التعب والاسراف فى مصروف البناء اذا علت الطبقات لان المصروف فى الطبقات العليا أزيد بكثير من الطبقة السفلى لما يحتاج اليه من كثرة العملة وأيضا فيه نوع من الكبرياء

والتعبير المنهى عنه شرعا وعلى هذا فضيق الطريق قبيح شرعا وعقلا وحر الشمس يدفع بما
يعمل من المظلات والسقوف كما هو واقع فى عدة جهات من مصر فى الاسواق بل وفى
الطرقات أيضا من سقوف خشبية بعضها محسن وبعضها ليس فيه الا دفع اذاية
الشمس والطرقات فى القاهرة ترش بالماء عدة مرار فى اليوم حتى يحصل فيها نوع طين
والطرق الجديدة العامة كلها محصبة الارض وحواليها الاشجار المظلة والقليل من
الديار بها حنفيات وبها ماء النيل جار فى القنوات والغالب ان يأتى السقاؤن بقرب أو
براميل من ماء النيل غير المصفى ويخزن فى الديار فى جرار كبيرة وكل دار لها عدد معلوم يأتى
لها به السقاء بثمن معين

﴿مطلب فى اللبس بمصر﴾ (أما) لبس رجال الحكومة العادى والرسمى فهو على النحو
الافرنجى غير ان الشارات والعلامات هى تركية صرفة حتى الشاشية والسترة والنياشين
هى ذات العثمانية باسمائها (وأما) لبس الرجال فاهل المدن الاعيان يلبسون قميصا
وسراويل واسعة يربطونها تحت القميص ويسدلون القميص عليها وهو طويل الى نحو
نصف الساق ويلبسون عليه صدرية مقفولة الوسط بعقد وفوقها قفطان طويل الى
الكعبين ويداه تصل الى أصابع اليد ويطبقونه على صدورهم ثم يحزمون عليه بحزام
ويلبسون فوق جميع ذلك جبة طويلة أيضا الى حد القفطان ومقدمها مفتوح الى الاسفل
ويداها ضيقتان الى أسفل المرفق والجميع من الحرير من منسوجات رفيعة وعلى رؤسهم
شاشية تونسية وعمامة قليلة الطول ملفوفة على نحو العمامة التونسية وهو لباس العلماء
وكبراؤهم يزيدون فوق الكل جبة واسعة جدا وواسعة الاكمام أيضا وبعضهم
يلبس العباءة عوضا عن الجوخه والقفطان (وأما) الاواسط وبعض التجار
فيلبسون القميص من أسفل وفوقه صدرية مثل السابقة وفرملة أى صدرية غير مقفولة
ومنتان يصل الى الحزام وسروالا واسعا جدا طويل الالية الى الارض اسود اللون
ويحزمون به فوق القميص وعليه حزام والجميع من المنسوجات الرفيعة المخيطة والمزينة
بخيوط من الحرير حتى تصير كلها مزينة وفى الشتاء يلبسون فوق ذلك كبوطا من الجوخ
يصل الى الركبة وعلى رؤسهم شواشى تركية وحدها أو معها عمائم هندية مطرزة
بالحرير (وأما) الاسافل والخدمة فيلبسون من الشكل الاول الى القفطان وفى الاكثر
يكون من قطن أبيض وعليه بنطلون افرنجى وشاشية تركية أو تونسية والفلاحون
وأهل القرى يلبسون قمصا زرقا وعراقية لبس الاولا يلبسون فى أرجلهم شيئا
(وأما) بقية الاصناف فيلبسون الاجنبية على أنواع شتى من الانواع الافرنجية أو نوع

من

من الحذاء أحمر بلا قدم عال ومن جهة الاصابع يكون مخروطا منحنيا مخروطه الى أعلى
(وأما) النساء فالصنف الاسفل يقتصر على القميص ولا يتستر فى الطريق بل رأيتهن
يخدمن فى آلات البناء ويناولن الحجر والطين وغير ذلك مثل الرجال وهن مشوهات الوجوه
(وأما) الاواسط والاعالى فبعضهن صرن يلبسن مثل نساء الافرنج تماما سواء غير انهن اذا
خرجن فى الطريق يلبسن رداء من حرير ويتنقبن بصفيق من الحرير أو القطن على
أنوفهن فما دونها وفى الحقيقة وجوههن كله مكشوف واذا كن فى العجلات تكون
طواقيها مفتوحة غير انهن يسدلن ستاراتها نحو النصف من الطاقة والبعض الآخر
الذى لم يزل على العادة القديمة فيلبسن على القميص فرملة مزركشة بالفضة وعليها
عباءة رفيعة وعلى رؤسهن مخروطة من ذهب أو فضة او نسيج رفيع وكل ثيابهن يصل
الى الكعب واذا خرجن التحفن فى رداء ثخين وعلى وجوههن نقاب ثخين ويجعلن على
الانف شيئا مثل الاصبع ممسوكا فى النقاب ليبعد النقاب عن الاعين والانف للنظر
والتنفس والنساء لهن صولة على الرجال فى البيوت

﴿مطلب فى الاكل بمصر﴾ (أما) الخبز فالعام عند الجميع هو نوع مستدير فى ارتفاع
أصبع قليل النضج قطره أزيد من شبر ويوجد بقية أنواع الخبز الافرنجى (وأما) الاطعمة
فلها أنواع عديدة والغالب فى الاسواق نوع من الفول مطبوخ فى الماء وعليه شئ من
السمن وكذلك نوع من السمك مقدد عفن الرائحة وسائر طعامهم فيه الادام بكثرة
وادامهم السمن (وأما) الزيت فلا استعمال له الا فى السلاطة وزيتهم ردىء لانه مجلوب من
اكريد والشام وكل لا يحسنون عصر الزيتون والحسن عندهم هو المجلوب من ايطاليا
ولا يستعمل الا فيما ذكرناه كما انهم لا يأكلون من النعم الا الغنم ولحم البقر لا يأكله الا
الفقراء وهو معيب كما انه فى نفسه ردىء والافرنج يأكلونه والفقراء يأكلون الجاموس
والابل وفى القرى والعرب والسودان يكثر أكل الابل وكذلك الذرة والدخن أى الدرع
أما هيئة الاكل فهى على نحو الانواع التى ذكرناها فى تونس (وأما) وقته فهم يأكلون
مرتين غالبا الحداء صباحا بعد الشروق ويخرجون الى أشغالهم ثم يعودون الى ديارهم
قرب الغروب فيتعشون

﴿مطلب فى المواكب﴾ (أما) المواكب الرسمية فهى فى العيدين أى الفطر والاضحى
فيجلس الخديوى فى ايوان كبير بقصره بعد الاعلان من قبل بوقت المعايدة ويكون
لابسا لباسه المزركش الرسمى متقلدا بنياشينه فيدخل عليه رجال دولته
والعلماء الاعيان واحدا اثر الآخر مسلمين عليه بتقبيل ذيله ويقف هؤلاء الكبراء

ثم ينصرفون ويكثر تزاور الناس فيما بينهم (وأما) الاعراس والختان فيحتفلون
لها بزينة الدار ويدعون طباخين معدين لذلك فيأتي الطباخ بسائر أدوات الطعام
والموائد والمناديل والخدمة ويتاجر كفاية كل المدعوين الذين يعين لهم
الوقت للدعوة من بعد الظهر الى قرب الغروب ومهما حضر اثنان أو أزيد أدخلوا
الى بيت كبير وتقدم لهم مائدة على قدرهم فيها أنواع شتى من الطعام المطبوخ والحلو
ويكثرون من الاصناف الى نحو العشرين لونا والمترفون يزيدون الى نحو الاربعين لونا
وهكذا الكل جماعة بحيث يأكلون أكل شبع ولا يوضع اناء يظهر عليه انه به أثر أكل
سابق وعادة تكثير الطعام موجودة حتى للضيوف بل حتى في الاكل العادي يوميا
بحيث ان أواسط الناس لا يكون في مائدتهم أقل من ستة ألوان فطورا وعشاء ولهم
عادة التطوف بالمختون على نحو ما ذكرنا في تونس بل ويزيدون بالتطوف به ليلا
والشموع والمشاعل موقودة والمغنون رافعون أصواتهم بالشعر والمدائح وكذلك
الاعراس يطوفون بالعروسة ومعها المواكب والطبول والمزامير تعزف ولهم أيام لبعض
المنتسبين للصالحين يخرجون فيها تلامذتهم بالالبسة الرفيعة والاعلام والمباخر وغيرها
وينبطح بعض الناس على الارض في الطريق ويأتي شيخهم راكبا فرسه ويمر فوق أولئك
الملقون ولا يضرهم بوطء أرجل فرسه يدعون ذلك كرامة وأعظم المواكب يوم خروج
ركب الحاج وكسوة الكعبة فيحضره الخديوي والعساكر وخلائق لا تحصى وتحمل
الكسوة في محمل على جمل مزين ويحاذيها الخديوي وكبار الدولة بل قد فعل ذلك أمراء
الانكليز مع الخديوي بغاية التوقير والمدافع تطلق الى أن يخرج الركب عن البلاد
وينزل هناك حتى يجتمع المسافرون ويتوجه برا الى الحجاز ويحمل ذلك الركب أيضا
أموالا عديدة لمرتبات وعوائد لاهل الحرمين مع صدقات ومحصول وقف الحرمين ومن
المواكب مولد السيد البدوي في بلد طنطا ويعقد فيها سوق عظيم تأوي اليه التجار من
سائر أطراف القطر المصري ولهم حكايات في كراماته رضي الله عنه في نفاق السلع لكل
قادم غير ان ذلك السوق يشمل من منكرات الزنى ما يستقبح ذكره وشهرته (وأما) الجنائز
عندهم ففيها من عادات الجاهلية أمر فظيع جدا وذلك انه اذا مات الميت تأتي النائحات
الصائحات وتبقى تنوح أسابيع ليلا ونهارا بما يزعج أهل الحارة بحيث اني سئمت المكث
بدار صديق في الاسكندرية لموت جار له ولم أستطع النوم ليلا ولا نهارا وأقبح من ذلك
ان النائحات والنسوة يخرجن مع الجنازة في الطريق الى أن تدفن ويرجعن هكذا

نائحات

نائحات والغريب ان ذلك يقع ولو في محلات العلماء مع انه منكر شرعا وفيه وعيد شديد
وكذلك انكاره عقلا وعادة ولهم اتباع للسنة عند دفن الميت فيطلب قائل الشهادة فيه
من الحاضرين فيشهدون فيه بالخير عملا بحديث من أثنيتم عليه شرا وجبت له النار ومن
أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة أو كما قال صلى الله عليه وسلم

﴿مطلب في اللغة بمصر﴾ اللغة هي العربية ولو في السودان غير ان بعض جهاته لهم لغات
أخرى بربرية لكن اللغة العربية حرفت هناك كثيرا سواء في تغيير الحروف أو في ذات
الكلمات فان الجيم لا يكادون ينطقون به وكذلك الذال يبدلونها زايا الى غير ذلك واذا
سألت أحدا عما تريد قال (تعو زايه) وأشباه ذلك بل ان ذلك جرى حتى عند بعض
أصحاب الصحف فيكتبون كتابة مختلطة بين أصل العربية والاعتيادية مع ان الاصل
في الكتابة هو الرجوع الى حقيقة العربية وهو الجاري عند العلماء والكتاب نعم ان
الكتاب الرسميين صاروا يستعملون بعض الفاظ اصطلاحية أو فرانساوية وكذلك
نفس اصطلاح الكتابة كاد بعضهم أن يخرجه عن الاصطلاح والاسلوب العربي غير ان
هذا ليس بعام بل المهرة تبهر الالباب بلاغتهم في الصحف وغيرها من المكاتبات ومع
ما ذكرنا من صعوبة النطق عندهم ببعض الحروف تجدهم أتقن خلق الله أداء لقراءة
القرآن وتجويده ولهم نحلة فيه تخشع لها القلوب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

﴿مطلب في الاحصائيات بمصر﴾

٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠ عدد أهالي مصر
٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠ عدد أهالي دارفور
٠٠٠ر٠٠٠ر٦٠ عدد أهالي النوبة وزيلع وغيرها
٠٠٠ر٠٠٠ر١٦
٠١١٠٠ طول سكك الحديد أميال
١١٤٧٣ طول اسلاك التلغراف أميال
٠٠٠ر٠٠٠ر١٦٠ قيمة التجارة الداخلة فرنك
٠٠٠ر٠٠٠ر٣٦٠ الخارجة
٠٠٠ر٠٠٠ر٢٤٣ دخل الحكومة فرنكا وكان دخلها في ولاية سيدنا عمرو بن
العاص من خصوص الدخل الشرعي مائة وثمانين مليونا فرنكا خصص منها الثلث
لتكثير الترع والزراعة حتى أوصل ترعة تسير فيها السفن من الفسطاط الى مراسي الحجاز

٠٠٠ ر٠٠٠ ر٢١٦	خرجها
٠٠٠ ر٠٠٠ ر٢٠٠٠	الدين الذى عليها ألفا مليون فرنكا
٠٠٠ ر٠٠٠ ر١٦٢٠	فائضه
٠٠٠ ر٦٠٠ ر١٧٠٠	خراج الدولة العثمانية
٠٠٠ ر١٨٠ ر٠٠٠	عدد العساكر وقت السلم
٠٠٠ ر٠٠٠ ر٠١٣	عدد السفن ليس منها مدرعة وهذا عدا بواخر البريد والنهر

الباب السابع في الحجاز

﴿الفصل الاول فى سفرى اليه﴾

بعد ان اقمت فى السويس بعض أيام منتظرا السفر بباخرة الى جدة وجدت عدة بواخر أجنبية ومصرية فاخترت المصرية وكان رئيسها مسلما وسائر متوظفيها أيضا مسلمون ولا يركب أحد الا بعد أخذ اذن مرسوم على ورقة جوازه من محافظ البلدة و يؤدى على ذلك أداء نسبت قدره وأظنه خمسة فرنكات وعند ركوبى فى الباخرة وجدت الازدحام من الركاب والمشيعين فوق الحد فالتزمت ان أضم الى أتباعى ورحلى الى استقرار الحال فى السفر وجلسنا فى حجرتى بالطبقة الاولى لان بينها صغيرة ليس بها الا حجرتان احداهما اسكنها أحد المصريين بعياله والاخرى سكنتها أنا ورأيت من ازدحام الركاب وتراكمهم على بعضهم مع الوسخ وسوء الحالة وعدم احترامهم للطبقة الاولى وكثرة السكان على سطحها من النساء والرجال بحيث لا يجد الانسان محلا فسيحا يرتاح به ما أسفت منه على الركوب هنالك ولكنى تسليت بما رأيت من انشراح جميع الركاب وعدم اكتراثهم بما هم فيه من المشقة والكدر كما تسليت برفقة الحال منى محل البنوة أحمد ظافر النجيب النسيب وبحسن اخلاق رئيس الباخرة والركاب على السطح من الطبقة الاولى وهم من أعيان قرى المصريين وعربانها و بعضهم له اطلاع على مسائل الفقه وكان أيضا راكبا معنا ناظر بواخر الوسطة الخديوية فى الحجاز وهو محمد موسى لطفى رتبته العسكرية بين باشى وهو كامل الاخلاق والمعارف وله مشاركة حسنة فى العقائد والفقه والعربية مع محافظته على شعائر الدين من الصلاة وغيرها وله اطلاع كامل على أحوال فن البحر لانه كان رئيسا للباخرة التى نحن بها المسماة بالزقازيق ورأيته يشير على رئيسها بعدة أمور وهو ينقاد اليه وله اطلاع أيضا على الجغرافية والعلوم الرياضية وبعض الالسن مع

تفطن

تفطن للاحوال السياسية فآنستنى رفقته مع بقية الركاب وكثيرا ما يقضى الوقت فى مداعبات مع بعض العربان الموسومين بالشيخ وكنت أجد الباخرة كانها بلد اسلامى باقامة الاذان فى الاوقات كلها والصلاة جماعة فى عدة جهات لكن الكثير لم يصل ولا يستطيع الصلاة سيما عند اضطراب البحر وان كان لم يقع منه شئ شديد لكن حصل فى الباخرة تعفن الرائحة سيما فى اليوم الاخير لان أكثر الركاب لا يغسل يديه من الطعام مع كثرة ادامه فضلا عن غير ذلك حتى كانت بيت الطبقة الاولى عفنة لازدحام خدمة سكانها وكثرة أكلهم النوم وعدم توقيهم الوسخ لكنهم يقضون أغلب الاوقات بالتلاوة الحسنة أو انشاد الشعر وقد وجدوا عند تفقدهم الركاب وأوراق ركوبهم ان أحدهم ركب فى الازدحام بدون أداء الكراء وهو فقير واحتجت أصحابه عن الاداء عليه فسجن فى سجن الباخرة و بعد عدة ساعات انتدب أحد أصحاب الخير الى ان دعا رفيقه الذى المسجون خيرا وأذنه بالتطوف على جميع الركاب البالغين ستمائة شخص واعلامهم بحالة رفيقه وطلب اعانتهم له فى اجرة الركوب فحصل له مقدار ذلك وزيادة وعند حضور المال أحضر المسجون وأطلقه نائب الوسطة محمد لطفى المشار اليه مجانا ودفعت له الدراهم والدنانير المجتمعة له ليستعين بها فى حجه ورأيت من بعض الاغنياء الشح المطاع فى هاته الواقعة ومن بعضهم الاقتصاد ومن بعضهم الكرم ولما بلغنا سمت رابغ اعلم الرئيس الحجاج بذلك ليحرموا فاغتسلوا وأحرموا بنزع ثيابهم والله اعلم بكيفية غسلهم وأدائهم فرض الاحرام لان حالة الضيق والوسخ فوق ما اقدر ان اعبر عنه ولا يعلم مقدار ذلك التعب الا من شاهده وأضف الى ذلك ان الباخرة لا تعطى الاكل ولولا اصحاب الطبقة الاولى فلزم كلا أن يطبخ لنفسه وأغلب الركاب كان معهم زادهم مما يصبر من الطعام من لحم وغيره وكنت أخذت زادنا من السويس لحما ودجاجا وخبزا وغيره فكان طباخى يطبخ لى وان معى فى مطبخ الباخرة وفى ذلك من المشقة ان لم يمتد البحر ما لا يخفى فكان ذلك من عجيب أمر الباخرة مع انها بريدية وذلك خلاف معهود صفتها ولما سألت نائب الوسطة عن سبب ذلك قال ان الركاب الى جهات البحر الاحمر لا يوجد منهم من يأكل من الباخرة فرأينا ترتيب ذلك عبثا ولهذا تجد بواخر البريد فى البحر الابيض على نحو غيرها وأما هنا فلا ثم عند غروب اليوم الثالث من ركوبنا اقل سير الباخرة وأعلمنى الرئيس بذلك لانها ان دامت فى سيرها تصل الى جدة ليلا ولا يتيسر الدخول اليها الا نهارا فكان تقليل السير أولى من الوقوف قربها و بعد شروق اليوم الرابع وصلنا الى جدة فتلقانا دليل المرسى

وهو اعرابي لابس قميصا أزرق وعلى رأسه عمامة حمراء راكب قاربا فصعد الى الباخرة
وصار يأمر بالسير يمينا وشمالا لكثرة شعاب الحجر المغطاة بالماء حتى
دخلنا حوض المرسى فاذا هو حوض وسيع أمين طبيعي بما حوله من الاحجار الخلقية
وفيه عدة بواخر أجنبية وباخرة حربية صغيرة للدولة العثمانية وعدة سفن شراعية صغيرة
وبعد الارساء وأخذ الاذن في النزول من مأموري الصحة ونزول أغلب الركاب نزلت
مع رفقائي ودفعت على كل واحد منا نحو أربعة فرنكات لاخذ ورقة على أن المدفوع
لنظافة أماكن الحج فكان نمرة ورقتي ٧٦ ألف ونيف من المئات والآحاد ونسيت الآن
تحرير كل الاعداد ولقيت أحد مطوفي التونسيين وهو جميل الاخلاق على خلاف
غيره فاذ بشار حالنا للتفرق وتعسف المأمورون الى أن أخذوا عشرة فرنكات وأقل
مكرهم بمن لا يعطيهم تركهم لحوائجه أياما بدعوى كثرة شغلهم فهم من أخس
المأمورين وأكثرهم سرقة كما علمت ذلك من التجار وغيرهم ثم دلني المطوف على دار
اكتريت احدى طبقاتها وأقمت هنالك ثلاثة أيام وجدة بلدة على ساحل البحر هي
مرسى الحجاز العظيمة للحجاج والتجارة من سائر الجهات وسكانها أغلبهم من العرب
والهنود ثم المغاربة والآفاقيون حتى الافرنج ولها أسواق رحيبة مسقفة وتكنس البلد
وترش يوميا وتنور ليلا بزيت النفط وبها جوامع حسنة وماء شربها يؤتى به من بعد
في قرب من مصانع وفساقي وهواؤها حار جدا ردىء لان أرضها سبخة وبها بعض ديار
جميلة المنظر لنواب الدول وبعض التجار وأغلب المباني الكبيرة للكراء فيها املاك للاشراف
وبعد ان أتممت فيها لوازم السفر من الفرش والبسط وأحرمت منها حيث كنت قاصدا لها
لما آرب لي فيها غير أني لم أنزع ثيابي وفديت عن لبسها بدما اكتريت جمالا لي ولاصحابي
فركبت الهودج الذي اشتريته من هنالك وهو مثل مهدين من عيدان مسمرة ومشدودة في
بعضها على نصفين كل نصف طوله نحو ذراعين وعرضه ذراع أسفله الذي هو محل الجلوس
حصير من عرف النخل مشدود في تلك العيدان وفي زواياه الاربع عيدان صاعدة نحو
ذراعين ونصف ثم تقوس الى أن تتصل ببعضها فيحصل منها شكل أربعة أقواس متقابلة
ويشبك على نحو الربع الاسفل منها شباك من حبال جيدة من الحلفاء لتحمي الراكب
من السقوط وذلك في جهة واحدة وهي جهة الجنب المقابل لظهر الجمل ثم يوصل كل من
النصفين بصاحبه فيتألف من ذلك مهدان متلاصقان وكان مع بعضهما بحبال متينة
ولكل منهما أربعة أرجل تستند بها على الارض اذا برك الجمل ثم يوضع على الجميع من فوق
زربية

زربية أو كليم أو منسوج قطني على حسب ارادة صاحبه ويدلى ذلك مع الجنبين الخارجين
ويخاط على تلك الاعواد ثم يجعل من فوق جلد بقر أو جمل ويخاط أيضا ليمنع نزول
المطر ان وقع ثم يفرش كل من الشقين بزربية على عدة طبقات ومعها لحاف محشو قطنا
ثم توضع عليه ستة أو ثمانية وسادات محشوة قطنا أيضا من جهاته الاربع ويشق
بالقطع في الغطاء الشامل من الجهة الخارجة نحو طاقة لها ستارة من ذاتها ترفع وتنزل
وتمسك بخيوط ويربط في قوائم الاقواس عدة جيوب من سعف النخل لوضع اناء الماء
وغيره مما يخف من ضروريات المسافر وزاده بحيث يصير كل من القسمين فراشا
مريحا يضطجع به الراكب ويكون أمامه وخلفه مفتوحا وجنبه الذي من جهة رفيقه
مفتوحا أيضا وجنبه الآخر به طاقة ان أراد فتحها والا أغلقها ثم يوضع الجميع على الجمل
ويربط به ربطا محكما ويوضع سلم من خشب رقيق في مقدم الهودج المسمى بالشقدف ليصعد
منه الراكب الى شقه ويمسك الجمال الشق الآخر الى ان يصعد اليه صاحبه أيضا ويعدلان
في الثقل ويسير بهما الجمل ويلزم ان يكون جملا مؤنسا بذلك وكان ركوبنا بعد
صلاة العصر خارج البلد ومع كون ذلك المركب متوسط الراحة وجدت في نفسي
تعبا من سير الجمل الهين حتى حصل لي نوع من الدوار لكن اذا تأنس به الانسان يومين
يزول عنه ذلك ويصير مرتاحا سوى الفرق بين قوة الجمل وسيره فان الضعيف والغير
المؤنس يتعب مشيه التعب الزائد وكان عندي أحد أتباعي وبقيتهم ركبوا على جمال
الرحال وبعد ان سرنا عشيتنا وليلتنا وصباحنا ولم ننزل الا سوى الصلاة في أوقاتها وصلنا
عند الضحى قرية تسمى حدة في صحراء مقفرة بها بعض عيون عذبة عليها شيء من النخل
وعلى الطريق قهاوي من أعواد الحطب والحصير كثيرة العدد أكثرها فارغ لمن يريد
النزول فنزلنا بها واكتريت اثنين منها ففرش لنا بها حصر وأتى لنا بماء فأكلنا
من زادنا وأطعمنا الجمالين والقهوجي واسترحنا الى بعد الظهر فركبنا ووصلنا مكة
المشرفة بعد نصف الليل ولم نر في الطريق الا أفرادا وأكثر المشي ليلا سيما على الحمير
لان كثيرا منهم من يركب من جدة الى مكة على الحمير وهي سيارة فيصلونها في نحو تسع
ساعات الى احدى عشرة ساعة لكن ذلك وان كان فيه قلة الحصة لكنه متعب فلذلك
آثرت الجمل وعند الوصول الى خارج مكة المشرفة سألت هل يوجد حمام هنالك فأجبت
بانه لا يوجد الا الماء البارد ولم أستطع الاغتسال به فلذلك اكتفيت بالوضوء ثم تلقانا
المطوف وطلبت منه أن يكتفي باعلامي بالامكان والاعلام بالمشاعر كأن يقول لي هذا

باب السلام والكعبة مقابلة اليك أو عن يمينك الى غير ذلك حيث كنت علمت
انهم يزيدون وينقصون ويدعون ويأتون بما لم يرد به الشرع وكنت استصحبت
عدة كتب في الفقه وفي خصوص المناسك وأخذت منها ما يسره الله لفهمي غير اني
وجدت في بعضها رسالة في المناسك لملا علي قاري فلم أنظر اليها الان صاحبها له
تحرفة في حق أبوي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يكون له علي أدنى منة
وأغنانا الله عنه بتآليف علماء أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم المحبين في آله
الكرام والمعظمين لجنابه العظيم عليه وعلى آله أكمل الصلاة والتسليم فاقبلت الى باب
السلام وأديت هنالك ما ينبغي ونظرت الى الكعبة المشرفة ولله الحمد ثم دخلت المسجد
الحرام وطفت بالبيت الكريم وقبلت الحجر الاسعد وسعيت بين الصفا والمروة وأديت
ما استطعت مما ينبغي في ذلك القدوم المبارك ثم توجه بي المطوف الى دار وكيل تونس
حيث كان ساكنا فيه كل من الاخيار الثقات السيد أحمد والسيد اسماعيل والسيد محمد
أبناء زروق القادمون من تونس قبلي حجاجا وأقمت بقية تلك الليلة عندهم وصلينا
الصبح في المسجد الحرام ثم أخذت منزلا أقمت فيه ولم يرد صاحبه أخذ كراء عليه
وابتدأت رؤيتي لسوء أخلاق بعض الاهالي مما كان ينبغي لهم التحاشي عنه عفا الله
عنا وعنهم وبعد ان أقمنا بضعة أيام تشرفت فيها بالدخول الى داخل البيت المعظم بمحاسن
أخلاق الفاضل الشيبي وذلك ليلا ولم يكن معنا الا افراد قليلون بحيث تيسر لنا التنعم
بتلك البقعة العظيمة والتبرك بما احتوت عليه من المشاعر وكذلك تشرفت بالمثول بين
يدي المولى الشريف المعظم صاحب الاخلاق الحسان والتواضع مع ما هو عليه من رفعة
الشأن المقدس الشهيد سيدنا حسين أمير مكة قدس ثراه وهو رحمه الله حسن الاخلاق
متواضع عفيف جدير بمنصبه السامي ولاقينا بعضا من أعيان البلاد كالنحرير البارع
أحمد المشاط وغيره ولما آن وقت التوجه الى منى ابتدأ المطوف ووكيل تونس في تهويل أمر
الذهاب اليها والى عرفات وأكبرا في ذلك ما شاءا حتى ظننت انها مسافة سفر وان الحرب
ثائرة في الطريق فوجهت رحلي على الجمال واكتريت أحمرة لركوبي وركوب من
معي مدة أيام الحج وبينما نحن سائرون والطريق في غاية الراحة والامن والعمران واذا
نحن بقرية سألت عنها فقيل لي هي منى فبقيت متعجبا من قول أولئك المرشدين اذ لم تكن
تبعد عن مكة الا أربعة أميال ولكني عرفت السبب في عملهم تجاوز الله عن الجميع
وأقمت ليلة بمنى ثم توجهنا صبيحة اليوم الثامن الى عرفات لوقوع الشك في ثبوت الشهر

وأقمنا

وأقمنا فيه الى ليلة العاشر من الشهر وبعد الوقوف وأخذ حصة من الليل أفضنا من
من عرفات بعد ان أدينا ما نسأل الله قبوله وكان موقفا تقشعر منه الجلود من خشية الله
لالتجاء عباده اليه حسبما أمرهم وكانت الارض تموج بالخلائق ضارعين لباريهم جل
وعلا تقبل الله من الجميع وعند الافاضة اتفقت مع الجمال ومع الرفقاء على التأخر
عن الازدحام وأخذ الطريق الاقل ازدحاما وكان دليلنا مضمرا خلاف ذلك لانهم انما
يرون من شعائر الحج الظواهر وهم عن حقائق المشروعات غافلون فيرغبون في الالتحام
والزحام والخصام لتبقى لهم وقائع يتحدثون بها سنتهم فلما افضنا كانوا يسرعون السير
ومن عادة حميرهم أن لا ينقاد الى راكبه بل الى سائقه فقط ولو انقطع اللجام من فيه
فأدخلونا كرها في وسط الزحام ولم يبق منا واحد يسمع صوت صاحبه لثوران عجيج
الصياح والرغاء والنهيق فمن حاد يحدو ومن داع يدعو ومن مصرخ ينادي رفيقه ومن
صائحة مستجيرة بالمارة من سقوطها ومن آن يئن من كسره بسقوطه ومن باك متذكر
هول المطلع ومن بعير يرغو لسقوط حمله وحمار ينهق لرؤية أتان وأناس ملقاة وآخرون
يجرون وآخرون يزدحمون وآخرون واقفون بالظلام مرخ سدوله والناس لا يذكر بعضهم
بعضا كل طالب النجاة لنفسه فرأيت أنموذجا لهول يوم الفزع الاكبر وما أيقنت بالنجاة
لنفسي حتى دهمني بعض شقادف الجمال فأسقطني عن حماري وخرجت من بين أرجل
الحيوانات متطلبا للنجاة ذات اليمين حتى يسر الله لي الخروج عن الطريق بالصعود
الى حجر مرتفع فجلست هنالك حامدا الله على النجاة وبعد هنيهة لحق بي بعض أصحابي
وجاءني الدليل حاثا على الذهاب والا نكن في خطر من البدو فقلت له يا أيها الرجل
ان الله حرم في هذا الموطن الجدال ولكن ما عليك من الانذار فقد أديته وأنا في نفسي
أفعل أخف الضررين لان البدو لا يفعلون أكثر من القتل وهو الذي تدعوني اليه لان
أفعله بنفسي على انهم يقتنعون بأخذ السلب ودونه الدفاع ما استطعت ووراء هذا كله
انه لا وجود لشيء مما تهول به وهؤلاء الخلائق في الطريق وعند آخرهم أتوجه فدعني
ونفسي فذهب مغاضبا وبقيت أنظر في عجائب الخلق من الحالة التي بيننا بعضها الى
أن خف الماشي فرافقت آخرهم حتى وصلنا الى المزدلفة ولم أجد رحلي فجلست في قهوة
حتى مر بي أحد أصحاب رحلي فانتقلت اليه وجمعنا بين المغرب والعشاء ثم بعد أداء
مناسك المزدلفة توجهنا الى منى وخيمت في مرتفع من الارض في أطراف نزل الحاج
مع أهالي جاوة ورجعت الى مكة وأديت بقية المناسك وفككت الاحرام ثم رجعت

الى منى الى تمام أيامها وكان فى اليوم الاول عند رمى الجمار من الزحام ما وصفنا بعضه حتى مات عدة أناس وانكسر عدة وانما ذكرت هذا تنبيها للاخوانى حتى يحترزوا من ذلك ولا يغتروا بأقوال الادلاء لان لهم مقاصد وأطوارا غير محمودة ثم اتممنا مناسك منى ورجعنا الى مكة واكتريت بيتا فى المحصب خارج مكة طلبا لصحة الهواء وبرودته لان المرض اشتد على ثم أحرمت بعمرة وأديت مناسكها ثم خيمت قرب الركب الشامى الى أن تهيأت القافلة التى اكتريت بها الجمال للتوجه للمدينة المنورة فسافرنا اليوم التاسع عشرين الشهر واشتريت حمارا للارتياح عليه فأفادنى جدا لانى كنت أركبه بعد الظهر فنسير ومعى أحد رفقائى الذين صاروا معهم بعض التونسيين الى أن نصل الى أول القافلة الحاوية عدة مئات من الابل والمسافرين فنأتى الى جهة مستظلة قرب الطريق ونجلس على زربيتين ونستريح ونتوضأ ونصلى فى نحو ساعة أو ساعة الا ربعا فيأتى آخر القافلة فنركب الحمار ونفعل كذلك مرتين أو ثلاثا الى أن نصلى المغرب ويشتد الظلام فنركب الجمل وكان سفرنا على الطريق الفرعى بعد ضمانة مشايخ أصحاب الابل لامير مكة فى أمن من معهم وكان كراء الجمل الذى عليه الهودج ثلاثة وعشرين ريالا دورو أى مائة وخمسة عشر فرنكا من مكة الى المدينة ومنها الى ينبع وبقية جمال الرحل والاتباع لكل جمل خمسة وسبعون فرنكا واكتريت رجلا بدويا من موالى الجمالة شجاعا قويا لقود الجمل الذى نركبه والاعانة على بقية اللوازم فرأيت منه خيرا لكنه لم يوف بوعده فانه تخلف عنى فى المدينة المنورة ولم يصل الى ينبع فرحلنا من مكة اليوم الاول بعد الظهر وسرنا يومنا فى طريق طيب ونزلنا بعد العشاء ثم رحلنا قبل الشروق وصعدنا فى جبل وعر جدا وبعد أن سرنا فيه نحو خمس ساعات سرنا فى طريق بسيط الى المدينة المنورة ولولا ذلك الجبل لكانت العجلات تستطيع السير بسهولة فى الطريق وكان سير الجمال لا يزيد عن ثلاثة أميال فى الساعة حسبما حررته اذ ذاك وهو سير هين متعب وتدوم المرحلة من اثنتى عشرة ساعة الى ستة عشرة ساعة وواحدة منها دامت اثنتين وعشرين ساعة بحيث جعلوا مرحلتين فى واحدة لكى يستريحوا يوما بدون رحيل فى بلادهم وهى الجديدة ولا ينزلون الا قرب ماء وفى الليلة الثانية عشر وصلنا المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فدخلناها عند الفجر وتلقانا المعرف التونسى الخير حلابة والمعرف هنالك يسمى مزورا ونزلت عند الفاضل النحرير صاحب الاخلاق الحميدة والصفات السديدة البليغ الكامل عبد الجليل برادة جازاه الله خيرا وكثر من أمثاله فى الامة وبعد أداء الآداب والسنن

أسعدنى

أسعدنى الله بالوقوف بين يدى نور العالم وسيد الخلائق وملجأ الامم وفضل الله على خلقه ورحمته للعالمين سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فياله من حظ نفد به بالمهج ويا له من فضل تبدى من كرم الله وبلج وحظيت بالسلام عليه وعلى صاحبيه عليه الصلاة والسلام وعلى آله الكرام وأصحابه الاعلام وفى اليوم الثالث انشدت بين يديه عليه الصلاة والسلام قصيدتى التى مطلعها

الى السدة العظمى شددت عزائمى * الى سدة الاجلال شمس المكارم

وبثثت اليه عليه الصلاة والسلام شكواى فى دنياى وأخراى ونلت قضاء أغلب مطالبى ولله المنة والحمد منها ما قضى فى حينه ومنها ما تم قضاؤه بعد مدة قليلة وأنا أرجو كرم الله فى قضاء باقيها بوسيلة رسوله عليه الصلاة والسلام وزرت آل البيت عليهم السلام وكثيرا من الاصحاب والائمة الاعلام والمشاهد المباركة ثم قفلت مع القافلة وتوجهنا الى ينبع ورفعنا ما أبقيناه من رحالنا فى بلد الجديدة ووصلنا ينبع فى الليلة الرابعة قرب الفجر فاردت النزول فى خيامى فمنعت لاجل ان اكترى دار الاخ حاكم البلدة واكتراها الى بخمسة وثلاثين فرنكا فى الليلة وهى أربع بيوت خربة اثنان فوق اثنين والدرج خربة وليس بها ولا حصير فأقمت بها ثلاثة أيام وكان فى المرسى ثلاث أو أربع بواخر تنتظر ازدحام الحاج فجاءت باخرة نمساوية بها قافلة من الهند ومرت على جدة ثم ينبع فاكتريت بها قاصدا الآستانة

الفصل * الثانى

﴿ فى صفة البلدين المكرمين وموكب الحج ﴾

﴿ مطلب صفة مكة المكرمة ﴾ أما مكة المشرفة فهى واقعة فى عرض ٢١ درجة و ٣٠ دقيقة شمالى وطول ٣٧ درجة و ٣٦ دقيقة شرقى واسمها مكة وبكة وأم القرى وأول من سكنها سيدنا ابراهيم عليه السلام بوالدة ولده سيدنا اسماعيل عليه السلام فكان سيدنا اسماعيل أبا العرب ورفع هو وأبوه قواعد البيت العتيق فكان مقصد الامم الحنيفية وهذا البيت الكريم هو فى وسط المسجد الحرام وزواياه الاربع مقابلة للجهات الاربع أعنى الجنوب والشمال والغرب والشرق وآخر بناء له الى الآن هو بناء السلطان سليم الثانى على نحو الاصل الذى كان عليه زمن النبى صلى الله عليه وسلم لان سيدنا عبد الله بن الزبير بناه على قواعد ابراهيم عليه السلام وأدخل فيه الحجر ثم هدمه

عبد الملك وأعاده على هيئته زمن الرسالة فلما استخلف أبو جعفر المنصور أراد أن يعيده على ما بناه ابن الزبير لان النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها لولا قومك حديثو عهد بكفر لبنيت الكعبة على قواعد ابراهيم فلما زال المانع وحدوثية الايمان ترجح عوده الى الاصل واستشار الخليفة الامام مالك بن أنس رضي الله عنه فقال له ما معناه يا أمير المؤمنين لا تجعل بيت الله ملعبة بأيدي الملوك فان الذي رأيته وان كان صوابا لكن ابقاؤه على حالته احتراما لشأنه أولى فبقى على ما هو عليه الآن وأساس جدران الكعبة مرتفع عن الارض ما بين عشرين صانتي الى ثلاثين وزائد العرض عن الحيطان ما بين عشرين الى أربعين فهو كالدرجة محيط بالجدران وهو المسمى بالشاذروان والحجر الذي هو من قواعد ابراهيم عليه السلام في جهة البيت الواقعة بين المغرب والشمال ومحيط به الحطيم الذي هو بناء مستدير نحو نصف دائرة ارتفاعه مترو وسمكه مترو ونصف مغلف بالرخام وينتهي قوس النصف دائرة قبل أن يصل الى جدران الكعبة بنحو مترين وخمسة وثلاثين صانتي والبيت مبني بصخر كبير وأرضه مرتفعة عن مساواة المسجد نحو مترين وبابه قرب الركن الشرقي مستقبلا ما بين المشرق والشمال ويصعد اليه بدرج مثل المنبر في المواكب العامة وعند فتحه الخصوصي يؤتى له بسلم صغير وعتبة الباب من فضة وعواضده من مرمر والباب بدفة واحدة وقفله من ذهب وهو من خشب الساج وداخل البيت ثلاث أسطوانات من القماري قطر الواحدة أزيد من شبرين وارتفاعها أزيد من ستة أذرع وعليها مكابس من ذهب والبيت مبلط بقطع كبيرة من المرمر وكذلك حيطانه وسقفه من الساج وفي ركنه الشرقي من خارج ما بين المشرق والجنوب في ارتفاع قامة الحجر الاسود وهو حجر محفوف الجوانب بصفائح من فضة أسود لامع أثرت فيه أيدي اللامسين حتى صار في بعض جهاته انخفاض وصار ذا شكل مقعر مثل اناء الشرب واصله قطعة واحدة ثم تشقق من ضرب المنجنيق عند ما حوصر ابن الزبير رضي الله عنه فجعل له صندوق من الفضة وبه فوهة يظهر منها الحجر قطرها سبعة وعشرون صانتي مترو أي نحو شبر وثلث وفي سطح البيت ما بين الشمال والغرب ميزاب الرحمة من ذهب يصب في الحجر والبيت طوله مما بين المشرق والشمال أزيد مما بين المغرب والجنوب فطوله اثنا عشر مترو وعرضه عشرة أمتار وعشرة صانتي عدا الشاذروان وارتفاعه خمسة عشر مترو ويكسى كل عام بكسوة من الديباج الاسود يؤتى بها من مصر وعليها حزام مزركش بالفضة مكتوب به آيات

كريمة

كريمة وكذلك نفس الكسوة فيها كتابات جيدة بالقلم الثلثي من نفس النسج وقبالة باب الكعبة على نحو اثني عشر مترو مقام ابراهيم عليه السلام وفيه بيت مربع داخله آيات بينات من تأثير القدمين في الصخرة ووراءه بانحراف الى الجنوب الشرقي بئر زمزم وعليه قبة وحوله أحواض وعليه بكرات من النحاس ثم صحن المسجد متسع جدا طوله مشرقا ومغربا مائة واثنان وتسعون مترو وعرضه مائة واثنان وثلاثون مترو والرواقات مرفوعة أقواسها على اسطوانات من حجر وسقوفها قباب من بناء وفي وسط الصحن على بعد نحو اثني عشر مترو من الحطيم اسطوانات من حديد أو نحاس ذاهبة في الهواء موصولة ببعضها بسلاسل من نحاس يعلق بها منائر ومصابيح وهي دائرة بالبيت علامة على حدود المطاف وعلى سمت الركن الشمالي على بعد كلة لجلوس المؤذنين والمسمعين وخلف المطاف وقبالة جهة البيت التي بها الميزاب يقيم امام الصلاة من مذهب الحنفي وله محراب وهو أول مصل في الاوقات كلها ما عدا الفجر فاذا أقيمت الصلاة وتقدم الامام الحنفي رأيت المسجد الحرام كله على غاية من الهدو ولم أر شيأ لم تدخله البدعة أبدا الا الصلاة في ذلك الوقت ما عدا تسميع المسمع فهو زيادة على بدعة تغنيه يريد أن يضع المؤذن أصبعيه في أذنيه وهو في الصلاة وما عدا هذا فانك ترى آداب الاسلام حقيقة وامتثال الخلق أمر خالقهم فيقع من الخشوع ما لا يعلمه الا الله سيما في صلاة الجمعة ولله الحكمة البالغة في وسع المسجد كل من يدخله وترى الخلق مع ذلك الازدحام على غاية من التؤدة وامتثال أمر الشرع بحيث لا تسمع الا همسا من تسبيحهم وتكبيرهم في الركوع والسجود فاذا سلم الامام الحنفي عادت الحركة لما كانت عليه ولو عند صلاة كل من أئمة المالكي والشافعي والحنبلي حتى لا يكاد المؤتم يعلم بحركات الامام أما صلاة الفجر فيتقدم فيها الشافعي على غيره لان مذهبه يرى استحباب التبكير بها وكل أحد من الائمة له جهة من جهات الكعبة يصلي اليها وقد علمت محل الامام الحنفي وأما الشافعي فمحرابه خلف مقام ابراهيم عليه السلام وأما المالكي فمحرابه تجاه الضلع الغربي الجنوبي من الكعبة خلف المطاف بمترين وأما الحنبلي فمحرابه مواجه للضلع الجنوبي الشرقي على نحو ذلك البعد أيضا وباب السلام من المسجد الحرام تجاه باب الكعبة وباب الوداع في الجهة المقابلة له ووراء الرواقات عدة مدارس لسكنى المجاورين ويسكن بيوتها الحجاج أيضا وحول المسجد من أغلب الجهات طرق وباب السلام يفتح في الطريق الواقع بين الصفا والمروة وهو طريق متسع حوله ديار ذات عدة طبقات ومنها دار الشيبي وأسفل الديار حوانيت عليها مظلات يباع

بها المأكولات وغيرها وكل من الصفا والمروة محل فى نهاية زاوية من الطريق متسع ذو درج عريضة تنتهى الى حائط وبينهما طريق متسع عرضه ما بين عشرة واثنى عشر مترو وطوله نحو أربعمائة وخمسة أمتار وفى وسطه محل الهرولة فى السعى تبتدئ من الميلين أى العلمين الاخضرين على بعد خمسة وسبعين مترو من الصفا عند باب البغلة من الحرم وتنتهى الى العلمين الآخرين بعد مسافة نحو سبعين مترو عند باب على وكل من العلمين يقابله مثله فى الحائط المقابل وفى مكة المشرفة أسواق كثيرة يباع بها سائر سلع سائر الاقطار وأكثرها سلع الهند كما أن التجار أكثرهم من أهالى الهند والاسواق مسقوفة بالواح وفيها قهاوى كما أن أطراف البلاد عند مداخلها فيها قهاوى على نحو الخصوص ويجلس فيها على كراسى كبيرة وصغيرة من أخشاب الحطب وعزف النخل وخارج البلد على طريق عرفات مقبرة المعلى ثم بعض بساتين لافراد من الاشراف رضى الله عنهم وبيوت لبعض من الاعراب وغيرهم وفى جبل أبى قبيس المطل على المسجد الحرام مسجد صغير وبعض ديار وزاوية للشيخ السنوسى وشرب جميع الاهالى من عين زبيدة التى أوصلتها امرأة الخليفة هارون الرشيد من قرب عرفات الى مكة فمبنيت بها وعلى مجراها فى الطريق والبلاد عدة منافذ يملأ منها السقاؤن وغيرهم ويحصل من كثير من الناس تقذيرها بما يلقون فيها من الاوساخ كما توجد آبار أخرى عميقة جهة الزاهر وغيرها يؤتى بالماء منها ويفرقه السقاؤن على الديار فيوضع فى جرار ثم يملأ منه دوارق وتوضع فى طواقى أوغيرها مما يمر عليه الهواء البارد فيبرد الماء لكن من عادتهم فيه أنهم يبخرون الدوارق بعود يسمى عود القفل وهو الكثير وتارة بالمصطكى فيحصل طعم فى الماء غير شهى والقفل أسوء وهم يرونه حسنا وتنقسم مكة الى سبعة عشرة حارة وقيل ان عدد سكانها مائة وسبعون ألفا

﴿مطلب فى صفة المدينة المنورة﴾ واسمها المدينة وطيبة وطابة ويثرب واقعة فى فسيح من الارض المرتفعة فى عرض ٢٥ درجة و ٢٠ دقيقة شمالى وطول ٣٧ شرقى وغربيها على نحو أربعة أميال جبل أحد وعليها سور حصين وحصون ذات مدافع وخزائن للذخائر الحربية والحرم الشريف النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام فى جهتها الشمالية الغربية وقد جدد الحرم الشريف والمسجد السلطان عبد المجيد فكان المسجد وحده مائة وخمسة وخمسين ذراعا طولا أى من الجنوب الى الشمال وعرضه مشرقا مغربا من جهة الجنوب مائة وخمسة عشر ذراعا ومن جهة الشمال ثمانية وثمانون ذراعا

ذراعا ونحو ثلاث المسافة أيضا صحن المسجد الذى هو جهة الشمال ومحيط به رواقات وكله من بناء ضخم مرفوعة قبابه على أقواس قائمة على اسطوانات من المرمر الاحمر المأخوذ من مقاطع بجاز به قرب المدينة وكذلك عواضد الابواب وصحن المسجد تحيط به رواقات وما عداها مكشوف وليس بين المسجد والصحن أبواب وباب السلام من غربى المسجد قرب حائط القبلة والمحراب فى نحو ثلثى عرض المسجد أعنى أنه أقرب الى الشرق حتى يكون قبالة المحراب النبوى الاصلى لان المسجد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام قد زيد فيه مرارا أولها فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه حين ازدادت كثرة المسلمين وآخرها الى الآن ما زاده السلطان عبد المجيد رحمه الله وكل من زاد فيه يتحرى مواقف النبى عليه الصلاة والسلام لتبقى محفوظة فلذلك وان زيد فى جهة القبلة حتى صار حائطها يبعد عن حرم الحجرة الشريفة نحو الثمانية أذرع مع أن حائط القبلة كان مساويا لحائط الحجرة لكن بقيت بقعة المحراب الاصلى معلما عليها والمحراب الجديد قبالته أما المنبر فهو وان تغيرت ذاته لكن محله لم يتغير وهو الآن من المرمر المتقن والاصلى من خشب وأما الحجرة الشريفة فالاصلية عليها بناء ضخم مستطيل من الغرب الى الشرق وعليه قبة عالية أرفع من سائر قباب المسجد وداخلها القبر الشريف المكرم لصق الحائط القبلى من جهة الغرب ويليه قبر الصديق رضى الله عنه لجهة الشمال متأخرا الى المشرق بحيث ان رأس الصديق رضى الله عنه مسامتة لاسفل من رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو ذراع وذلك تأدبا من الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يليه شمالا أيضا بانحراف للغرب قبر الفاروق رضى الله تعالى عنه وهاته الحجرة لا يدخلها أحد ووراء حيطانها من خارج شباك من حديد متين متصلة قواعده برصاص مذاب غليظ الجرم مالئ للاساس الى عمق عميق حتى اتصل بطبقة الماء فى الارض والسبب فى وضعه هو انه كان فى مدة السلطان نور الدين الشهيد بمصر حدث حادث عظيم بالمدينة وكان أمر الحجاز اذ ذاك تابعا لسلاطين مصر فرأى السلطان نور الدين رؤيا هالته وهى أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فى ليلة واحدة وهو يقول له أنجدنى أنقذنى من هذين الرجلين وأشار اليهما فرآهما رجلين أشقرين وتحقق وصفهما وعلم التأكيد من النبى صلى الله عليه وسلم فى أمرهما والاسراع به فاستيقظ السلطان رحمه الله متهجدا فما صلى الفجر الا وقد أحضر وزيره وعشرين نفرا من صناديد فرسانه واحضر أموالا جسيمة وركب جواده فى خاصته وفرسانه وما خف من الزاد ووقفل الى المدينة المنورة مجد

السهروالم يعلم بما رآه أحدا فوصلها فى ستة عشر يوما فزار النبى صلى الله عليه وسلم ثم أمر باحضار أهل المدينة بعد كتابتهم وصار يتصدق عليهم و يتأمل تلك الصفة التى رآها فى النوم الى أن انفضت الناس فقال هل بقى أحد قالوا لم يبق سوى رجلين صالحين عفيفين مغربيين يكثران الصدقة فلما رآهما اذا هما الرجلان اللذان رآهما مناما فسأل عن منزلهما فأخبرانهما فى رباط خارج المسجد بقربه جهة الحجرة الشريفة فامسكهما ومضى الى المنزل فلم يجد به سوى ختمتين وكتبا فى التصوف ومالا كثيرا وأثنى عليهما الاهالى ثناء كثيرا فرفع السلطان حصيرا فى البيت فوجد تحته سردابا اذا هما صوب الحجرة الشريفة فارتاعت الناس لذلك وقال السلطان اصدقانى وضربهما حتى أقرا بانهما نصرانيان بعثهما ملك من النصارى فى زى الحجاج وأعانهما بأموال كثيرة للتوصل للذات الشريفة ونقلها فنزلا باقرب رباط وصارا يحفران ليلا ولكل منهما محفظة جلد ايملآنها ترابا صباحا و يذهبان الى المقبرة فيفرغانها هناك على عدة كرات وهكذا دأبهما مدة فقتلهما علنا وعمل ذلك الحاجز الرصاص رحمه الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه ومن والاه ولا يخفى ان الواقعة كانت مدة حرب الصليب فرأى أحد ملوك النصارى المحارب بين المسلمين ولم يعينه أصحاب التاريخ لعدم اعتنائهم اذ ذاك بمثل ذلك حتى انك تراهم يذكرون الوقائع الحربية فى الشام مع النصارى ولا يذكرون من هم حيث تعصبت اذ ذاك ملوكهم مع البابا وصاروا يدا واحدة على المسلمين ولذلك لم يعين الملك المرسل لذينك الرجلين لاجل مكيدة المسلمين بنقل نبيهم اليهم والتشفى منهم ولاجل ابطال معجزة تعيين محله عليه الصلاة والسلام دون غيره من الانبياء عليهم جميعا الصلاة والسلام وفى المدينة المنورة أسواق وصناع لكل ضرورى ومدارس لسكنى المهاجرين وكتب موقوفة فى عدة خزائن بمكتبات أهمها مكتبة عارف باى ورأيت بها كتابا لم أكن أعرفه وهو الجامع الصغير فى النحو لابن هشام مع اشتهار كتبه وطرق المدينة غالبها ضيق لا يمر به الا رجل واحد الاطريق الباب المصرى الموصل لباب السلام وقرب الباب المصرى المناخة وهاته المناخة بطحاء وسيعة وحولها مخازن للذخائر ومن عادات أهل المدينة انهم لا يركبون داخلها تأدبا مع النبى صلى الله عليه وسلم الا المعذور واذا لاقى أحدهم غيره خارجها وهو راكب ترجل له عملا بالاثر المروى وبقية عوائدهم على ما سيأتى فى العادات العامة غير ان اخلاقهم رضى الله عنهم أحسن أخلاق أهل الارض فيما علمت من لين الجانب وصفاء القلب ومواساة القريب

والبعيد

والبعيد والكرم ولو كان بهم خصاصة وحرية النفس والشهامة والشجاعة فهم أهل لذلك الجوار كما ورد وصف مدحهم فى القرآن العظيم ومن وفد عليهم تخلق بخلقهم لان أصل الانصار لم يبق منهم هنالك الا عائلة واحدة وبقية السكان كلهم من الوافدين فيما بعد الا السادة الاشراف حقا فهم من أبناء سيد الوجود وابن عمه سيدنا على رضى الله عنه وأما بقية المهاجرين فلم يبق من نسلهم هنالك أحد معروف سوى واحد نقيب فى ضريح سيدنا حمزة هو من بنى العباس رضى الله عنهم أجمعين

﴿ مطلب فى صفة موكب الحج ﴾ لما كان الحج فرضا على كل مستطيع له من المسلمين فهم يهرعون اليه من كل فج عميق فيجتمع المسلمون من جميع قبائل الارض من مشارقها ومغاربها وقد كان فى الزمن السابق يأتى أكثرهم برا أما بعد حدوث البواخر فصار الاكثر يأتى بحرا بالركوب فى البواخر الا من كان من أهالى جزيرة العرب فانهم يأتون برا وكذلك الركب المصرى وان بطل سفره برا عند طبع هذا المحل وأما عند حجى فانه كان يأتى برا ومثله فى الاتيان برا الركب الشامى الذى كان يخرج من القسطنطينية و يأتى الى دمشق الشام و يجتمع هنالك بركب العراق مع حجاج الشام و يسافر الجميع الى مكة وصورة هاته الاركاب هو أن يعين السلطان حاكما من رجال دولته على الركب و يصحبه أمين الصرة أى الحامل للاموال المعينة لمصاريف الحرمين ولسائر المتوظفين وللاعراب الذين لهم عوائد من الدولة وتلك الاموال مأخوذة من دخل أوقاف الحرمين ومن خزينة الدولة كل لما يخصه وكذلك يحمل الهدايا والصدقات الخاصة التى يرسلها السلطان وأهالى دولته وسكان قصره بحيث يجتمع عنده أموال جسيمة وقد سمعت ان الذى ترسله الدولة للقيام بما يعود اليها من جميع ما يلزم الحرمين سواء كان من الخزينة أو من الاوقاف هو الآن نحو مليونين ونصف فرنك عدا الهدايا الخاصة ثم يعين مع هؤلاء قسم من أنواع الجيوش فرسان ومدافعية ورجالة وتنصب لهم خيام للرحلة بها ثم ينضم اليهم كل من أراد الحج بخيامه وسائر لوازمه كل حسب مستطاعه ويحصل يوم خروج المحمل من دار الخلافة موكب مشهود ثم يسافر الركب نهارا و يقيم ليلا على مراحل معلومة الى أن يصل الى مكة وكلما مر على بلد انضم اليه حجاجها وقد بقى الحال الآن على ذلك سوى كون السفر من الآستانة الى مرسى بيروت صار بحرا ثم من بيروت الى دمشق الشام يسافر من غير أبهة ولا انتظام ومن دمشق ترتب له العساكر وغير ذلك و يسافر على نحو ما ذكر وعلى نحو منه الركب المصرى وأما القوافل من الجهات البرية فانها تأتى كل قافلة

مايسا محو شيخ للرفقاء ويسافرون حسب مستطاعهم فاذا اجتمع الجميع فى مكة واتخذ كل
منهم مكانا يخصه للاقامة فيه خرجوا اليوم الثامن من ذى الحجة الى منى ومنها الى عرفات
وهم محرمون فيقفون يوم عرفة وبعد الغروب يفيضون الى المزدلفة ثم قبل الشروق
يأتون الى منى وذلك يوم العيد ويقيمون ثلاثة أيام لاداء المناسك ويحصل ليلة ثانى
العيد أفراح عظيمة من معسكرى الاركاب بالالعاب النارية واعمال صور حربية
بالمشاهدة لكى يحصل ارهاب الاعراب من الحركات العسكرية وسرعة سلاحهم وعظم
مدافعهم ثم فى صبيحة يوم ثانى العيد يحصل موكب عظيم فى منى لدى فسطاط الشريف
أمير مكة فيحضره الوالى وأمراء الاركاب ورئيس العساكر بالحجاز وسائر الاعيان من
أهل مكة والحجاج كلهم بالملابس الرسمية ولما يجتمع الموكب يخرج السيد الامير
الشريف ويقف فى الصدر وتقف الناس حوله على حسب مراتبهم ثم يتلى المنشور
السلطانى المؤذن بالثناء على الامير وتقليده الامارة أو ابقائه فيها وتحريضه على ادامة
الامن والقيام الواجب بحقوق الحرمين والاهالى وهو باللغة التركية ثم يتلى تعريبه ثم
يخلع عليه أمير الركب الشامى الخلعة التى يرسلها أمير المؤمنين الى أمير مكة السيد
الشريف وهى جبة من الجوخ واسعة سوداء مطرزة بالذهب ثم يقبل الجميع بالتهنئة
للسيد الامير ثم يتفرق الناس لتهنئة بعضهم بعضا ثم يسافر كل ركب بعد عوده الى مكة
فى يوم معين بعد اداء جميع المناسك وتسليم الاموال لاصحابها والمقبضين بها من الامراء
والرؤساء وكل منهم أى الاركاب يعود الى بلده على الطريق الذى قدم منه ويكون كل
ركب كانه بلد راحل يحصل فيه من النزهة والانشراح لذوى اليسار ما ترغب فيه النفوس
هذا ولا يخفى ان مناسك الحج مقررة فى كتب الفقه بل وقد خصت بتآليف منفردة
لعلماء كثيرين فلا يمكن لنا الاتيان بذكرها الآن لانها خارجة عن الموضوع وانما الذى
يناسب ذكره هنا هو ان الحج من أحد أركان الاسلام الخمس وهى كلمة الشهادة أى أشهد
أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصيام رمضان وحج
البيت على من استطاع اليه سبيلا وهو فرض مرة فى العمر ويندب تكراره كلما
استطاع الانسان وقد ذكر العلماء حكمة مشروعيته كما ذكروا الحكمة فى مشروعية
جميع الاركان وحاصل ما أشاروا اليه هو كونه شكر الله على ما منحنا به من نعمة السلطة
على الانعام أى الحيوانات وهو عبادة مركبة من أعمال بدنية وأعمال مالية ويمكن ان
يكون مشتملا أيضا على حكمة أخرى مرعية فى نظر الشارع وهى أحكام الوصلة بين قبائل

المسلمين

المسلمين وتعرفهم ببعضهم واطلاع كل منهم على حاجات أخيه وعوائده ليعين كل منهم
أخاه فى الحضرة والغيبة بما يستطيع حسبما أمره الشارع بذلك وينتج منه مزيد
المواصلات بين الامم والشعوب والقبائل من مشارق الارض ومغاربها كما هو الامر
الواجب شرعا فى جعل المؤمنين عصابة واحدة وقد مثلهم الشارع بالبنيان يشد بعضهم
بعضا ومثلهم بالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد وجعلهم اخوة
لرحم الدين الواحد الى غير ذلك من النصوص الدالة على التحامهم ووحدتهم مما
لا يمكن ايجاده بدون تعرف فجعل لهم فى كل سنة موعدا يجتمعون فيه ليحصل ذلك القصد
وفيما تضمنته مناسك الحج ايماء الى ذلك حتى يحصل على أكمل وجه فانه عين لهم المحل
الذى يجتمعون فيه بصورة لا يحصل معها تكبر من بعضهم على بعض فى التفضيل كما لو
كان الاجتماع فى بلد قبيلة أو جهة دنيوية بل جعل ذلك المحل هو خاص وخالص النسبة
للخالق جل وعلا وحده ثم عند زيارة نبيه الذى هو واسطتهم الى خالقهم فلا يحصل من
قصد ذلك المحل أدنى امتياز بغير القلوب ثم انه أوجب عند أول القدوم الى ذلك المحل
الاحرام الذى هو من جملة ما تضمنه ترك لبس المخيط وغيره من سمات الرفاهية التى يحصل
فيها التحاسد بحيث يكون الناس كلهم سواء لا افضل لملك على راع ولا لعالم على جاهل
وأوجب على من اضطر الى ترك ذلك أن يزيد فى الاحسان والصدقة الجالبة لقلوب
الفقراء الذين هم مظنة انكسار القلوب بما يرونه من الرفاهية فيعوض ذلك بزيادة
صلاتهم والاحسان اليهم والاحسان يجلب القلوب فتعتدل الحال وكذلك شرع مزيد
النفقات والاحسان على حسب رتبها واستطاعة المنفق لكى يزيد التوادد ثم قصر ذلك
الاحرام على مدة مخصوصة هى مظنة حصول التعرف واستقرار التوادد بين الافراد فاذا
حصل التوادد وتأكد بالصلات يبعد زواله بمجرد رؤية أثر النعمة على المنعم عليه ولذلك
اباح اللبس حينئذ وكذلك شدد النهى والنكير على الجدال فى الحج الموجب
للتباعد الذى هو نقيض المقصود كما شدد مثل ذلك فى الفسوق الذى هو موجب
لاستنقاص العبد بمعصية خالقه فيقول أخوه اذا كان هذا لم يراع حق الخالق فى بلده
الامين فكيف يراعى حق أخوتى بالغيب وكذلك منع التمتع بالنساء لكى لا ينصرف
الفكر هناك الا لطاعة الخالق وحده ومن طاعته ما أشرنا اليه من احكام الوصلة
مع اخوانه المؤمنين وهذا الامر وهو كون الحج مشتملا على حكمة الوصلة بين الامم
قد أشار اليه بعض المتأخرين تبعا لبعض المتقدمين فى التحريض على مزيد المواصلة

بين الامة وقالوا أن أهل الملة الواحدة أكد عليهم الشارع زيادة عما يلزم فى حق الجوار أمرا تضمنته عبادة الخالق وهو اجتماعهم خمس مرات فى اليوم بمسجد محلاتهم للصلوات الخمس فيجتمع الاعلى والادنى فى صعيد واحد ببيت الله على سواء فيروا أحوال بعضهم ويتأنس البعض بالبعض لكى تتأكد الوصلة الروحية بالوصلة البدنية ويعمل كل بما يجب عليه فى حق أخيه ثم أوجب على أهل المصر الواحد الاجتماع العام فى يوم من الاسبوع وهو يوم الجمعة ليحصل ما أشير اليه مع جميع أهل المصر ثم زاد لهؤلاء يومين آخرين فى كل سنة على حالة مخصوصة من اظهار الترفه لكل واحد بحسب حاله حتى يستدل غيره بهيئته على حالته ليعلم مقتضى الحال فى الوصلة وذلك يومى العيد وكان وجه تكرير ذلك مرتين احداهما بعد الصيام شهرا المؤثر فى الخلق وفى الخلق والثانية فى وسط العام على معتاد الناس لمزيد التبين فيما يقتضيه الحال للتعرف بالفراسة وأكد الشارع فى جميع هاته الاجتماعات باجتناب المنفرات وباجتلاب المقربات كالتباعد من أكل الثوم وكالتطيب والنظافة ثم أوجب على كل فرد الحج مرة فى العمر ورغبه فيما زاد على ذلك ليحصل ما أشرنا اليه فى الحج ولا شك أن التيسير للعبد لا يحصل لجميع أهل القطر كلهم فى عام واحد فيحصل على الاستمرار اجتماع الامم من كل قطر فى عام فاذا حصل منهم ما أشرنا اليه دامت المواصلة بينهم ولا أقر أنها تحصل فى ذلك الوقت وحده أما اذا عمل بمقتضى التعرف فانها تشتد الوصلة بالمراسلات والاسفار والتجارة فضلا عما يجب أحيانا من الفزع من أمة الى اعانة أمة أخرى وانقاذها اذا هجم عليها العدو كما هو معلوم فى وجوب القتال وجوبا عينيا على كل فرد فيما اذا هجم العدو على قسم من الامة وعجز أو تقاعس عن دفاعه فانه يجب على من جاوره أو بلغ اليه الخبر انقاذه ومنه يسرى الى من وراءه وهكذا حتى يعم الوجوب المشرق والمغرب ولو على النساء والاطفال ممن يقدر على الدفاع وما ذاك كله الا لتوحيد المؤمنين وحفظ بيضتهم الاسلامية لكنا الآن نرى أن الناس غافلون عن جميع ما ذكرناه ولا يعتبرون تلك الحكمة ولا يلتفتون اليها ولا ترى الا أهل كل اقليم مقتصرين على مجرد المخالطة مع بعضهم فقط بل ربما لا يخالطون ولا يتعرفون الا بمن عرفوه فى بلدهم سابقا فضلا عن التخالط مع أهالى الاقاليم الاخر كأنهم ليسوا منهم ولا هم مكلفون بالوفاء لهم بحاجاتهم حتى انه ترجع الناس الى أقطارهم من غير شعور لهم بشئ من حالة اخوانهم فى الاقطار الاخر كأنهم لا مطالب لهم بشئ وقد كانت رجال الامة على غير هذا وكانوا ملاحظين لما ذكرناه فترى من حج منهم يتعرف بأهالى

الارض

الارض وحصل بذلك اشتهار رجال الامة فى الاقطار لا سيما العلماء والصالحين فانهم يتذكرهم ويطير صيتهم بما يسمع عنهم من الحجاج وان لم يروه فى حجهم ومن طالع التواريخ والسير والرحلات علم من ذلك كثيرا فسبحان محول الاحوال وهو الباقى لا رب سواه

الفصل * الثالث

* فى التعريف بالحجاز *

اعلم أن الحجاز قسم من جزيرة العرب ممتد على شاطئ البحر الاحمر وحدوده الآن التى تحت تصرف الدولة العثمانية هى انه يحده شمالا العقبة وغربا البحر الاحمر وجنوبا اليمن من قرب صنعاء وشرقا الحناكية وهى تبعد شرقا عن المدينة بمرحلتين فى حدود نجد وهذا الحجاز أحد أقسام جزيرة العرب الخمس وهى اليمن وهو القسم الجنوبى منها الممتد على شاطئها على المحيط الهندى الى أن يصل الى خليج فارس والحجاز هو القسم الثانى وهو القسم الغربى منها الممتد على شاطئ البحر الاحمر ويليه شرقا القسم الثالث وهو نجد يتصل شمالا بالشام ويحده غربا الحجاز وشرقا العراق وجنوبا اليمامة والقسم الرابع تهامة وكان مقره بين الحجاز واليمن ويمتد من البحر الاحمر الى أن يتصل باليمامة على خليج فارس فيحده جنوبا اليمن وشمالا الحجاز ثم نجد وشرقا اليمامة وغربا البحر الاحمر وقد اضمحل هذا القسم فى اعتباره السياسى وصار مقسما بين جيرانه والقسم الخامس هو اليمامة وهى يحدها جنوبا اليمن وشمالا العراق وشرقا خليج فارس وغربا نجد وكذلك هذا القسم صار فى السياسة تابعا لغيره لنجد فتلك الاقسام هى الاقسام الاصلية لبلاد العرب التى كانت معتبرة أقساما أصلية للقارة وان كانت لا فرق بينها من جهة طبيعة الارض غير ان القسم المشهور بحسن الهواء وخصوبة الارض وجودة الحيوانات فهو قسم نجد وطال ذكره فى أشعار العرب وامتداحه بينهم وأما بقية الاقسام كلها فما كان منها مرتفعا فهو جيد الهواء وخصب النبات وما كان منخفضا فهو حار أجدب وعلى ذلك النحو ما نحن بصدده وهو الحجاز وقد علمت حدوده الآن وأما جباله فهى كثيرة وان شئت قلت انه كله جبال نحلة صخرية متشققة سوداء من شدة الحر والشمس بها جبل بالمكان غير انه فى مستهل جمادى الثانية سنة ٦٥٤ حصل فى المدينة المنورة وما حولها زلزال شديد دام أزيد من ثلاثة أيام بلياليها ثم أعقبه خروج نار هائلة من جهة جنوبيه

المدينة على مرحلة منها من جهة الموضع المعروف (حبس وسيل) وسالت النار فى وادى أحيلين كالنهر العظيم تحطم جميع مامرت به وتجعل الصخور ذائبة مائعة تجرى كالنهر العريض العظيم وامتد سائلا الى قرب المدينة أى الى أن بلغ حرمها فصرف عنها ذات الشمال ووقف وانطفأت النار بعد ان كانت ظهرت أول يوم نهار الجمعة كالقتام الاسود الذى عم الافق حتى أظلم الجو وظنوا أن الشمس والقمر قد كسفا ثم لما أظلم الليل ظهر ضوؤها وملأ فى الجو الى أن رئيت من حول بصرى ومن مكة والطائف وكان لها دوى كالرعد ونهرها يغلى بأمواج كالبحر من النار المتلاطمة وتقذف فى الهواء الصخور كالجبال والمدن ونهرها ذو الوان زرق وحمر ورعبت منها قلوب الناس والتجؤا الى ملاذ الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما بلغ سيلها الى حرم المدينة صرفت وانطفأت ومع عظيم لهيبها وسطوع ضوئها على الاماكن البعيدة لم يصل من حرها الى المدينة المنورة شئ وكان النسيم يأتيها باردا وكان خروج تلك النار احدى معجزاته صلى الله عليه وسلم التى لاتحصى فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما وهما فى أول القرن الثالث حديث لاتقوم الساعة حتى تظهر نار الحجاز وللبخارى تخرج نار من أرض الحجاز تضئ أعناق الابل ببصرى ورواياتها كثيرة حتى كان فى احداها تعيين محل خروجها وانذار الساكنين به منها فكان الامر كما قال صلى الله عليه وسلم وبقية جبال الحجاز كثيرة منها المشهور كاحد وأبى قبيس وعرفات وهو ليس بمرتفع ومن أحسن جبالها هواء الطائف فانه فى شدة الصيف يكون معتدل الهواء وهو مصيف أعيان مكة وجدة وأما أنهار الحجاز فليس به نهر مستديم وانما تسيل الانهر به عند نزول المطر حتى ان أحدها يأتى من جبال الطائف ويمر على المدينة المنورة على صاحبها أكمل الصلاة والسلام ثم يذهب مغربا الى البحر وأما البحريات فليس بالحجاز بحيرة وأما العيون فبها عيون عظيمة عذبة احداها العين الزرقاء التى تسقى المدينة وهى نابعة من قباء تحت الارض فى عمق عدة أذرع وتذهب الى المدينة تحت الارض وعليها عدة منافذ لملء الماء وفيها الكفاية لجميع البلد وماحولها وانما سميت الزرقاء نسبة لجاذبها مروان بن الحكم أزرق العينين أجراها بأمر معاوية رضى الله عنه ومنها عين زبيدة التى تسقى بها مكة وهى آتية من قرب عرفات تحت الارض مثل السابقة وقد أجرتها زبيدة زوج الرشيد العباسى وقد عمرت الآن عمارة حسنة صارت بها فى غاية الانتظام ومنها عين بلد الصفراء وهى أيضا تحت الارض لكنها ليست بمنخفضة بل انها تبعد عن سطح الارض نحو ذراعين وبها ماء غزير صاف عذب حار يشرب فاذا حل فى

الاوانى برد وهى تغور بعد البلد فى الارض ولا ينتفع منها الا بشئ يسير للشرب وسقى بعض بساتين ومثلها عين بلد الجديدة مع أن كلا منهما يصلح لسقى غابة عظيمة مع حسن الماء وجودته فقد شاهدت عين الصفراء وقد أناخت حولها قافلتنا المحتوية على أزيد من ستمائة نسمة وهرع الى العين جميعهم لغسل ابدانهم وثيابهم بل ولغسل اكراش الغنم التى ذبحت يومها فى القافلة ومع تراكم تلك الاوساخ كنت أرى الحصباء كالفضة فى مجرى العين والماء يزيد عمقه عن ذراعين وأما هواء الحجاز فهو على الجملة حار لمكان عرضه من خط الاستواء ولاشك أن الاودية بين الجبال تزيد حرا بخلاف المرتفع ولذلك يختلف الحال فمع كون مكة المشرفة شديدة الحر حتى انى كنت بها فى دجنبر ولما أردت صلاة العشاء فى الحرم لم استطع الجلوس على الارض بدون بساط فى وقت العشاء لما أثرت الشمس فى الارض فان الطائف لايمكن فيه فى الصيف الا التدثر فى الليل بالغطاء الثخين وقد شاهدت من أمر السراب شيئا عجيبا فانى لما كنت مسافرا من مكة الى المدينة سمعت من اصحاب القافلة انهم يقولون ان الماء هنا ليس بموجود ولابد من المبيت على الماء وكان الوقت بعد العصر فرأيت على قرب من الطريق غدرانا كثيرة فسألت الجمال هل هنا سبخة أم ان المطر صبت قبل مرورنا فقال كل ذلك لم يقع فقلت من اين هذه الغدران حينئذ فقال ليس هنا غدران وانما ذلك سراب فلم نطمئن لقوله وأرسلت أحد أتباعى باناء ليملأه من ذلك الماء الذى أريته له فشاهده وذهب اليه فلما بلغه صاح لى قائلا ليس هنا شئ فضحك منى الجمال وماذلك الا للتعود فانى لم أعهد السراب على ذلك النحو وذلك لحر القطر وتأثر الهواء بذلك وأما نباتاته فينبت بالحجاز جميع النبات الذى يكون بالاقاليم الحارة ووراء جبل أحد من الشق المقابل للمدينة غابة كبرى بها عيون ضعيفة وأشجار كثيرة صالحة للبناء بأخشابها وأكثر الشجر المستنبت النخيل على أنواع شتى وبقية الشجر ذو الغلال يغرس منه الليمون بكثرة والبردقان والعنب والرمان وهو جيد للغاية لاسيما رمان الطائف والتين كما يستنبت بعض البقول مثل البامية والطماطم وقليل من بقية المستنبتات ومن تأمل الحكمة فى حماية أشجار الحرم المكى والمدنى من القطع علم قصد الشارع الى استكثار الشجر هنالك لما يعود من مصلحته على الامة فانه يجلب السحب ويكثر المطر ويحسن الهواء ويشرح النفوس ويقى الناس من الشمس ويلطف الحر ويوقد بفواضل مايقطع منه للتحسين ومن شاهد تلك البقاع علم شدة الاحتياج الى الاستظلال من الشمس وعلم حكمة تحريم الشجر حول البلدين المكرمين

اللذين تلزم عمارتهما وتهرع الناس اليهما من كل فج عميق وقد أشار الى حكمة تحسين
الحرم بالشجر وحرمة قطعه بعض العلماء ومنهم السمهودى فى خلاصة الوفا باخبار دار
المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال قال الطحاوى يحتمل أن يكون سبب النهى عن صيد
المدينة وقطع شجرها كون الهجرة كانت اليها وكان بقاء ذلك مما يزيد فى رؤيتها ويدعو
اليها كما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن هدم
آطام المدينة فانها من زينتها فلما انقطعت الهجرة زال ذلك الخ وقوله انقطعت الهجرة
أى بقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وكلامه تعليل لمذهب الحنفية فى عدم
تحريم المدينة وأما الائمة الثلاثة فهم على تحريمها مثل مكة وأدلتهم قوية والحاصل
أن مرادنا هو أن تكثير الشجر فى البلاد لاسيما البلاد الحارة مما يرغب فيه وقد صرح
الفقهاء فى كتاب السير بالنهى عن قطع شجر دار الحرب بلا حاجة اليه فكيف بغيرها فضلا
عن دار خير الخلق عليه الصلاة والسلام القائل بتحريمها وتحريم ما حولها أكثر الائمة
رضى الله عنهم مع الفائدة الظاهرة من ذلك (وأما) حيوانات الحجاز فيوجد به الحيوانات
الانيسة المعلومة كلها لاسيما الخيل العرابية التى يضرب بها المثل فى الدنيا وترغب فيها
جميع الامم واعلاها الخيل النجدية وكذلك الابل الجيدة لاسيما النجيبات السريعة مثل
ما ذكرنا بمصر وأحسن منها كما توجد البغال بقلة والحمير بكثرة والحيوانات البرية كلها
موجودة الا القليل كالدب والفيل (وأما) الاسد والنمر فوجود بكثرة وكفى بما ذكره بشر
فى قصيدته التى شطرها الشيخ قبادو التونسى بعد ان زاد عليها مطلعا بيانا لحالة أسود
أرض العرب وتلك القصيدة لما كانت بديعة أثبتها هنا مع تشطيره المتنظر براعة المشطر
الذى صار كأنه بدوى قح مع كونه حضرى بحت وهى

(أفاطم لو شهدت ببطن خبت) * لهانت عندك الاخبار خبرا
و لو أشرفت فى جنح عليه * (وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا)
(اذا لرأيت ليثا أم ليثا) * وكل منهما بأخيه مغرى
يرى كل على ثقة أخاه * (هزبرا أغلبا لاقى هزبرا)
(تبهنس اذ تقاعس عنه مهرى) * واقبل نحوه أذنيه ذعرا
فكاد يريبه فيخال منى * (محاذرة فقلت عقرت مهرا)
(أنل قدمى ظهر الارض انى) * أرى قدمى للاقدام أحرى
ولست مزحزحى شيئا ولكن * (رأيت الارض أثبت منك ظهرا)

(وقلت

(وقلت له وقد أبدى نصالا) * باهرة فاغر يصررن صرا
وسوسا ذات ألحاظ تلظى * (محددة ووجها مكفهرا)
(يكفكف غيلة احدى يديه) * كبانى القوس ينزع مسبطرا
ولا يثنى براثن منه الا * (ويبسط للوثوب على أخرى)
(نصحتك فالتمس يا ليث غيرى) * فلى بقيا عليك وأنت أدرى
ومهرى قائل لك لا تخانى * (طعاما ان لحمى كان مرا)
(ألم يبلغك ما فعلته كفى) * الست ترى بها الاظفار حمرا
ألم تك طاعما اشلاء فتكى * (بكاظمة غداة قتلت عمرا)
(فلما خال ان النصح غش) * وغرته الجراءة فاستغرا
وجد على التهور فى نزال * (وخالفنى كأنى قلت هجرا)
(مشى ومشيت من أسدين راما) * مساورة فلاقى البحر بحرا
ورجا الارض اذ بغيا عليها * (مراما كان اذ طلباه وعرا)
(سللت له الحسام فخلت أنى) * اسلت من المجرة فيه نهرا
ولم أمش الضراء له لانى * (شققت به لدى الظلماء فجرا)
(وأطلقت المهند من يمينى) * فاوثقه لغير المن أسرا
بابريق هفا فهفوا ان برق * (فقد له من الاضلاع عشرا)
(فخر مضرجا بدم كأنى) * بمهجته أفضت عليه سترا
وكدت لهول وجبته أرانى * (هدمت به بناء مشمخرا)
(بضربة فيصل تركته شفعا) * وشقاه لقى بطنا وظهرا
وشبكا اثنى منها مثنى * (لدى وقبلها قد كان وترا)
(وقلت له يعز على انى) * أراك معفرا شطرا فشطرا
واستحى المروءة أن ترانى * (قتلت مناصبى جلدا وقهرا)
(ولكن رمت أمرا لم يرمه) * أبى لا يبيع النفس خسرا
ولم يك سامنى بالنصح خسفا * (سواك فلم أطق يا ليث صبرا)
(تحاول أن تعلمنى فرارا) * فهل علمت نفسك أن تقرا
وتنقض مذرويك لفعل عزمى * (لعمر ابيك قد حاولت نكرا)
(أتيت تروم للاشبال قوتا) * طلبت به الدماء ورمت سفرا

ولكني أقيد بها واجي * (وأطلب لابنة البكرى مهرا)
(فلا تعد فقد لاقيت حرا) * يرى ويقر أن أباك غدرا
وعن كرم برزت الى كريم * (يحاذر أن يعاب فتحرا)
ولا أسف على عمر تقضى * أفادك منه حسن الذكر عمرا

* وأما معادن الحجاز فانه يوجد به المرمر الرفيع ويوجد قريبا من المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام حجر البلور المشابه للالماس ويوجد أيضا الذهب وكان مستخرجا ثم دثر ولا يبعد وجود الفحم الحجرى وكذلك غيره من المعادن المحتاجة للبحث عنها

* وأما مدن الحجاز فاصل قاعدته وقاعدة عموم الاسلام هى المدينة المنورة وكانت مدة اقامة الخلافة بها اتسعت وكبرت وكذلك بعد ذلك فى العصور الاولى من الاسلام وان حدث فيها الخراب الكلى والجلاء العام مدة يزيد ثم دون ذلك مدة القرامطة ثم تراجع عمرانها الى النمو ثم عادت الى ما هى عليه الآن مما ذكرناه فى صفتها وقاعدة الحكومة الحجازية الآن هى مكة المشرفة وقد مر ذكر صفتها ومن اعتبر ما جرى عليه الحال فى ظهور الاسلام يرى ان عناية الله بالمدينة عظيمة وقد جعلها مظهرا للدين القويم وانتصار الرسوله الامين عليه الصلاة والسلام وكانت مكة تابعة فى الحكم للمدينة حتى بعد فتح مكة وقد خالج الانصار عند الفتح انتقال النبى صلى الله عليه وسلم الى بلده الاصلى فاعلمهم بانه لا يفارقهم واستقر هو ومن بعده من الخلفاء الراشدين بالمدينة الى خلافة سيدنا على فكان صدرها بالمدينة وآخرها بالكوفة ومع ذلك فقاعدة حكم الحجاز هى المدينة وذلك هو الموافق لحالة السياسة لتوغل المدينة من القارة واذا كان الحاكم فى مكان تهدت سائر السبل اليه وعلى تقدير حدوث بعض العوائق فى الطرق يزال عن عجل وتنفذ الاحكام فى الاطراف لاستقرار القوة فى الوسط وليست مكة المشرفة على ذلك النمط وقد تغير الحال مرارا مدة الاسلام فى قاعدة الحكم بالحجاز فكان الامر على ما ذكرناه من كون المدينة هى القاعدة ثم انفردت مكة بحكمها وبقيت المدينة مستقلة ثم صارت الاحوال تتقلب فتارة تكون مكة تابعة وتارة متبوعة وتارة يستقل كل منهما بحكم ولو بعد استقرار الدولة العثمانية والذى عليه العمل الآن هو أن مكة هى القاعدة وللمدينة حاكم يرجع فى أمره الى حكومة مكة وأما بقية المدن بالحجاز فليست بموجودة وانما الموجود عبارة عن قرى مثل الطائف وهى أكبرها والصفراء والجديدة وحده ورابغ وخيبر وقد غلط كثير من الجغرافيين حتى من المسلمين فى ذكرهم لسكان هاته البلدة

وكونهم

وكونهم يهودا اغترارا بما كان فى أصلهم وغاية علمها وقع فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه من جلاء جميع الاديان الا الاسلام عن جزيرة العرب مستندا للنص من الشارع فى كونه لا يجتمع بها دينان ومنذ ذلك التاريخ لم يبق بها الا المسلمون وسكانها الآن من ضعفاء القبائل مسلمون وهم تبع لحكم المدينة صورة وفى الحقيقة تحت حكم محمد بن رشيد النجدى أكبر حكام قبائل نجد بل هو الحاكم على جميع أواسط قارة جزيرة العرب وهو على مذهب الوهابى وله نفوذ تام وحكم عادل ذو هيبة وسطوة بحيث أن رقعة منه بيد حاملها تؤمنه فى جميع الانحاء من أواسط القارة ويجلس فى مجلس حكمه ويحضر القاضى ومعه أحد العلماء بصفة المفتى ويقف حوله أصحاب الخيل من أعوانه ليرسلهم فى الخصومات فاذا دخل المشتكى ألقى دعواه على القاضى ويجيب خصمه بما يظهر له ويحكم القاضى بما يراه فيستشير الامير ذلك العالم الحاضر هل ان حكم القاضى موافق للشرع أم لا فان وافقه فيها والا تباحثا وما يرسى عليه ينفذه الامير حالا وأما النوازل المتعلقة بالادارة وحفظ الامن فيحكم فيها باجتهاده مراعيا فيها الانصاف والعدل بما لا يخرجها عن السياسة الشرعية مع الصرامة التامة فى التنفيذ حتى انه قيل انه أتاه يوما رجل وهو فى مجلس الحكم وأخبره بأنه وجد عدلا لمبرما ملقى فى الطريق وهو مملوء بالرمل ولا يعلم صاحبه فأخبره به لكى يبلغه محله فسأله الامير من أين علمت أنه رمل فقال له انى مسسته فقال له كيف مسسته وبأى يد فقال له مسسته بيدى هاته وأشار باحدى يديه فما كان من الامير الا أن جرد سيفه وقطعها وقال له ما كان ينبغى لك أن تمسه حتى تعلم ما فيه وأى فائدة لك فى ذلك لولا نية الخيانة اذ لو وجدته شيأ ثمينا لملته كذا أخبرت عنه وممن علم حالات القوم وطباعهم فى هاته الازمان يرى أن ذلك الحكم الصارم مطابق لما يقتضيه الحال اذ لم تأمن ولايته ولم تستقر بها الراحة والهناء الا بمثل ذلك الحكم واذا أمر أحدا بأمر ولم ينفذه ولو تحملته قبيلته على تنفيذه فانه يصدر فى الحال أوامره الى القبائل التى يمر عليها الى جهة المأمور بحضور فرسانهم فى وقت معين ثم يركب هو وفرسان جيشه وما مر بقبيلة من المأمورين المشار اليهم الا انضموا اليه الى أن يعظم جيشه فيصل الى المأمور وقبيلته ويأخذهم أخذ رابية ويملك أرزاقهم من كان معه من العسكر وبمثل ذلك نفذ أمره وعلا صيته وخضعت القبائل اليه مع كونه جوادا وفيا بالعهد عالى الهمة على شيمة كرام العرب وهاته البلدان المار ذكرها أغلبها به حصن أو بقربه حصن لاقامة العساكر للمحافظة على الامن غير ان أغلب الحصون صار خرابا

للاهمال وليس به حامية ✽ وأما مرامى الحجاز فأعظمها مرسى جدة ثم ينبع البحر وهاته هى أقرب المرامى الى المدينة المنورة بحيث يصلها البريد فى يوم وتبلغها القوافل فى ثلاثة ثم بقية المرامى على قلتها ليس لها أهمية غير ان الموجود منها كلها هى مرامى أمينة للسفن لما خلقها الله عليه من احاطة الصخور العظيمة حول الحوض الذى ترسى به السفن بحيث يصح أن يقال ان الذين انتخبوا تلك البقاع لجعلها بلادا للمرامى هم من حذاق أهل التدبير واتساع المعارف بالصناعة البحرية فقد شاهدت كلا من مرسى جدة وينبع وحوض كل منهما يسع مئين من السفن الضخام فى أمن تام ولو عند تلاطم الامواج التى كالجبال وأغلب الخريتين لا يدخلونها الا بدليل من بحرية أهالى تلك المرامى وقد شاهدت الخريطة البحرية التى فى الباخرة المصرية التى سافرت فيها الى جدة معلما بها على جميع الحجارة المنثورة بالبحر حوالى شاطئ البحر الاحمر مع بيان حجمها ومركزها وهى من صنع الانقليزيين فسألتهم هل لهم خريطة مصرية أو عثمانية فأجابوا بأن تلك الخريطة هى المعول عليها عند جميع الامم ولو العثمانيين الذين يعد البحر الاحمر بحيرة فى مملكتهم من جميع جهاته فعجبت واندهلت من حزم قوم واهمال آخرين وهى احدى علامات تأخرنا اذ صرنا لا نعلم بلادنا وشواطئها الا بتعريف الاجانب لنا بها وسبحان الفعال لما يريد ✽ وأما سكان الحجاز فهم كلهم عرب من نسل العرب الاقدمين الا سكان البلدين المكرمين فأغلبهم من الوافدين من جميع الاقطار واكثرهم بمكة من الهنود وأما فى المدينة فأكثرهم من المغاربة وعدد جميع السكان فى الحجاز يقرب من نحو مليونين فالذين يعمرون الارض ما بين مكة والمدينة هم قبيلة مزينة وتعرف بالاحامدة ومنها فخذ يعرف بقبيلة حرب وهم التجار ومنهم البغاة الذين يكثرون قطع الطرق بين البلدين المكرمين وهاته القبيلة وهى مزينة المعروفة بالاحامدة تنقسم الى قسمين كبيرين أولهما يسمى المسروح وهم سكان البرارى من مكة الى الصفراء وثانيهما ما يعرف ببنى سالم ومنهم فخذ حرب وهم سكان بقية الجهات وديانة الجميع هى الاسلام على مذاهب شتى أغلبهم أهل سنة على المذهب الحنفى والشافعى وانتشر فيهم التعاليم الدينية بكثرة زوايا الشيخ السنوسى المنتشرة فى جميع جهاتهم وقد مر الكلام على مذهبهم عند الكلام على جزيرة العرب فى المقدمة وعلى حوادث تونس فى فصل سفرى الى فرانسا كما يوجد المذهب الوهابى بقلة وان كثر فى جهات نجد الخارجة عن حكم الحجاز وأما تقاسيم الاهالى بالنظر للحكم فان كل قبيلة لها مشايخ منها ويرجع الجميع الى امير مكة السيد الشريف

﴿ تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس أوله فصل فى تاريخ الحجاز ﴾

بحمد من أسبغ نعمه على العباد والصلاة والسلام على بدر الهدى وعلى آله نجوم الرشاد قد تم طبع الجزء الرابع من صفوة الاعتبار على يد مصححه مصطفى محمد قشيشة المفتقر الى رحمة الكريم الغفار مصححا كما يرام حاويا من الفوائد ما يتم به المرام وذلك بالمطبعة الاعلامية التى هى عن التعريف غنية ووافق طبعه يوم الاثنين المبارك وهو التاسع من شهر جمادى الاخرى الذى هو من شهور سنة ثلاث وثلاث مائة وألف من هجرة من خلق على أكمل وصف وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



﴿ طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ ﴾

﴿ فهرست الجزء الرابع من كتاب صفوة الاعتبار ﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفة

١٠٧

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت الفهرست ﴾

﴿ طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ ﴾

